المكتبة الرقمية العربية

جوزيه ساراماغو

ثورة الأرض

ترجمة: أحمد عبد اللطيف

جائزة نوبل للآداب 1998

منشورات الجمل

رواية

جوزيه ساراماغو

ثورة الأرض

رواية

ترجمة: أحمد عبد اللطيف

«المكتبة الرقمية العربية»

إلى ذكرى الشهيدين:

جيرمانو فيديجال وجوزيه أديلينو دوس سانتوس

«وأنا أسأل علماء الاقتصاد السياسي وعلماء الأخلاق: هل أحصوا عدد من حُكِم عليهم بمعاناة البؤس والعمل الشاق وتثبيط الهمة والنمو المتأخر والجهل المفسد والمصائب التي لا تقهر والفقر المدقع، كل ذلك من أجل خلق ثري واحد!».

الميدا جاريت

تتمتع أرض الوسية أيضاً بالمنظر الطبيعي. ومع أن كل الأشياء ناقصة، إلا أن المنظر هنا كامل بغزارة، غزارة يمكن تفسيرها فحسب بأنها معجزة أزلية، إذ المنظر الطبيعي بلا شك أقدم من الإنسان. ورغم هذا الوجود السرمدي، لا يزال المنظر باقياً لم ينفد. قد يرجع ذلك لتغيُّره المستمر، ففي بعض فترات السنة تستحيل الأرض خضراء، وفي فترات أخرى تستحيل صفراء، ثم كستنائية أو حتى سوداء. وفي أماكن تغدو حمراء، وهو لون الطين أو الدم المسفوك، لكن ذلك يتوقف بالطبع على ما نزرع به الأرض أو نغرسه فيها، أو ما تمنحه الطبيعة البسيطة من دون أن تمتد إليها يد إنسان، ثم يموت كل شيء لأن النهاية المحتومة قد جاءت. ليس هذا بالتحديد حال القمح، إذ يحصدونه حياً. ولا حال السنديان، إذ في قمة حياته ينتزعونه من قشرته معتقدين أنه حي لغلظة ساقه. فيصرخ.

المنظر الطبيعي هنا مترع بالألوان، لكن لا يجب أن نتحدث عن الألوان فحسب، فثمة طقس شديد القسوة في أيام الشتاء، وشديد القيظ حتى لا نعرف نسمة الهواء في أيام الحر. لا راحة في الدنيا، وإن عرف أحد الراحة في يوم ما، فلا بد أنه يوم وفاته. هنا ثمة روائح كذلك تعبّق المكان، والوسية بالطبع جزء منه وتتمتع بمنظر من مناظره، فلو مات حيوان بلا قيمة في الأرض الوعرة ستنتشر رائحة الجيفة التي توشي بموته، وحين تسكن الرياح لا أحد سيلاحظ هذه الرائحة حتى ولو مر بجانبها. ثم يتحلل العظم ويصير سياناً غسله بقطرات المطر أو احتراقه تحت أشعة الشمس. ولو كان الحيوان ضئيل الجسم لن يصل إلى هذه المرحلة لأن الديدان وحشرات القبور تصل سريعاً وتلتهمه.

إن أردنا أن نصف الوسية فهي أرض رحبة، حدباء، بها شيء من ماء الضفاف تجود به السماء أحياناً وتبخل به في أحيان أخرى، وصوب الجنوب تمتد مستوية، ملساء مثل راحة اليد، مع أن جزءاً كبيراً منها، بتعمد من الزمن، مال للانغلاق على نفسه مع مرور السنين، فصارت مثل يد الفأس أو المنجل أو المحش. إنها أرض تشبه راحة اليد كذلك في أنها مكسوة بخطوط وسُبُل، وطرقها الحقيقية التي ستتحول إلى قومية، حين لا تتبع المجلس المحلي، تصل إلى ثلاثة تفريعات، فالرقم ثلاثة رقم شاعري وسحري وكنسي، وكل الأمور الأخرى مفسرة في هذه الخطوط ذهاباً وإياباً، بدروبها الحافية والعارية بين الحقول والشجيرات، بين جدامات القمح والزهور الحسناء، بين السور والصحراء. منظر طبيعي هائل، يستطيع المرء أن يمشي فيه منذ مولده وطيلة حياته من دون أن يعثر على نفسه أبداً. وإن جاءت ساعته، فلن ينفعه إلا الموت. الإنسان ليس أرنباً ولا فأراً حتى يتعفن من الشمس، لكن فلنتخيّل هلاكه من الجوع والبرد أو الحر في أرض لم يحسبوا له فيها حساباً، أو يصاب بمرض لا يمهله للتفكير في شيء ولا حتى لطلب النجدة ، مع أنهم حتماً سيعثرون عليه ولو بعد فوات الأوان.

لقد مات الكثير في هذا المكان وأماكن مختلفة داخل المنظر الطبيعي بسبب الحروب والأوبئة الأخرى، ومع ذلك كل ما نراه هنا حي، وثمة من يقول إنه لغز لا يسبر غوره، مع أن الأسباب الحقيقية مرتبطة بهذه الأرض، بهذه الوسية التي تمتد عاليا للروابي وإلى الأسفل حيث الأرض المستوية على مدى البصر. ولو لم تكن الأسباب مرتبطة بهذه الوسية، فقد تكون بوسية أخرى، فالفارق بينهما لا يهم سواهما، وليسكن الاختلاف بين رأيي ورأيك: لقد تم إحصاء كل شيء في

زمن محدد ومناسب، حدود في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب، كأن ذلك قد تقرّر في بداية الخليقة حينما كانت الدنيا مجرد منظر طبيعي تقطعه حيوانات كبيرة وثلة من الرجال هنا وهناك بفرائص مرتعشة. في تلك الأزمنة وبعدها تقرّر ما كان يجب أن يكون المستقبل: خطوط اليد المعوّجة التي هي حاضر هذه الأرض المقسّمة الآن بين أصحاب الفأس، وبحسب حجم وحديد أو حافة الفأس. على سبيل المثال: هل أنت سيد ملكي أم دوق، وبعد ذلك سيد ملكي أم أسقف أم رئيس رهبانية، ابن شرعي أم ابن زنا، أم أنك ابن محظية، بقعة تم غسلها وإعادة الشرف لها، صديق ضاجع ابنة محظية، أم قائد حرب، إذن نصف مملكة في الحال، وفي بعض الأحيان يقال: أصدقائي الأعزاء، هذه أرضي خذوها وعمّروها من أجل خدمتي وأولادكم، وحافظوا عليها من الخونة والعصاة. إنه كتاب الساعات المقدسة والعليا الذي يضم حسابات شديدة القدسية تقدم للقصر والدير، ترتل داخل البيوت الأرضية الكبرى أو داخل أبراج من الشمع، كل مليم يساوي صلاة، وكل عشرة تساوي الكلام الملائكي، وعندما تصل إلى المائة تفوز بالصلاة الكبرى، مريم هي الملك. خزائن عميقة، مطامير عميقة الغور، مخازن غلال مثل ناووس بلاد الهند، أحواض وبراميل، خزائن سيدتي، كل هذا تم وزنه بالذراع، بالعصا والهراوة الحديد، بالأمداد، بالمتر والقدم، كل أرض واستعمالاتها.

هكذا جرت الأنهار، وجاءت أربعة فصول في السنة منضبطة في ميعادها بيقين حتى في تغيراتها. وجاء الزمن بصبره الجم، وبشيء آخر، ليس أقل أهمية، هو المال الذي يعد أغلى من كل الأشياء، ماعدا الإنسان حتى عندما يتغير مثل فصول السنة. لكن في كل مناسبة، كما نعلم، كان الإنسان مباعاً ومُشتَرى. لكن لكل زمن ماله، ولكل مملكة إنسان يُباع ويُشترى بمسكوكات متنوعة ما بين إطارات من ذهب وفضة، ريالات، دوبلات، كروثادات، ربيسات ودوبلونات ذهبية، أو حتى فلورينات من الخارج. المال معدن شديد التقلّب والتغيّر، كثير
الطيران مثل روح الزهرة أو روح النبيذ، يصعد، كأن له أجنحة من أجل الصعود فحسب، لكن لا يهبط أبداً. والسماء هي مكان المال، مكان عالٍ يبدل فيه القديسون أسماءهم حين يحلو لهم ذلك، لكنهم لا يبدلون الوسية.

في النهاية، الأرض أم بثدي بض تعطيه لأفواه كبيرة وجشعة. الأرض رَحِم، أرض مقسّمة من الأكبر للأصغر، أو من الأصغر للأكبر لو تراءى لهم ذلك، بالشراء أو بالانفاق، أو بالسرقة الخبيرة، أو بالجريمة المغالى فيها، إرث الأجداد والأب النافع، رحمهم الله. تأخر ذلك قروناً، من يستطيع أن يشك في أن كل شيء سيستمر هكذا حتى نهاية الزمن؟

ثمة آخرون متناثرون امتلكوا أراض، كيف امتلكوها مع أنها غير مسجلة بأسماء الأرواح المتوفاة ولا حتى الأرواح الحيّة؟ إن حكمة الله، يا أولادي الأعزاء، لا حدود لها. فهنا الأرض ومن يجب عليه زراعتها، فلتنمو وتتكاثر. فتقول الوسية: فلأنمو وأتكاثر. لكن هذه الحكاية يمكن روايتها بشكل آخر.

بدأت الأمطار تهطل فوق الرؤوس عند ساعة الغروب، عندما كانت الشمس نصف شبر فوق التلال المنخفضة الواقعة على اليد اليمنى، بعدها جلست العجائز ليمشطن شعورهن، فهذا هو وقت الفضيلة الذي يخترنّه. أوقف الرجل الحمار ودفع حجراً بإحدى قدميه أمام عجلة عربته الكارّو، حتى يستريح حماره من أثقال يحملها على كاهله في التل القصير. كم هي رائعة تلك الفكرة التي عبرت بذهن مَلاك المياه السماوية! فهذه الأمطار تأتي في غير موسمها، لهذا نلحظ غباراً كثيراً في الطريق، كما نجد بعض الروث الجاف أو فضلات حصان نائية عن الأماكن المعمورة فلم يقترب أحد ليأخذها. لم يجازف أي صبي بسبت معلق بذراعه ليأتي إلى هنا بحثاً عن روث طبيعي وبكل حيطة يمسك بأصابعه القرص الجاف، والمشقق أحياناً مثل ثمرة فاكهة ناضجة. وتحت المطر، تلطخت الأرض الشاحبة والساخنة بنجوم سوداء، مباغتة، تساقطت سراً فوق التراب الرخو، وبعد دفعة ماء كما الضرب بكف اليد، غمر الماء الأرض. لكن كان أمام المرأة وقت لتخرج الطفل من العربة، من العش المكوّن من مرتبة تبنية بين صندوقين. ضمته إلى صدرها، غطت وجهه بالجزء المتدلي من شالها وقالت «لم يستيقظ»، الطفل أهم ما نعتني به، بعده يأتي أي شيء. «كل سيبتل»، نظر الرجل إلى السحب العالية، هرَشَ أنفه وقرّر بحكمته كرجل «إنه لا شيء، مجرد وابل من المطر»، لكنه على سبيل الاحتياط فكّ أحد البطاطين وفردها فوق الأثاث. «لا بد أنها ستمطر اليوم، لعنة الله عليّ».

دفعتْ عصفة ريح قطرات المطر فتناثرت، ونفض الحمار أذنيه بشدة عندما لطمه الرجل على ظهره، فسحب عُرُش العربة بينما الرجل يساعده بدفع العجل. استأنفوا الصعود بالسفح الصغير. ما زالت المرأة في الخلف، تحمل ابنها بين ذراعيها، وبينما تتذوق سكينة الطفل تنظر في وجهه وتهمهم «ابني». كان العشب يمتد على جانبي الطريق الممهد للعربات، بالإضافة لبعض السنديان الضال والمخنوق حتى منتصف جذعه، سنديان مهجور أو مولود هنا بالمصادفة. وبين الأرض المبلولة كانت العجلات تشق طريقها، مصدرة ضوضاء جافة مثل ضوضاء الحقول المسحوقة، ومن آن لآخر كانت تقفز قفزة فجائية، ذات ارتداد، عندما تطأ حجراً يهز العُرُش. كان الأثاث يصر صريراً تحت البطانية. والرجل بجانب الحمار، بيده اليمنى مسنودةً على عريش العربة، ملتزماً الصمت. وهكذا وصلوا إلى أعلى الطريق.

كانت تأتي من الجنوب، في مواجهته، كتلة هائلة من السحاب، كثيفة ومكوّرة، تعلو السهل الذي يتميز بلون التبن. والطريق يختفي من بُعد، يصعب تمييزه بين الطرق المتاخمة التي تهدمت وكنستها رياح البادية. في العمق كان يدخل في طريق عريض، وهي طريقة طموحة للتحدث عن أرض بها طريق جانبي. على اليسار، في مستوى الأفق تقريباً، ثمة قرية تطل حوائطها البيضاء صوب الغرب. السهل هائل، كما قد قيل، أملس ومستوٍ، به أشجار سنديان مفردة أو مزدوجة، وأشجار أخرى قليلة. من هذا التل لم يكن من الصعب تصديق أن الدنيا لا حدود معروفة لها. أما القرية التي هي المقصد، والتي تُرى كضوء أصفر تحت لوحة من رصاص الضباب، فكان يبدو أن الوصول إليها محال. «مدد يا قديس كريستوبال»، قال الرجل. بينما كانت المرأة، التي لم تسافر أبداً نحو الجنوب بهذه المسافة، وأقصى ما وصلت إليه كان جبل لافري، فكان يبدو لها مكاناً متشابهاً، ربما كان نوعاً من النوستالجيا.

كانوا في منتصف الربوة عندما عاد المطر مجدداً. تساقطت في البداية عدة قطرات مهددة بقدوم شلال، قد يغزو وابل من المطر. ثم مرّ الريح بالسهل، كنسه كما تفعل المكنسة، ارتفع الغبار والتبن، وتقدم المطر من الأفق مثل ستارة غامقة ستحجب سريعاً المنظر الطبيعي النائي. كان مطراً منتظماً مثل الأمطار التي تأتي في ساعات كثيرة، يتساقط ويغمر الأرض بمياهه، جاء ولم يتوقّف، وحين لا تستطيع الأرض احتمال غزارة المياه فمن الصعب معرفة إن كانت السماء هي التي تبلّنا أم أن الأرض هي التي تفيض علينا بمياهها. عاد الرجل ليقول «لعنة الله عليّ»، إنها فضفضة الناس عندما لا يتعلّمون لكثرة قناعتهم. كل البيوت بعيدة، ولا مفر من شلالات المطر المتساقط من دون لحاف يحمي الظهر. من هنا حتى القرية، بخطوة الحمار يمشي الهوينى وبلا عزيمة، سيتأخر على الأقل ساعة كاملة، وأثناء ذلك سيعُمّ الليل
بظلامه. وبعد أن تشرّبت بطانية الأثاث ما يكفيها من المطر، بدأت تقطر حبات تنزلق من أطرافها البيضاء، فكيف حال الملابس المختبئة في الصناديق! وهي أملاك مقتصدة لأسرة نازحة تعبر للوسية لأسباب ما. نظرت المرأة إلى السماء، وهي طريقة قديمة وريفية من خلالها تُقرأ صفحة كبيرة ومفتوحة فوق رؤوسنا، صفحة توضّح ولا توضّح إن كانت السماء محمّلة بحبر غامق أم لا. تقدّموا في طريقهم، كما المركب يسوقه الفيضان، كل شيء على وشك السقوط، لهذا كان الرجل يضرب حماره ليسرع في الوصول إلى شجرة سنديان، فقد تهبهم شيئاً من الحماية. ها قد وصل الرجل والعربة والحمار، وما زالت المرأة تغرز في الوحل، لا تستطيع الركض كيلا توقظ الطفل، هذه هي الدنيا، لا يتقي البعض شر البعض الآخر حتى ولو كانوا شديدي القرب كالأم والابن.

تحت شجرة السنديان صدرت من الرجل إيماءات تعبّر عن ضيق صدر، من الواضح أنه لا يعرف معنى حمل طفل بين الذراعين، من الخير أن يشد الحبال التي تراخت من كثرة الجري حتى أصبح الأثاث مهددا بالانزلاق، «ذا ما ينقص، أن ينكسر القليل الذي خرجنا به من الدنيا!». تحت الشجرة يقل المطر، لكن قطرات كبيرة تتساقط من الأوراق، فتلك الأغصان الهائلة والمفتوحة ليست رأس شجرة برتقال، وأنت تحتها كأنك تحت سقيفة مكشوفة، لا يعرف الواحد منا أين يحتمي، ولتكتمل المأساة شرع الطفل في البكاء، وصار هو الآن الشغل الشاغل. فتحتْ أمه بلوزتها وأعطته ثديها شبه الجاف كنوع من خداع فمه. أسكته الثدي قليلاً، وبقيت الأم والابن في جانب في سكينة، يغلفهما خرير المطر الواسع، بينما الأب يدور حول العربة يفك ويعيد عقد العُقد، يرتكز على ركبتيه فوق العُرُش ليلقي الحبال، أما الحمار، في مكان بعيد، ينفض أذنيه بقوة وينظر إلى برك المياه والخيوط التي تتشكل في الطريق. حينئذ قال الرجل «راق للأمطار أن تهطل ونحن على وشك الوصول!». كانت كلمات تعبر عن غضب رقيق، قيلت بقلق وبلا أمل، لن يتوقف المطر لأنه يضايقني، إنه قول الراوي المعفي من المطر. انتبه جيداً لحركات الأب الذي يسأل في النهاية «وكيف حال الولد؟» ويقترب، ينظر تحت تعرجات الشال، إنها حرية الزوج، لكن المرأة غطت نفسها سريعاً وبحياء حتى إنه لم يعرف حقيقة إنْ كان يريد رؤية الطفل أم حلمة نهدها الناتئة. مع ذلك ميّز عينيّ الطفل الزرقاوين بشدة من بين الظل المحيط بهما، بين سخونة ثنيات الملابس ذكية الرائحة، بينما نظر أيضاً لهذا النهد الحميم. كانت نظرة الطفل فريدة في بهائها، نظرة اعتادها منه منذ مولده، شفافة وصارمة، مثل إنسان يشعر أنه في منفى بين عينين سوداوين وأخريين عسليين، في أي أسرة ولدتُ!

توارت الغيوم الكثيفة قليلاً، وانكسرت حدة الأمطار الأولى. خرج الرجل إلى الطريق ليتفحص الجو، التفت للجهات الأصلية الأربع وقال لزوجته «علينا أن نمضي، فلن نبقى هنا حتى تزداد علينا ظلمة الليل»، فأجابته الزوجة «هيا بنا». ونزعت حلمة نهدها من شفتي ابنها الذي لم يكن يمص شيئاً. كان يبدو أنه سيشرع في البكاء لكنه لم يفعل، فقط فرك وجهه بنهدها وتنهد ثم سقط في سراديب النوم. كان رضيعاً هادئاً، جميل المحيا، صديقاً لأمه.

الآن يسيرون جنباً لجنب وقد اعتادوا المطر، لن يوقفهم شيء عن مقصدهم ولا حتى كوخ مريح، البيت والبيت فقط. كان الليل متعجلاً لينشر ظلمته، فحلّ سريعاً. وفي الغرب كان النور الأخير باهتاً يختبئ، ما زال في مكانه لكنه ينطفئ، وفي غمضة عين تستحيل الأرض بئراً حالك الظلمة، شديد السكون ومترعاً بهمسات، برحابة العالم عند سقوط الليل! كان صرير عجلات العربة يُسمع جيداً، وأنفاس الحيوان المتهدّجة مفاجِئة مثل سرٍ خرج من بئره بغتة بصوت عال، حتى حكّة الملابس المبلولة كانت تبدو كحوار متتابع، هامس، بلا وقفات، مثل حديث الصحبة المحببّ للقلوب. كانت الدنيا مظلمة لدرجة أنهم لا يرون شيئاً على بعد فراسخ من حولهم. صلّبت المرأة على نفسها، وصلّبت على وجه رضيعها. في هذه الساعات من الأفضل الدفاع عن الجسد وحماية الروح، فقد تظهر في منعرجات الطريق أشباح موتى تركض متدافعة أو تجلس فوق أحجار في انتظار المسافرين، وتسأل ثلاث أسئلة لا جواب لها: من أنت، من أين جئت، أين تقصد. الرجل الذي يسير بجانب العربة يعشق الغناء، لكنه لا يستطيع أن يغني، فهو يدّخر كل جهده لمداراة خوفه من الظلام. «لقد سِرنا الكثير ويتبقى القليل، فحين نبلغ الطريق المرصوف سيكون الطريق مستوياً والسير أسهل»، قال الرجل.

أمام أعينهم، لكنه شديد البعد عنهم، أنار برق بالسحاب، لم يكن أحدٌ يتوقع شدة انخفاضه. ثم حدثت وقفة تبعها صوت الرعد المجلب للصمم. هذا ما كان ينقص. قالت المرأة «نستغيث بالقديسة باربارا»، لكن الرعد، إن لم يكن بقية العاصفة القادمة من بعيد، كان يبدو أنه يسير في اتجاه آخر أو ربما وجّهته القديسة باربارا المذكورة سلفاً إلى أماكن أخرى أقل إيماناً. ها قد بلغوا الطريق الممهد، عرفوا ذلك لأنه أعرض، أيضاً لأنهم سيجدون اختلافات أخرى بعد مثابرة جمّة عند ضوء النهار، لقد جاؤوا من مطبات ووحل، وساروا فوق مطبات ووحل، والآن، في هذا الظلام، لا يمكنهم حتى أن يروا ما تحت أقدامهم. كان ظهر الرجل وزوجته غارقين بالماء. من حين لآخر كان يركض بلا بصيرة تقريبا، متمنيا أن يفتح الطريق أفقاً جديداً حتى يرى كم يتبقى للوصول إلى سان كريستوبال. فجأة توقف المطر من دون أن ينتبهوا وظهرت لهم بالتحديد حوائط البيوت الأولى. كانت تُمطر ثم كفت عن المطر، كأن
مظلة امتدت فوق الطريق.

ما أجمل أن تسال الزوجة «أين بيتنا؟»؛ إنه حنين من ترغب في رعاية ابنها وتفريغ أثاثها ووضعه في مكانه، قبل أن تفرد جسدها المرهق فوق سرير. فيجيبها الرجل «على الجانب الآخر». كل الأبواب موصدة، فقط يمكن تخمين وجود بشر من خلال بصيص ضوء خافت يطل من فتحات ضيقة. في فناء ما ثمة كلب يعوي. إنها العادة، دوماً ثمة كلب يعوي عندما يمر أحد، أما

الكلاب الأخرى، التي ربما كانت تشعر بالأمان، فتتخذ وضع الحارس وتقوم بدورها ككلاب. فُتِح باب صغير وأوصد، والآن وقد توقف المطر واقترب البيت، يشعر أكثر بهواء بارد يجوب الشارع، ينغمس في الدروب الجانبية الصغيرة، يهدهد سَعَفة تطل من الأسطح المنخفضة. وبفضل الهواء، بدا الليل أكثر جلاءً. كانت السحابة الكبيرة تنسحب، والآن تضيء السماء هنا وهناك. «لقد توقف المطر»، قالت المرأة لابنها النائم، حيث كان الوحيد من بين الأربعة الذي لم يعرف الخبر السعيد بعد.

كانت ثمة ساحة صغيرة بها عدة أشجار جافة يهدهد الريح أغصانها. أوقف الرجل العربة وقال لزوجته «انتظري هنا» ومضى تحت الأشجار نحو بابٍ مُضاء. كانت حانة بداخلها ثلاثة رجال جالسين حول منضدة، ورابع يشرب منعزلاً على البار، ماسكاً الكأس بين إبهامه وسبابته، كما لو كان في انتظار التقاط صورة له. وخلف البار يقف رجل عجوز نحيف وجاف، وجّه عينيه صوب الباب حيث دخل رجل العربة وقال «مساء الخير على الصحبة كاملة». هذه تحية من يأتي ويرغب في صداقة الجميع، سواء من أجل الأخوة أو من أجل مصلحة عمل. «جئت لأعيش هنا في سان كريستوبال، اسمي دومينجو المنحوس، وأعمل إسكافياً». حينها أطلق أحد الجالسين دعابة «إذن فقد جئت بالنحس يا صديق»، فقام آخر كان يشرب منعزلاً بطرقعة لسانه تو انتهاء كأسه قائلاً «المهم ألا يأتي بنعال مرتقة». انفجر الجالسون في الضحك، وكانوا محقين. تلك الكلمات لا تُعَد سوء استقبال أو كراهية، إنهم فقط ليلاً في سان كريستوبال، وكل الأبواب موصدة، وجاءهم فجأة رجل غريب يلقب بالمنحوس، فأي أحمق لن يستغل هذه الفرصة خاصة أن المطر قد توقف منذ قليل. ضم دومينجو المنحوس ضحكته الصفراء لضحكاتهم، ماذا يفعل! الحمد لله أن الرجل العجوز فتح صندوقاً وأخرج مفتاحاً كبيراً «ها هو المفتاح، كنت أعتقد أنك لن تعود». حدّق الجميع في المنحوس، كأنهم يقيّمون جارهم الجديد، هذا الإسكافي الذي دائما يأتي بالنفع حيث يحتاجون إليه في سان كريستوبال. برّر المنحوس بأن هذه القرية نائية عن جبل لافري، لقد أمطرت علينا في الطريق. لم يكن هناك سبب ليقدم كشف حساب عن حياته، لكن ذلك وقع منه موقعاً حسناً وحينها أضاف «قدِّم هنا مشروباً للجميع»، إنها طريقة ذكية ومعروفة للوصول لجيوب القلوب. ينهض الجالسون، ينظرون إلى رجل البار وهو يملأ الكؤوس، إنها حفلة، بعدها، بلا عجلة، يتناول كل منهم نخبه بحركة بطيئة ومحترسة، إنه نبيذ، وليس عرقاً يرمى في الحنجرة. «اشرب أنت أيضاً يا صديق»، يقول دومينجو المنحوس ويرد العجوز «في صحتك يا جاري»، فهو رجل بار محنّك في الأعراف الاجتماعية الكبيرة للقرى. كانوا يتناولون نخبهم عندما دنت المرأة من الباب، لم تدخل، فالحانة مكان الرجال، وقالت برقة، محترمة للعادات «يا دومينجو، الطفل يتلوّى والأثاث غارق في الماء ويجب إنزاله».

كانت المرأة محقة فيما قالت، لكن دومينجو المنحوس لم يرُق له أن تأتي زوجته لتناديه أمام الرجال، فماذا سيفكّرون، وبينما يسير بجانبها في الساحة الصغيرة يغمغم «إن كررتِ فعل ذلك مرة أخرى، سترين!». ولم ترد الزوجة المشغولة بتهدئة الرضيع. تحرّكت العربة للأمام ببطء، مثيرة جلبة، فلقد نمّلت أرجل الحمار من البرد. دخلوا في حارة متتابعة البيوت والبساتين الصغيرة، ووقفوا أمام بيت منخفض. حينئذ سألت المرأة «أهنا؟»، وأجابها الزوج «هنا».

فتح دومينجو المنحوس الباب بالمفتاح الكبير. وليدخلا، تحتّم عليهما الانحناء، فهذا البيت المتواضع ليس قصراً بأبواب شاهقة. لم يكن بالبيت نوافذ. على اليسار كان الموقد على أرض الدار. أشعل المنحوس النار، فهبت قبضة من التبن وبدأ يدور بالشعلة المتقدة لترى المرأة بيتها الجديد. كان هناك حطب في ركن ما من المطبخ. هذا يكفي. في دقائق قليلة أنامت الطفل في ركن آخر، بجانب الفِلَق والحطب، وفرقع اللهب ممتداً على الحائط الجيري. صار المسكن معموراً.

أدخل دومينجو المنحوس الحمار والعربة من باب الحظيرة، وبدأ في تفريغ الأثاث وإلقائه بأي طريقة، حتى تستطيع زوجته مد يد العون له. أحد جوانب المرتبة التبنية تشرّب الماء. وتسرّب الماء أيضاً لصندوق الملابس، أما طبلية المطبخ فإحدى أرجلها كانت مكسورة. كانت ثمة حلّة على النار بها ورق كرنب وقبضة أرز، عاد الرضيع ليرضع ونام في الجانب الجاف من المرتبة التبنية. راح دومينجو المنحوس للزريبة ليقضي حاجة. وفي منتصف البيت ظلت سارة دي لا كونثيبثيون، زوجة دومينجو وأم جوان، يقظة ومنتبهة، تتأمل النار كمن تنتظر أن تبعث لها رسالة لا تفهمها. لاحظت حركة طفيفة في بطنها. تبعتها حركة أخرى. لكن عندما دخل الزوج لم تنبس بكلمة. كان لديه أشياء أخرى يفكّر فيها.

لن يبلغ دومينجو المنحوس سن الشيخوخة. وذات يوم، بعد أن تنجب زوجته خمسة أولاد، سيربط حبلاً بغصن شجرة في بادية تطل على جبل لافري، وسيشنق نفسه، لكن ليس لهذا السبب المعروف. أثناء ذلك، سيتنقل ببيته على كاهله من مكان إلى مكان، ويهرب من عائلته ثلاث مرات، وفي المرة الأخيرة لن يتيح له القدر مصالحة عائلة هجرها، لأن ساعة موته ستكون قد حانت. إنها نهاية تعيسة تنبأ بها حماه، لاوريانو كارّانكا، عندما اضطر إلى الموافقة مجبراً أمام عناد ابنته سارة، العاشقة حد أن أقسمت إن لم تتزوّج المنحوس فلن تتزوج أبداً. صرخ الرجل في ابنته بغضب «إنه رجل منكوب، ميت من الجوع، صعلوك، مشهور بأنه سكير، والحجر الدوّار لا بد من لَطّه». هكذا انفجرت المعركة الأسرية، وجاءتهم سارة حبلى، فكان برهاناً نهائياً وقاطعاً أحدث شقاً بين أصحاب الإقناع وأصحاب الترجي. حدث ذلك ذات صباح من مايو، خرجت فيه سارة من بيتها واجتازت الحقول حتى بلغت مكان الميعاد مع دومينجو المنحوس. ظلا هناك أقل من نصف ساعة، وبين أعواد القمح الطويلة تضاجعا، وعندما عاد المنحوس إلى قوالب الأحذية وسارة إلي بيت أبيها، كان هو يصفّر مبتهجاً بينما هي ترتجف كما لو كانت الشمس لا تصل إليها. وعندما اجتازت النهر بالعبّارة، مالت لتغتسل تحت شجرة صفصاف، حيث كان دم بكارتها ينهمر نهراً بين ساقيها.

في ذاك اليوم نفسه تكوّن جوان، أو كما يقول الإنجيل: حبلت فيه، قد يبدو ذلك غريباً من المضاجعة الأولى، إذ بسبب الارتباك لا يصيب ماء الرجل. الحقيقة أن للولد عينين زرقاوين، رغم أن لا أحد من العائلتين أو الأقرباء، من قريب أو بعيد، له عينان متماثلتان، ما أثار الحزن في النفوس، إن لم يكن الشك، إلا أننا نعرف أن هذا محض افتراء على امرأة لتتزوج باستقامة انحرفت عن طريق العذراوات المستقيم وضاجعت رجلها الوحيد في وسط حقل القمح، فاتحة ساقيها بكل إرادتها، رغم أن ذلك آلمها كثيراً. أما الصبية الأخرى، فلم تفتح ساقيها بالإرادة نفسها، تلك الصبية

التي منذ خمسمائة سنة كانت ذات يوم عند الينبوع تملأ إبريقها فرأت أحدهم يقترب، وكان من هؤلاء الأجانب القادمين مع لامبيرتو هوركيس الألماني، صاحب قلعة بجبل لافري بإمرة الملك دون جوان الأول، وهم أناس بلغة لا تُفهم، وبلا مبالاة لصرخات وتوسلات الصبية، حملها إلى أرض السرخس واغتصبها بكامل حريته. كان رجلاً ممشوق القوام وأبيض البشرة وبعينين زرقاوين، لم يكن به نقيصة إلا حمية دمه، مع ذلك لم تستطع أن تعشقه وأنجبت وحدها عندما جاءها المخاض. وهكذا، بعد أربعة قرون، ظهرت تلك العيون الزرقاء التي جاءت من الجيرمانيين واختفت، مثل تلك المُذنّبات التي تتوه في الطريق وتعود عندما لا ينتبه إليها أحد، أو ببساطة لأن أحداً لم يهتم بتسجيل خطواتها وكشف دورتها.

الأسرة الآن في هجرتها الأولى. جاؤوا من جبل لافري إلى سان كريستوبال في يوم صيف انتهى بعاصفة. اجتازوا جميع القرى من الشمال إلى الجنوب، يا لها من فكرة لمعت في ذهن دومينجو المنحوس، فكرة الهجرة تلك. كان يعمل اسكافياً، وكان كسولاً عاصياً، ولأنه مدمن للخمر وأشياء أخرى، تعقدت حياته في جبل لافري. «حماي، عِرني عربتك وحمارك لأني سأعيش في سان كريستوبال». «اذهب إذن، لعلك تستقر في مكان، ولعل في ذلك خيراً لك ولزوجتك وابنك، لكن أعد لي سريعاً حماري وعربتي، فأنا في حاجة إليهما». اختصروا السفر من خلال سُبُل في الجبال، مستغلين كلما استطاعوا الطريق الرئيسة، ليسيروا فيما بعد بأعماق الأرض عبر بوادٍ قريبة من التلال. تناولوا طعامهم في ظل شجرة، وبين صدره وظهره أدخل دومينجو المنحوس زجاجة نبيذ ما لبثت أن نفدت مع حرارة طقس اليوم. رأوا «مونتيمور» من بعيد، على الجانب الأيسر، فساروا ناحية الجنوب. أمطرت عليهم السماء قبل وصولهم إلى سان كريستوبال بساعة، وكان غزيراً لدرجة تبشّر بالشؤم، لكن اليوم أصبح مشمساً، وسارة جالسة في الحظيرة ترتق جلبابها، بينما الابن، مُهزْوزاً فوق قدميه، يجرّب المشي بطول الحائط. أما دومينجو المنحوس لجبل لافري ليعيد لحماه حماره وعربته، وليخبره بأنهم يعيشون في بيت جميل، وأنه لا ينقصه العمل، فقد بدأ الزبائن في طرق بابه. سيعود في اليوم التالي سيراً على قدميه، وليأذن الرب ألا يثمل، هو ليس خسيساً، مع أن به نقيصة الشُرب، لكن، إن شاء الرب، سيستقيم، فهناك من هو أسوأ منه وصُلِح حاله «وحتماً سيحدث ذلك إن كانت هناك عدالة في الأرض، فمع ابن صغير وآخر في الطريق يجب على كل أب أن يحترم ذاته، فأنا أفعل كل ما أستطيع لنحيا حياة هانئة».

وصل جوان إلى آخر الحائط، حيث يبدأ حاجز من جذوع النخل أمسك به بيديه برسوخ، فذراعاه أشد قوة من ساقيه، ونظر إلى الخارج. كان أفقه ضيقاً، يرى فحسب شريط الشارع الملطّخ بالوحل، بِبرك ماء تعكس السماء، وبقط أصفر يرقد على ظهره عند عتبة البيت المواجه، وديك يؤذّن في مكان ما. يُسمَع صوت امرأة تصرخ «يا ماريا»، وصوت شبه طفل يرد «أمرك»، ثم يسود صمت الحَرّ الخانق الذي بدأ يحلّ، وسريعاً ما تجف المستنقعات لتعود إلى تراب كما كانت. يترك جوان الحاجز، يكتفي مبدئياً بمشاهدة المنظر، يلّف بصعوبة نصف دائرة ويعود من الطريق الطويل إلى أمّه. تنتبه إليه سارة، تضع الخياطة في حجرها وتمد ذراعيها نحو ابنها. تعال هنا يا بني، تعال هنا. ذراعاها مثل سياجين حاميين. كان بينها وبين جوان عالم مشوش، متقلقل، لا بداية له ولا نهاية. ترسم الشمس في الأرض ظلاً مذبذباً،

وساعة مرتعدة تتقدم. إنه عقرب ساعة في الوسية.

عندما كان لامبيرتو هوركيس الألماني يصعد إلى ساحة السلاح بقلعته، لم تبلغ عيناه رؤية الأفق الرحب أمامه. كان سيد القرية وحدودها، قرية تصل إلى عشرة فراسخ عرضاً وثلاثة طولاً، فكان يفرض على من يشاء الضرائب ويعفي من يشاء، ومع أنه كان مفوّضاً بتعمير تلك الأرض، إلا أنه لم يصدر أمراً باغتصاب الفتاة عند الينبوع، لكن لو كان ذلك قد حدث، فذاك أفضل. هو نفسه، رغم أنه متزوج من امرأة شريفة ولديه أولاد، كان ينثر نطفه حيث يروق له، ليشبع رغبات أحاسيسه الصعلوكة. «يجب تعمير هذه الأرض ولا يمكن تركها هكذا، فالأماكن المعمورة في الوسية يمكن عدّها على أصابع اليد، أما الأرض المهجورة فمثل شعر الرأس». «يعلم سيادتكم أن أولئك النسوة غامضات، بذور ملعونة لسيدات عرب، وأن الرجال صامتون وأحياناً منتقمون، فضلاً عن أن الملك سيدنا لم يستدعنا للمضاجعة والتناسل مثل سليمان، وإنما لنحرث الأرض ونسودها، وبالتالي يأتيها الناس ويستقرّون فيها». «هذا ما أفعل وما سأفعل كلما راق لي، فهذه الأرض أرضي ومن عليها، مع ذلك لا يجب أن يزيد عن الحد عدد الحوامل والوالدات، كما رأينا من قبل». «معك حق يا سيدي، لقد اكتسبت خبرة كبيرة من الأرض الباردة التي جئت منها والتي هي أكثر علماً من هذا المنفى الغربي من العالم». «بما أنكم متفقون معي، فلنتحدث الآن عن الضرائب التي تفرض في أرض إقطاعيتي وقلعتي». كان ذلك حدثاً صغيراً في تاريخ الوسية الطويل.

هذا الإسكافي رقّاع أحذية، يركّب النعال والكعوب، ويُنهي عمله عندما يفقد الرغبة فيه، فيترك القوالب والسكاكين والمخارز ليذهب إلى الحانة، ثم يتشاجر مع زبائنه ضيقي الصدر، ولكل هذا يضرب زوجته. يضربها أيضاً لأنه مضطر إلى تركيب أنصاف نعال وترقيعات للأحذية، إنه رجل لا يعرف السلام مع ذاته، يسير كالممسوس، ليست له مؤخرة يجلس عليها، وبمجرد أن يقعد، ينهض واقفاً، وقبل أن يصل إلى قرية يفكّر في النزوح إلى قرية أخرى. إنه ابن الريح، دومينجو الذي أصابه النحس، يترك الحانة ويدخل البيت كمن يتخبطه الشيطان من المس، قليلاً ما يلقي نظرة على ابنه، ولأقل كلمة ينفض زوجته ضرباً «خذي أيتها الجائرة حتى تتعلّمي». ويعاود الخروج إلي الخمر، لابساً قبّعة وحاملاً جعبة مثل رفاقه، «ضف هذا الحساب في دفتري يا صاحب الحانة»، فيجيب الخمّار «بكل سرور يا زبوني، بكل سرور، لكن انظر إلى دفترك، لقد امتلأ»، «لا يهم، أنا دائماً أسدّد ديوني ولا أترك أحداً يدايننى و لو بريال». وعندما يحلّ الليل تخرج سارة بحثاً عن زوجها، تترك ابنها عند جارتها وتداري دموعها في منديلها وتحت الظلام لتجوب سان كريستوبال من حانة إلى حانة، نعم ليست حانات كثيرة لكنها متعددة. لا تدخل أياً منها لكن تظل من بعيد تبحث بعينيها، وإن وجدت زوجها تسمّرت في مكانها كالظل، كظل آخر، في انتظار خروجه، ولم يحدث ذلك مرة أو مرتين. حدث أيضاً أن عثرت عليه في الطريق، مخموراً تائهاً، يسير في غير اتجاه البيت وقد هجره أصدقاؤه، وحينئذ كانت الدنيا تتجمّل من جديد، لأن دومينجو المنحوس، الممتنّ لأنه تم العثور عليه في صحراء مرعبة بين جيوش من الأشباح، يمرّر ذراعه بكتف امرأته ويترك نفسه لها فتحمله كما الطفل الذي أغلب الظن ما زال يعيش بداخله.

وذات يوم، عندما زاد العمل ولم توفِ يداه بالغرض، استعان المنحوس بمساعد، وتمتّع هكذا بالراحة التي تكفي رغباته الضالة، لكنه سريعاً، وفي يوم سيئ الذكرى، أقنع نفسه بأن زوجته المسكينة، سارة البريئة، تخونه في غيابه مع مساعده، وكانت تلك نهاية حياته في سان كريستوبال،

فرّ المساعد بلا ذنب اقترفه هارباً من نصل السكين، أما سارة، الحامل حملاً شرعياً، فعانت الأمرين في درب الألم، وعادا من جديد يُحمّلان العربة، ويتوجهان إلى طريق العودة لجبل لافري. سير طويل. «حماي، من حيث الصحة نحن بحالة جيدة، حفيدك وابنتك سعيدان، وفي الطريق حفيد جديد، لكني وجدت أن الخير في الذهاب لقرية «تورّي دا جادانيا»، حيث يعيش أبي وسيمد لي يد العون». وها هما يغتربان مرة أخرى ناحية الشمال، لكن عند الخروج من سان كريستوبال كان صاحب الحانة واقفاً له بالمرصاد. «قف مكانك أيها السيد المنحوس، فما زلت مديوناً لي بإيجار البيت والخمر الذي تجرّعته، وإن لم تدفع ما عليك سترى ما سأفعل أنا وابناي هذان، بمعنى آخر إما أن تدفع وإما أن نمزقك إرباً».

كان السفر قصيراً، والحمد لله أنْ كان قصيراً، فبمجرد أن وضعت سارة قدمها في البيت وضعتْ مولودها الجديد الذي سمّوه أنسيلمو، ولا أحد يعرف لمَ سمّوه بهذا الاسم. ومن المهد كان هذا الصغير مدللاً لأن جده لأبيه كان يمتهن النجارة وراق له أن يولد له حفيد عند باب بيته. كان أستاذاً في العمل الريفي، بلا معلم ولا صبي ولا زوجة أيضاً، يعيش بين ألواح خشبية وهراوات، وتفوح منه رائحة النشارة، وكانت لغته مرتبطة بمفردات مهنته، مثل ألواح خشب، فُرش، قدوم، ألواح صغيرة. كان رجلاً وقوراً، قليل الحديث، لا يغيب مع الخمر، لذلك كان ينظر نظرة مزدرية إلى ابنه الذي كان يسيء لسمعته. وظل على ما كان عليه من الانتظار، فلم يمهله الزمن وقتاً طويلاً ليمارس دوره كجد بعد ما رأى من سوابق دومينجو المنحوس. وحمًدا لله أنْ عاش أياماً علّم فيها حفيده الكبير أنّ هذه المطرقة ذات أذنين، وأن هذه فرشاة وهذا إزميل، مع أن المنحوس كان لا يطيق كلامه ولا صمته «وهيا
بنا، لقد تأخرنا، فلنذهب إلى لانديرا، بالشرق الأقصى للبلدة، فأنا مثل عصفور ألقى بصدره فوق حديد قفص، في مثل هذا القفص مسجونة روحي، وثلاثون شيطاناً يتقافزون أمامي». عربة أخرى يجرّها الآن بغل أجرهما بسعر زهيد، وها هو الحميّ قد بدأ يشطط غضباً من كثرة الترحال وغياب الأمان، لكن الأفضل أن يسكت ويحتمل. «يا زوجي، إننا أصبحنا نشبه اليهودي المذنب، لا نعرف الهدوء في الدنيا ولا السكينة، بالإضافة لكوننا ننزح بطفلين». «اخرسي يا امرأة، أنا أعرف جيداً ما أفعل، فأهل لانديرا أناس طيبون، وهناك عمل يعوّضنا، وأنا رجل صاحب حرفة وليس عليّ أن أسير حاملا فوق كتفي فأساً مثل أبيك وأخوتك، لقد تعلّمت حرفة أستطيع أن أعمل بها». «لا أنكر ما تقول يا زوجي، لا أنكر، لقد كنت إسكافياً عندما تزوجتك وهكذا أحببتك، لكني أتمنى أن نعرف للطمأنينة طريقاً ذات يوم، وننتهي من الترحال ببيتنا فوق كاهلنا». لم تتحدث سارة عن سوء المعاملة، ولم يكن من العدل أن تتحدث في ذلك، فـ دومينجو المنحوس كان يسير صوب لانديرا كمن يتوجه إلى الجنّة حاملاً فوق كتفيه ابنه الأكبر، ماسكاً بكعبيه الرقيقين المتسخين، نعم، كانا هكذا لكن ذلك لا يهم. قليلاً ما كان يشعر بثقله لأن شد الخيط قوّى لديه العضلات وأوتارها. سار بالبغل خلفه، تقدّم، تقدّم، والشمس ترافقهم، حتى بحثت سارة عن مكان بالعربة. لكن عندما وصلوا إلى البيت الجديد، رأوا أن الأمتعة قد لحقها أذى كبير. «لو بقينا هكذا يا دومينجو، سننتهي بلا أثاث».

وهناك في لانديرا وجد جوان المُدلل من بين آباء روحيين في جبل لافري، أباً روحياً جديداً وحسن الهيئة. كان هذا الأب هو القس أجاميديس الذي كان يعيش مع امرأة يقول إنها ابنة أخته التي جعلها أيضاً أماً مستعارة لـ جوان. كان الطفل إذن يتمتع بالبركات، محمياً من السماء ومُدافَعا عنه في الأرض حتى ذلك الحين. وزادت البركة عندما وافق دومينجو المنحوس، بتشجيع من الأب أجاميديس، على أن يقوم بعمل سادن، يساعد في قيام القداس وفي الدفن، وبفضل هذا العمل صادقه القس واتخذ جوان ولداً. عندما آوى إلى كنف الكنيسة، لم يكن لدى دومينجو المنحوس أي نية سوى العثور على سبب محترم للأكل والراحة لتسكن همومه المستمرة كرجل متسكّع. هكذا كان الرب يكافئه كلما رآه أمام المذبح يقوم بحماقة بخطوات الطقوس التي تعلّمها، وحدث أنْ كان الأب أجاميديس أيضاً من هواة الخمر، فاجتمع خادم الكنيسة والقس في هذا القربان الآخر. كان لدى الأب أجاميديس محل تجاري ليس ببعيد عن الكنيسة، وكان يديره في ساعات الفراغ من الواجبات الكهنوتية، وإن لم يكن، كانت ابنة أخته تنزل للعمل وتجلس خلف االمنضدة لتدير تجارة العائلة الأرضية. كان دومينجو المنحوس يمر ويشرب كأساً، ويمر مجدداً ويشرب كأساً أخرى، بينما لم يبلغ القس شُرب كأسين معا. كان الرب يحيا مع الملائكة.

لكن لكل سماء إبليسها ولكل جنّة غوايتها. بدأ دومينجو المنحوس يلاحق بعينيه الجشعتين جمال الجارة القريبة، فلمّحت لخالها بنصف كلمة كانت كافية، بأنها مهانة بوضعها ابنة أخته، وكانت كافية أيضاً لتثير الفتنة بين خادمي الكنيسة الأم المقدسة، المُعيّن أحدهما طبقاً للقانون، بينما الآخر مؤقت العمل. لم يتجرأ أجاميديس على استخدام صراحة قد تثير الاضطراب بين أبناء الأبريشية، الذين يرتابون في قرابتها منه، فلجأ إلى الحديث عن وضع الجاني كرجل متزوج ليبعد الخطر بذلك عن شرفه. وبعد أن حُرِم من الشرب السهل، وتعب من تشرده في الأرض من أقصاها لأدناها، صرخ دومينجو المنحوس في البيت معلناً أنه سينتقم من القس. ولماذا سينتقم، لم يقل، ولم تسأله سارة. لقد عاشت دائما متألمة وصامتة.

كان أبناء الأبرشية في الكنيسة قلائل، ولم يكونوا كلهم معينين بالقانون. لم يكن ذلك شراً يُرى، ولن يكون إلزاماً أن يتكاثر عددهم. لم يكن هذا هو العيب. إن النشاط البابوي بضعفه لم يستطع أن يحث على التقوى، ليس فقط لأن الأب أجاميديس يتخذ ابنة أخت ويتاجر في الغث والثمين، فالذين لا ينتمون إلى طبقة الشعب هم الذين يجهلون معنى الاحتياج، وإنما أيضاً لسوء معاملة كتاب القدّاس، وصرف المستجدين والعرسان والموتى بالوحشية نفسها التي بها يقتل ويأكل خنزيرَه وبأقل اهتمام لآداب المعبد وروحه. إنه سوء الظن طبيعة الناس. من أجل هذا عرف المنحوس كيف يملأ الكنيسة بالمجد. سيكون القداس القادم شيئاً رقيقاً، لقد نبّه الأب أجاميديس أنه فيما بعد سيعتني جيداً بالتعاليم المقدّسة، بالوقفات السامية، بذبذبات الصوت، مجنون من يفوّت القداس القادم، ولا يشتكِ أحد بعد ذلك. اندهش الأب أجاميديس عندما رأى الكنيسة ممتلئة، فلم يكن يوم قديس الحي ولم يصل الجفاف إلى درجة طلب التدخل الإلهي. لكنه التزم الصمت، فخير للراعي والمالك أن يأتي الغنم برجله إلى الحظيرة. ومع كل، وحتى لا يبدو ناكراً للجميل، بالغ في إجادته، ومن دون أن يدري، أكّد الإتقان الذي أدى به دومينجو المنحوس. لكن الإسكافي الذي تحوّل إلى سادن، أعد داخل رأسه الضربة القاضية. في لحظة قَرْع القديسين، أعلى لحظات القداس سمواً، رفع الجرس بهدوء وهزه،

كأنه يهز ريشة دجاجة. رأى المتدينون أنه كما لو فرض صمماً عاماً، وانحنى بعض آخر بسبب عادة الإيماءة، وظل بعض ثالث يتبادل النظر بينما استمر دومينجو المنحوس، في صمت تام ودرامي، يقرع الجرس بوجه بريء. اندهش القس، وسرت همهمة بين المتدينين، وانفجر الصغار في الضحك. يا للعار، القديسون ينظرون جميعهم، والرب يرى
كل شيء. لم يحتو الأب أجاميديس غضبه، وقاطع القربان لضرورة قصوى، أخذ الجرس بيد وأدخل يده الأخرى فيه، وحرّك لسانه، لكنه لم يجد لسان الجرس. ولن ينزل سهم ليعاقب الكُفر. متشدداً في غضبه الديني، وجّه الأب أجاميديس صفعة للمنحوس داخل المكان المقدس، كيف يمكن أن يحدث ذلك. فبادله المنحوس سريعاً صفعة بصفعة متصنعاً مواصلة القداس. وعلى الفور اختلطت حِلة القس بقميص السادن، وامتزجا كعاصفة دوّارة، مَنْ أعلى ومَنْ أسفل، وتمرغا على درجات المذبح مدنسين المقدسات بضلوع مكدومة، تحت العين المستديرة لوعاء القربان المقدس. تدخل الناس في محاولة لإبعاد القوتين المتشاجرتين، وثمة من استغل تشابك السيقان والأذرع ليقتل عطشاً قديماً، من جانب والجانب الآخر. اجتمعت العجائز في ركن ما يصلين لكل ملكوت السماء، وعندما تزودنَ بقوة بدنية وطاقة روحية، تقدمنَ للمذبح لينقذنَ قسيسهن، رغم خسته. وكان هذا، بكلمات قليلة، انتصار العقيدة.

في اليوم التالي، خرج المنحوس من القرية في موكب صاخب بصحبة صبية صغار يزفونه هو وعائلته، حتى وصلوا إلى الخلاء. مطرقةً، كانت سارة تشعر بالخزي. جوان يلاحظ كل شيء بنظرته الزرقاء الصارمة. الطفل الآخر يغرق في النوم.

حينذاك أُعلِنتْ الجمهورية(1). كان الرجال يربحون اثني عشر أو ثلاثة عشر ريالاً، أما النساء فنصف ما يربح الرجال كما جرت العادة، رغم أن الرجال والنساء كانوا يأكلون الخبز الأسمر نفسه وأوراق الكرنب وسيقان النبات نفسها. ثم جاءت الجمهورية مبعوثة من لشبونة، وانتشر خبرها من قرية إلى قرية عبر التلغراف، إنْ وجد، ونصحونا باتباعها من خلال الصحافة، ومَنْ يستطيع قراءتها؟ ومِن فم لفم، وهي دائماً أسهل الطرق. كان العرش قد سقط، وكان المذبح يكرّر أن المملكة لم تعد الآن عالمه، أما الوسية فقد فهمتْ سريعاً كل شيء وبقيت هادئة. حينها كان سعر لتر الزيت يساوي عشر مرات يومية رجل.
تحيا الجمهورية، فلتحيا. «يا رئيس، كم اليومية الآن» فيجيب رئيس العمال «انظر، دعني أفكّر، سأدفع ما يدفعه الآخرون». «كم اليومية». «ريال زيادة». «هذا لا يكفي احتياجاتي». «اترك العمل إن لم يعجبك الأجر، هناك آخرون ينتظرونه بكل سرور». آه يا إلهي، كم على الإنسان أن يموت جوعاً، «والأولاد، أي طعام أعطيه لأولادي». «فليعملوا». «وإن لم يجدوا عملاً». «فلا تنجب كثيراً». «يا زوجتي، أرسلي الأولاد لجمع الحطب والبنات لجني الثمار المهملة، وهيا بنا إلى السري». «أنا أَمَةُ السيد، افعل بي ما تمليه عليك رغبتك، ها أنا جاهزة يا بعلي، ها أنا حامل، متورّمة، منتفخة، وسأنجب ولداً، ستكون أباً، فأنا لي ذنوبي». «ماذا سيحدث، فحيث لا يأكل سبعة لا يأكل ثمانية».

حينئذٍ، ولأنهم لم يلحظوا أي فروقات بين الوسية في الملكية والوسية في الجمهورية، فقد تشابهت كل الأمور. ولأن الأجر، مع قلة ما يُشترى به فيوقظ الجوع لا يشبعه، اجتمعت مجموعة من العمال الأبرياء وتوجهت إلى مدير الوسية ليطالبوه بتحسين ظروفهم المعيشية. كتب أحدهم، وكان حسن الخط، التماساً تغنّى فيه بالرموز البرتغالية الجديدة وبالآمال الشعبية بنات الجمهورية، «وفي انتظار ردكم، نتمنى لكم وافر الصحة ودوام الإخاء». ثم انصرف مقدمو الالتماس، وجلس لامبيرتو هوركيس في كرسيه بالهانزا(2)، وتفكّر بعمق فيما قد يلائم مصلحة الوسايا، سواء الخاصة به أو العامة، وبعد أن تأمل بعينيه الخرائط المحددة بها الوسايا، أشار بإصبعه إلى أكثر وسية مكتظة بالعمال واستدعى رئيس الحرس الذي ينتمي إلى الشرطة المدنية، وكان رجلاً حربياً بارزاً في زيه الجديد مع أنه ضعيف الذاكرة، وبالتالي قد نسي زمناً كان يعلّق فيه الشريطة الزرقاء في الأبيض في كُمّه الأيسر. لقد عرف لامبيرتو، باجتهاده ومراقبته، أن الفلاحين في حالة هياج، ويعترضون على السُخرة الإجبارية وبعض الخدمات الأخرى، وأنهم يشكون من حياة الكلاب التي يعيشونها بسبب الضرائب المفروضة والتبرعات المتعددة، ما يبدو جلياً في التماسهم وبنبرة مهذبة، ربما ليداروا نوايا أخرى أشد سوءاً. انتشر التمرّد في كل الوسايا كالنار في الهشيم، وعلا عواء الذئب المحبوس والجائع، وقد يلتهم من يقع تحت فكيه. «يجب أن يأخذوا عظة ودرساً». ثم أنهى الاجتماع بإصدار أوامره، وانصرف النقيب مسرور ضارباً كعب حذائه في الأرض، مستدعياً قوته في عرض عسكري. وسريعاً ما تشكّل الحرس الوطني الجمهوري، بسيف محدّب على الكتف وفي وضع انتباه، وبزينات لامعة وشوارب مهذبة وشعر ممشط، حتى عندما وصل لامبيرتو إلى نافذة مجلس البلدية، ألقى الحرس التحية على صاحب السلطة الذي رد بحركة من طرف أصابعه، فجمعت هذه الحركة ما بين الإيماءة المؤثرة والانضباط. ثم انصرف إلى حجرته وأمر بأن يستدعوا زوجته، وارتاح بجوارها.

ها هو الحرس الجمهوري يصطف في حقول الرب. إلى العَدو، إلى الركض، وتسقط الشمس فوق دروعهم، وتموج الخِرق في رُكب الخيول، آه من الفروسية، من رولدان وأوليفيروس وفييرابراس، ملعونة الأرض التي أنجبتْ هؤلاء الأبناء. وعلى مدى البصر، نرى الوسية المختارة، ويأمر النقيب مسرور بنشر سرية الخيّالة في صفوف على أهبة الاستعداد، وبصيحة بوق تتقدّم القوات الغنائية والحربية، مشهرة سيوفها المحدّبة، فيما
يطل والوطن على المنظر ليتأمل الواقعة، وحين يخرج الفلاحون من بيوتهم، من عششهم، من حظائرهم، بصدور تملؤها قوة التبن والطين، يتلقون في ضلوعهم ضربات السوط حتى يقبض فييرابراس، الهائج كثور قرصته ذبابة، على السيف ويبتر، يقطع، يشرّح، يخرق من يشاء، أعمى من الغضب، أما السبب، فلا يعرفه. ظل الفلاحون ممددين في الأرض، يرتجف ألمهم حتى حملوهم إلى أكواخهم، حيث لم يعرفوا الراحة، رغم أنهم عالجوا جراحهم بأفضل الطرق الممكنة: بالماء الكثير والملح والخِرق. «الموت أفضل»، قال أحدهم، «يأتي الموت حينما تأتي ساعته»، رد آخر.

تعود سرية الخيّالة، الابنة المدللة للجمهورية، ولا تزال الخيول ترتجف والهواء يوزّع الزبد في ندف، وتنتقل الآن للمرحلة الثانية من خطة المعركة: التوجه إلى الشقوق والجبال للبحث عن

الأجراء واستدعائهم، إذ يسيرون محرضين الآخرين على التمرد والإضراب، تاركين الزراعة للهلاك، والغنم بلا رعي. هكذا سجنوا ثلاثة وثلاثين، بينهم المحرضون الرئيسيون الذين انتهي بهم الأمر في السجون العسكرية. لقد سحبوهم كقافلة من الحمير المخططة تشق أجسادهم ضربات الأسواط والركلات، بالإضافة للسخرية من كل لون، هيا يا أبناء القحاب، انظروا أمامكم حتى لا تصطدموا بقرونكم، فليحيا حرس الجمهورية، فلتحيا جمهورية الحرس. وسار الفلاحون مقيدين، كل منهم بحبل، وكلهم يقيدهم حبل واحد، مثل عبيد يجدّفون على سفينة شراعية، لعل ذلك يكون مفهوماً، إنها حكايات من زمن همجي، من زمن لامبيرتو هوركيس الألماني، من القرن الخامس عشر، ليس إلا ذلك.

ولشبونة، من يأخذ بيدها لمعاقبة زعماء التمرّد؟ في صمت قطار الليل، تخرج السرية السابعة عشرة من المشاة بقيادة نقيب يدعى مسرور أيضاً، ومعه ثمانية عشر جندياً وثمانية وثلاثون مخبراً، مهمتهم مراقبة خمسة أُجراء متهمين بالتمرد والتحريض على الإضراب. سيتم تسليمهم للحكومة، أخبرنا بذلك مراسلنا المجتهد، «هذه الحكومة رحمة، لها يد طويلة ليتم التسلم والتسليم». ويهل شهر مايو من جديد يا أيها السادة. هنا يعبر القطار، هنا يعبر، مُطلقاً صفارته، وهنا يسير الحمّالون الخمسة صوب سجن ليمويرو. في تلك الأزمنة البدائية، كانت القطارات بطيئة، تتوقف في الضواحي بلا سبب معروف، ربما كان مكاناً للكمين والموت المفاجئ لعربة مغلقة يُنقل فيها المجرمون وراء ستائر مسدلة، إن وجدت ستائر في زمن لامبيرتو هوركيس، إنْ كانوا يستخدمون هذه الفخامة في عربات الدرجة الثالثة. تسير سرية المشاة السابعة عشرة بالبنادق فوق حواملها، وربما بالحربة منصوبة فيها «من يمر من هنا عليه ألا يتوقف»، يخرج إلى الحقل عشرة كلما وقف القطار، متوقعين حدوث هجمات ومحاولات لتحرير السجناء. غير مسموح بالنوم للجنود المساكين، ينظرون باضطراب لوجوه الأشقياء الخمسة الخشنة والمتسخة، وجوه تشبه وجهك. «الله يعلم يا أخي، عندما تنتهي خدمتك كمجند، ربما يأتي جندي آخر يقبض عليك ويسوقك هكذا إلى لشبونة، في قطار ليلي وفي ظلمة هذه الأرض». «الآن نعرف من نحن وأين نكون، وغداً من يدري». «إنهم يعطونك بندقية، لكنهم لم يأمروك أبداً بأن تصوّب ناحية الوسية، كل تعليماتك للتصويب وإطلاق النار صوب من هم بجانبك، صوب نفسك، فيما تنتظر القلوب المُخانة إلى ماسورة بندقيتك، أنت لا تفهم شيئاً مما تفعل، وذات يوم سيعطونك أمراً بإطلاق النار، وستقتل نفسك ذاتها». «اسكتوا نهائياً، لا تنبسوا بكلمة أيها المتمردون، ففي لشبونة سيكلبشونكم، ولن تتخيلوا حتى السنوات التي ستقضونها في الظل». «نعم، لشبونة مدينة كبيرة، لقد قالوا لنا إنها أكبر مدن العالم، وهناك تحيا الجمهورية، والمؤكد أنهم سيطلقون سراحنا، هناك لديهم قوانين».

الآن تقف مجموعتان من الأجراء وجهاً لوجه، يفصل بينهما عشر خطوات. يقول أبناء الشمال:هناك قوانين، لقد تعاقدوا معنا ونريد أن نعمل. فيرد أبناء الجنوب: أتحتملون أن يدفعوا لكم أقل مما كنا نتقاضى، أجئتم هنا لأذيتنا، هيا انصرفوا إلى أرضكم أيها الأجراء المؤقتون. فيعلل أبناء الشمال: ما من عمل في أرضنا، ليس فيها إلا الحجارة والجَوالق، نحن من بيرا، بالإضافة لذلك لا تنادونا بالأجراء المؤقتين، فهذه إهانة. يصر هأهل أهل الجنوب على الإهانة: أنتم لستم عمالاً مؤقتين، إنما فئران، جئتم هنا لتقرضوا كسرة خبزنا الناشف. يقول أهل الشمال: نحن

جوعى. ويرد أهل الجنوب: ونحن مثلكم، لكننا نرفض أن نخضع لهذا البؤس، وإن قبلتم أنتم أن تعملوا في هذا المكان، سنبقى نحن بلا عمل. يقول أهل الشمال: الذنب ذنبكم، لا تكونوا متعجرفين، اقبلوا ما يقدمه لكم رب العمل، فهذا أفضل من لا شيء، حينها سيجد الجميع عملاً، فأنتم هنا قلة وجئنا هنا لمساعدتكم. يرد أهل الجنوب: إنها خدعة، إنهم يريدون خدعتنا جميعاً، انضموا إلينا وسيضطر صاحب العمل إلى أن يدفع لنا جميعاً أكثر مما كان يدفع. يقول أبناء الشمال: كل واحد منا يعرف نفسه، والله يعرف الجميع، لا نريد تحالفات، جئنا من بعيد ولا نستطيع الآن أن ندخل في مشاكل مع رب العمل، نريد أن نعمل. يرد أهل الجنوب: إذن، فلن تعملوا هنا. يرد أهل الشمال: سنعمل بكل تأكيد. يلح أهل الجنوب: هذه الأرض أرضنا. يجيب أهل الشمال: لكنكم لا تريدون العمل بها. يتحجج أهل الجنوب: بهذا الأجر لن نعمل. يرد أهل الشمال: نحن نقبل بهذا الأجر. يقول رئيس العمل: كفى، لقد تحدثتم بما فيه الكفاية، ارجعوا إلى الخلف واتركوا هؤلاء الرجال يعملون. يرد عليه أهل الجنوب: لن يحصدوا. يؤكد الرئيس: بل سيحصدون، لقد أمرت بذلك وانتهى الأمر، ولو تعرضتم لهم سأبلّغ الحرس. يتحدى أهل الجنوب: قبل أن يصل الحرس سنسفك دماءهم. يقول الرئيس: وإن جاء الحرس ستُسفك دماؤكم أنتم، بعد ذلك لا تشتكوا. يقول أهل الجنوب: أيها الأخوة، اتحدوا معنا لنحقن الدماء. يرد أهل الشمال: لقد قلنا لكم، نريد أن نعمل.

ثم تقدم أول أبناء الشمال ناحية القمح بمنجله، ثم أمسك أول أبناء الجنوب بساعده، فالتحما بحركة ثقيلة، بفظاظة، بخشونة، بعنف، جوع يصارع جوعاً، بؤس يقاتل بؤساً، يا رغيف الخبز، كم يكلفنا الحصول عليك! وجاء الحرس وانتهت المشاجرة، ضربوا جانباً واحداً فقط، دفعوا أبناء الجنوب بالسيف، أدخلوهم في حظيرتهم كما المواشي. قال الشاويش «أتريد أن ألقي بهم جميعاً في السجن». رد رئيس العمال «الأمر لا يستحق، إنهم مجموعة بؤساء، احتجزهم هناك فقط بعض الوقت حتى يهدأوا». يقول الشاويش «لكن أحد أجراء الشمال قد شُقت رأسه، لقد وجدت اعتداءً، القانون هو القانون». يقول رئيس العمال «الأمر لا يستحق يا أيها الشاويش، إنه دم حيوانات، سواء دم أبناء الشمال أو الجنوب، إنه مثل بول صاحب العمل». يقول الشاويش «بمناسبة صاحب العمل، نحن في حاجة لعدة حزم من الحطب». يرد رئيس العمال «سأرسل لك عربة محملة بالحطب»، فيرد الشاويش «وبعض القراميد»، «لا تشغل بالك بهذا الأمر، فلن تنام في برودة الليل». فيختم الشاويش «الحياة غالية». ويختم رئيس العمال «سأرسل لك بعض السجق».

يتجول أجراء الشمال بالحقول المزروعة، حيث تتساقط السنابل البيضاء فوق الأرض السمراء، يا للجمال، وتشيع رائحة جسد يعلم الله منذ متى لم يغتسل. من بعيد تمر عربة بحصان وتقف، فيقول رئيس العمال «إنه صاحب الوسية». يقول الشاويش «بلّغه شكري وأني دائماً تحت أمره»، فيقول الرئيس «انتبه لهؤلاء الأوغاد، لا تغب عيناك عنهم». يقول الشاويش «اطمئن، فأنا أعرف جيداً كيف أتعامل معهم». يقول بعض أبناء الجنوب «سنحرق حقول القمح». يقول آخرون «سيكون ألماً للنفس». يردد الجميع «ما من ألم لهذه الأنفس».

طافوا بقرية لانديرا، بـــ سانتانا دو ماتو، وتجولوا بداخل البلدة وخارجها، بـــ تارّافيرو وافيتيرو، وفي ترحالهم جاء مولودهما الثالث وكانت أنثى، فسمّياها ماريا، وابن رابع فسمّياه دومينجو مثل

أبيه. فليهبهم الله حياة أفضل، لأن حياة أبيهم كانت مترعة بالمآسي، كانت بين خمر وعرق، بين مطرقة ومسمار، وتسير من سيئ لأسوأ. أما عن الأثاث، فالأفضل ألا نتحدث، إذ بات مصيره يدور من العربة إلى البيت، ومن البيت إلى العربة، يصطدم بعضه ببعض في التلال ووديان المطر، ومن مكان إلى مكان «جاء إسكافي جديد، اسمه المنحوس»، «سنرى كيف سيكون المايسترو الذي حسبما نرى يشرب الخمر طوال العام كشرب الماء في أغسطس». «رجل نشيط، أفضل مايسترو يمكن أن يكون لو أراد». أما سارة التي تعيش الآن مع زوجها وأولادها في «كانيا»، فقد أصابتها حمى الثِلث خلال عامين، يوم نعم ويوم لا، لمن لا يعرف. لهذا، عندما تكون أمه ملازمة للفراش، كان جوان المنحوس، ذو العينين الزرقاوين اللتين لم تتكررا مع أحد من إخوته، يذهب إلى الينبوع، وذات مرّة، عندما أدلى بدلوه، انزلقت قدمه، من يأتي لإنقاذ الطفل البريء، وسقط في الماء الذي كان عميقاً مقارنة بجسمه الضئيل، ابن السبعة أعوام. عاد إلى البيت بين أحضان امرأة أنقذته، فضربه الأب ضرباً مبرحاً، بينما ارتجفت الأم في سريرها من الحمى، حتى إن رأس السرير بكوره النحاسية كان يرتج. «لا تضرب الطفل يا دومينجو»، لكنها كانت تؤذن في مالطة.

وجاء يوم نادت فيه سارة على زوجها ولم يجبها. كانت هذه هي المرة الأولى التي يزدري فيها المنحوس أسرته وينأى عنها. حينها طلبت سارة، الصموتة طوال حياتها، من جارة متعلمة أن تكتب لها خطاباً أخرجت فيه ما يجيش في نفسها: «لم أختر زوجاً من أجل هذا البؤس يا أبي، إن كنت تحب الله أطلب منك أن تأتي لتبحث عنا بعربتك وحمارك لتأخذنا معك نعيش بجانبك، في أرضنا، وأن تغفر لي المشقة التي حملتك إياها والضيق الذي سببته لك، مع ندمي على عدم طاعتك عندما لم أستمع لنصائح أسديتها لي كثيراً وبلا كلل حتى أتمم هذه الزيجة التعيسة من هذا الرجل الذي لم أتجرع منه إلا المرارة تلو المرارة، وعانيت معه الأمرين، فقر مدقع وكسرة نفس وضرب مبرح، نعم لقد حذّرتني، لكني سرت بلا حيطة». وكانت العبارة الأخيرة من الينبوع الأدبي لجارتها موفقة ما هو كلاسيكي مع ما هو حديث بنتيجة تستحق التصفيق.

ماذا سيفعل أب جدير بالأبوة في موقف كهذا حتى ولو لم ينس الفضائح التي وقعت؟ ماذا فعل لاوريانو كارانكا؟ أرسل ابنه، وهو رجل عنيد متجهم الوجه، لكن ليس ليلحق ضرراً بأحد، وإنما ليبحث فحسب عن أخته وأولادها حيث كانوا. لم يفعل ذلك لأنه يحبهم، فهم أبناء الإسكافي الثمل، حباً لم يكِنّ لهم، فهؤلاء الأشبال من هذا الأسد، خاصة عندما يكون لديه أولاد هم المفضلون بالنسبة إليه. عاد الحزانى المهجورون من قبل أب وزوج إلى جبل لافري، وعاد من جديد الأثاث المنزلي المتهالك الذي خرّبته الدنيا، بقي بعضه كنوع من الشفقة في بيت الأب والجد، وبعض تكوّم في مظلة قبل أن يكون لهم بيتاً. وحين اضطروا لصنع مأوى لهم، فرشوا الحُصر على الأرض وصنعوا منها غرفة نوم، وليتحصلوا

على طعامهم، تسول الأطفال الكبار قائلين «حاجة لله»، أما الخزي فلم يكن إلا السرقة. كانت سارة تعمل كما يقول الكتاب، فالحياة لن تكون إنجاب أطفال للعالم، وكان أبواها يحملان معها بعض الهم، أمها كانت أكثر كرماً، فمن أجل هذا خُلقت الأم. وهكذا مرّت الحياة، لكن لم تمر إلا أسابيع قليلة حتى ظهر دومينجو المنحوس يدور بجبل لافري، مراقباً من بعيد زوجته وأبناءه، ثم قطع عليهم الطريق مبدياً ندماً وتوبة، كما قال، وهي كلمات ربما تعلمها حين كان سادناً لكنيسة. اشتاط

لاوريانو كارانكا من الغضب، لا يريد أن يرى ابنته مرة أخرى إن عادت لتعيش مع هذا الرجل المتشرد، ولتضع ذلك الأمر نصب عينيها. جاء المنحوس يتحدث بحيطة شديدة، أقسم أنه قد انصلح حاله وتعلّم من أخطائه وذنوبه، وأنه كان ينقصه هذا الغياب ليفهم كم يحب امرأته وأولاده الأعزاء «حماي العزيز، أقسم لك بهؤلاء، وأركع بين يديك إن استلزم الأمر». هدأ حينئذ غضب الجميع، ورقتْ قلوبهم أمام دموع منهمرة، ثم خرجت العائلة إلى قرية قريبة، تسمى كورتيكاداس، تطل تقريباً على بيت الأب. ولأن المنحوس لا يتمتع بما يسمح له بالعمل لحسابه كما كان يحب، اضطر للعمل في ورشة المايسترو جراميتشو، كذلك كانت سارة تعمل خادمة لتعين زوجها وتحمي أطفالها. والقَدَر؟ بدأ المنحوس في السقوط في هاوية الأحزان كحيوان منعزل، وهذه هي أشد الأحزان كما نرى في قصة الجميلة والوحش، وسريعاً ما قال لزوجته «علينا أن نرحل من هنا، فأنا لا أشعر بالراحة في هذه الأرض، ابقي أنتِ عدة أيام بينما أبحث أنا عن عمل في أرض أخرى»، فلم تجد سارة مخرجاً أمامها، وخاب ظنها في عودة زوجها، انتظرت شهرين وها هي تجد نفسها من جديد أرملة ومهجورة، ثم يظهر المنحوس مسروراً غاية في السرور، يلاطفها بكلمات «يا سارة، لقد وجدت عملاً وبيتاً جميلاً، هيا بنا إلى ثيبورّو». فنزحا إلى ثيبورّو في رحلة لم تكن تعيسة، فالناس هناك مسالمون ويدفعون فورياً. سار العمل على ما يرام، وبدا أن الإسكافي قد أقلع عن ارتياد الحانات على الأقل وقتياً، ولم يطلب منه أحد تسديد دين، وربح ما يكفيه كرجل محترم. جاءت فترة الرخاء في الوقت المناسب، إذ افتتحوا آنذاك مدرسة ابتدائية هناك، وذهب جوان المنحوس في سن رسمية إلى هذه المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة والحساب.

والقدر؟ ركضت الذئاب التي فقدت صوابها في مفترق الطرق، أصابتها لعنة لا أعرف سرّها يا أيها السادة، ربما سحر أسود، إذ ذات يوم هجرت الذئاب جحورها، وفي أول مفترق طرق خلعت ملابسها وارتمت على الأرض وتشقلبت، وتغيّر شكلها للأشكال التي وجدوها عليها. كل الأشكال أم شكل حيوان ثديي؟ كل الأشكال يا سيدي، حتى إن رجلاً قد تحول إلى إطار عربة، وسار هناك يدور ويدور، إنه ألم مبرح، لكن الطبيعي أن يتحول إلى حيوان، كما حدث مع حالة حقيقية ومعروفة لرجل لا أتذكر اسمه كان يعيش مع زوجته في «المونتي دو كورال دا ليجوا»، بالقرب من «بيدرا جراندي»، كانت غوايته الخروج ليلة كل ثلاثاء، لكن هذا الرجل كان يعرف مرضه لهذا نبه زوجته ألاّ تفتح له الباب إن هو عاد، أياً كان ما يتطرق إلى سمعها، فتطرقت صرخات وهمهمات تقشعر لها الأبدان وتجمّد الدم في جسد المؤمن. لم يكن أحد نائماً، لكن عندما تحرّكت الوساوس في صدر الزوجة، وهن كثيرات الفضول يردن أن يتحققن من كل شيء، قرّرت فتح الباب. ماذا رأت هناك؟ يا إلهي، رأت أمام عينيها خنزيراً ضخماً، فحلاً، برأس هائل هكذا، بهذا الحجم، وانقض عليها كأسد ليلتهمها، والحمد لله أن استطاعت صك الباب، مع أنها لم تكن بالسرعة الكافية، إذ سمحت للخنزير بأن ينتزع ببوزه جزءاً من فستانها، ولكم أن تتخيلوا الرعب الذي شعرت به المرأة المسكينة حين عاد زوجها إلى البيت عند الفجر، بهذا الجزء من الفستان في فمه. الحمد لله أن شرحتُ لك كل شيء، قال لها أتحول عند خروجي إلى حيوان، وهذه المرة تحولت إلى خنزير، وكان بإمكاني أن ألحق بك أذى أكبر، لا تفتحي لي الباب مرة أخرى. إنه لا يستطيع أن يرد نفسه. إنه لشأن عظيم. ذهبت المرأة لتروي الأمر لحمويها اللذين أصابهما الضيق لأن ابنهما قد تحول إلى رجل ذئب، وهو مرض لم يصب به أحد في العائلة، حينئذ سعوا إلى سيدة فاضلة لتدعو له وتردد تمائم صالحة لهذه الأحوال، وقالت لهم أنْ أحرقوا قبعته حين يصير ذئباً، يا لها من

وسيلة مقدسة، فحرقوا له قبعته ولم يمسه من يومها سوء. ربما لأنه كان مريضاً في رأسه كان علاجه بحرق القبعة. لا أعرف، والمرأة لم تقل شيئاً حول الأمر. لكن سأحكي لكم حالة أخرى، فهنا بالقرب من ثيبورّو، كان ثمة رجل وزوجته يعيشان منذ زمن في بيتهما، وعادة ما تحدث الغرائب مع الأزواج لسبب ما، وكانا يربيان دجاجاً وطيوراً أخرى. كل ليلة، كان الزوج ينهض ويخرج إلى حوش البيت ويقول قاق، قاق، تخيّل! وعندما كانت المرأة تراقبه من الباب الصغير، كانت تراه يتحول إلى دجاجة كبيرة. بحجم الخنزير؟ آه، أنت لا تصدق، إذن، اسمع بقية الحكاية، كان لهما ابنة، ولأن الابنة كانت على وشك الزواج، ذبحوا دجاجاً كثيراً من أجل الزفاف، كان هذا الدجاج كل ثروتهما، لكن في هذه الليلة لم تشعر الزوجة بقيام زوجها ولم تسمعه يقاقي، ولا كانت تتخيّل ما يمكن أن يحدث. نهض الرجل وأخذ سكينا وتوجه ناحية المكان الذي ذبحوا فيه الدجاج، وجلس بجانب طست وغرز السكين في رقبته، وسقط في المكان نفسه. عندما لاحظت الزوجة خلو السرير من زوجها، وذهبت لتبحث عنه، وجدته قد فارق الحياة وينزف دماً فائراً. إنه القدر، هذا رأيي.

ثم عاد دومينجو المنحوس إلى نقائصه الأولى، الخمر والضرب وسوء المعاملة باليد واللسان. «آه يا أمي، يبدو أنه أب ملعون». «لا تقل هذا يا ولد، إنه أبوك». إنها كلمات تُقال عادة في هذه المواقف والمواقف المشابهة، لا يصح أن تؤخذ مأخذ الجد لا هي ولا الكلمات الأخرى، سواء التي تدين أو تريد أن تحل المشكلة. لكن البؤس قد خط بتعرجاته وجه هؤلاء البشر، والأطفال أدركوا عظم المحنة ويتجولون الآن طلباً للصدقة. والطيبون وذوو الضمائر الحية، مثل أصحاب البيت حيث يسكن آل المنحوس، لا يزالون موجودين، فيتصدّقون عليهم بكثير من الطعام، لكن الطفولة قاسية، وعندما يخبز أصحاب البيت يحتفظون لجوان برغيف، لكن أبناءهم الذين يذهبون أيضاً إلى المدرسة، وجميعهم أصدقاء، كانوا يسخرون من جوان المنحوس، كانوا يربطونه بحبل في غرفة الطعام ويضعون الأكل أمامه، إن لم يأكل لا يفكونه. وما زالوا يتحدثون عن وجود إله.

حينئذ حدث ما كان يجب أن يحدث. بلغ دومينجو المنحوس قمة بؤسه ومحنته. وذات ظهيرة، عندما كان جالساً فوق مقعد يصقل كعب حذاء، نهض فجأة وترك كل شيء، خلع مريلته ودخل بيته، أعد ملابسه للرحيل ثم أخرج من المشنّة نصف خبزة، وضعها في جعبة السفر، ورحل. كانت الزوجة في عملها بالطفلين الصغيرين، وجوان في المدرسة والابن الآخر في جمع الثمار. وكانت هذه المرة الأخيرة التي ترك فيها دومينجو المنحوس البيت. سيعود بعد ذلك ليقول بعض الكلمات ويسمع بعضاً آخر، لكن قصته قد انتهت. وخلال عامين سيسير هائماً على وجهه.

تخلق الطبيعة كائناتها المختلفة بوحشية ملفتة. بين موتى ومشوهين تخلقهم. بالتالي، فطريقتها مزدوجة وملتبسة في تشكيل الكائنات وتطورها، بهامش مريح من النقصان قد يؤدي إلى تغيرات فيما يجب أن يُقال ويُفعل ويكون، غير أن ثمة من يهربون ليضمنوا نتائج أفضل في إدارة حيواتهم. لا تحدد الطبيعة المناطق المحظورة، لكنها تستفيد منها. وبعد الحصاد، إن لم يجد الآلاف من النمل مطامر كافية، تأتي المكاسب والخسائر على حساب الكوكب، إذ لا تبقى نملة من دون حصتها الغذائية المعروفة. لا يهم في الإحصاء النهائي إن مات أربعة ملايين بسبب الفيضان، أو بضربة

فأس، أو حتى بتنافس قطرات البول، من عاش منها أكل، ومن مات ترك طعامه للآخرين. الطبيعة لا تحصي الموتى، وإنما تعد الأحياء، وعندما يزيد عدد هؤلاء، تبتكر طريقة جديدة لإماتتهم. كل شيء غاية في اليسر، غاية في الوضوح والعدل، لأنه، بذاكرة نملة أو ذاكرة فيل، لم يعترض أحد في مملكة الحيوانات الكبيرة.
ولحسن الطالع، الإنسان ملك الطبيعة. يستطيع أن ينهي حساباته بالورقة والقلم، أو بطرق أخرى أكثر ذكاء، يعبّر عنها بالهمسات أو بأنصاف كلمات مفهومة، أو بغمزات العين وحركات الرأس. في هذا التمثيل الصامت والمحاكاة تجتمع، بخشونة شديدة، رقصات الصراع وأغنياته، الإغراء أو الخديعة التي تستخدمها بعض الحيوانات للحصول على غاياتها. قد نفهم هكذا بشكل أفضل بلعبة الأثقال والمقاييس التي يمارسها في حياته اليومية لاوريانو كارّانكا، الرجل الصارم وصاحب المبادئ، انظر لتعصبه، لرفضه غير القابل للمرونة لعرس ابنته سارة، واليوم يحتضن في بيته ورغم أنفه وكصدقة حفيده جوان المنحوس، وحفيداً آخر يسمى جوزيه نابيزا، حفيده المفضل بطريقة أخرى. سنقول سبب التفرقة، مع أن ذلك لا يهم كثيراً في فهم القصة، فقط لنعرف أنفسنا بشكل كافٍ، فتلك تعاليم الإنجيل. جوزيه نابيزا ابن إحدى أخوات سارة من أب مخادع، ويستفيد من حالته هذه، مع أن بنوته لأبيه كانت شديدة الوضوح، ويستطيع أي أحد أن يشير إليه بإصبعه. في هذه الحالات، ليس غريباً أن يحدث تواطؤ عام يثبته برهان يعرفه الجميع، وفضول يراقب سلوكيات المشتبه فيهم، وهو ما لا يصح انتقاده نهائياً، فهي وسيلة لتزجية الوقت. ينجبون هؤلاء الأطفال لوجه الله ثم يهجرونهم، للأطفال أحياناً أب وأم، ومع ذلك ينتهون في ملجأ لقطاء أو على الأرصفة، فتأكلهم الذئاب أو إخوان الرحمة. لكن جوزيه نابيزا المحظوظ، رغم عار مولده، وهبه القدر أباً واسع الرزق وأجداداً بخلاء سيرثهم في المستقبل، احتمال بعيد، لكنهم على أي حال سيتركون له إدخاراً ما كافياً ليكون وعداً بثروة تؤول إلى بيت آل كارانكا. أما جوان المنحوس فكانوا يعاملونه كما لو كان لا يستحق لا شربة الماء ولا الملح، فابن الإسكافي المتشرّد حالياً ليس إلا نكرة لا تراه العائلة ولا يستحق. بينما الآخر، مع أنه ابن سفاح لم يُصلّح بالزواج، كان جده يحمله على كفوف الراحة ويُعمى ويُصم أمام أصوات وبراهين تلوث شرفه، على أمل الوصول إلى منفعة لم تتحقق في نهاية الأمر. فلتعرف هكذا أنه لا يوجد عدل إلهي.

واصل جوان المنحوس الدراسة عاماً آخر، بعده انتهت قصة التعليم بالنسبة إليه. نظر الجد كارّانكا إلى هذا الجسد الصغير كالدمية، وارتاب للمرة الألف في هاتين العينين الزرقاوين اللتين تنظران إلى الأرض بخوف، وأمره «اذهب مع خالك للفِلاحة، وسنرى كيف تعمل، لا تعتد الأخذ فقط». كانت كلمة فِلاحة تعني حرث الأرض وإزالة الأغصان والأوراق الجافة، أعمال تحتاج إلى قوة وحشية ليست بالضرورة متوافرة لدى طفل، والفائدة الوحيدة تكمن في أن يعرف المكان الذي سينتهي إليه مصيره حين يكبر. وحشياً كان جواكيم كارّانكا الذي
كان يتركه ليلاً في الحقول غفيراً لكوخ، أو عند حوض الزرع، عمل لا يلائم نحافته الشديدة. وأكثر من ذلك، ليلاً، بنَفْس شريرة صرف، كان يذهب ليرى إن كان ابن أخته نائماً، حينها يلقي فوقه زكيبة قمح، فيُفزع المسكين باكياً، وكأن كل ذلك غير كافٍ، كان يغرز في بدنه عكازا برأس معدنية مثل حربة، وكلما زاد بكاء الطفل وصراخه، زادت ضحكاته هو، عديم الضمير. إنها وقائع

حقيقية تلك الوقائع، لهذا من الصعب أن يصدقها من يتخذها خيالاً. وأثناء ذلك، أنجبت سارة بنتاً أخرى ماتت في يومها الثامن.

ذاع في جبل لافري خبر نشوب حرب في أوروبا، وهي مكان قليلون من يعرفون أخباره وأضواءه. هنا أيضاً تنشب حروب، وليست تافهة، فطول اليوم يعملون، إن وجدوا عملاً، وطول اليوم يتضورون جوعاً، مع عمل ودونه. لكن الأموات ليسوا كثيرين، وعادة ما يدخلون قبورهم بكامل جسدهم. مع ذلك، كل موت يأتي في ساعته، كما قلنا من قبل.

عندما بلغ مسامع سارة أن زوجها يتجول في كورتيكاداس، اجتمعت بأبنائها الذين يعيشون معها، وبريب في حماية أبيها كارّانكا، أخذت جوان من الطريق وخبأته في بيت بعض أقارب لها يدعون آل بيكانزو، وهم طحانون في مكان على بعد نصف فرسخ من قرية تسمي جسر كافا. لم يتبق من هذا الجسر إلا عقد مكسور وأحجار كبيرة في قاع النهر، وكان ثمة خزان يستحم فيه عارياً جوان المنحوس وأطفال من سنه. وعندما كان الصبي يمثّل أنه ميت بوجه للسماء الزرقاء، كان كل شيء في عينيه سماء وماء. هنا اختبأت الأسرة، خائفة من تهديدات تصل إلى كورتيكاداس عبر أفواه المشائين بالنميمة المعروفين. ربما لم يكن ليعود دومينجو المنحوس إلى جبل لافري لو لم يكن رسول، عند عودته، قد أخبره بهروب أسرته المذعورة. وذات يوم، حمل جعبته على كتفه، عبر سبل الجبال والوديان الصغيرة، لا يرى إلا غايته، وظهر أمام المطحن طالباً الرضا والعودة لزوجته وذريته. خرج جوزيه بيكانزو إلى الطريق، بينما كانت المرأة تخفي اللاجئين في آخر البيت. يقول دومينجو المنحوس «صباح الخير يا بيكانزو»، فيرد جوزيه بيكانزو «صباح الخير يا منحوس، ماذا تريد؟»، «جئت أبحث عن عائلتي التي هربت مني، وأخبرني شخص بأنهم يختبئون في بيتك»، «لم يخدعك من قال لك ذلك، فهم في بيتي»، «إذن، قُل لهم هيا بنا، فكفانا ذهاباً وإياباً»، «انظر يا منحوس، ربما تستطيع أن تخدع بعض الناس، لكنك لا تستطيع خداعي، فأنا أعرفك»، «إنهم أسرتي، وليسوا أسرتك»، «إنهم في يد أمينة، ولن يخرج منهم أحد من هنا، فهم لا يريدون مرافقتك». «أنا الأب والزوج»، «لا ترو لي حكايات، فأنا شاهدت بعينيّ عندما كنا جيراناً كيف كنت تعامل زوجتك التي كانت تعمل بشرف، وكيف كنت تعامل أولادك المساكين، ورأيت البؤس الذي عاشوا فيه، ولولا أننا، أنا وأناس آخرون، قاتلنا جوعهم لما كنت أنت الآن هنا، لأنهم كانوا سيصيرون في تعداد الأموات جميعهم». «أنا الأب والزوج»، «انظر، سأكرر لك ما قلته، اذهب إلى حيث لا يسمعون صوتك ولا يرون سحنتك ولا يخاطبونك، لأن الرب لن يغفر لك».

وأمطرت وأصبح الجو معتدلاً والصباح مشمساً بعد المطر، فنحن في الخريف. يحدّد دومينجو المنحوس بعكازه خطاً في الأرض أمامه، يعني على ما يبدو علامة تحدٍ، بداية مشاجرة، يفهمها جيداً بيكانزو، لهذا يستعد، يمد يده ليسحب نبوته. هذه الآلام ليست آلامهم، لكن كم مرة يعجز الإنسان عن الاختيار حيث يجد نفسه في حلبة ما. وراء ظهره، خلف الباب، يقبع أربعة أطفال مرتعشين وامرأة إن استطاعت ستدافع عنهم بجسدها، لكن القوة غير متساوية، لهذا يخط بيكانزو أيضاً خطاً في الأرض. مع ذلك، لم يستحق الأمر كل هذا. لا ينبس دومينجو المنحوس بكلمة، لا

تصدر منه إيماءة أخرى، وما زال يتردد على سمعه صدى ما قالوه له، ولكي يدركه جيداً لا يمكن أن يبقى هنا. يعطيه ظهره، يرجع على عقبه، يسير بمحاذاة النهر الهابط ويترك جانباً جبل لافري. هناك من يراه ويقف، لكنه لا ينظر. ربما يهمهم «أرض ملعونة». يقول ذلك من حزن هائل، فقد لا يجد سبباً واحداً خاصاً به، أو كلها أسبابه، وحينئذ لن تهرب ولا أرض واحدة من المحاكمة، فكلها ملعونة، مدانة ودائنة، ألم الميلاد. يهبط من منحدر، يصل إلى معبر النهر، يعبره فوق ثلاثة أحجار بخطوة واحدة، ويصعد للجانب الآخر. ثمة تل محاذٍ لجبل لافري، لكل امرئ شجرة زيتون وأسباب لتواجده هناك. يرقد دومينجو المنحوس تحت ظل زيتونة ممتدة ويراقب السماء من دون أن يدرك ما ينظر. إنه لا يفكر، إلا إذا كان التفكير هو هذا المنظر الطبيعي المترع بالصور البطيئة، المتحركة للوراء وللأمام، وكلمة منطوقة لا يمكن فك شفرتها، كلمة تدور من حين لآخر مثل حجر يسقط بلا سبب من أعلى منحدر إلى أسفله. يستند على كوعيه، يقع أمامه جبل لافري مثل صورة المسيح في المذود وحوله أهله، وفي أعلى نقطة، فوق برج، ثمة رجل كبير جداً يضرب نعل حذاء، يرفع المطرقة وينزلها بضجيج. يرى تلك الأشياء وهو ليس ثملاً، فقط ينام ويحلم. الآن يرى عربة محملة بأثاث وتجلس عليها سارة، تقع أو لا تقع، وهو يمضي يسحبها، حمل ثقيل يا أيها الأب أجاميديس، ويحمل في عنقه جُلجلاً بلا لسان جرس، يهزه بشدة كي يدق، يجب أن يدق، إنه جرس من الفلين، يا له من قداس ملعون. وقريبه بيكانزو يدنو، يشد منه الجلجل ويضع مكانه حجر الرحى، هذا الرجل لن يغفر له الرب.

ربما قضى الظهيرة كاملة في هذا الحلم، لكن لم يكن ذلك إلا دقائق معدودة. فالشمس بالكاد تحرّكت من مكانها، ولا يوجد أي اختلاف في الظلال، فجبل لافري لم يكبر ولم يصغر. نهض دومينجو المنحوس ويمرر يده اليمنى فوق لحيته النابتة، فتلتصق بإصبعه قشة. يدوّرها بين شحمة أذنه، يكسرها ويرميها، ثم يدخل يده في جعبته، يخرج حبلاً، ويدخل بين أشجار الزيتون، مختبئاً من عيون جبل لافري. سار، نظر، كان يبدو مثل صاحب وسية يقيّم الحصاد حسب الأطوال والمقاومة، وحدد في النهاية المكان الذي سيموت فيه. لف الحبل حول الغصن، ربطه بكل شدة وجلس فوقه، عقد العقدة، رمى نفسه. لم يمت أحد أبداً بهذه السرعة مشنوقاً.

والآن غدا جوان المنحوس رب البيت، الكبير، الحاكم بلا إمارة، المالك للا شيء، رغم أن ظله في الأرض ما يزال صغيراً. يجر جوان القبقاب الذي أمرته أمه بصنعه، لكنه قبقاب كبير وثقيل، ينزلق من قدميه، لذلك اخترع له دوبارة بدائية تمر من تحت النعل وتشبك بثنيات السروال. إنها صورة مضحكة، صبي يحمل على كتفه فأساً كبيرة، أكبر منه. ينهض عند الفجر من سريره على ضوء القنديل الزيتي والبارد، يرى كل شيء ضباباً، وغارقاً في النوم لا يزال، يتحرك حركات بلهاء، وربما يخرج من مرتبته التبنية بقبقابه في قدميه، وفوق كتفه فأسه، تلك الآلة البدائية ذات الحركة الواحدة، يرفعها ويتركها تسقط من تلقاء نفسها، فمن أين له القوة؟ تقول له سارة «يا بني، عطفاً عليّ منحوني عملاً لك حتى تربح شيئاً، فالحياة غالية وليس لدينا من يعولنا». ويسأل جوان المنحوس، العارف بالحياة «هل أحرث الأرض يا أمي؟» إن استطاعت سارة ستقول له «لا تذهب يا بني، فأنت ابن العاشرة وهذا ليس عملاً لطفل»، لكن ماذا ستفعل في وسية تتلاشى فيها سبل العيش وحرفة أب متوفٍ مشؤومة. في ظلمة الليل الممتدة، ينهض جوان المنحوس ويعبر، لحسن

طالعه، جسر كافا السعيد رغم كل شيء، كما برهنت على ذلك من قبل حين ذكرت قصة إنقاذ المسكين من غضب دومينجو المنحوس، ليصل إلى وسية بيدرا جراندي. المكان سعيد مرتين إذن، لأنه، حتى وإن انتحر دومينجو بطريقة مزرية، إلا أن الإسكافي ورغم ذنوبه الكثيرة، لابد أنه جالس الآن على يمين الإله الأب، وإلا فلا رحمة. إذ دومينجو رجل مسكين، منكوب، لا يمكن أن تدينه أبداً النفوس الطيبة. سيعبر الابن إذاً بين ظلال لم تبددها الشمس البعيدة بعد. تقطع عليه الطريق زوجة بيكانزو وتقول له «يا جوان، أين تذهب؟»، يجيبها الابن ذو العينين الزرقاوين «إلى بيدرا جراندي لأستأصل الأعشاب الصغيرة»، فتجيبه السيدة «يا لك من مسكين، أنت لا تقدر على هذا العمل ولا حتى بفأسك الكبيرة، بالإضافة إلى أن رقعة الأعشاب متسعة جداً». من الواضح أنها محادثة فقراء، بين امرأة ناضجة ورجل لم ينضج بعد، يتحدثان عن أشياء قليلة الأهمية ولا شأن روحي لها، لأننا نرى بوضوح أنهم خشنون وبلا علم ينيرهم، ولو كان لديهم بعض النور، سينطفئ مع مرور الوقت. يعرف جوان المنحوس الإجابة التي سيقولها، لم يملها عليه أحد، فأي إجابة أخرى ستكون بلا شك خارج الزمان والمكان «فلتكن مشيئة الرب، يجب أن أساعد أمي المسكينة، فحياتنا كما تعرفين، وأخي أنسيلمو يتسول صدقات لوجه الله ليشتري لي شيئاً ويأتي حيث أعمل، أمي لا مال لها لشراء الزاد». تقول زوجة بيكانزا «يا ابن الرب، لا تقل لي إنك ستعمل بلا جوالق». يرد الصبي الذي نسيه الرب «نعم يا سيدتي، أسير بلا شيء».
قد تكون الفرصة مواتية ليصرخ كورال يوناني بذعره ليخلق جواً درامياً ملائماً لسمات الكرم الكبرى. أفضل صدقة هي صدقة الفقير للفقير، حيث تكون على الأقل من ند لند. كان بيكانزو يعمل في الساقية ونادته زوجته «اسمع يا زوجي، تعال هنا»، اقترب الطحان ونظر إلى جوان. وكررا الكلمات المعروفة جيداً، وبالقول والفعل بقي جوان المنحوس في هذا البيت خلال كل الأيام التي استمر فيها العمل في وسية بيدرا جراندي، وأعدت له زوجة بيكانزو سلة طعام كبيرة كما لو كان صبياً مقدساً. يجلس الصبي أيضاً على يمين الرب، وفي حديث عذب بلا شك مع دومينجو المنحوس يحاول كل منهما معرفة لماذا تكون النكبات كبيرة، والتعويض قليلاً.

كان جوان المنحوس يربح ريالين، أجرة رجل ناضج منذ أربع سنوات فائتة، لكنها أجرة بائسة اليوم، فالحياة أصبحت في غاية الغلاء. كان الصبي يستفيد من نِعَم رئيس العمل الذي تربطه به صلة قرابة بعيدة، حيث كان يغض البصر عن ضعف الصبي في اقتلاع جذور عشب كانت أشد من أن تقتلعها هذه النحافة. طوال اليوم، خلال ساعات وساعات داخل الحقل، يضرب بالفأس ويطحن الجذور بالعصا، لكن إنْ كان طفلاً، يا سيدي، فما الداعي لتنهكه بهذا الشكل. «هذا الصبي، يا رئيس العمل، ماذا يفعل هنا، فلن ينفعنا بشيء»، هذا ما يقوله لامبيرتو كلما مر. فيجيبه الآخر «إنها صدقة نتبرع بها، فهو ابن دومينجو المنحوس، رجل بائس». فينهي لامبيرتو «طيب»، ويدخل الإصطبلات ليطمئن على الخيول، التي كثيراً ما يقدّرها. كان الجو حاراً بالداخل، ورائحة التبن كانت مريحة، هذا الحصان يسمى سلطان، وهذا ديليكادو، وهذا تريبوتو، وهذه كامارينيا، وهذا المهر الصغير سنسميه المحظوظ.

أنهى جوان شغل الجرف وعاد إلى بيت أمه. كان محظوظاً، إذ لم يمر أسبوعان حتى طلبوه لعمل آخر في وسية سيد آخر يسمى نوربيرتو، وتحت يد رئيس عمل يسمي جريجوريو واسم شهرته

لاميراو. كان جريجوريو هذا من أسوأ الحيوانات المفترسة. فهو لا يرى فرقاً بين الأجراء وزمرة المتمردين الذين لا يروضون سوى بالعصا والسوط. لم يكن نوربيرتو يتدخل في هذه الشؤون، كما أن منظره يوحي بالوقار، هو مسنّ وأشيب، نبيل العائلة وغزيرها، ابن ناس رقيقة مع أنهم ريفيون، يقضون الصيف في حمامات فيجيرا. كانوا يملكون بيوتاً بلشبونة، وبدأ فتيان العائلة، رويداً رويداً، يهجرون جبل لافري، فلقد كان العالم بالنسبة إليهم منظراً طبيعياً أكثر رحابة من هذا، وظلوا يرددون ما وصل إلى مسامعهم من غيرهم، حتى حانت لحظة رفعوا فيها أرجلهم من الوحل وذهبوا بحثاً عن أرض الحضارة المبلطة. لم يعترض نوربيرتو طريقهم، حتى إنه بتحفظ مبهج كان راضياً عن نسله وأقاربه البعيدين. وبين خلايا النحل وحقول القمح، بين البلوط وخنازير المراعي، كانت الوسية تطعم العائلة بفوائض كبيرة، تتحول فيما بعد إلى نقود سائلة، طبعاً كلما خضع الأجراء، هؤلاء وغيرهم. من أجل هذا وجدنا رؤساء العمل يشبهون النقباء «مسرور»، لكن في ملابس مدنية، وبلا حق بالتالي، وكانوا يمتطون الخيول ويعلّقون السيوف، وبسلطة صاحب الوسية نفسها. وبعصا تحت الإبط، يستخدمها كما السوط، يطارد جريجوريو لاميراو صف الأجراء بعين منتبهة لأقل لحظة راحة أو أي إيماءة تراخ. كان رجل لوائح، عليه السلام، لأنه ليعطي عبرة كان يعاقب حتى أولاده. ثمة من كان يشكو، نتحدث عن الغلمان، لأنه كان يوماً غريباً اليوم الذي يمر من دون أن يوزعهم ضرباً بعصاه، ويضربهم علقتين أو ثلاثاً إن كان مزاجه معكراً. كان جريجوريو لاميراو، حين يخرج من بيته أو معسكره، يترك قلبه معلقاً خلف الباب ويسير خفيفاً، من دون اهتمام إلا بكسب ثقة صاحب الوسية وربح النقود الكثيرة وحضور أفضل المآدب الفاخرة التي تليق بموقعه كرئيس عمل وجلاد لهؤلاء الجنود. غاية في الجبن نعم كان، فذات مرة، قاطع عليه الطريق أب أحد ضحاياه المنكوبين وهدده إن عاد لضرب الصغار بلا وجه حق، سيرى رأسه تتكسّر على عتبة بابه، إن كان يستطيع أن يرى وقتها. أثّر فيه التهديد في هذه الحالة، لكنه عاد ليضاعف عقاب الآخرين.

في بيت نوربيرتو، كانت السيدات يعشن بنعومة تناسب أنوثتهن، يتناولن الشاي ويثرثرن، وكنّ أمهات روحيات لبنات الخادمات الأكثر قرباً. وفوق آرائك الصالون كانت ثمة مجلات عن الموضة، آه يا باريس، يا مدينة قرروا الذهاب إليها بمجرد أن تنتهي الحرب الحمقاء التي، من بين أضرارها الكبيرة والصغيرة، يأتي تأخير مشروعهم. فظائع ليس بأيدينا تفاديها. أما عجوزنا نوربيرتو، فعندما كان يسمع من رئيس عمله أخبار سير بعض أعمال الأرض، مهمهماً بكلمات تهدف إلى أن يقيّمه كجلاد، كان يفرغ صبره كأنه يقرأ تقارير الحرب في جريدة رسمية. كان محباً لألمانيا بميل إمبراطوري وذاكرة غير واعية لوطن لامبيرتو هوركيس، الذي ربما يكون جده.
وذات يوم، على سبيل التسلية الصرف والحكيمة، قال ذلك لجريجوريو الذي ظل يحملق فيه بعينين جاحظتين، من دون أن يفهم شيئاً مما يُقال له، فهو رجل خشن وأميّ. لكن، على سبيل الاحتياط، ضاعف إذلال الأجراء وزاد في صرامته، لدرجة أن أبناءه الكبار كانوا يرفضون العمل تحت سوطه، فكانوا يبحثون عن عمل في وسايا أخرى يكون رؤساؤها أكثر إنسانية، ويجدون فيها أماناً أكبر، حتى ولو وافتهم المنية بعد ذلك بقليل.

كانت تلك فترات ارتبط فيها الانضباط بالرخاء. لذلك، كانت سارة، التي بحق لدغتها الأيام لما رأته من زوجها وبألم قلب يأكلها ويلقي عليها ذنب موت وليدتها الكارثي، كانت تصرخ في كل لحظة وساعة «أنا أحذرك، إن لم تفق سأضربك ضرباً مبرحاً، علينا أن ننظر إلى حياتنا». هذا ما كانت تقوله الأم، أما جريجوريو فكان يشدّد «اسمع يا منحوس، لقد قالت لي أمك إنها لا تريد منك إلا عظمك لتصنع منه مقعداً وجلدك لتصنع به طبلة». وإذا تحدثت هكذا السلطتان بتوحد ودقة، ماذا سيفعل جوان غير تصديقهما. لكن ذات يوم، عندما بلغت الروح الحلقوم من الكلمات اللاذعة والعمل المفرط، تحدى تهديدهما بسلخ جلده وكسر عظامه وحدّث أمه المذهولة بعبارات واضحة. حدّث سارة المسكينة التي لم تتعلم بعد ما الحياة. انطلقت حينئذ الآهات والصرخات «إنه رجل ملعون، فأنا لم أقل له ذلك، ولا أنا أنجبت ولداً من أجل ذلك، كل الأثرياء يحتقرون الفقر، وهذه اللعنة لا تصيب أولادهم». لكن هذا الكلام قد قيل من قبل.

لا يتمتع جوان المنحوس بجسد بطل. إنه غلام هزيل له من السنين عشر منحوسة، فما زال الصبي ينظر إلى الأشجار على أنها مأوى للأعشاش أكثر منها منتجة للفلين والبلوط والزيتون. ومن الظلم إجباره على الاستيقاظ بينما الليل ما يزال باسطاً ظلامه، والسير شبه نائمٍ وبمعدة خاوية في طريق طويل أو قصير ينتظره ليصل إلى مكان عمله، وبعد ذلك يقضي هناك اليوم بأكمله حتى تغرب الشمس، ثم يعود إلى البيت مرة أخرى بعد هبوط الظلام، ميتاً من التعب، إن أمكن أن نسمي ذلك تعباً، إن لم يكن سكرات الموت. لكن هذا الطفل، وكلمة طفل تقال فحسب من قبيل الاستخدام الشائع ففي الوسية لا يصنفون الأجراء هكذا ولا يُحترم ولا يُحمى هذا التصنيف، فكلهم أحياء وهذا يكفي، أما الموتى ففي المقابر يدفنون فلا يعملون، أقول هذا الطفل ما هو إلا طفل بين آلاف، كلهم
متساوون، كلهم يتجرعون المرارة، كلهم يجهلون الشر الذي اقترفوه ليستحقوا هذا العقاب. من جهة أبيه هو من أصل حرفي، فأبوه إسكافي وجدّه نجار، لكننا نرى ترتيب القدر، فهنا لا يوجد مخرز ولا
فرشاة، كل ما يوجد أرض خشنة، قيظ مميت، برد قاتل، جفاف هائل في الصيف، ماء مجمّد في الشتاء، تجميد قاسٍ في الصباح، ترصيع غصات في الحلق كما تقول السيدة رحمة، قشف أحمر مشقوق ومدمى في الأيدي والأقدام، وإن حكّت اليد المتورمة في جذع أو حجر لصار الجلد ناعماً، ومن الداخل، مَنْ يستطيع أن يصف هذا الألم والبؤس! ليست ثمة حياة إلا هذا السير الشقي دوماً، حيوان يتعايش فوق الأرض مع حيوانات أخرى، حيوانات أليفة وشرسة، نافعة وضارة، هو نفسه، مع البشر أمثاله، يعاملونه كحيوان نافع أو ضار، حسب احتياجات الوسية له، الآن أستدعيك، الآن تعفن في مكانك.

وتأتي البطالة، ويبدؤون في طرد الصِبية ثم النساء، وينتهون بالرجال. فيتجولون في قوافل في الطرقات بحثاً عن يومية بائسة. لا يرون في هذه الأحوال رؤساء عمل ولا مديرين، ولا أصحاب وسايا بالطبع، فهم محبوسون في بيوتهم، أو بعيداً في العاصمة أو في محميات أخرى. الأرض ليست إلا قشرة جافة أو مستنقعاً، لا يهم. ينضج العشب، يعيشون منه وتحترق أعينهم، تصير المعدة طبلة، ويأتي الإسهال، إسهال مؤلم، يهجر الجسد الذي يتفتت من تلقاء نفسه، إسهال نتن، حمل لا يمكن احتماله. تتولد الرغبة في الموت، وهناك من يموت.

نشبتْ الحرب في أوروبا، كما قُلتُ. ونشبت أيضاً في أفريقيا. هذه الأمور تشبه الصراخ فوق ربوة، من صرخ يعلم أنه صرخ، وأحياناً يكون آخر من يعلم، لكن، من أعلى الربوة إلى أسفلها، يتضاءل الصوت حتى يختفي تماماً. لم يصل لجبل لافري عن الحرب إلا أخبار من جريدة، أخبار لم يعرفها إلا من يجيدون القراءة. أما الآخرون، عندما كانوا يرون ارتفاع الأسعار وندرة المواد الغذائية الأساسية، كانوا يتساءلون عن السبب. «السبب هو الحرب»، كان الفاهمون يخبرونهم. الحرب تلتهم الكثير، والكثير تثريهم. فالحرب هذا الحيوان الخرافي الذي قبل أن يلتهم الرجال يفرغ جيوبهم، رجلاً رجلاً، عملة وراء عملة، حتى لا يضيع شيء وينتقل كل شيء، كما يقول قانون الطبيعة البدائي الذي سيتعلمونه بعد ذلك. وعندما تشبع الحرب من الأطعمة، عندما تقلس من الشبع، تستمر بمهارتها المكررة، بأصابعها الرشيقة، ساحبة دوماً من الجيب نفسه، واضعة دوماً في الجيب نفسه. إنها عادة، بشكل نهائي، تأتيها من السلام.

في بعض القرى المجاورة، ثمة من ارتدى لبس الحداد، «قريبنا مات في الحرب». كانت الحكومة تبعث تعازيها، مواساتها الحزينة، وتقول إنه الوطن. كانت تردد ما قاله من قبل ألفونسو إنريكيز(3)، «نحن من اكتشفنا الطريق البحري لبلاد الهند، المرأة(4) ونونو ألفاريز بيريرا الفرنسية تُجن بجنودنا»، أما المرأة الأفريقية فلسنا على يقين، إلا إذا صح ما هو معروف من إنهن كن معفيات بالمصادفة، كانت القوات مشغولة بما يحدث في روسيا، استعداد كبير للهجوم في الجبهة الغربية، سلاح المستقبل هو الطيران لكن المشاة هي ملكة المعارك، لا شيء يتحقق دون حاجز المدفعية، لا يمكن الاستغناء عن السيطرة على البحار، ثورة في روسيا، بلشفية. يقرأ أدالبيرتو جريدته، ينظر من نافذته، ويداهمه القلق من زمن الغيوم، يشارك الجريدة في قلقها، ويقول بصوت مرتفع «غمامة ستعبر».

ليس كل ما يجنيه الجانب والجانب الآخر وروداً فحسب، بل أيضاً شوكاً، كما أسلفت، لكن توزيع الشوك يأتي طبقاً لقواعد عدم المساواة المعروفة، ويكون إنكاراً جلياً للمكتوب، وربما يكون صائباً في مسائل البحر «يواجه المركب الكبير عاصفة كبيرة»، لكن على الأرض المسألة مختلفة. فزورق عائلة المنحوس صغير، عمقه قليل، ولم يغرق كل من فيه فقط بسبب المصادفة والحاجة إلى هذه القصة. مع ذلك أعطى الزورق إشارات مؤكدة لتحطمه على صخرة قريبة، أو لتحطم أجزائه عندما صار أرملاً جواكيم كارّانكا، أخو سارة. ولم يتحمس للزواج مرة أخرى، ولم يكن لديه خبر عن عاشقات له، فلديه ثلاثة أولاد ليربيهم وخلق شيء بما فيه الكفاية، حينئذ اتحد الجوع مع شهية الأكل، ما يعني اتحاد الأخوين في الحياة والذرية.

وجاءت نتيجة الصفقة متوازية، صار أباً لأولادها، وهي أماً لأولاده، والأولاد أولاد خال وعمة، وسنرى نتيجة هذا الاندماج. لم يحدث أسوأ مما يمكن توقعه، بل ربما أفضل. كفّ أولاد المنحوس عن طلب الصدقة على الأبواب، وكسب جواكيم من يعتني بملابسه، وهو أمر يحتاجه الرجل، وتعتني أيضاً بملابس أولاده. ولأنه ليس من العادة أن يضرب الأخ أخته، ولو فعل ذلك لن يكون

كثيراً مثل الزوج لزوجته، فقد عاشت سارة فترة أفضل في حياتها. وهناك من يحيا هذه الفترات قليلاً. قد نقول إنهم أناس لا يعرفون شيئاً عن الحياة.

كل يوم له حكايته، فكل دقيقة تمر يمكن حكي ما حدث فيها بسنوات، بكل ما فيها من إيماءة، من كلمة، من مقطع، من صوت، ولن نتحدث عن الأفكار، فمن المجهود الشاق أن نفكر فيما يفكر الآخرون به، أو فيما فكروا، أو فيما يفكرون في تلك اللحظة، أو ما هي الفكرة التي ستشغل العقول الأخرى، فلو فعلنا ذلك لن ننتهي أبداً. من الأفضل أن نوضّح أن هذه السنوات ستكون سنوات التربية المهنية لجوان المنحوس، بالمعنى التقليدي والريفي الذي
ينص على أن الرجل الذي يعمل يجب أن يحيط علماً بعمله، أن يجيد حصد الثمار كما يجيد استئصال الفلين من شجرة، أن يكون ماهراً في وضع السياج كما هو ماهر في بذر البذور، أن يكون قوي الظهر للشيل كما هو قوي الكليتين للعزق. هذه المعرفة تنتقل عبر الأجيال، بلا امتحان ولا جدال، وهي هكذا لأنها دائماً كانت هكذا، فهذه تنقية من الأعشاب الضارة، وهذا منجل كبير، وهذه قطرة عرق، أو ريق أبيض وغليظ وقت ظهيرة الخبيز، أو ضربة شمس في الرأس، أو عراقيب منهكة من سوء التغذية. بين سن العاشرة والعشرين يجب تعلم كل شيء وبسرعة، وإلا فلن نجد صاحب عمل يقبلنا.

---

(1) اغتيل الملك كارلوس وابنه الأمير سنة 1908، ثم عاشت البرتغال حالة تدهور على المستوى الاقتصادي وفقدت مستعمرات تابعة لها. ثم لم يستطع مانويل، الملك الجديد، تحسين صورة الملكية، فأطاحت به حركة أعلنت أول جمهورية برتغالية في الخامس من أكتوبر 1910 (المترجم)

(2) تسمية ألمانية قديمة تعني «اتحاد» وأسسه مجموعة تجار ألمان بالخارج للدفاع عن مصالحهم. (م)

(3) الفرنسو إنريكيز (1109-1185) أول ملك للبرتغال: وكان يلقب بالفاتح. (م)

(4) نونو آلفاريز (1360-1451) قائد برتغالي شهير. (م)

ذات يوم قال جواكيم كارّانكا لأخته إن عليها أن تبحث عن صاحب عمل ليستأجرهم باليومية، فوافقتْ هي، وتلك عادة اكتسبتها منذ سنوات خضوعها كزوجة، ولاح أمامها أمل في البقاء طول العام محمية من البطالة، وقد يكون ذلك طموحها الصغير، فلم يكونوا يطمحون إلى شيء آخر. تزامن هذا مع انتقال ملكية «جبل بيرا بورتاس» بالميراث إلى الأخوة الثلاثة بعد وفاة السيد العجوز، أبو الثلاثة، الذي ألقى نطفته في رحم عشيقة ذكية كانت تبدو خاضعة لهوى البطريرك المخيف، وكانت ترتجف بالصرخات لعدم توافقهما، لكنها سريعاً ما عادت إلى الحظيرة، كما الخروف، لتحرم الأقارب الأقربين من الإرث في مصلحة الأبناء غير الشرعيين. كان يأتي ثلاثتهم، بيدرو وباولو وساؤل، ليديروا الجبل بالتناوب، كل منهم موسماً، إن كانت أوامر بيدرو هي الاكثر طاعة. كان هذا نظاماً مضحكاً، إذ بات كل منهم جاسوساً على أخطاء أخيه، فيجأر ساؤل بأنْ دون إدارته ستغرق السفينة، ويفتخر باولو بأنه الوحيد الذي يعرف الإدارة، ويستهلكون أنفسهم باتحادات وخيانات أسرية، كما هي العادة في العائلات. إن حكاية هذه الحكومة الثلاثية ستترك السفينة حطاماً. هذا من دون الحديث عن الأم التي تصرخ قائلة إن أولادها قد نهبوها، سرقوها، وهو قول شديد الوضوح، فبعد أن ضحّت كثيراً من أجلهم، وصارت خادمة لخنزير عجوز والآن خادمة لأولاده، يضنّون عليها بالمال ويحبسونها. وأثناء الليل، عندما يغطي الصمت الجبل ليختبئ أفضل في أسرار الظلمة العظيمة، كان أهله يسمعون صرخات خنزيرة مذبوحة وركلات وحشية في الأرضية الخشبية. كانت هذه حرب الأم وأولادها.

عمل جواكيم كارّانكا مع هؤلاء المُلاّك، وتوسّط لـ جوان المنحوس ليكون أجيراً. أجرتهما معاً كانت بائسة؛ إذ كانت تكفي، إن كفت، لسد ارتجافات الجوع المستمرة، وما كان ينقذهم من وطأة الجوع إلا استغلال أيام الآحاد وأعياد القديسين للعمل في الحدائق، ليعاقبا جسديهما. كانت أجرة جواكيم كارّانكا ستين كيلو دقيق ذرة، ومائة إسكودو، وثلاث لترات من الزيت، وخمسة مكاييل فاصوليا، ومسكناً وحطباً، وفي نهاية العام إكرامية معقولة. أما أجرة الصغير فكانت تُقدّر بأربعين كيلو دقيق ذرة، لتر ونصف زيت، ثلاثة مكاييل فاصوليا وخمسين إسكودو. وكانت هذه أجرة شهرية. كانوا يحملون الأجولة والمكاييل إلى مخزن الحبوب، والدوارق لمصنع الخمور، حيث يكيّل المفتش المؤن، ويدفع المدير الراتب، وبهذا كان يجب أن يحكموا الأجساد ويستعيدوا قوة يستهلكونها كل يوم. لكن لم تكن كل القوة تُستعاد، وكانوا يرضون بذلك، مع أن أسوأ ما في الأمر أن خطوات الزمن كانت تظهر بإفراط تحت الجلد، فتطل الجماجم. من أجل هذا يولدون. مات جواكيم كارّانكا من دون أن يمرض مرض الفراش، فذات يوم من أيام الآحاد التي فيها ليس من الصعب الإيمان بالرب ولا كان من الضروري وجود القس أجاميديس، والمؤسف أن الفأس الكبيرة كانت ثقيلة، جاء بعد حرث الحديقة وجلس تحت جذع شجرة فلين أمام باب بيته، بشعور بالتعب أكثر من العادة، وعندما دنت منه سارة لتقول له العشاء جاهز، لم يكن لجواكيم شهية للأكل. كان بعينين مفتوحتين، بيدين ساقطتين في حِجْره، مستريحاً راحة لم يكن يستطيع أن يحلم بها، ولم يكن رجلاً شريراً، ولا سيداً، نعم له حركاته الفجائية، نعم كان همجياً مع ابن أخته الكبير، لكن ما حدث، حدث. والموت مثل مسطرة تسوي الحبوب فوق سطح مكيال الحياة، فيسقط ما علاها مما يفيض، رغم أننا لا نعرف معياراً لذلك، كما في حالة جواكيم كارّانكا الذي مات ولا تزال عائلته تحتاج إليه.

تريد الحياة، أو من يتحكّم فيها، بيد قوية أو غير مبالية، أن تتزاوج التربية المهنية والتربية العاطفية. ثمة خطأ جليّ في هذا الزواج، ربما أدى إليه قصر أعمار لا يسمح بفعل كل شيء براحة وفي موعد مناسب، وبالتالي لا يربح من يملك، بل يخسر من يشعر. لكن، بما أن الدنيا لا يمكن أن تتغير في ذلك، سار جوان المنحوس، بينما يمارس عمله، يعشق فتيات القرى المجاورة ويرقص حيث يجد الأوكورديون، وكان راقصاً بارعاً تتنافس عليه الصبايا، مَنْ كان سيقول ذلك. كان له، كما نعرف، عينان زرقاوان ورثهما من جده الرابع مائة الذي اغتصب بالقرب من هنا، فوق نبات السرخس الأقدم من هذا، صبية جاءت هنا لتأخذ ماءً من الينبوع. كم مرة شاهدت المخلوقات الجوية من علاها هذا المنظر منذ بداية الخليقة، وهي تقف بين أوراق الشجر وبريش مزين لم يتغير قط، تشاهد بتأمل تعارك رجل وصبية. هاتان العينان، عندما تصوّب نظرة جوان المنحوس، تحركان قلوب صبايا اليوم فيغرقن في غرامه فجأة بعد رقصة واحدة، من دون أن ينتبه إلى أن نار نظرته تخلق غراماً قديماً يسيئه، يا لعظمة آثار الماضي المختبئة. إنها خواص الشباب. حقيقةً، كان جوان المنحوس كثير العشق قليل المغامرة. لم يتقدّم بعيداً عن التلميحات، وفي اليوم الذي يتجرع فيه ثلاث كؤوس، يتجرأ أكثر فيمنح قبلة حمقاء ما زال ينقصها خبرة يدخرها له المستقبل.

هذه القصائد الرعوية هكذا. يشكّل الرعاة عيدانها، أما الراعيات فيصنعن قبّعات من الزهور. أما جوان المنحوس، في فترة عقده الذي استمر عشرة أسابيع في سالفاتيرّا لتقشير شجر الفلين، فقد استطاع أن يتحرر من عشيقاته شبيهات البعوض، أو أن ينأى بنفسه عن هذا الحلم، عندما أكل ثوماً كثيراً لدرجة أن انتشرت رائحته الخبيثة على بعد عشر خطوات.
هناك تعلّم المهنة بلهفة، ليكسب الثمانية عشر إسكودو التي تدفع للمقشرين المحترفين، لكنه لحسن الطالع كان بعيداً عن الطامحات إليه، المتسامحات في مسألة الروائح الخبيثة، لكنهن ربما عدوات لأمر آخر. فكما هو معروف، سعادة الإنسان تتوقف على صغائر الأمور.

الآن تأتي قُرعة جوان المنحوس العسكرية. يحلم مستيقظاً، يرى أبعد من جبل لافري، ينظر ربما إلى لشبونة، ثم، بعد أن يؤدي الخدمة العسكرية، سيكون غبياً ما لم يجد عملاً في الترام، أو في الشرطة، أو في الحرس القومي، فقد نال شيئاً من التعليم وليس عليه إلا الاجتهاد قليلاً، فلن يكون أول من يفعل ذلك. إنه يوم عيد؛ يوم الكشف هذا، يستحق احتفالاً بالصواريخ والخمر، إذ به يستحق الغلمان اسم رجال. هناك يرتدون ملابس نظيفة، وهناك، بروح حماسية، يطلقون دعابات ذكورية ليخففوا خجلهم، فتحمرّ خدودهم أمام الطبيب الذي يوجّه لهم أسئلته. ثم يعقدون جلسة ويقررون. بعضهم مقبول، ومن الأربعة الذين انصرفوا كان واحدٌ فقط حزيناً. هذا الواحد هو جوان المنحوس الذي تبخر في الهواء حلمه بالزي الرسمي، حلم ارتداء بدلة عامل ترام يدق الجرس بكعب حذائه، أو رجل شرطة يتجول شوارع العاصمة، أو رجل حرس، يحرس مَنْ؟ الحقول التي تغم الآن، وهذا الافتراض يعكّر مزاجه لدرجة أنه عالجه من خيبة الأمل. ليس من الممكن التفكير في كل شيء وفي الوقت ذاته.

فيمَ يجب أن يفكر جوان المنحوس؟ لقد بلغ عشرين ربيعاً ونال إعفاءً من الخدمة العسكرية، ونسبياً لم يكن كبير الجسد، وذلك منذ زمن كان فيه يكافح كما القزم ليقطع جذور العشب بوسية بيدرا

جراندي، ولا يتغذى إلا على قطعة ذرة تهبها له زوجة بيكانزا كصدقة أقارب. اشترى في سالفاتيرّا أول معطف وبه كان يتنزه، معتزاً بنفسه كقط مُتنمّر. كان المعطف يصل حتى كعبيه، يبدو دمية متحركة، لكن تلك الأرض لا تستوجب أناقة شديدة، فليس هناك أناقة أشد من الملبس الجديد، أياً كان ثمنه. عندما يضرب جوان المنحوس فأسه الكبير في الأرض يتذكر معطفه، رقصاته، عشيقاته الجادات أو غير الجادات، وينسى حزنه على المعيشة هناك، سجيناً في تلك الأرض، بعيداً عن لشبونة، لو تجرأ ذات مرة على الطموح، لو لم يكن كل شيء مجرد حلم صبياني، غير أنه في النهاية لم يكن إلا حلماً.

تأتي فترة سيول جارفة، بعضها يحمل جلبة طبيعية وبعضها يمر بنعومة من دون أن تطلق طلقة واحدة. سيول قادمة من براج البعيدة، وعنها لا يأتي خبر حقيقي إلا متأخراً، إذ ما من وسيلة غير الانتشار. لكن، بما أن كل شيء يجب حكيه في وقته المناسب، حتى ولو قدمنا موت جواكيم كارّانكا الذي حدث في سنوات لاحقة، هكذا يجب أن نوضّح حتى لا نهين القانون الروائي، علينا أن نتحدث الآن عن سيول جامحة بقيت في الذاكرة لأسباب الحداد وأضرار أخرى. كان ذلك، يا سادة، في فصل الصيف على غير المتوقع، رغم أن هذه الرعود المهيبة التي تدوّي فوق جُذامات القمح صارخةً قد تأتي في الصيف أحياناً، لكنها كانت بعيدة وشبه خامدة. الآن تبرق السماء فوق رؤوسنا، وتطرق الأرض العزلاء بمطرقة، كيف سيكون حالنا من دون القديسة باربارا. يبدو أن القدر قد اختار آل المنحوس للنكبات السوداء، لكن هذا افتراض ناتج عن ضيق إدراك. فالسيول ليست إلا موت شخص وإن كنا نفكر في الجوع والبؤس إشفاقاً، فهذه العائلة تشبه العائلات الأخرى، حيث يفيض البؤس والجوع في هذه القرية. بالإضافة إلى ذلك، فالميت لا يربطه بالمنحوس صلة دم. الشخص المتوفى هو زوج أخت سارة، يعمل عربجياً باختياره في وقت فراغه، وأُجَريّاً في أكثر الوسايا عملاً، ويدعى أوجوستو بينتيو. كان على موعد مع الموت، لكن انظر إلى حقيقة الأمور، هذا الرجل البسيط، الحنون، قليل الكلام، لاقى نهاية دراماتيكية بتسلط هائل من القوى السماوية والأرضية، مثل أي شخصية تراجيدية. لم يرحل عن الحياة بالهدوء نفسه الذي رحل به جواكيم كارّانكا، مع أنه كان أكثر منه طيبة. الحق أن هذه الأشياء تجعلنا نعيد التفكير في تناقضات الحياة.

بقي أن نقول، حتى نكون أكثر دقة، إن أوجوستو بينتيو كان يعمل أيضاً بغّالاً بين فينداس نوفاس وجبل لافري. كانت ثمة محطة سكة حديدية يحمل لها الفلين والكربون والخشب، ويُحضر منها البضائع مثل البذور، أكثر ما يحتاجون إليه، وذلك برفقة بغلتيه وعربته الكارّو، ولم يكن كثيرون يحيون حياة أفضل منه. هذا اليوم، الذي لا بد أنه كان طويلاً وصافياً مثل بقية أيام الصيف، انتهى مكسواً بالسحب السوداء الكبيرة تلتها هبات ريح عاصفة. حينها فتحت السماء فيوضها وأفرغت مياهاً كانت في حوزة الرب. لم يقلق أوجوستو كثيراً، فعواصف الصيف تأتي وتذهب بلا ضرر، فقام مطمئناً بأعمال الشحن والتفريغ، من دون أن يفكّر في أضرار قد تحدث أكبر من الوصول إلى بيته مبتلاً. وحين خرج من «فينداس نوفاس» كان الظلام قد حلّ، ولم يشقه إلا برق كان يقيم كرنفالاً شعبياً في السماء وموكباً للسيد الإله. كانت البغلتان تعرفان الطريق بعيون مغمضة، قادرتين على التعرف والعثور عليها حتى لو كانت مغمورةً بالماء مثل البرك في تلك اللحظات.

وبينما كان أوجوستو مختبئاً تحت جوالين غليظين، كان يسلي نفسه مفكراً أن المطر على الأقل أقصى خطر قُطّاع الطريق الذين هاجموه في مرات سابقة. بسبب هذه العاصفة، سيكون اللصوص في حجورهم، يشوون شرائح لحم من صلب الخنزير المسروق ويتجرعون قِرْبة نبيذ قوي حاد المذاق، وهي أشياء لا تحدث في مراحيض أخرى، مع وجود استثناءات. بين «فيينداس نوفاس» وجبل لافري تبلغ المسافة ثلاثة فراسخ، لكن الفرسخ الأخير قد لا يبلغه أوجوستو. لا هو ولا البغلتان. وصلوا إلى الوادي، كانت الدنيا ظلاماً والوادي أشد ظلمة، والماء يهطل بخرير وزئير قادر على إرعاب أي إنسان. من هنا كان يعبر جسر النهر حينما يريد في الطقس الجيد، حتى عندما كانت المياه تصل إلى الرُكب. كان ثمة لوح خشبي للعابرين يصل من الضفة إلى شجرة لسان عصفور هائلة مولودة هناك وتتأكد ضخامتها في فترات يجف فيها النهر ويبزغ قاعه من بعيد. كانت أغصان لسان العصفور تتمدد في وسط الماء، وتدافع بجذورها السميكة عن أرضها، أما الآن فهي مهددة بسرعة التيار وقوته. كم مرة عبر من هنا أوجوستو بينتيو بصحبة عربته وبغلتيه. قد تكون هذه آخر مرة. في ذاك اليوم، بمجرد أن اعتلى الجسر الخشبي ليعبر النهر، سقطت أرضيته بغتة حتى شكّلت نقرة شديدة العمق، ولأننا يجب أن نسمي كل شيء فهذه تسمى نقرة ماء. أوجوستو كان على ثقة بالعذراء المقدسة وبفطرة بغلتيه، وهكذا استطاع الوصول حتى منتصف التيار، حيث لمس الماء أرضية العربة. وهنا، مخافة من سيل كان يصدم حاجز الجسر، ومخافة أن يحمله الماء الهاطل بلا أمل في النجاة، أدار البغلتين في مواجهة التيار. قاومت البغلتان قدر المستطاع، لكنهما استسلمتا في النهاية بسبب الأسواط والألجمة. وفي لحظة لم تجد البغلة اليمنى مكاناً لرجلها، فتزحلقت العجلة من الجسر الخشبي وغرق، بصراخ وصخب هائلين، أوجوستو بينتيو وبغلتاه وعربته وبضاعته وما تعهد به، والآن يغوصون في صمت الماء وظلماته الكثيفة، صمت مميت لا حل له. جثموا في عمق الماء ساكنين، أوجوستو مربوطاً باللجام والبغلتان بالعربة، حيث توقفت المياه عن الجريان، كما لو لم يكن ثمة مياه غيرها منذ بدء الخليقة. في اليوم التالي، أخرجه رجال شجعان بجهد كبير وباستخدام الأحبال، بين صرخات أرملته ودموع اليتامى، وحشد من أناس جاؤوا من ضواحٍ كثيرة حولهم كانوا يتزاحمون حول ضفتي النهر. لم تكن السماء تمطر. كان صيفاً كثير المحن. تُسقِط عواصفه الرجال الذين يستأصلون القشر من شجر الفلين، وعند سقوطهم كانت البُلَط تقطعهم. إنها حياة مليئة بالكرب، أكثر بكثير مما يمكن أن يُقال.

حينذاك، كان آل المنحوس يعيشون في جبل «بيرّا بورتاس» مع الخال والأخ جواكيم كارّانكا. وفي العام التالي، ذهب جوان المنحوس إلى العمل في مرعى ماشية مع أخيه أنسيلمو وأخته ماريا، لحساب صاحب وسية مختلفة في جبل يسمى راية النساء، ولا أحد يعرف سبب الاسم. كان ذلك بعد ستة أشهر من الزحف على البرتغال من طريق براج(5). كان الزحف على بعد أربعة فراسخ، وتم على الأقدام وفي طريق وعر، هذا ما حكوه في جبل بيرا بورتاس. لكن من جبل لافري سيكون الطريق على بعد فرسخ ونصف. كان عدد الفتيات أكبر من عدد الفتيان، ولم يكنّ قليلات، وكان هذا يبرر سرور الأولاد الذين كانوا يصحبونهم طوال الأسبوع، حيث يعودون إلى بيوتهم يوم السبت فقط. نهاية الأمر أن أكثر من يعمل هناك كانوا في سن الشباب، وظهرت حمى العشق والهيام التي حرقت بعضاً منهم. كان لـ جوان المنحوس خطيبة بعيداً عن مرعى الماشية هذا، لكن

لم يفرق معه الأمر وكان يتصرف كأنه خالٍ، بالإضافة لشهرته كراقص بارع، شهرة كانت تمهد له الطريق.

بين العمل والنزق طار الوقت، حتى جاءت إلى هناك من جبل لافري شابة صديقة له، وكان مجيئها بمثابة استجابة لصلواته أثناء صوم الأربعين، فلم تكن ثمة أسباب أخرى. كانت علاقته بها شديدة الحميمية، لدرجة أنهما رقصا معاً وغنَيّا متنافسين مرات لا عدّ لها، لكن علاقتهما لم تكن خطوبة، بل وحتى لم يخطر ببالهما. كان يسمي كل منهما الآخر، بين الجد والهزل، الصديق جوان والصديقة فاوستينا، وكان ذلك اسمها. وكما يبدو، لم يكن ثمة ما يدعو إلى التفكير في شيء آخر. لكن الأمر لم ينته كذلك. بل انتهى بالحرية الممتعة، حيث آن الأوان لربط تلك العقدة، فلقد وقع جوان في هوى فاوستينا ووقعت فاوستينا في هواه. وفي مسائل الهوى، ينبت العشق وحيداً في قطع زجاج خلف النوافذ كما يزدهر النبات الجبلي بين أشجار السنديان، الاختلاف يكمن في اللغة فحسب. وبدأت تنبت جذور الخطبة، ونسي جوان المنحوس خطيبته الأخرى، لكنه، لكونه جاداً، اتفق مع فاوستينا ألا تبوح بسرهما لعائلتها، لأن المنحوس الذي لم يكن لديه من يلومه قد ورث عن أبيه اسمه القبيح، وتلك أشياء تلتصق بالمرء، فمن شابه أباه فما ظلم، كما يقول المثل. ومع كل ذلك، كان سرهما أكبر من أن يخفى على أبوي فاوستينا، ومن هنا بدأت مشقات المسكين. «لا يمكن أن يكون صالحاً، فله منظر قبيح بهاتين العينين الزرقاوين اللتين لم ير أحد مثلهما قط، ولزيادة الطين بلّة كان أبوه عربيداً سكيراً وأفضل ما فعله في حياته كان نصب مشنقة لنفسه فوق شجرة». هكذا يقضون أحياناً سهراتهم في القرية، تحت السماء المرصعة بالنجوم، بينما يطارد ثور جاموسة في الحقول ويجامعها بكل حرية. حياة البشر أكثر تعقيداً، ولهذا فنحن بشر.

كانوا في يناير، في عز البرد، وكانت السماء ملبدة بالغيوم المتناثرة، والأجراء في طريق عودتهم إلى جبل لافري في إجازة نصف شهرية، بينما كان جوان يتحدث إلى فاوستينا،
خطبة يسودها الاحترام، أما هي، مرتعدة من العقاب الأسري الذي ينتظرها، كانت تصرّح له بآلامها. وهنا يقفز لهما في الطريق صوت أختها الساخط وإيماءتها العدائية، أخت هي مستشارة البيت نظراً لوهن عظام أمهما، ووقفت بالمرصاد للخيانة فجعلتهما يرتجفان. وقالت ناتيفيداد، وكان هذا اسمها «أنتِ لا تعرفين الحياء يا فاوستينا، فلا النصيحة ولا الضرب سيؤتيان بنتيجة معك، فأنت عنيدة، وسترين بعد ذلك كيف ستصير حياتك». وكلما زاد قولها، كلما زاد قرب فاوستينا من جوان. وقفت ناتيفيداد بينهما لتقطع عليهما الطريق والمقصد، إن كان ذلك من سلطة الأخت، وحينها وضع جوان حياته بين يديه ليعرف أهميته لأنه بداية من الآن وهنا سيكون رجلاً جديداً في عالم مختلف، بيت، أبناء، حياة مزدوجة. وضع يده فوق كتف فاوستينا الذي سيكون دنياه في النهاية، وقال وهو يرتجف أمام جرأتها «هيا نقضي على تلك الحياة، فإما أن تنهي خطبتنا حتى لا تعاني أكثر من ذلك، وإما أن تأتي لتعيشي معي في بيت أمي حتى نتمكن من شراء بيت خاص بنا، ومن اليوم فصاعداً سأفعل كل ما في وسعي». كانت السماء ملبدة بغيوم متناثرة، كما قلت من قبل، وظلت كما كانت، مبرهنة بذلك وبحجج طبيعية أن السماء لا تريد أن تعرف شيئاً عنا، أو ربما في تلك اللحظة كانت تفتح أبوابها لأن فاوستينا، الفتاة الجريئة والثابتة التي لم نصف حتى لون عينيها ولا تعبير وجهها، قالت بنبرة راسخة «جوان، سأذهب معك إن وعدتني أن تحنو على وتهتم دائماً

بي». فقالت ناتيفيداد «آه منك أيتها المنكوبة»، وابتعدت بصرامة، متوجهة إلى البيت كسهم يعرف هدفه لتخبر أبويها بالمصيبة. بقي العاشقان على انفراد، غربت الشمس، وأمسك جوان يد محبوبته. سأفعل من أجلك كل شيء ما دُمتُ حياً، في الصحة والمرض، والآن فلنفترق، وليذهب كل منا في طريق، وعندما نبلغ القرية نتقابل لنتفق على ساعة الرحيل.
كان يعيش برفقة جوان المنحوس، في «راية النساء»، أخوه أنسيلمو وأخته ماريا، اللذان اقتربا منه وحضرا جزءاً من الواقعة. اقترب منهما وقال لهما بصوت راسخ «اذهبا إلى الجبل وقولا لأمكما إنني سأحضر خطيبتي إلى البيت، فأنا قد استأذنتها وسنتحدث في هذا الأمر بعد ذلك، وسأشرح لها كل شيء». وقال أنسيلمو «أخي، فكّر جيداً فيما تقدم عليه، لا تُدخِل نفسك في مشاكل». وقالت ماريا «لا أريد حتى أن أفكر فيما ستقوله أمي وخالي». وقال جوان المنحوس «أنا أصبحت رجلاً، ومعفي من الخدمة العسكرية، وإن كان يجب أن تتغير قبلة حياتي، فلماذا الانتظار، فخير الأمر عاجله». أجابه أنسيلمو «في يوم ستأتي عصفة ريح على خالنا جواكيم كارانكا وسيرحل، فهو رجل أناني، وساعتها سنحتاج إليك في البيت». وقالت ماريا «فكر جيداً في أمرك، لا تخطئ». لكن جوان المنحوس قال كلمة النهاية «يا أخوي، عليكما بالصبر، فهذه سنة الحياة». ابتعد كلاهما، وسارت ماريا بالدموع في عينيها.

في الذهاب والعودة الأسبوعية بين راية النساء وجبل بيرّا بورتاس، كان آل المنحوس يستريحون في جبل لافري في بيت الخالة ثيبريانا، تلك المرأة التي كانت تبكي على ضفاف النهر عندما خطف تيار المياه زوجها، وهي حكاية سبق أن رويناها. ترتدي ثيبريانا لبس الحداد وستظل ترتديه حتى يأتيها الموت بعد سنوات طوال، بعد أن تزوغ عن نظرنا. بواقعة ابن أختها، تكسب مواهب أخرى كخاطبة شريفة لا قوادة، وتكرس حياتها لحماية العشق المأزوم من دون أن يساورها الندم ومن دون أن تتعرض للعتاب العام. لكن تلك قصة أخرى. عندما جاء جوان المنحوس قال لخالته «يا خالة، أطلب منك أن تسدي لي معروفاً، أن تسمحي لفاوستينا بأن تأتي لتعيش معي في بيتك، بعدها سنمضي إلى بيت أمي في جبل بيرّا بورتاس». فأجابته ثيبريانا «انظر جيداً لما أنت مقدم عليه يا جوان، وضع أمام ناظرك أني لا أريد مشاكل، فلن أدنس ذكرى خالك المتوفى». رد جوان «لا تحملي هماً، ستأتيك فقط عندما يطل الليل».

كان هذا ما استطاع جوان أن يفعله من أجل فاوستينا، ثم ذهب لمقابلتها، يمشي الهويني عمداً، فتلك مهارات أساسية، يكفي أنه يهواها، بينما هي لم تتمكن من تفادي الذهاب أولاً لبيتها، حيث لا تريد الصبيّة أن تهرب من دون رؤية أمها، ولا حتى من دون أن تخبرها إلى أين تذهب. قرّر جوان أن يذهب إلى الحلاق ليكتسب مظهر العريس، أعني حلاقة لحيته، حتى لا يبدأ حياته الجديدة بلحية لم يحلقها منذ خمسة عشر يوماً. فهذه الوجوه التي تسير معظم الوقت مكسية باللحية، عندما تمر عليها الأمواس تصبح بريئة، عزلاء، وتهز قلوبنا هشاشتها. حين عاد لبيت الخالة ثيبريانا، كانت فاوستينا هناك، في انتظاره، باكية العين بسبب لعنات أختها وحنق أبيها القاصف وحزن أمها المؤلم. خرجت في الخفاء، لكن من المؤكد أنهم ساروا في جبل لافري بحثاً عن المكان الذي اختبأت فيه، لذلك كان عليهم الهرب في أقرب وقت ممكن. قالت ثيبريانا «ستكون رحلة شاقة، فالليلة ستكون شديدة الظلمة مليئة بالأمطار، فلتأخذا معكما هذه المظلة وقليلاً من الخبز واللحم لتأكلا في الطريق،

وانتبها لأنفسيكما حتى لا تضلا في المستقبل، فلقد قمتما بخطوة من دون النظر أسفل القدم»، هذا ما كانت ثيبريانا تقوله، لكن في أعماق نفسها كانت تبارك برضا تصرف الشباب المتعسف، آه، من يعيد لي هذا الشباب.

المسافة من هناك لجبل بيرّا بورتاس تصل إلى فرسخين ونصف، وها هو الليل قد حلّ والسماء تنذر بالمطر. فرسخان ونصف مترعان بالأشباح والمخاوف، يكفي تذكّر القصص المروية عن الرجل الذئب وتيار المياه الذي خطف زوج خالته، فليس هناك طريق آخر. الصلاة على روح زوج خالتي، فقد كان رجلاً طيباً لا يستحق هذا الموت الحزين. كان شجر لسان العصفور يحرك بهوادة أغصانه، والمياه تجري مثل حرير أسود ويعلو خريرها، من يستطيع أن يقول إنه في هذا المكان ذاته، فهو أمر لا يُصدّق. كان جوان المنحوس يسير ممسكا بيد فاوستينا، المرتعشة أصابعها والمتألمة، كان يصطحبها تحت الأشجار ويطآن العشب الرطب ومنابته، وفجأة، من دون أن يعرفا كيف حدث ذلك، ربما من تعب أسابيع العمل الطويلة، ربما من الخوف الذي لا يحتمل، وجدا نفسيهما مستلقيين على الأرض. وفي وقت قليل فقدت فاوستينا عذريتها، وعندما انتهيا، تذكر جوان الخبز واللحم، وكزوج وزوجة اقتسما الطعام.

لقد رأينا أن لامبيرتو، سواء حين كان ألمانياً قبل ذلك أو حين صار برتغالياً الآن، ليس هو الرجل الذي يعمل في وسيته بيديه. عندما ورثها، اشترى الرهبان وسرق ما استطاع مستغلاً عمى العدالة، وجاءه مكبلين، مثل الطين في الجذور، عدد هائل من حيوانات لهم أرجل وأذرع، كانوا هؤلاء خدماً لهذا المصير بإنجاب أولاد والحفاظ عليهم ليخدموا من بعدهم. ولأن الأمر كذلك، يريد الأمر العالي، أو القاعدة العرفية، أو الإتيكيت أو الحيطة البسيطة والضرورية، ألا يتعامل أدالبيرتو مباشرة مع هؤلاء العاملين في أراضيه. حتى هنا لا خلاف. فلو كان الملك، في عصره، أو رئيس الجمهورية، في زمن الجمهورية، مضى ويمضي مزدرياً بالكلمات والإيماءات المتعسفة هذا الشعب الطيب، فمالك الوسية قد يبدو أسوأ منه، فهو في الواقع أكثر ملكاً من الملك وأكثر رئاسة من الرئيس، بل يمكن وصف فلوريبيرتو بأنه وقح في المعاملة. على أن هذا التحفظ المتأمل يقبل في كل الأحوال وجود استثناءات محسوبة، موجهة بتفنن آخر لإخضاع الإرادة وجذب رعايا مخلصين، هم خدام خدم يتناولون الجزرة بعد الضرب بالعصا فيفرحون بالأولى كما يقدرون الثانية. فالعلاقة بين المالك وتابعه عمل ذو حساسية عالية، لا يُقرَر ولا يشرح في ست كلمات، فمن الواجب أن نذهب لنرى ونسمع حيث تقبع الأسرار. إن خلط القوة الغاشمة بالجهل والعُجب والنفاق بحب المعاناة والحقد الكثير والمهارة والفن في المكائد، لهي دبلوماسية كاملة لمن يريد أن يتعلم. لكن عدداً من القواعد التجريبية التي قدمتها خبرة القرون تساعد على فهم الأمور بشكل أفضل. بعد الأرض، أول ما يحتاج إليه لامبيرتو هو رئيس عمال. رئيس العمال سوط يفرض النظام داخل سرب كلاب الصيد. رئيس العمال هو في الأصل كلب تم اختياره من بين الكلاب ليعض الكلاب. لا بد أن يكون كلباً ليعرف مهارات الكلاب ودفاعهم. فلن يبحث عن رئيس عمال بين أبناء نوربيرتو. ألبيرتو هو هومبيرتو. رئيس العمال، في المقام الأول، خادم له مزايا ومكافآت تتناسب مع كثرة العمل القادر على أدائه في الوسية. لكنه خادم. موقعه بين الأوائل والأواخر، إنه نوع من

البغال البشرية، من الضالين، إنه يهوذا، فرد يخون إخوانه مقابل نيل سُلطة أكبر وكسرة خبز ناشفة أخرى.

أما السلاح الأقوى والأكثر قطعاً فهو الجهل. كانت سيجيسبيرتو تقول في عشاء يوم ميلادها إنه من الملائم ألا يعرفوا، ألا يقرؤوا، ألا يكتبوا، ألا يحكوا، ألا يفكروا، أن يعتبروا ويقبلوا أن الدنيا لا يمكن تغييرها، وأن هذه الحياة هي الاحتمال الوحيد الممكن، بما هي عليه، أن وراء هذه الحياة تنتظرهم الجنة، وأفضل من يشرح ذلك هو الأب أجاميديس، وأن العمل يمنح المال والكرامة، لكن من دون أن يفكروا أني أربح أكثر منهم، فالأرض أرضي، وعندما يأتي يوم دفع الضرائب والتبرعات لا أطلب منهم قرضاً، فضلاً عن أن الحياة كانت هكذا دوماً ودوماً ستسير كذلك، ولو لم أهبهم أنا عملاً، من سيهبهم! أنا وهم في مركب واحد، أنا الأرض وهم العمل، وما يأتي في مصلحتي يأتي في مصلحتهم، والرب أراد أن يكون هذا حال الدنيا، وأفضل من يشرح ذلك هو الأب أجاميديس، بكلمات سهلة لا تزيد تشوشاً على التشوش الدائر في الرؤوس، ولو لم يكن القس كافياً، يؤمر الحرس القومي بالتجول فوق خيوله بالقرية، فبمجرد ظهوره فقط، تصل رسالة الإنذار بلا صعوبة. «لكن قولي لي يا أمي، هل يضرب الحرس أيضاً ملاّك الوسية؟» «أنا أرى أن هذا الولد متخلف، أين شاهدت ما تحكيه! الحرس يا بني خُلِق وأُنفِق عليه لكي يسوق الشعب»، «كيف يكون ذلك ممكناً يا أمي، أيصنعون حرساً فقط ليسوق الشعب، وماذا يفعل الشعب؟» «ليس لدى الشعب من يجعله يسوق مالك الوسية الذي يأمر الحرس ليسوقوا الشعب» «لكني أعتقد أن في مقدور الشعب أن يطلب من الحرس أن يسوقوا ملاك الوسايا» «أنا قد قلت من قبل، يا ماريا، إن هذا الولد ليس له عقل، لا تتركيه يسير في الوسية يقول هذه الأشياء، فما زالت لدينا مشاكل مع الحرس».

لقد خُلِق الشعب ليعيش قذراً وجائعاً. فشعب يستحم هو شعب لا يعمل، ربما الأمر يختلف في المدينة، لا أنفي ذلك، لكن هنا، في القرية، في الوسايا، يستأجرون الرجل للعمل بعيداً عن بيته ثلاثة أو أربعة أسابيع، وأحياناً عدة أشهر إن رأى ذلك ألبيرتو ، ويعد شرفاً للرجل ألا يستحم خلال فترة استئجاره بل وعدم غسل وجهه ويديه وإطلاق لحيته بالطبع. ولو فعل ذلك، قد يسخر منه أصحاب الوسية وزملاؤه، وذلك افتراض ساذج غير مستبعد. هذه فترة رخاء الزمن، تباهي المعانين بمعاناتهم، فخر العبيد بعبوديتهم. لا بد أن يكون حيوان الأرض حيواناً بالفعل، أن يرقد عماص الصباح فوق عماص المساء، أن تكون وساخة اليد والوجه والإبط وأعلى الفخذ والقدم وفتحة الجسد هالة مجيدة للعمل في الوسية، لا بد أن يكون المرء أقل مرتبة من الحيوان، هذا المخلوق الذي ينظف نفسه بلحس جسده، لا بد أن يحط من قدر المرء حتى لا يحترم ذاته ولا يحترم أقرانه.

وبالإضافة، يفتخر العمال باللطمات التي يتلقونها في أعمال الحرث. كل لطمة تعد ميدالية للتفاخر في الحانة، بين كأس وكأس. في عملي لدى بيرتو وهومبيرتو تلقيت كذا وكذا من اللطمات. هؤلاء هم العمال الطيبون، الذين في فترات الضرب بالسوط قد يظهرون آثار الضرب الحمراء، ويكثرون من ذلك إن كانوا ينزفون، وهذا صلف يضاهي صلف الرعاع بالمدن إذ يتفاخرون بفحولتهم

الجنسية في سن العجز كلما زادت تعقيبتهم أو قرحتهم التناسلية اللينة وقيدتهم في سرير المتعة. آه، كم هي قرية تسبح في سمن الجهالة وعسلها، ودائماً ما تجد من يهينها. واعمل، اقتل نفسك عملاً، أنهك نفسك لو لزم الأمر، فبهذه الطريقة ستترك في نفس رئيس العمل أو صاحب الأبعدية ذكرى جميلة، ويا ويلك لو اشتهرت بالكسل، فلن تجد بعد ذلك من يستأجرك. ربما تجلس على أبواب الحانات بصحبة زملاء البؤس الذين سيحتقرونك أيضاً، وسينظر إليك رئيس العمل أو صاحب الوسية، إنْ مرا من هناك، نظرة اشمئزاز، وستبقى وحيداً بلا عمل، حتى تتعلّم. فالآخرون قد تعلموا الدرس، سيذهبون كل يوم ليعملوا حتى الموت في الوسية، وعندما تصل أنت إلى بيتك، إن كان يمكن أن يُسمى ذلك بيتاً، فبأي وجه ستقول إنك لم تجد عملاً، نعم وجد الآخرون أما أنت فلا. أصلح من أمرك إن لم يفت القطار بعد، أقسم أنك احتملت أكثر من عشرين وخزة، اصلب نفسك، مد ذراعك ليشقوه نصفين، افتح عروقك وقُل «ها هو دمي، اشربوا منه، ها هو لحمي، كلوه، ها هي حياتي، خذوها»، واطلب البركة من الكنيسة، من تحية العلم، أمام عرض القوات العسكرية، من تسليم أوراق الاعتماد، ودبلومة الجامعة، افعلوا ما تمليه عليكم إرادتكم، هكذا في الأرض كما في السماء.

آه، لكن الحياة أيضاً لعبة، تدريب مُختمر، فاللعب حدث ذو جدية عظيمة، خطيرة، فلسفية، يمثل للأطفال طوراً هاماً للنمو، ويمثل للبالغين ارتداداً إلى الطفولة يستلذه البعض. عن هذه الأشياء كتبوا مكتبات كاملة، راسخة كلها، متعقلة، الأحمق فقط من لا يقتنع بها في النهاية. لكن الخطأ يكمن في الاعتقاد فحسب بأن الأهمية القصوى تقبع فقط في الكتب، بينما، في الحقيقة، تكفي نظرة، لحظة انتباه واحدة، لنقيّم كيف يلعب القط والفأر، وكيف تنتهي اللعبة بأكل القط للفأر. إذ القضية الوحيدة التي تهمنا هي معرفة من يستغل في الواقع البراءة الأولى للعبة، وبهذا نستفيد من مثال اللعب الذي لم يكن أبداً بريئاً عندما يقول رئيس العمال للأجراء «هيا سريعاً، لنرى من يصل الأخير، اركضوا». والأبرياء، العميان عن الخديعة الجلية، يمضون من جبل لافري إلى وادي الكلاب مسرعين، عدواً، جرياً، لينال كل منهم شرف أن يكون الأول، أو ليشعر بالرضا المؤكد بعدم كونه الأخير. لأن الأخير، ودوما هناك واحد هو الأخير ولا يمكن تفادي ذلك، سيتحتم عليه سماع السخرية واستهزاء المنتصرين اللاهثين، المتسارعة أنفاسهم، كل هذا قبل أن يشرعوا في عملهم، ويطلقون جميعاً صياح الاستخفاف، كم هم حمقى مساكين. ها هو جوان المنحوس يصل الأخير، فليعزف له المزمار، ولا أحد يعرف أي مزمار هذا، لكنه أي مزمار، أي إشارة لحماقته، لضعف ساقيه البطيئتين، للدلالة أنه ليس رجلاً ولا شيء. إن البرتغال بلد رجال، والرجال هنا بالكوم، وليس منهم من يأتي الأخير، فلتبتعد من هنا، أيها التنبل، فأنت لا تستحق الخبز الذي تأكله.

لكن حتى هنا لا تنتهي اللعبة. فالأخير في الوصول، للحفاظ على ماء الوجه، يريد أن يكون الأول في رفع الحمولة فوق ظهره، فدوماً ثمة تعويض. إنهم يجمعون كومة من الحطب يستخلصون منها الفحم، وأنت تقول، بعد أن تضع جوالاً فارغاً على ظهرك لكيلا تشعر بألم جم يأتيك من هذا المكان «هيا، أعطني هذا الجذع، فأنا من أحمله». يراقبك رئيس العمال بعينيه ويجب أن تبرهن للزملاء أنك أيضاً رجل مثلهم، فضلاً عن أنك لا تستطيع البقاء بلا عمل الأسبوع المقبل، فلديك أولاد، وحينها يقترب اثنان ويرفعان الجذع، الاثنان ليسا ابنيك، لكنهما في مكانتهما، ومرتجفين من الجهد،

يضعانه فوق كتفيك، فتثني نفسك كما الجمل لتتلقى الحمولة، كما لو كنت قد رأيت حيواناً من هؤلاء، وعندما تشعر بالحمل تثني ركبتيك، تضغط بأسنانك، تتحامل على كليتيك، ورويداً رويداً تزن اعتدالك، يا له من جذع عظيم، غصن عملاق، لدرجة تشعر بأنك تحمل فوق كتفيك شجرة سنديان من مئات السنين، تخطو خطوتك الأولى، كم هي بعيدة كومة الحطب، والزملاء ينظرون، كذلك رئيس العمل «هيا احتمل أيها الرجل». هذا مربط الفرس، الرجولة أن تحتمل الجذع في لوح كتفك الذي يخشخش، أن يحتمل قلبك ليحترمك رئيس العمال الذي سيقول لأدالبيرتو إن هذا المنحوس، ومن يقول المنحوس يستطيع قول اسم آخر، رجل بحق، حمل الجذع، لا تستطيع حضرتك أن تتخيل، إنه رجل شديد، وما فعله كان بطولة. قد يحدث ذلك، لكنه حتى الآن لم يخط إلا ثلاث خطوات. لديك رغبة في رمي الحمل فوق الأرض، هذا ما يطلبه جسدك المنتهك، لكن روحك، إن كانت سوية، ونفسك، إن استطعت أن تطردها من داخلك، سيقولان إنك لا تستطيع، إنك ستفضل أن تنفجر قبل أن تسقط على الأرض وتبقى كما

الرجل العاجز، فليحدث أي شيء إلا هذا العار. لقد جاءت سفسطات كثيرة منذ ألفي عام حول المسيح وحمله الصليب لأرض الصلب، مع أنه فعل ذلك بمساعدة رجل قوريني(6)، لكن عن المنحوس المصلوب لن يتحدث أحد، المنحوس المصلوب الذي بالكاد تناول عشاءه بالأمس، واليوم لم يأكل شيئاً تقريباً، وما زال أمامه نصف الطريق ليمشيه، وتحدق فيه العيون، هذا هو الاحتضار، يا سادة، الجميع يحدقون، ويصيحون «ها أنت لا تستطيع، ها أنت عاجز»، وأنت قد كففت عن أن تكون ذاتك، والحمد لله أنك لم تصل إلى حيوان، فتلك نعمة كبرى لأنك لو تركت ساقيك للتراخي سيدفنك ما تحمله، وأنت، أنت لست رجلاً، أنت كومبارس محتال في حفلة عالمية مخمورة، لهو، ماذا تريد، الأجرة لا تكفي للطعام لكن الحياة هي هذه اللعبة المرحة، «ها قد اقترب، ها قد اقترب»، تسمعهم يقولون وتشعر بأنك لست من هذا العالم، «حمل ثقيل، وأنتم لا رحمة عندكم، ساعدوني، أيها الزملاء، فلو اتحدنا لبذل كل منا مجهوداً أقل»، لكن لا، هذا مستحيل، إنها مسألة شرف، قد لا تعود للحديث مرة أخرى في حياتك مع من يحاول مساعدتك، هنا يكمن الخطأ، خطأ الجميع. تترك الجذع يسقط في مكان يجب أن يبقى فيه بالضبط، عمل بطولي عظيم، بينما الزملاء يحيونك، لست أنت الأخير، ويقول رئيس العمل «نعم يا سيدي، إنه عمل بطولي». ترتجف ساقاك وتشعر بإرهاق كإرهاق بغلة كانت تحمل ما لا طاقة لها به، وتتنفس بصعوبة، يا للوخزات، إلهي. وخزات! يا لك من جاهل، إن ما أصابك تمزق عضلي، انزلاق غضروفي، أنت لا تعرف الكلام لتسمي ما أصابك، يا لك من حيوان مسكين.

العمل والعمل. الآن يهجرون جبل لافري، بعضهم يصطحب عائلته معه، ليصنعوا الفحم في أراضي إنفانتادو، فينظم الرجال أنفسهم بمفردهم بلا امرأة واحدة داخل الهنجر الكبير، أما الذين جاؤوا بصحبة زوجاتهم فينظمون أنفسهم في هناجر أخرى، ينشرون حصراً أو ستائر من الكرتون أو ألواحاً خشبية لتفصل بين المتزوجين الذين ينام مع أولادهم، وثمة من لا يمتلك حتى أبويه. البق يلدغ بلا رحمة، إلا أن النهار أسوأ من الليل، إذ يأتي الناموس في قوافل تشكّل سحباً، فيضبب الرؤية أمامنا، ويسقط فوقنا بأزيزه كأمطار من زجاج مطحون، كم كانت جداتنا محقات، تلك النسوة الخبيرات بمعنى الحياة، «آه يا أحفادي، يا من لن أعود لرؤيتكم من جديد، ستموتون بعيداً عن بيوتكم». يعرفون ذلك عن يقين، فتلك أشياء لا يصح أن تُنسى، ستبقى أجساد الأطفال الصغار بأكملها كجرح مفتوح، كعاصفة، أجساد مثخنة بالجراح تنام ليلاً فوق خِرق، بمعدة خاوية ينهشها

الجوع. الجسد بأكمله لا يكفي، فينمو، دون حتى سلوى من آباء يربتون عليه بحنو. الآباء يرتجفون ويتنهدون، أشياء لازمة ليكبح الصمت الحواس هكذا، بينما بجانبهم زوج آخر يكرر اللمس والرجف والتنهيدات، سواء بشهوة منه أو باقتراح تلقاه برضا، وكل الصبية بالهنجر يفتحون عيونهم منصتين، يجربون إيماءات ووهم.

من أعلى أشجار السنديان، تُرى لشبونة حين يكون النهار صافياً، مَن يقول إنها شديدة القرب هكذا، لقد كنا نعتقد أننا نعيش في ذيل العالم، لكنها أخطاء من لا يعرف ومن ليس لديه من يعلّمه. جاء ثعبان الفتنة، تسلق الشجرة ذات الأغصان الجالس فوقها جوان المنحوس يتأمل لشبونة وتعده بمعجزات وثروات العاصمة مقابل حفنة نقود ثمن التذكرة، لكن هذه الحفنة ليست بالشيء الهين لو فكرنا في إمكانيات الصبي، مع ذلك، بما أن الموت قادم قادم، سيكون مجنوناً من يرفض. سننزل من المركب في مرفأ سودريه وسنقول مذهولين «هذه هي لشبونة، يا لها من مدينة كبيرة، والبحر، انظر إلى البحر، ماء غزير، ثم نسير في شارع القوس المسمى شارع أوجوستا، يا للحركة، ونحن حيث لم نعتد هذه الطرق المرصوفة نسير نتزحلق طوال الوقت، يدفع بعضنا البعض بشعور من الخوف من الترام، ويسقط الاثنان، فيضحك أبناء لشبونة ويقولون: انظر إلى الفلاح، فنرد عليهم: انظر لهذا الفرفور، وانظر لشارع الحرية، ما هذه العصا المغروزة في الأرض، إنها أثر للمرممين، آه، لم أكن أعرف، وبيني وبين نفسي أقول: وما زلت لا أعرفه، فعار الجهل أكثر الأشياء التي من الصعب علينا الاعتراف بها، لكننا متغلبين على خوفنا سنصعد إلى شارع الحرية لزيارة أختنا التي تخدم هنا، في هذا الشارع، نعم يا سيدي، في رقم 96، انظر أنت فأنت تعرف القراءة. لا أفهم، هذا مستحيل، فالأرقام هنا من 95 إلى 97، لا يوجد رقم 96، لكن من جد وجد، ها هو، لقد سخروا منا لأننا لا نعرف أن الـ 96 في الجانب الآخر، كثيراً ما يسخر أبناء لشبونة.

ها هو البيت، كم هو شاهق، هنا تعمل أختنا، السيد يسكن في الدور الأول، إنه دون ألبيرتو، صاحب الوسية التي نعمل بها أحياناً، كلهم من عائلة واحدة. انظر من يقف هناك، ستقول ماريا، آه يا للسعادة، كم أصبحتِ بدينة، ليس هناك أفضل من الخدمة في المنازل. ثم سنخرج كلنا معاً، فالسيدة امرأة كريمة وتسمح لي بالخروج، لكنها تستقطع من الخروجات المقبلة، عادة أخرج مرة كل أسبوعين، طول النهار، بين الغداء والعشاء. سنزور بعض أبناء عمومتنا الذين يعيشون هنا مشتتين في الشوارع والأزقة، وفي كل مكان سنجد الحفلة نفسها. انظر من يقف هناك، ونقرر أنه بالليل سنذهب جميعاً لنشاهد عرضاً غنائياً راقصاً، لكن قبل ذلك لا يمكن أن نفوّت زيارة حديقة الحيوانات، حيث خفة ظل القرود طويلة الذيل، وهذا أسد، وانظر إلى الفيل، لو قطع علينا الطريق حيوان كهذا في القرية ستبول على نفسك
من الرعب، والعرض عرض الميخا، تؤديه بياتريث كوستا وفاسكو سانتانا، يا له من رجل شيطان، حتى بكيت من الضحك. سننام هنا في المطبخ والممر، لا تشغلي بالك يا ابنة عمي، فنحن قد اعتدنا على كل شيء، ليالي لشبونة مختلفة في نومها، إنه الصمت، وليس كل الصمت سواء. ماذا، استرحتم في نومكم، ولا أحد يتجرأ على قول إنه لم يسترح في نومه، متقلباً طوال الليل، هيا بنا الآن لتناول الإفطار ثم التجول بالمدينة، هذه ليست مدينة، إنها عالم، وفي القنطرة نتقابل مع بعض عمال السكة الحديدية ويصيحون فينا: أيا فلاحين، ألا تعرفون ولا حتى السير، ويغضب

الصهر ويتشاجر معهم، هيا، كرر ما قلتَ، وينتهي الأمر بالصفعات، لكن بعد ذلك نركض خجولين، ويصيح الآخرون: انظر إلى الولد مرتدياً المعطف، انظر إلى الفلاح، ويراه على الفرسخ ينزل من السلسلة الجبلية، لكننا لسنا من الجبال، مع أننا من هناك. سنعود لنعبر النهر، يا له من بحر كبير، ورجل يركب في المركب يقول بكل لطف: هذا نهر التاجو، أما البحر فما زال بعيداً، وحينئذ ننتبه، لا نرى أرضاً، قد يكون ذلك ممكنا. عندما ننزل من المركب في مونتيجو يكون أمامنا عدة كيلوات يجب أن نمشيها، ثمان كيلوات، حتى نصل للمكان الذي سنعمل فيه، لقد أنفقنا نقوداً كثيرة، لكن الأمر يستحق، وعندما نعود لجبل لافري سيكون لدينا الكثير لنحكيه، وليقل من يستطيع الآن إن الحياة ليس بها أيضاً أشياء جميلة.

حين تقام حفلات الزفاف، تأتي الصبية أحياناً بابنها في بطنها. يلقي القس البركة على الاثنين ويميل إلى الثالث، حيث يريى استدارة البطن من البلوزة المرفوعة في بعض الأحيان. لكن حتى عندما لا يكون الأمر كذلك، سواء كانت العروس عذراء أم افتُضت بكارتها، فمن النادر أن ينتهي العام من دون حلول مولود. وإن أذن الرب، تتم ولادة الأول وسريعاً يحل الثاني، فبمجرد أن تلد المرأة تحمل من جديد. يا لهم من أناس خشنين، جهلاء، أسوأ من الحيوانات، للحيوانات على الأقل دورتها النزوية وتتبع قوانين الطبيعة. أما هؤلاء الرجال فيأتون من العمل أو الحانة، يدخلون في سريرهم النقال، يهيجون على رائحة المرأة، أو تنعش شهواتهم جمرات النبيذ أو الجوع الذي ينهك، فينامون فوقهن، لا يعرفون طرقاً أخرى، يلهثون بخشونة لا تعرف الرقة، وهناك يتركون عصارتهم تروي الأغشية المخاطية في خفايا المرأة تلك التي لا هي ولا هو يفهم عنها شيئاً. هذا أمر جيد، أفضل من أن يفعل ذلك مع امرأة غريبة، لكن العائلة تزداد، تمتلئ بالأولاد، حيث لا يأخذون حذراً «يا أمي، أنا جائع»، والدليل على أن الرب غير موجود أن الرجال لم يخلقوا مثل الكباش التي تأكل عشب المنحدرات، ولا مثل الخنازير التي تأكل البلوط. وحتى لو كانوا يأكلون العشب والبلوط، فلن يستطيعوا الحصول عليه بسلام، لأن الغفير والحراسة هناك بعينين يقظتين وبندقية في وضع الاستعداد، ولو أن الغفير، باسم وسية نوربيرتو، لم يتردد في إطلاق النار على السيقان، أو القتل لو تراءى له ذلك، فالحراسة التي تفعل أيضاً الشيء نفسه عندما تتلقى أمراً أو دون انتظاره، فسيجدون في السجن وسائل الترفيه، مجرد غرامة وعلقة بين أربعة حوائط. لكن هذا، يا سادة، ما هو إلا سلة كريز، ترمي واحدة وتطلع ثلاثة أو أربعة معلقين ولا ينقص هناك وسايا بسجونها الخاصة وقانونها الجنائي. في هذه الأرض تطبق العدالة كل يوم، وإن اختفت السلطات.

العائلة تتكاثر، وحتى إن مات فيها أطفال كثيرون بداء الجفاف الناتج عن الإسهال وتحلل هؤلاء الملائكة الصغار في صورة براز وانطفأوا كما الفتائل وصاروا مجرد إيماءات باليد والقدم أكثر من أي شيء آخر، بينما بطن تنتفخ، ويظل الصغار هكذا حتى تأتي ساعتهم فيفتحون عيونهم للمرة الأخيرة فقط لمشاهدة نور النهار، هذا إن لم يموتوا في ظلام الليل، في صمت الكوخ، وعندما تستيقظ الأم تجد الابن قد مات فيبدأ الصراخ، دائماً الصراخ نفسه، فتلك أمهات يموت لهن أولاد ولسنَ قادرات على ابتداع شيء. أما الآباء فيبقون جافين، وفي اليوم التالي يذهبون إلى الحانة بوجوه من سيقتلون أحداً أو شيئاً. ويعودون سُكارى ومن دون أن يقتلوا أحداً أو شيئاً.

يذهب الرجال ليعملوا بعيداً، حيث تتاح فرصة لمكسب أكبر. هم في أعماقهم رجال متوحشون، يتجولون من هنا لهناك ويعودون لبيوتهم بعد أسابيع أو أشهر ليلقوا في نسائهم بذرة طفل جديد. وفي أثناء ذلك، في إزالة الأوراق والأغصان الجافة من البلوط، أو انتزاع الفلين على عاتق حراس الزرع، تعد كل قطرة عرق قطرة دم مفقودة، والمنكوبون يقضون اليوم المقدس بطوله يتكبدون الألم، وأحياناً يتكبدونه بالليل أيضاً، يعدون ساعات العمل على أصابع ثلاثة أيدي، عندما لا يستلزم الأمر العد على اليد الرابعة للحيوان حيث يكتمل عد ما نقص، وخلال أسبوعين لا تجف الملابس على الجسد. وليستريحوا، إن صح استخدام هذا الفعل هنا، يرقدون على سرير من الخلنج يعلوه التبن، يرتجفون ليلاً، قذرين، مهانين، هذا لا يصح، فلا يمكن الإيمان بالقس اجاميديس الذي يتناول غدائه الملكي في بيت فلوريبيرتو، غداءً قيماً، كما يدل على ذلك تجشؤه الذي يرن صداه في الوسية بأكملها.

تلك هي قوة السماوات. فضًلا عن ذلك، لاحظْ هذا، القصة تتكرر كثيراً. الرجال قابعون في الاكواخ، يمزقهم الكلل، يرتدون ملابسهم، بعضهم يغوص في نومه والبعض الآخر لا يستطيع، وبين ثغرات الأعمدة القائمة مقام الحوائط يطل بصيص ضوء لم يشهده أحد من قبل، ما زال الصبح بعيداً، فهذا ليس ضوءه، يتطلع أحدهم مأخوذاً من الخوف، فالسماء في مجملها تمطر عدداً هائلاً من النجوم، تسقط مثل المصابيح، والأرض مضاءة بشكل لم يستطع القمر أبداً أن يضيئها به. يخرجون كلهم ليشاهدوا المنظر، ثمة من يرتعش خوفاً، والنجوم تتساقط في صمت، إنها نهاية العالم، أو بدايته أخيرا. يقول امرئ اشتهر بالحكمة «إنها حركات الكواكب، حركة الأرض». وكلهم بجانب بعض ينظرون لأعلى، برقبة ملتوية، وتنعكس في وجوههم المتسخة الغيمة المضيئة للنجوم المتوهجة، إنه مطر لا مثيل له، يترك الأرض بعطش مختلف وكبير. ويؤكد رجل متشرد شبه أحمق عَبَرَ من هناك في اليوم التالي، مقسماً بروحه وروح أمه التي ما زالت حية ترزق، أن تلك العلامات السماوية كانت تعلن أنه في حظيرة قريبة، على بعد ثلاثة فراسخ من هنا، قد ولد، من أم أخرى غير عذراء في أغلب الظن، طفل ليس هو المسيح وإنما عمدوه بهذا الاسم. لم يصدّقه أحد، وبفضل هذا الشك أصبحت مهمة الأب أجاميديس أكثر يسراً، إذ في يوم الأحد التالي، داخل الكنيسة المترعة والقلقة بشكل لم يحدث من قبل، سَخِرَ من الأغبياء الذين يعتقدون أن المسيح سيعود للأرض بهذا الشكل دون شكل آخر «ولأقول ما سيقوله المسيح، إني هنا من أجل ذلك فأنا القس ولديّ أوامر مقدسة وتعليمات من آباء الكنيسة الكاثوليكية الحوارية الأم والرومانية، أفهمتم جميعاً أم تريدون أن أفتح لكم أذناً أخرى في أعلى رؤوسكم».

كان محقاً هذا الحكيم الذي خمّن أنها «حركات الكواكب، حركة الأرض»، وأكد من استطاع من الأحباش ذلك على الفور، بعدهم الإسبان، ثم نصف العالم. هنا تتحرك الأرض طبقاً للتعاليم القديمة. ثم يأتي يوم سبت ومعه السوق، لكنه كان غاية في الشح فلم يعرف أحد كيف يملأ للأسبوع القادم حقيبته المصنوعة من الخيش. كانت المرأة تذهب إلى صاحب الدكان وتقول له «من فضلك، انظر إن كنت تستطيع أن تبيع لي بالآجل هذا الأسبوع، فنحن لم نعمل إلا القليل لسوء أحوال الطقس». أو تقول المعنى نفسه بكلمات أخرى، بادئة بالطريقة نفسها «من فضلك، انظر إن كنت

تستطيع أن تبيع لي بالآجل هذا الأسبوع، فزوجي عاطل». أو، بنظرة خجول مثبتة في البنك كمن ليس لديه عملة أخرى ليدفعها «سيربح زوجي أكثر هذا الصيف، حينها سندفع لك كل دَينك». أما صاحب الدكان، مسدداً لكمة في دفتر الحساب، يجيبها «أسمع منك هذه القصة منذ زمن طويل، ويأتي الصيف وينتهي ويعود الكلب مرة أخرى للنباح». الديون كلاب، هذا شيء مثير للفضول، مَنْ أول من خطر بباله هذا التشبيه، هذه قرية ذات اختراعات صغيرة وضرورية، تخيل دفتر البقال أو الخبّاز بأرقام كبيرة مكتوبة بالقلم الرصاص، يسجلها الأول والأخير، هذا الدفتر يشبه المسدس كله طلقات، وقد يتكاثر، وهذا الوحش، بأسنان ذئب، هو دين ثقيل من العام الماضي. «إما الدفع وإما ينتهي البيع بالآجل». «لكن أولادي جوعى ومرضى، وزوجي بلا عمل وليس لنا من نلجأ إليه». «ما تقولينه لا جدوى منه، لن أبيع لك شيئاً قبل قبض ثمنه». وتنبح الكلاب في كل الأرض من أقصاها لأدناها، نسمع نباحهم على الأبواب، يأتون خلف من لم يسدد، يعضونه في سمانة قدمه، يعضون روحه، ويذهب البقال حتى الشارع ويقول لمن يريدها أن تسمع «اخبري زوجك بهذا، والباقي هو يعرفه». وهناك من يتلصص من نوافذه ليرى من تلك التي لحقت بها الفضيحة، إنها وحشية الزمن على الفقير، اليوم أنت، غداً أنا، فلا يجب أن تفسر الأمر تفسيراً آخر.

عندما يشتكي الإنسان فلا بد أن ثمة شيئاً يؤلمه. فلنشتكِ نحن من هذه الوحشية التي لا اسم لها، ومن المؤسف أن لا اسم لها. «وماذا سنفعل اليوم، ونحن لا نملك إلا تلك النقود، والدكان يديننا والبقال لا يبيع بالدين، وكلما ذهبت له يهددني بأن رصيدنا لديه قد انتهى، ولن يُبقي سنتاً واحداً»، «يا امرأة، حاولي مرة أخرى، ما كلماته إلا كلمات بلا أفعال، إنه إنسان وقلبه ليس حجراً»، «إذن فلن أذهب بمفردي، فليس لي وجه لأقف على بابه، تعال أنت معي فقط»، «إذن فلآت معك، مع أني أعرف أن الرجل لا ينفع في مثل هذه المواقف، فواجب الرجل أن يكسب المال، أما تليين القلب فهذا واجب المرأة، فضلاً عن أن النساء قد اعتدن ذلك، فهن يعترضن، يقسمن، يفاصلن في الشراء، يبكين، بل لديهن المقدرة أيضاً على المرمغة في التراب»، آه، هاتوا لي كوب ماء لقد وقعت المسكينة مغشياً عليها، ويذهب الرجل لكنه مرتجف، لأنه كان يجب أن يكسب رزقه ولم يكسبه، لأنه كان يجب أن يحكم العائلة ولم يحكمها. «يا سيدي القس أجاميديس، كيف أوفي ما وعدت به عند زواجي، هيا أخبرني». نصل إلى الدكان ونجد ثمة قساوسة آخرين، بعضهم يدخل والبعض الآخر يخرج، لا يقوم جميعهم بشراء مسالم، ونبقى نحن في الخلف، في هذا الركن، بجانب جوال الفاصوليا، لكن انتبه، لم نأت لنسرقه. ما من زبائن إلا نحن، فلنستغل هذه الفرصة الآن، إذن سأتقدم أنا فأنا الرجل، ترتجف يداي. «يا سيد جوزيه، انظر إن كنت تستطيع أن تقدم لنا شيئاً، لن أستطيع هذا الأسبوع أن أدفع كل ديني، فلقد كان أسبوعاً شديد السوء، لكن عندما أكسب شيئاً سأدفع لك كل ديني، كن متأكدا من ذلك، فلن أترك أي ديون». فلنعترف أن تلك الكلمات ليست جديدة، فقد قيلت سلفاً في الصفحة السابقة، بل قد قيلت في صفحات دفتر الوسية بأكملها، فكيف ننتظر إذن أن يختلف الرد. «لا يا سيدي، لا أبيع لك بالآجل مرة أخرى». لكن البقال قبلها مد يده كالمخالب وأخذ كل النقود التي وضعتها أنا فوق البنك لألين

قلبه، وحينها أجابني. وأنا قلت له، بكل هدوء أمكنني والله يعلم أنه قليل «يا سيد جوزيه، لا تفعل ذلك معي، فما أطلبه ليس إلا طعاماً لأولادي، كن رحيماً بي». فكان رده «لا تحك لي هذه الحكايات، فلن أبيع لك بالآجل مرة أخرى، فبعد ما دفعته الآن ما زال عليك الكثير». وقلت له «يا

سيد جوزيه، من فضلك، أعطني على الأقل شيئاً بتلك النقود التي أخذتها، فقط لأسد جوع أولادي بقليل من الطعام». فكان جوابه «لا أستطيع أن أبيع بالدين مرة أخرى، فما قد أخذته منك لا يصل لربع ما أدينك به». سدد ضربة للبنك، إنه يتحداني، سأضربه، أو أوخزه بالسكين، أو بالمطواة، هذا السلاح المنحني، هذا الخنجر العربي. يا ويلتي، وتضيع أنت، فكّر في أولادنا، لا تعبأ به، يا سيد جوزيه، ولا تأخذ كلامه مأخذ الجد، فما ذلك إلا يأس الفقير. دفعوني حتى الباب. اتركيني يا امرأة، سأقتل هذا التيس. لكن في داخلي كنت أفكر أني لن أقتله، فأنا لا أعرف القتل. بينما هو من الداخل يقول لي «إن بعت بالدين لكل الناس ولم يدفع لي أحد، من أين سأعيش أنا». كلنا معنا الحق، فمن عدوي إذن؟

وبسبب هذا الفقر المدقع والاحتياج المشابه، كنا نؤلف حكايات عن الكنز المدفون، أو أننا وجدناها مؤلّفة وجاهزة لتبقى رمزاً لسرمدية الفقر، فتلك حكايات ليست ابنة اليوم فحسب. ثمة تحذيرات ينبغي أن ندركها بانتباه شديد، فبسبب أقل خطأ يتحول الذهب قاراً والفضة دخاناً، أو يبقى المرء أعمى، وتلك أحوال قد شاهدناها. ثمة من يقول إنه لا يقين في الرؤى، لكن لو رأيتُ في المنام ثلاث ليال متتالية كنزاً ولم أحدث أحداً عنه، ولم أحدث أحداً عن مكانه الذي رأيته فيه في المنام، فمن المؤكد أنني سأعثر عليه. لكن لو فتحت فمي، لن أعثر عليه، لأن للكنوز مصيرها المحدد، ولا يمكن توزيعها نزولاً عند إرادة البشر. وتلك حكاية قديمة لصبية رأت في المنام خلال ثلاث ليال أنه في غصن شجرة ثمة أربعة عشر ريالاً وتحت الجذع قدر من الصلصال مليئُ بنقود ذهبية. بهذه الأشياء ينبغي أن نؤمن دوماً، حتى ولو كانت أكاذيب. حكت الفتاة رؤيتها لجديها اللذين تعيش معهما وذهبوا جميعاً إلى الشجرة. وهناك وجدوا أربعة عشر ريالاً في الغصن، فتحقق نصف الحلم، لكن شعروا بالحزن من الحفر حتى الجذوع، لأن الشجرة كانت شديدة الجمال، ولو رأت الشمس لماتت، إنه ضعف النفس البشرية. لا أحد يعرف كيف انتشر الخبر، لكنه انتشر، وعندما قرروا العودة، معافين من حزنهم، كانت الشجرة ساقطة على الأرض، وفي عمق الثقب قدر من الصلصال مكسوراً، ليس إلا. واختفى الذهب بفن السحر، أو بقدرة قادر قليل الوساوس أو محنك الحس، فأخذ الكنز والتزم الصمت. ربما.

ثمة حكاية أخرى أكثر جلاء، حكاية الصندوقين الحجريين اللذين دفنهما المسلمون، أحدهما يفيض ذهبا والآخر يفيض مصائب. يُحكى أن أحداً لم يتجرأ على البحث عنهما، خشية أن يفتح خطأً صندوق المصائب. لو لم يكن الصندوق مفتوحاً ما صار ذلك حال الدنيا، مليئة بالمصائب.

لقد تزوج جوان المنحوس من فاوستينا، وهي نهاية سلمية لحدث رومانسي أشبع رغبة كل منهما في ليلة مغيمة وممطرة من شهر يناير، ليلة كان ينقصها القمر والعنادل، كانا يرتديان فيها ثياباً رثة مفكوكة الأزرار ببذاءة. ثم أنجبا ثلاثة أطفال، الأول جاء ولداً وأسمياه أنطونيو، ورث من أبيه كل شيء إلا جسداً يعد بقوة أكبر وعينين زرقاوين لم تظهرا في أي أرض وطأتها أقدامهم. الطفلان الآخران كانا بنتين، وورثتا عن أمهما الرقة والحشمة. وسريعاً ما بدأ أنطونيو المنحوس في العمل كراعي خنازير قبل حتى أن يبلغ سناً تؤهله لهذه المهمة الشاقة، وقبل أن تكتمل ساعداه. وكعادة هذه الأرض وهذا الزمن، كان رئيس الرعاة يسيء معاملته، وعلينا ألا نغضب من أمر تافه كهذا.

واحتراماً للعادات المعروفة جيداً، كانت جعبته لا تزن طعاماً كثيراً ليومه، بالكاد قطعة سمك ونصف رغيف. كان يلتهم قطعة السمك بمجرد الخروج من بيته، فثمة رجال لا يطيقون صبراً، وهذه عادة قديمة. يتبقى له لبقية اليوم قطعة الخبز، قضمة هنا، قضمة هناك، لقمة من خبز ناشف، وبحيطة شديدة حتى لا تضيع فتفوتة بين عشب الأرض، وأثناء ذلك كان النمل ينتظر برأس مرفوع كما الكلاب، يائساً من ملء خزائنه بفضلات قليلة. كان رئيس الرعاة يستريح فوق ربوة عالية، ومستخدماً سلطته كرئيس يصرخ منادياً «يا ولد، تعال هنا، اعتن بتلك الحيوانات يا ولد». فيقوم أنطونيو المنحوس، كمقشة كنس، بالدوران حول قطيع الخنازير مثل كلب الراعي. وبعد أن يستريح مع من يؤدي له العمل، كان رئيس الرعاة يتسلى بقطف ثمرات الصنوبر الناضجة، يشويها، يفركها ويأخذ حبّها، يحمّصه بعد ذلك بحيطة، ويدخله في صُرّته، كل ذلك في سكينة ريفية، بين جمال الأرض المشجرة. كان اللهب يلمع، والصنوبر الفائض بسوائله يتشقق أمام حرارة النار، بينما يراقبه أنطونيو المنحوس بلعاب سائل، متمنياً أن تهبه العناية الإلهية أي ثمرة صنوبر ساقطة أمام عينيه الشرهتين، حينها سيكون الأفضل أن يداريها، فلن تزيد هذه الثمرة ثروات الآخرين، كما قد حدث في مرات أخرى مأساوية. حقد الطفولة كبير، لكنه لم يتوزع بعدالة. وذات يوم، كان رئيس الرعاة يزجي وقته في شي الصنوبر في مكان قريب من حقل القمح، فقال لأنطونيو المنحوس، وكان ذلك عادياً لطبيعة عمل كل منهما «خذ جولة هنا، وانتبه حتى لا تدخل الخنازير حقل القمح». كان يوماً عاصفاً رياحه تصدّع الجسد، وحينئذ، بجسد شبه عارٍ، ولكل وجهة نظره، أطلق أنطونيو الخنازير

وركض ليحتمي في شجرة. أي شجرة؟ شجرة سنديان صغيرة. وما السنديان؟ إنه البلوط، يا له من سؤال! والجميع هنا يعرفونها. البلوط إذن هو السنديان. نعم بالطبع، البلوط هو نفسه السنديان. آه، كنت أقول إن أنطونيو احتمى في شجرة سنديان، لافاً جسده بجوال، جوال هو ملجؤه وقت أي عاصفة سواء جاءت بماء أم بثلج، وكان من الخوص، فالرب يعطي البرد بقدر الغطاء. المهم، كانت غبطة جمة، الخنازير في حقل القمح، والرئيس يشوي الصنوبر، وأنطونيو المنحوس في ملجئه يقرض خبزه الناشف. وما زال هناك من يتحدث بسوء عن الوسية! نعم، لكن أسوأ ما في الأمر أن رئيس الرعاة كان لديه كلب، حيوان خبير استغرب غياب أنطونيو المنحوس فشرع في النباح بشكل متعسف. حقاً ما يقولونه، الكلب أوفى صديق للإنسان. لكنه ليس صديقاً للمنحوس، لذلك أسرع وأخبر الرئيس ودلّه على مكان البريء الذي كان نائماً، فأنزل عليه ضربة عصا لو أصابته لقضى عليه. وانتفض الصبي لتفادي ضربة أخرى، أحمق إن انتظر، ورمى نفسه فوق الهراوة وألقاها في منتصف حقل القمح، والآن اعثر عليها، حتى أحبكم. ألم تدم متعة الخنازير وقتاً طويلاً؟ لا، ودوماً ما يحدث ذلك.

هذه أحداث تروى في الأناشيد الرعوية، إنها فضائل الطفولة السعيدة. يجب أن نشاهد يسر الحياة في الوسية، وفي هذا يتفق الجميع. الهواء نقي على سبيل المثال، وهذه منحة يفوز بها من يجدها. والعصافير تغرد فوق رؤوسنا عندما نتوقف لنقطف الزهور أو لنلاحظ سلوكيات النمل، أو عندما نتأمل الجعران الأسود المتأني الذي، من دون خوف من شيء، يعبر الطريق بأرجله الطويلة ببسالة، ويموت تحت حذائنا إن راق لنا ذلك، إنها مسألة استعداد، حيث في أحيان أخرى يروق لنا أن نعتبر الحياة مقدسة فتهرب منا حتى أم أربع وأربعين. وعندما تحين ساعات الشكاوي، لأنطونيو المنحوس أب يدافع عنه. لا تضرب الولد، فأنا أعرف ما جرى، حضرتك تجلس هناك لتحمص البذور ولتثرثر مع من تجده، بينما هو يعمل كالكلب، يجري ويحرس القطيع، إذن فلتعلم، ابني ليس

جعراناً لتضع حذاءك فوق رقبته. بحث رئيس الرعاة عن غلام جديد، وذهب أنطونيو المنحوس ليرعى خنازير مالك آخر حتى يكبر ويتعلم ما ينقصه.

بوسع الرجل أن يعمل أعمالاً كثيرة. تحدثنا عن بعضها ونضيف الآن بعضاً آخر لتكتمل الصورة، إذ إن سكان المدينة بجهلهم يعتقدون أن القرية ما هي إلا الزرع والحصاد، وبذلك يعيشون مخدوعين إن لم يكونوا قد تعلموا قول الكلمات كلها وأدركوا معانيها، فهناك الحصد وحمل الغبيط والحش ودرس الحبوب بالمكنة أو بالدم وهرس الشَّيْلَم وتغطية المَتبن وتعبئة التبن أو القش ودق الذرة والتسميد بالسماد العضوي وبذر البذور والحرث والقص وإزالة الأوراق الجافة وحفر الذرة ووضع الأطر وتقليم الشجر وإقامة العُرُش وتسوية الأرض وفتح المسقى وإزالة الأعشاب الضارة وتقسيم الأرض إلى قطع وعزقها وتطعيمها وكبرتتها وتفريغ عناقيدها والعمل في المطامير والحدائق وحفر الأراضي للبقول وإسقاط الزيتون والشغل في معاصر الزيت واستئصال الفلين وقص شعر الغنم والعمل في الآبار وأحواض النباتات التزيينية وأحواض الزرع وقطع الحطب وشق الصبار ليسقط منه سائله، والخبازة. يا الهي! تسوية الأرض وعزقها وجمع الحبوب في زكائب، إنها كلمات الكثيرة وجميلة تثري المعجم، يا لهم من محظوظين من يعملون، وتخيل أننا لم نشرع في شرح كيفية أداء كل عمل، ولا في أي فترة من العام، ولا الأدوات والعُدد التي يتم من خلالها، وهل هو عمل رجل أم امرأة، ولماذا.

شخص يجلس في بيته بلا عمل، ولنفترض أن هذا الشخص رجل، والأفضل أن نتخيله في بيته بعد الانتهاء من عمله، يدخل عليه من الباب كلب حراسة، لا يسمى جوارديانا ولا بيلوتو، فهو كلب برِجلين فحسب وله اسم إنسان، لكنه حيوان يعض ويقول عند دخوله «لقد أحضرت لك ورقة لتوقّع عليها، تتعلق بأمر سفرك إلى إيفورا يوم الأحد لتحضر اجتماعاً سياسياً لتأييد القوميين الإسبان ضد الاشتراكيين، والباص مجاناً وسيتكفل الملاك والحكومة بكل المصاريف، فكلاهما واحد». لديه رغبة ليقول لا، لكن الرغبة لا تدري كيف تدفع الكلمة فيصاب الواحد منا بسهم الله ويتصنع أنه لم يسمع جيداً، لكن ما فائدة ذلك، فالآخر يظل يكرر وبنبرات صوت مختلفة، حتى تبدو تهديداً، وينظر جوان المنحوس إلى زوجته الجالسة بجانبه، وتبادل فاوستينا زوجها النظر، بينما يظل كلب الحراسة واقفاً بالورقة في يده منتظراً الرد، ماذا تريد أن أقول لك، وفيما سيهمني ما تحكيه لي، فأنا لا أفهم شيئاً عن الاشتراكيات. طيب، الأمر ليس هكذا حقيقة، لقد عثرت في الأسبوع الفائت على عدة أوراق تحت أحجار، طرفها كان خارجها، كما لو كانت تناديني، فتأخرت عن المشاة وانحنيت واحتفظت بها، لم يرني أحد، فلماذا إذن جاء هنا هذا الكلب ويبرز لي أسنانه، لا بد أن أحداً وشى بي وجاء ليرى إن كنت سأتجرأ على قول لا أريد أن أذهب إلى إيفورا، لا أريد أن أوقّع، وساعتها سأرى أسوأ ما لا يتوقع، فهذا الكلب يعرفه الجميع، اسمع، وسيحكي كل ما جرى، وهنا نجد من نسمع أنينه، لكني قد أجد عذراً، أستطيع أن أقول إني مريض، إنن يجب أن أصنع قفصاً للأرانب، لن يصدّق، وربما يأتون بعد ذلك ويحبسوني، اتفقنا، ريكينتا، سأوقّع.

وقّع جوان المنحوس حيث وقّع الآخرون، أو بصموا لأنهم لا يعرفون الكتابة، وكان هؤلاء

أغلبية. وعندما خرج ريكينتا ليواصل جمع التوقيعات، بأنف في السماء وبصدر منفوخ هذا الحقير، شعر جوان المنحوس بعطش شديد، مفاجئ، فشرب مباشرة من الدورق ليفيض الماء فيحيط النار المباغتة التي كانت فقط إحدى علامات العار غير المفسرة، البعض ربما سيشرب الخمر. فهمت فاوستينا شيئاً، لم يرق لها ما قد سمعته، لكنها أرادت أن تهدئه. «على الأقل ستذهب إلى إيفورا، إنها فسحة، ومن دون أن تكلفك شيئاً، وستذهب في عربة من هنا لهناك، من المؤسف أنك لن تستطيع أن تصطحب أنطونيو معك، فلا بد أنها ستروق له». لم تكتف فاوستينا بقولها هذا فحسب، بل واصلت مهمهمة، من دون أن تنتبه حتى إلى ما تقوله، وكان جوان المنحوس يعلم يقينا أن الكلمات في نهاية الأمر مثل الإيماءات لا ينتظر منها النجاة، لكن المريض يمتن لها مثل اليد الناعمة أو الخشنة التي تعتقد حضرتك أنها على جبينك، الأمر هكذا. «لكن الأمر هكذا ليس صحيحاً، فبأي حق يجبرون رجلاً على شيء، هذا إجبار، إن ما أتمناه هو المرض». قالت فاوستينا «افعل ما تؤمر، فهذه نزهة، ولن يتلطخ وجهك في الطين، أعتقد أنه لن يتلطخ، فلا بد أن الحكومة لا تفعل إلا الصالح». فيرد جوان «لا تفعل إلا الصالح!». وأمام هذا الحوار ثمة من يقول إن القرية ضائعة لا تعرف ما يحدث، لقد حان الوقت لنقول إن القرية تعيش بعيداً، فلا تصلها الأخبار، أو لا تفهم ما يصلها، فهي تعرف فقط صعوبة البقاء على وجه الحياة.

ثم جاء اليوم وحانت الساعة، الرجال قد تجمعوا على الطريق ودخل بعضهم الحانة ينتظر ويتجرع خمراً كل حسب نقوده، ها هم يرفعون الأكواب على شفاههم وتبقى الفقاعات فوق شواربهم، آه يا خمر، فليمنح الرب الجنة لمن ابتكرك. بعض آخر أكثر رقة واطلاعاً كان ينتظر عجائب ايفورا ويحتفظ بشهيته لهناك، سيلحق بهم العقاب وسيتركونهم على باب ساحة الثيران ومن هناك سيأخذونهم بعد انتهاء الحفلة. الشمعة الأمامية تضيء مرتين، جرعة واحدة أبقى من جرعتين أعطيهما لك، بهذه الأقوال يتسلى الناس ومنهم من يحيا فقط من هذه الحكمة بل ويشعر بسعادة ولا يموت بسبب ذلك. هذه المرة كان هؤلاء محقين، كانوا راضين بغبطة عندما جاءت عربات النقل، وببطونهم يغنون جُشأة الخمر الأرضي المقدس، بمذاق خمر ما زال يحلي أفواههم، هذه متعة الجنة.

إنها رحلات. في المنعطفات، كانت عربات النقل تتمايل يمنة ويسرة، مع أنها لا تسير بسرعة مغامرة، فيتحتم أن يمسك بعضهم ببعض حتى لا يسقطوا جميعاً، فيطؤون أقدام بعض، وتضرب الريح قبعاتهم فيمسكون بها حتى لا تطير. «سِرْ على مهلك أيها القبطان لئلا يسقط أحد في الماء». رجل مرح قال هذه الجملة، الحمد لله أن ثمة أناساً هكذا، فلولا وجودهم لصارت الحياة غاية في التعاسة. توقفوا في فوروس ليحمّلوا أفرادا آخرين، ومن هناك ساروا في طريقهم مباشرة، كانت مونتيمور على مرأى البصر، لكن لم يحن الوقت بعد لندخلها، كذلك سانتا صوفيا وسان ماتياس، لم أذهب إلى هناك أبداً، لكن لي أقرباء هناك، ابن عم صهري يعمل حلاقاً وصار ثرياً، ربما عاش فقيراً لو لم يكن للرجال لحية تنمو. ما يتحدث هكذا إلا رجل مشغول بلحيته، مرة في العام لن يضر، فمنذ تركت الجيش لم أعد أحلقها، لكني أشعر بالضيق. إنها ثرثرة رجال. لقد بذلت البشرية جهودا كبيرة لتحسن وسائل المواصلات، وفي هذه الوسايا ما زالت هناك عربات النقل. إيفورا على مرئى البصر، وريكينتا، حيث جاء الكلب، يصيح «عندما ننزل، فليتبعني الجميع». وبهذه

الكلمات البذيئة تبدأ الرغبات المختلفة في الخمر والنساء في التلاشي، فالرغبة في نساء ايفورا مرت بأحلامهم في الليلة الخيالية التي لم يناموا فيها جيداً، لكن لا يقين في الأحلام.

الساحة زاخمة. يأتي الفلاحون في أسراب، في أفواج، وكلهم مُلقنون أحياناً من قبل سيدهم الذي يجيء باسماً أنيقاً، ودوماً ثمة خادم يتملقه باعثاً الخجل في نفوس من ذهبوا إلى هناك مخافة أن يبقوا بلا عمل. لكن بشكل عام يهمزون أنفسهم ليتظاهروا بأنهم سعداء. في القرية تسود تلك الفضائل التي منها ألا نخيّب أمل من ينتظر منا شيئاً، ومع أن هذه لا تبدو حفلة، إلا أنها ليست ميتماً، وهيا أخبرني، أي تعبير يجب أن أرسمه على وجهي عندما يبدؤون في الصياح قائلين فليحيا فلان وليمت الآخرون، أنضحك أم نبكي، هيا اخبرني. يجلس بعضهم على الرصيف، البعض الآخر يملؤون الرمال، كان من الأفضل أن يجدوا ثيراناً، ولا يعرفون ماذا سيحدث ولا معنى كلمة اجتماع سياسي. أين ريكينتا. يا ريكينتا، متى ستبدأ الحفلة. الأصدقاء والمعارف يتبادلون التحية بالإيماءة، والخجولون يبدلون أماكنهم بحثا عمن يظهر جرأته. تعال هنا، وحينئذ يقول ريكينتا: لا تتفرقوا وانتبهوا إن الأمر غاية في الجدية، لقد جئنا هنا لنعرف من يحب لنا الخير ومن يحب لنا الشر، وليس من السوء في شيء أن يكون الأمر هكذا، الذهاب في يد ريكينتا لتعرفوا الخير والشر، فالأمر شديد البساطة، وفي النهاية، يا قس أجاميديس، دون تفكير اضرب مؤخرات الجالسين على الرصيف. بماذا تهذي يا ريكينتا، الحديث بهذا الأسلوب قلة أدب. فيعقد ريكينتا حاجبيه ويتصنع أنه لم يسمع، والآن يرد، الآن يبدأ «سيداتي ساداتي، إنه لأمر مضحك أن أكون أنا سيداً في ساحة ثيران في ايفورا، لا أتذكر أني كنت سيداً في مكان آخر، ولا حتى سيداً لإرادتي الخاصة، فماذا يقول الرجل. تحيا البرتغال، لا أفهم شيئاً. نحن هنا مجتمعين، أخوة في الهدف الوطني المثالي نفسه، لنقول ونبرهن لحكومة الأمة أننا رمز للتواصل المخلص

للبطولة البرتغالية العظيمة ولآبائنا العظام الذين وهبوا حيوات جديدة للحياة ونشروا الإيمان والإمبراطورية، وبقرعة جرس نلم شملنا كرجل واحد لنلتف حول سالازار، العبقري الذي أوقف حياته على خدمة الوطن ضد همجية موسكو، ضد هؤلاء الشيوعيين الملاعين الذين يهددون عائلاتنا، الذين سيقتلون آباءكم ويستحلّون نساءكم وبناتكم ويرسلون أبناءكم جبراً إلى العمل في سيبيريا ويدمرون الكنيسة الأم المقدسة، فكلهم ملحدون، كلهم بلا إله، بلا أخلاق، بلا حياء، فلتسقط الشيوعية، فلتسقط الشيوعية، فليمت خونة وطنهم، فليمت خونة وطنهم. تصيح الساحة بالشعار، كلهم في صوت واحد، هناك منهم من لم يفهم بعد ماذا يفعل هنا، آخرون بدأوا يفهمون وأصابهم الحزن، وهناك من هو مقتنع، أو مخدوع، وعامل يلقي خطبة، والآن يأتي واعظ آخر، هذا من الفوج البرتغالي، يفرد ذراعه ويصيح «أيها البرتغاليون، من يأمر، من يعيش، سؤال وجيه، يأمر السيد، أما الحياة، فماذا تكون!». ها هي الساحة المطيعة تصيح بشكل طقسي، وبالكاد تسكت الأفواج، وهنا يصرخ آخر بأعلى صوته، يتكلمون كثيراً هؤلاء، إنها خصائص إسبانيا، قوميون ضد الحمر، وفي حقول قشتالة وأندلسية يدافعون عن قيم الحضارة الغربية المقدسة والأبدية، فواجب الجميع مساعدة إخواننا في العقيدة، والوسيلة ضد الشيوعية تكمن في العودة للأخلاق المسيحية التي يجسد سالازار رمزها الحي، يا للعجب، لدينا رمز حي، لا يمكن أن نتهاود مع الأعداء، ثرثرة، ويتحول الحديث عن الشعب الطيب الحاضر، أهل تلك المنطقة، ليقدم نموذجاً للعرفان بالفضل، إلى الحديث عن رجل الدولة الخالد والبرتغالي العظيم الذي كرّس كل حياته

لخدمة الوطن، فليحفظه الرب، وسأذهب أنا لأقول للسيد رئيس المجلس ما رأيته بأم عيني في مدينة ايفورا التاريخية، ولأقدّم له الثقة والبرهان على أن آلاف القلوب تنبض بالإجماع مع قلب الوطن، الخالد، السامي، الأجمل من كل الأوطان، ذلك لأن الدنيا قد ضحكت لنا عندما منحتنا حكومة تضع المصالح العليا للأمة فوق مصالح أي طبقة، فالجميع يذهب وتبقى الأمة، «فلتمُت الشيوعية، فلتسقُط الشيوعية»، ما الفرق بين الموت والسقوط! في وسط الزحام لا شيء يُلاحظ، وعلينا أن نتذكر أن الحياة في ألينتيجو، على عكس ما يُعتقد، غير مواتية لتطور الأفكار الثورية، حيث نجد أن العمال شركاء حقيقيون لأصحاب الأراضي، يتقاسمون معهم خير العمل وشره! أحا، أحا، أحا! أين أستطيع أن أتبوّل، اسمع يا ريكينتا، أنا أمزح، فلا أحد يمكنه أن يتجرأ ليطلب شيئاً كهذا في لحظة حاسمة كهذه اللحظة، عندما يكون الوطن، الذي لا يتبوّل، مَدعُوّا من قبل رجل الدولة المهيب الذي يفتح الآن ذراعيه كما لو يريد أن يعانق الجميع، ولأنه لا يستطيع ذلك يقوم الحاضرون بعناق بعض، قائد الوحدة العسكرية، الرائد القادم من سيتوبال، البرلمانيون، أبناء الوحدة القومية التابعون لهم، رائد وحدة الفروسية رقم 5، أحد الذين ينتمون للـ p-t-n-i، إن لم تفهم فاسأل، إنه المعهد القومي للعمل والتخطيط، أما الباقون فمن لشبونة، يبدون مثل الغربان المتسلقة شجرةَ سنديان، هذا خطأ ارتكبته، نحن هم الغربان، نصطف هنا في المدرجات، نحرك أجنحتنا، ننقر بمناقيرنا، والآن ستبدأ الموسيقى، النشيد، فينهض الجميع، بعضهم لأنه يعرف البروتوكول، وأغلبهم تقليدا لهم، يسلّم ريكينتا مجلة لأتباعه، فلتنشدوا جميعاً، هذا ما أرغبه أنا، لكن من يعرف النشيد؟ حتى لو كان نشيداً مريمياً، كلمة ما سيرددونها، هيا نخرج، لا، ليس الآن، لم تحن لحظة الخروج، من له جناحان ليطير؟ فليفتح جناحيه ولينصرف من هنا، فوق الحقول، ليرى من علاه الباصات التي تعود، يا للحزن، كل شيء كان محزناً، وفي الآخر نصيح كما لو دفعوا لنا، ولا حتى أنا أعرف ما هو أشر، هذا ليس عدلاً، هذا يبدو رقصة الدب. «أيعني ذلك أنك لم تتسلّ هناك يا جوان؟» «ولا شيء من هذا يا فاوستينا، لقد ذهبنا كما الخرفان، وكما الخرفان عُدنا».

غربت الشمس وما زالوا في العربات، ما يبعث على الحزن، كان منهم من ظل يجرب صوته منشداً ومعه اثنان يصطحبانه، لكن عندما يصل الحزن مداه، يصمت حتى الصوت الحزين، وحينها يتطرق للسمع ضجيج موتور العربة، وكلهم في صمت يميلون معها من جانب لآخر، إنها حمولة سيئة الرص، جاءت جزافا، هذا ليس عملاً يقوم به الرجال، يا جوان. تتركهم العربة بجانب جبل لافري، يشبهون سرب العصافير السوداء المتناثرة بحماقة دون أن تعرف السير، منهم من يتجه للحانة ليروي عطشه ويمسح مرارته، ومنهم من يهمهم بكلمات مصعوقة، وأكثرهم حزناً ينزوون في بيوتهم. من نحن إلا دُمى تتطاوحها الأيدي، مَنْ يدفع لنا يوميتنا الآن؟ وبالتالي كان على ريكينتا الملعون، الذي يوماً ما سيسمعني، أن يذيع في الحديقة أقوالاً ووعوداً لا طائل من ورائها إلا الوجع الذي يُستتشف، هذا الوجع الذي قليلا ما يمكن التعبير عنه، فهو شيء مشوش، ربما يؤلم لكنه لا يميت. من أجل هذا تسأل فاوستينا «أجئت مريضاً؟»، فيجيبها جوان المنحوس بالنفي، ولو أنه تعبان بعض الشيء، لكنه لا يعرف التعبير عما يشعر به. وما زالا يتحدثان حتى بعد أن رقدا «إذن أنت لم تتسلّ»، «ولا شيء من هذا». يسند جوان المنحوس رأسه على كتف فاوستينا، ملاذه وراحته الكبرى، فيغرق في سبات عميق.

يا له من منام فظ هذا الذي رآه جوان المنحوس: يعتلي سادة الوسية الربوة حتى تدفئهم الشمس وحدهم، السادة لا وجوه لهم ولا للربوة اسم؛ حتى عندما استيقظ كانوا على حالتهم، وظلوا عليها

عندما عاد للنوم مرة أخرى، تتقدم قافلة من السادة يتقدمهم هو، طاحناً بضربات فأسه الأعشاب الضارة والجذوع، فاتحا طريقا لتلك الصحبة الجميلة، مقصياً
الجوالق بيديه، ينزف دماً، ويسير سادة الوسية يتكلمون ويضحكون، يتمتعون بالصبر والكرم عندما يتأخر هو في الأحراش، يبقون في انتظاره، لا يسيئون معاملته ولا ينادون الحرس، هم فقط ينتظرون وفي انتظارهم يخرجون الطعام، يأكلون شيئا، وهو يتغلب على مخاوفه بضرب الفأس، الآن تم، يخدش الأرض، يقطع الجذوع، لقد أثبت رجولته، ومن أعلى، من فوق قمة الربوة، يشاهد عربات تحمل لافتات تقول: ما يفيض من البرتغال يتوجه لإسبانيا، ويُحرم الحُمر حتى من قرن الحيوان، أما الآخرون، الأنقياء، القديسون الذين يدافعون عني، عن جوان المنحوس باسمي وصفاتي، من خطر الذهاب للجحيم، فإلى الهاوية والموت، والآن يأتي خلفي رجل فوق سرج جواده، الجواد هو الشيء الوحيد الذي أعرفه في هذا المنام، يُسمى المحظوظ. تتمتع الجياد بالعمر الطويل. «استيقظ يا جوان، لقد حان الوقت»، تقول زوجته، بينما ظلام الليل ما زال باسطاً جناحيه.

مع ذلك، نهض الآخرون بالفعل، لكن ليس بالمعنى الحرفي للنهوض الذي يشير للقيام متثائباً من راحة المرتبة التبنية، إنْ وجدت، وإنما بالمعنى الآخر الفريد الذي يعني فتح العيون وسط نور الصباح واكتشاف أنه منذ دقيقة كانت ظلمة الليل جانحة؛ بالمعنى الآخر الذي يعني أن الزمن الحقيقي للإنسان وما يتضمنه من تغيير لا يُحكم بذهاب الشمس والقمر ومجيئهما، وتلك أشياء تشكل قطعياً جزءاً من المنظر الطبيعي، ليس المنظر الأرضي فحسب، كما سبق وقلت بكلمات أخرى. إنها حقيقة واضحة أن ثمة لحظة يحدث فيها كل شيء، وهذه اللحظة كان وقتها موسم الحصاد. أحياناً يتطلب من الأجساد أن تفقد صبرها، أن تعلن حنقها حتى تتحرك الأرواح، وعندما نقول الأرواح، نقصد حقيقة هذا الشيء الذي لا اسم له، وربما يكون جزءاً من الجسد، إن لم يكن جسداً كاملاً. ذات يوم، إن واصلنا، سنعرف جميعاً ما تلك الأشياء والمسافة التي تقطعها الكلمات التي تحاول وصفها، والمسافة التي تقطعها تلك الكلمات عندما تكون هذه الأشياء معروفة الكينونة. عندما نكتبها هكذا تبدو معقدة.
أيضاً تبدو معقدة، على سبيل المثال، تلك الماكينة، مع أنها شديدة البساطة، فالماكينة هي درّاسة الحبوب، وهو اسم يناسب المسمى في هذه المرة، ذلك لأن هذا بالتحديد ما تعمله، تستخرج الحبوب من السنابل، تضع التبن في جانب والحَب في جانب آخر. عند رؤيتها من الخارج، تجد صندوقاً كبيراً من الخشب فوق عجل من الحديد، متصلاً بسير لموتور يهتز، يجأر، يعوي، يدوي، وتفوح منه، معذرة، رائحة خبيثة. دهنوا الصندوق بلون أصفر كصفار البيض، لكن الغبار والشمس العمودية قضت على لونه، فصار نتوءاً في الأرض بجانب نتوءات أخرى تمثلها أكداس التبن، ومع هذه الشمس من الصعب أن تفرق بينها، ما من شيء ساكن، الموتور يتقافز، الدراسة تتقيأ تبناً وحبوباً، السير المتكاسل يرتجف، والهواء يهتز كما لو كان انعكاساً للشمس في مرآة تهزها من السماء أيادي ملائكة لا تفعل شيئاً أفضل من ذلك. ثمة ظلال في وسط الضباب. قضوا اليوم بكامله هنا، كذلك قضوا الأمس وأول أمس وأول أوله، منذ أن بدأت يد المهراس. عددهم خمسة، أحدهم وهن العظم منه، أما الباقون فسنواتهم قليلة، ثمانية عشر عاماً، فمن أجل هذا العمل لا تكفي سبعة عشر. ينامون في حوض الزرع أمام الأحمال، لكن الموتور يصمت فقط عندما يهبط الليل، وعندما

تكون الشمس بعيدة في فضائها يهرب للأسماع الدوي الأول لهذا الحيوان الذي يتغذى من تنكات بها سائل أسود ولزج، وبعدها، طوال ساعات النهار المقدسة عليها اللعنة، يظل صوت الدراسة الحاد ينهش أسماعهم. إنه الذي يحدد إيقاع العمل، فالماكينة لا تستطيع أن تلوك كذباً، فذلك سريعاً ما يُلاحظ، ويأتي رئيس العمل ويجأر، يطلق صرخاته من مكان مراقبته. فم الدرّاسة بركان من الداخل، حلق شاهق، أكثر من يكرس وقته ليغذيها هو أكبر الرجال الخمسة. أما الآخرون فيعملون على إنماء أكداس التبن، يدورون كالمجانين في هيام التبن الغزير، يرفعون القمح الجاف والخشن، السيقان الحادة، السنبلة ذات الجذور، الغبار، أين نجد خُضرة الحب الرقيقة هذه في فصل الربيع، عندما تبدو الأرض حقيقة كما الفردوس. لا يمكن احتمال هذه النار. ينزل الرجل العجوز، يصعد أحد الشبان، والماكينة كأنها بئر بلا نهاية. لا ينقص إلا أن نلقي فيها رجلاً. وهكذا قد يظهر الخبز بلونه الأحمر، لا الأبيض البريء ولا الغامق المحايد.

يأتي رئيس العمل ويقول «اذهب أنت إلى الغربال». الغربال هذا الشيء هائل الحجم خفيف الوزن، هذا التبن المتحول إلى غبار يتسلل عبر فتحات الأنف فيسدها، بل ويتسلل أيضاً إلى الجسد بأكمله كلما كان بالملابس فتحات فيلتصق بالبشرة، كمعجون من الطين، الغربال حكة الجلد، يا سادتي، وهو الظمأ. ماء الأبريق الذي أشربه ساخناً، مضراً بالصحة، كما لو كنت الآن أشرب من مستنقع، مستلقياً على بطني، فأنا لا تهمني الديدان والحشرات التي نسميها هنا عَلَقة. يتوجه الغلام للغربال، يتلقى الغبار الخانق في وجهه كعقاب، ويبدأ البدن في الاعتراض برفق، وتخور قواه فلا يحتمل العمل، لكن بعد ذلك، ويعرف ذلك فقط من عاشه، يتغذى اليأس من تعب الجسد، ويسترد قواه وتعود له بعنف، وحينها، بعد أن تتضاعف قوته، يقوم الغلام المسمى مانويل السيف والذي سنتحدث عنه فيما بعد في هذه القصة، وينادي زملاءه ويقول «أنا ماشي، لأن هذا ليس عملاً وإنما موت». فوق الدرّاسة

نجد العجوز من جديد «وأكداس التبن»، لكن الصرخة تختنق في حلقه ويستريح ساعده بجانبه، ذلك لأن الأربعة غلمان يمشون معاً، منفضين ملابسهم، يشبهون دُمىً من الطين لم تنضج بعد، لونها غامق، وبوجه تغطيه خيوط العرق، يبدون كالبهلوانات، ويسيرون بلا شهية للضحك. يقفز العجوز من الدرّاسة، يطفئ الموتور. الصمت يخترق الآذان كما اللكمات. يأتي رئيس العمل راكضاً، مخالفاً للعُرف «ماذا حدث، هيا احكِ، ماذا حدث». فيقول مانويل السيف «أنا ماشي». ويقول الآخرون «ونحن أيضاً». يبقى الحوض مندهشاً. «ألا ترغبون في العمل؟» يسأل. من يفتح عينيه، من ينظر حوله، سيرى الهواء يرتجف، إنه حفيف القيظ، لكن يبدو أن الوسية تهتز مع أنهم ليسوا إلا أربعة غلمان قرروا ترك العمل، ولديهم أسبابهم التي تدفعهم والتي منها ألا زوجة لديهم ولا أولاد يعولونهم. «فمن أجل هؤلاء تركتهم يسوقوني إلى إيفورا»، يقول جوان المنحوس لفاوستينا. فترد عليه زوجته «لا تفكر أكثر من ذلك في هذا الأمر، وانهض، لقد حانت الساعة».

سيذهب مانويل السيف وأصدقاؤه لمقابلة رئيس العمل المدعو أناكليتو، رجل أعور، ليطالبوه بأجر الأيام التي عملوها، وليخبروه أنهم تركوا العمل، وأنهم لا يحتملون أكثر من ذلك. يحدق فيهم أناكليتو بعينيه الصعلوكتين، يرى أمامه أربعة غلمان، يا للحسرة، من يستطيع أن يستغلهم. «أجر، عن أي أجر تتحدثون، سأشي بكم الآن بما أنكم محرضون على الإضراب عن العمل».

المعترضون لا يعرفون ما معنى كلمة إضراب، لصغر سنهم من ناحية وللجهل بممارسته من ناحية أخرى. يعودون لجبل لافري، البعيد، يسيرون في طرق قديمة، في طرق مختصرة، أكثرها مباشرة إن استطاعوا، لا يشعرون بسعادة ولا بخزي، فالحياة هكذا، ماذا سنفعل، لا يمكن أن يقضي الإنسان حياته كلها في كبد، وهؤلاء الرجال الأربعة، بعيداً عن المبالغة، يتحدثون ويقولون أشياءً خاصة بأعمارهم، حتى إن أحدهم يرمي بحجر هدهداً قطع عليه الطريق، وعندما يفكرون في الأمر جيداً يجدون أن الشيء الوحيد الذي يحزنهم هو تركهم لنساء الشمال اللاتي كن يتمشين معهم بأحواض الزرع، دون أن تتطاول أيديهم عليهن في وقتها.

خير من يسير هو من يسير على قدميه، فلديه وقت لفعل كل شيء، لكن عندما يكون أناكليتو متعجلاً ولا يستطيع تحمل الظمأ الشديد، بعد أن وضع الشر والأشرار الوسية في خطر، فأفضل حل هو أن يذهب بكاريتّا حتى مونتيمور، غاضباً وخائفاً، بهذه الحمرة المقدسة التي تصبغ وجوه المصارعين، والمشتعلة فوق الخدود لتدلل على أن العالم بخير، وخير ما فعل أن ركض لمونتيمور، حيث هناك تحل تلك القضايا، وليقل للحرس إن أربعة غلمان من جبل لافري قد أعلنوا الإضراب «وماذا سيكون موقفي عندما يطلب مني صاحب الوسية الدرس، بعد أن غاب عني العمال». قال النقيب مسرور «اذهب واطمئن، سنقوم نحن بالواجب». ويعود أناكليتو للحوض مطمئناً، وما زال في طريقه يسير الهويني، مستمتعاً براحة من أدى واجباً يحبه. وعندما تعبر بجانبه عربة حرس مليئة بالناس، يشير له أحدهم من داخلها بيده، كان ناظر البلدية «سلام يا أناكليتو». وبرفقته كان النقيب مسرور وعربة دورية، ومحملين ضد العدو عربة حربية من طراز بانزر شيرمان معبأة بالأسلحة من كل سُمك، من الطبنجة العادية حتى المدفع الذي لا يتقهقر، ها هم هناك، والوطن ينظر إليهم، يقدمون صدورهم للطلقات، يدق البوق ويدعو للتعبئة، بينما في مكان ما من الوسية، في طرق قديمة كما سبق وقلت، يسير أربعة غلمان مجرمون يسلّون وقتهم بلعبة طفولية مضمونها من سيتبول لأبعد مسافة وأعلى طولاً.

تعوي الكلاب على السيارة المسلحة عند مدخل جبل لافري، لكن ذلك قد لا يبدو حقيقة إن لم نشر للتفاصيل. الطريق الصاعد شديد الارتفاع، لذلك نزلت السرية وتقدمت في خط رماة بصحبة السلطة المدنية التي كانت هذه المرة في المقدمة وبحماس شديد. المهمة الأولى نفذها بمهارة من كان في مناورة ويعرف أن المسألة شديدة اليسر، يصلون إلى العمدة الذي يصاب بالخرس من الدهشة عندما يرى النقيب وناظر البلدية يدخلان الدكان، بينما عربة الدورية، على الجانب الآخر من الباب، تتأمل بريبة المناطق المجاورة. لقد جمعوا على الجانب الآخر من الشارع عدة فتيان، ومن أماكن بعيدة لا يمكن رؤيتها أو معرفتها تأتي صرخات الأمهات على أولادهن، كما فعلوا في مذبحة الأبرياء. دعوهن يصرخن، فصراخهن لم ينفعهن أبداً في شيء، ولنمض نحن لما يخصنا، استرد العمدة صوته، الآن لا ينطق إلا بالتقدير والتملق، يا سيدي المفتش، يا سيدي النقيب، بينما المفتش يخرج الورقة المسجل فيها هوية المجرمين، كما بلّغ أناكليتو. هيا، أخبرني أين يعيش هؤلاء: مانويل السيف، أوجوستو باتراكاو، فليسبيرتو لامباس، جوزيه بالمينيا؛ العمدة لا يُسرّ بإرشادهم، لكنه ينادي لزوجته لتجلس على البنك والدرج، تجلس، وينطلقوا جميعاً في متاهات جبل لافري، بعيون يقظة للكمائن كما يفعل في إسبانيا الحرس المدني، رعاه الرب. جبل لافري صحراء

تتحمص في الشمس، حتى إنن الغلمان يفقدون الرغبة في التعرف إليه، يا له من قيظ شديد، كل الأبواب مغلقة، لا تبقى سوى الفجوات، الفجوات حيطة من لا يريد أن يراه أحد، وحيث يمضي الحرس تتبعهم عيون النسوة وعينا رجل مسن يملؤهما الفضول، ماذا سيفعل إن لم يتلصص.
تخيلوا أننا لو توقفنا الآن لفك شفرة وشرح تعبيرات تلك العيون، قد لا نصل أبداً لنهاية القصة، برغم أن كل شيء، ما يبدو نادراً وما يبدو مفرطاً، يشكل جزءاً من القصة نفسها، إنها طريقة حسنة مثل أي طريقة أخرى للحكي عن الوسية.

ثمة مواقف كوميدية تحدث، على سبيل المثال قدوم قوات مسلحة بصحبة السلطة المدنية للبحث عن أربعة متمردين خطيرين، والعودة دونهم جارين أذيال الخيبة. ما زال المتمردون يسيرون بعيداً جداً. لا يمكن أن يلمحهم أحد حتى من أعلى نقطة في جبل لافري، ولا حتى من البرج، إنْ أمكن أن نسمي هذا برجاً، هذا المكان الذي استخدمه لامبيرتو هوركيس ليشاهد تعبئة سريته في القرن الخامس عشر الذي تحدثنا عنه. ولا الشمس تسمح أن تكشف للآخرين، وسط ارتباك المنظر الطبيعي، عصابة الأربعة رجال الصغيرة، رجال ربما يرقدون الآن تحت ظلة، أو يغفون في انتظار إطلالة نسيم الغروب. أما اللاتي يحملن همّ الدنيا فوق رؤوسهن فهن الأمهات، حيث حذّرهن النقيب والمفتش أنه في اليوم التالي إن لم يذهب الأولاد لمونتيمور، سيأتي الحرس لجبل لافري ويقبضون عليهم ويجرونهم من آذانهم ويضربونهم بالشلاليت، تلك عبارات خشنة نستخدمها في لغتنا. تسير العربة في طريقها، تثير ضباباً من الغبار، لكن قبل ذلك يتوجه المفتش ليقدم فروض الطاعة لصاحب الوسية العظيم المقيم هناك، سواء كان اسمه لامبيرتو أم داجوبيرتو، فيستقبلهم الإقطاعي بترحاب، باستثناء الجنود الذين ذهبوا إلى الخمارة، ويكرم النقيب مسرور والمفتش ويجلسهما في صالة رطبة بالدور الأول، يا له من ظل ممتع، نساؤنا وأبناؤنا بحالة جيدة يا سيدي، هم دائماً بحالة جيدة، أعطني كأساً أخرى من هذا المشروب الروحي، وعند خروجهما يضغط النقيب على يده، كما هي العادة المتبعة، ويحاول المفتش أن يحدثه الند للند، لكن صاحب الوسية رجل أكثر عظمة، يمد لامبيرتو يده ويضغط بقوة ويقول «لا تتركهم يكبرون». فيرد المفتش جونثيجو، هذا هو اسمه النادر «لا أحد يفهمهم، عندما لا يوجد عمل فعذرهم عدم وجود عمل، وعندما يوجد عمل لا يستطيعون القيام به». إنه حديث الأتباع، لكنه خرج هكذا، ومن إمارات الحرية في الوسية تلك الجيرة الريفية. يبتسم نوربيرتو متفهما «إنهم بؤساء، هؤلاء الفقراء الشياطين لا يعرفون ماذا يريدون». «إنهم ناكرون للجميل»، يقول المفتش، بينما النقيب يؤمّن على كلامه مرة أخرى، فلا يعرف عمل شيء آخر، حسنا، لديه خبرات أخرى، خاصة في الأمور العسكرية، فقط تنقصه الفرصة.

عندما يصل المجرمون إلى بيوتهم تكون الشمس قد غرُبت. وبمجرد أن تراهم أمهاتهم تنطلق الصرخات. ماذا فعلتم، آه يا إلهي. فيردون عليهن «لم نفعل شيئاً، تركنا العمل لأن شغل الماكينة لا يحتمله أحد»، «لكنه أصبح عملكم، وفي اليوم التالي ستتوجهون لمونتيمور، لن يسجنوكم»، قال آباؤهم. هكذا مرت الليلة بشدة حرارتها الخانقة، كان من المفروض أن يناموا تلك الليلة في حوض الزرع، وربما تأتي إحدى نساء الشمال للتبول بجانبهم وتبقى هناك لتستنشق هواء الليل أو لتنتظر تحسن أحوال الدنيا، فيدور الحديث بين الغلمان «إما أن تذهب أنت أو أذهب أنا»، حتى يقرر

أحدهم التجاسر، بقلب سريع النبضات وساقين مرتجفتين، ابن السابعة عشرة ماذا سنفعل له، والمرأة لا تبتعد، تبقى في مكانها، ربما نعم، تتحسن أحوال الدنيا الآن، وهذا المكان بين أكداس التبن يبدو مهيئاً لهذا الأمر، اضطجاع جسدين أحدهما فوق الآخر، إنها ليست المرة الأولى، والغلام لا يعرف من تلك المرأة، والمرأة لا تعرف من هذا الغلام، هذا أفضل، فلن يشعر أحدهما بخزي أمام الآخر في ضوء النهار كما لم يشعرا بخجل في ظلام الليل، إنها لعبة تُلعب بإخلاص، فيها يهب كل لاعب ما يستطيع، وهكذا يقضون الليالي بلا نوم، بخيالات الدوخة الطفيفة عندما يدخلون بين أكداس التبن، ويشمون هذه الرائحة الحلوة، بعدها رجفة الأجساد، ورجفة كل شيء، وغداً، يجب أن أذهب لمونتيمور.

يمتطي الأربعة عربة كارّو يجرها بغل نحيف لكنه لا يكل، هي ثروة آباء جوزيه بالمينيا. إنهم غلمان صامتون، وبقلوب مكسورة يعبرون الجسر والمطلع الذي يليه، والآن يصلون إلى فوروس متناثرة البيوت، هكذا تكون الأرض القانونية، وقبلها، على اليد اليسرى، تقع بيدرا جراندي، ورويداً رويداً يظهر في الأفق، في الصباح الدافئ، حصن مونتيمور، ما تبقى من الأسوار المهدومة، شيء يثير في النفس الحزن. يقف رجل ذو سبعة عشر عاماً لينذرهم بعاقبة مستقبلهم «ماذا سأكون، أنا المتهم بأنني متمرد، بلّغ عني اناكليتو، وزملائي هؤلاء الذين لم يرتكبوا ذنبا إلا الوقوف بجانبي، أما الذنب الآخر الذي لا يُغفر فهو أننا تنقصنا القوة الكافية لنحتمل عذاب العمل بالدراسة التي تدرس القمح وتدرسني أنا أيضاً، أدخل في فمها وتخرج عظامي مشقّاةً، وأتحوّل لقش، غيمة من غبار القش، وبعد ذلك يتحتم على أن أشتري القمح بسعر لم أختره». يتمالك أوجوستو باتراكاو أعصابه بحذاقة، هو المعروف بصياحه، لكن بطنه تؤلمه، إنه ليس بطلاً ولا يعرف ما معنى هذه الكلمة، أما جوزيه بالمينيا فلا يهمه سوى مهمة قيادة العربة، عمل يؤديه بمهارة حيث تركض البغلة كما الجواد المدرّب. وأخيراً، فليسبيرتو لامباس الذي ينادونه فليسبيرتو، ولا علاقة قرابة له بأصحاب الوسايا، هي مجرد مصادفة، يجلس ضجراً، مُدلياً ساقيه خارج العربة، ظهرهُ للطريق، وهكذا ستكون حياته دوماً. وفجأة وجدوا أنفسهم في مونتيمور.

تركوا العربة عند شجرة موز، وضعوا للبغلة زاداً من البرسيم أمام فمها، ليست ثمة حياة أفضل من ذلك؛ يصعد الأربعة للحرس فيقول لهم أونباشي بطريقة سيئة اذهبوا للمجلس المحلي في الساعة الواحدة. يقضون ساعات الصباح ذهاباً ومجيئاً متنزهين دون أن يدخلوا حتى الحانة، ما زالوا غلمانا. لا يمكن وصف الساعات التي سبقت الاستجواب، سواء ما حدث فيها داخل رأس كل منهم من خوف وريبة أو الحزن الذي استولى عليهم ورسم ملامحه فوق وجوههم، أو غصة المرارة في حلقهم والتي لا يذيبها لا الماء ولا الخمر. ما زال مانويل السيف يقول «أنا الذي ورطتكم»، لكن الآخرين يرفعون أكتافهم، لم يحدث شيء، ويرد فليسبيرتو لامباس «ما يتحتم علينا أن نقاوم لا أن نتنازل».

كانت النتيجة بالنسبة لصبية قليلي الخبرة نتيجة جيدة. في الساعة الواحدة كانوا في رواق المجلس المحلي، مُنصِتين لصرخات المفتش جونثيجو التي كانت ترعد المبني بأكمله. لقد حضر رجال جبل لافري. أجابه مانويل السيف كأنه يصارعه، فهو رجل الثورة، «ها نحن هنا، نعم يا سيدي». وقفوا

الأربعة في صف، في انتظار ما يحل فوق رؤوسهم. وضع المفتش زي سلطته المدنية، وكان النقيب مسرور معه. «إذن أنتم من فعلتم ذلك، سترون أيها الوقحون ما ينتظركم، سنرسلكم لأفريقيا حتى تتعلموا احترام من يأمرون، هيا، أدخلوا لي مانويل السيف». وبدأ الاستجواب. «مَنْ يعلّمكم، مَنْ علمكم ذلك، لا بد أن لكم أساتذة عظاماً، أنتم تحرضون على الإضراب». ويجيب مانويل السيف بقوة براءته القاطعة « لم يعلمنا أحد، ولا نعرف أحداً، ولا نعرف حتى ما معنى كلمة إضراب، لكن الماكينة كانت تأكل كثيرا، وأكداس التبن كانت هائلة». يقول المفتش «أنا أعرفكم جيداً، وأعرف أنكم لا تقولون إلا ما أمروكم أن تقولوه»؛ كان جونثيجو يقول ذلك ليكسب أرضاً، حيث إنه عندما عرف في مونتيمور أن في جبل لافري ثمة غلمان يحرضون على الإضراب، قال له وللنقيب مسرور شخصان أو ثلاثة ممن يتمتعون بالرصانة عدة كلمات رصينة «لا يجب أن تحملا تصرفات الغلمان محمل الجد، إنها أفعال صبيانية، فماذا يعرفون هم عن الإضراب». مع ذلك أصّر أن يمثل الجميع للاستجواب، وبعده، ألقى المفتش خطاباً قال فيه ما هو معروف «سنرى إن كنتم ستمتثلون للطاعة وتتعلمون احترام من يهبونكم عملاً، سأفوّت هذه المرة، شريطة ألا أراكم هنا مرة أخرى لأنكم لو عدتم سنكسّر عظامكم ونرميها للحيوانات، وخذوا حيطتكم، خاصة عندما يظهر أحد ويعطيكم أوراقاً أو يورطكم في حوارات ثورية، عليكم حينئذ ان تبلغوا الحرس وهم سيقومون بأداء الواجب، واشكروا من تشفع لكم لنطلق سراحكم، ولا تعضوا اليد التي امتدت لكم بالإحسان، والآن انصرفوا، وألقوا التحية على النقيب مسرور، فهو صديقكم، وأنا أيضاً صديقكم وأريد لكم الخير، لا تنسوا ذلك».

هذا حال هذه الأرض. قال الملك لامبيرتو هوركيس «اهتم بهذه الأرض وعمّرها، اسهر على مصالحها من دون أن تنسى أهلك، أنصحك بذلك من أجل مصلحتى، إن فعلت ذلك، دائما وأبدا، سنعيش جميعاً في سلام». وقال الأب أجاميديس لنعاجه التي يرعاها «مملكتنا ليست في هذه الدنيا، عانوا في حياتكم لتفوزوا بالسماء، وبقدر الدموع التي تذرفونها في وادي البلايا هذا، ستكونون بقرب الرب حين تودّعون هذه الدنيا، فكل ما فيها خسارة، شيطان ولحم، وانتبهوا إلى أني لا أُغمّي عيونكم، ومن الخديعة أن تعتقدوا بأن الرب إلهنا يمنحكم حرية الخير والشر، ففي اليوم الآخر توضع الأعمال في الميزان، ومن الأفضل أن نسدد ديوننا في هذه الدنيا من أن نسددها في الآخرة». إنها عقائد خيّرة تلك العقائد، وربما بسببها تحتم على الأربعة غلمان قبول أن يذهب الأجر الذي عملوا به ولم يقبضوه، وهو تسعة إسكودو في اليوم، في ثلاثة أيام وربع عملوها في أسبوع الجريمة، أقول أن يذهب الأجر لدار المسنين، رغم أن فليسبيرتو لامباس هَمهَم في طريق العودة «من المؤكد أنهم سينفقونه على البيرة». ولم تكن تلك حقيقة، وعلينا أن نغفر خطأ الشباب الذي يسيء الظن بكل سهولة في من هم أكثر منه خبرة وحنكة. فبفضل السبعة عشرة والمائة إسكودو التي تبقت في يد ناظر المجلس المحلي، أكل مسنو الدار أكلة هنيئة وقضوا سهرة حقيقية لم يكونوا يتخيلونها، لقد مر على هذا الحدث عدة أعوام وما زالوا يتحدثون عن هذه الوليمة، وأبرز ما قاله أحد المسنين شديدو الهرم «الآن أستطيع أن أموت وأنا مستريح».

البشر حيوانات غريبة، والغلمان أشدها غرابة، إنهم من عرق آخر. لقد تحدثنا عن فليسبيرتو لامباس بما فيه الكفاية، والغضب من الأجر المسلوب لم يكن إلا ذريعة. لكنهم في الحقيقة عادوا

جميعاً إلى جبل لافري حزينين، كأنهم سلبوا منهم شيئاً أغلى من الأجر، من يدري ربما سلبوا عزمهم، هم لم يفقدوه بالمعنى المفهوم، لكنهم بلا شك تعرضوا للإهانة وعوملوا باحتقار، وسمعوا مصطفين خطبة المفتش، بينما كان النقيب ينظر لهم شزراً، حابساً أنفاسهم وتصرفاتهم. بل كانوا يشعرون أيضاً بالغضب على من تشفّع لهم. شفاعة لم تنفع في منع محاولة اغتيال سالازار(7) قبلها بيومين، لكنه نجا منها.

ذهب الأربعة غلمان يوم الأحد إلى الميدان ولم يجدوا صاحب العمل. الشيء نفسه حدث يوم الأحد التالي والأحد الذي يليه. أصحاب الوسايا يتمتعون بذاكرة حديدية وسهولة اتصال، لا شيء يهرب منهم، تلك تعاليم يتوارثونها، وعندما يروق لهم، يغفرون، لكنهم أبداً لا ينسون. وحين عثر الغلمان على عمل في النهاية مضى كل منهم في جانب. عمل مانويل
السيف في رعي الخنازير، وفي حياته الرعوية تقابل مع أنطونيو المنحوس الذي سيصير صهره، عندما يأتي الوقت المناسب.

---

(5) دخلت البرتغال الحرب العالمية الأولى وانضمت للحلفاء، وعانت بعد الحرب وتوالت عليها الأزمات، أدى ذلك إلى انقلاب عسكري يشير إليه المؤلف في الثامن والعشرين من مايو 1926، بقيادة الجنرال جوميس ، وكان ذلك بداية عصر الديكتاتورية. (م)

(6) قوريني: منسوب لمدينة قورينة الإغريقية القديمة الواقعة في منطقة البرقة بليبيا. (م)

(7) سالازار هو الديكتاتور الذي حكم البرتغال 1926 - 1971، وكان محافظاً متزمتاً فأقام ديكتاتورية وفق نموذج موسوليني. بعد وفاته تولى الحكم مارسيلو كايتانو حتى عام 1974، حيث نشبت ثورة القرنفل. (م)

غدت سارة بجسد واهن، والآن تحلم بزوجها كل ليلة، وربما لا تمر ليلة من دون أن تراه راقداً فوق أرض الزيتون بأثر الحبل في رقبته، بلون بنفسجي، فلا يستطيع الراحة في القبر، ثم تبدأ حينئذ في غسله بالخمر حتى تزيل الأثر، وإن استطاعت يستعيد الزوج حياته من جديد، وهو شيء لا ترغبه لو كانت مستيقظة، لكن الحلم جاء بهذه الصورة، ومن يستطيع أن يفسّره. هذه المرأة التي اغتربت كثيراً في شبابها، تعيش الآن هادئة وصامتة، لكن ثمة حقيقة لا مفر منها، أنها عاشت دائماً وأبداً في صمت وهدوء، تساعد في بيت ابنها جوان المنحوس وزوجته فاوستينا، وتعتني بحفيدتيها جراثيندا وإميليا، كما تربي الدجاج وترفو الثياب وتعيد رفوها من جديد وترقّع مؤخرات السراويل، وهو علم اكتسبته من سنوات زواجها، ولديها، فضلاً عن ذلك، عادة لا يفهمها أحد: التنزه خارج البيت، وسط الظلام الدامس، عندما يغط ذووها في سبات عميق. الحق أنها لا تبعد كثيراً عن البيت. ولا الخوف قد يسمح لها بذلك، لذلك تكتفي بالسفر حتى ناصية الشارع، فيما يعتقد الجيران أن السيدة العجوز باتت شبه مجنونة، وربما تكون كذلك، فلو قامت كل الأمهات المسنات بالتنزه ليلا بالشارع ليتمتع ابنها وزوجته أو بنتها وزوجها بالملاطفات الهادئة، لكان ذلك أمراً جديراً بالذكر في التاريخ الفقير للحركات البشرية الصغيرة، ولشاهدنا المسنات في ذهابهن وإيابهن في الظلال أو تحت ضوء القمر، أو جالسات في الأرض، بجانب الجدران البيضاء أو في درجات سلم الفناء، صامتات، منتظرات، ماذا سيقلن؟ لا شيء إلا ذكريات تسكنها متعة الماضي، كيف كان، كيف لم يكن، والوقت الذي كانت تستغرقه تلك المتعة، حتى تقول سيدة منهن «نستطيع أن نعود يوماً آخر»، فينهضن جميعاً ويقلن «إلى اللقاء غداً»، ويصلن لبيوتهن ويرفعن عصا الباب بحيطة، فيما الزوجان نائمان وبريئان من ممارسة الحب، فذلك لا يكون كل ليلة، يا أمي. لكن سارة كانت تفضّل الحيطة الزائدة، ولا يمنعها عن الخروج إلا سوء الطقس، وحينها كانت تدخل تحت سقيفة في حوش البيت، فتشفق عليها فاوستينا التي تفهمها جيداً، وتلك أمور نسائية، فتناديها من باب غرفتها، وتلك إمارة على أنها ليلة بيضاء نقية مثل تلك النجوم الباردة، هذا إن كان حقاً في النجوم لا يبحث جوان المنحوس عن زوجته الشرعية تحت الملاءات.

ربما تكون كثرة خروج سارة ودخولها مرده الهروب من أحلام تنتظرها، لكن من الحق والمعروف أنها ذهبت عند الفجر لأرض الزيتون، وفي اليوم التالي لوفاة زوجها اهتدوا لجسده، عرفت ذلك عن طريق الحلم؛ وبزجاجة خمر وخرقة تكرر الحركة، تدعك، تعيد الدعك، والرأس يتأرجح، وعندما تأتي ناحيتنا، تظل عينا زوجها الباردتان تحدقان فيها، وعندما تروح إلى هناك تبقى الجثة بلا وجه، وهذا أسوأ. تستيقظ سارة غارقة في عرق بارد، تسمع شخير ابنها، تسمع قلق حفيدها في منامه، لكنها لا تسمع صوتاً لحفيدتيها ولا لزوجة ابنها، إنهن نساء، من أجل هذا صامتات، وتدنو من الطفلتين النائمتين، يعلم الله المصير الذي ينتظرهما، بمشيئة الرب ستكونان أكثر حظاً مني.

ظلت القصة تتقدم، وذات ليلة خرجت سارة ولم تعد. عثروا عليها في صباح صاف خارج القرية، بلا عقل، تتحدث مع زوجها كما لو كان حياً. إنها مصيبة. أنقذت الموقف الابنة التي كانت تعمل خادمة في لشبونة، ماريا، حيث توسلت بالدموع لأصحاب العمل أن يعيدوها، فأعادوها، وما زال هناك من يتحدث بسوء عن الأثرياء. جاءت سارة بنت جبل لافري لتسافر، لأول مرة، في سيارة أجرة تحملها من تيريرو دو باكو، الواقعة في الجنوب والجنوب الشرقي، إلى مستشفى مجانين

ريليافولس، حيث استقرت هناك حتى جاءت ساعتها مثل فتيلة ينتهي منها زيتها. أحياناً، لكنها أحيان قليلة، إذ لكل منا مشاغله، كانت تذهب ماريا لزيارة أمها، فتظل كل واحدة منهما تحدق في الأخرى، ماذا بوسعهما أن تفعلان أكثر من ذلك. وبعد بسنوات، عندما يسوقون جوان المنحوس إلى لشبونة لأسباب سنعرفها سريعا، ستكون سارة قد ودّعت الحياة محاطة بضحكات ممرضات كانت تطلب منهن، بتوسل، زجاجة خمر، تخيلوا، لتتم عملاً يجب أن تتمه قبل فوات الأوان. آه من وجع القلب، أيها السادة والسيدات...

من غنائم الحروب كان للوسية نصيب، وإن كان نصيباً متواضعاً. أما النصيب الأكبر فكان يذهب لأوروبا حيث اشتعلت نيران الحرب منذ قليل، وحسبما وصل إلى معرفتنا وهو ليس بالكثير؛ إذ كنا غارقين في محيط الجهل والعزلة عن العالم، فيما قد وصل الدمار إلى إسبانيا لدرجة تبكي من أجلها النفس. كل حرب تتجاوز حدودها المعقولة، قد يفكر هكذا كل من مات فيها، لأنه لم يرغب ذلك.
حين تملّك لامبيرتو هوركيس أراضي قطاع جبل لافري بحدوده، كانت دماء الإسبان على الأرض الإسبانية ما زالت طازجة، دماء نزفها محبو سفك الدماء، وهي طازجة مقارنة بدماء سفكها الرومان والبرتغاليون القدامى، طازجة مقارنة بضجيج وجلبة الجرمانيين الهمجيين الذين غزوا إسبانيا في القرن الخامس الميلادي إن كانوا قد وصلوا إلى هنا، فالقوطيون قد وصلوا بالطبع، ثم جاء العرب، وهم قبيلة شيطانية تتمتع ببشرة سمراء، الحمد لله أن جاء البورجونيون الفرنسيون وقضوا على جيشهم وجيش الآخرين؛ ثم حروب صليبية، ومسلمون من جديد، يا إلهي، كم قتيلاً شاهدته تلك الأرض، وإن لم نتكلم بعد عن الدماء
البرتغالية المسفوكة، فذلك لأنها كلها دماء واحدة أو صارت هكذا فيما بعد في زمن التطبيع المناسب، ولم نتحدث عن الإنجليز والفرنسيين لأنهم حقاً أجانب.

لم تتغير الأمور بعد لامبيرتو هوركيس. ظلت الحدود باباً مفتوحاً، وبقفزة واحدة يمكن عبور «الكايا»، ويبدو أن ملائكة الحرب قد سووا السهل عمداً وبنفس راضية حتى تكون المواجهة بين الجنود سهلة ومريحة فلا يجدوا أي موانع أمام سهامهم المنطلقة، ولا أمام رصاصاتهم في زمن آخر. جميلة تلك الكلمات الخاصة بالسلاح، من الخوذة إلى الدرع، من القوس إلى البندقية، من المدفع القديم إلى المدفع الأحدث، ولو عرف رجل مسيحي أنهم ساروا من هنا ووطؤوا تلك الأرض واستهلكوا خزائن ذخيرة، لارتجف، وسيرتجف مرة أخرى أمام جدارة هذه الاختراعات. في نهاية المطاف، سالت دماء كثيرة، من جراح الرقبة أو من البطن المفتوحة أمام الشمس، دماء من كثرتها قد تستخدم كحبر لكتابة الألغاز شديدة السرية مثل هل عرف من مات من هؤلاء البشر سبب موته وهل قَبلَ الموت. تنهض الأجساد من مكانها أو تُدفن ربما في مكان سقطت فيه، وتُكنس الوسية لتبقى الأرض ناعمة من أجل معركة جديدة. لهذا كان يجب أن يتعلموا ويمارسوا حرفتهم بإتقان، بغض النظر عن النفقات، مثلما حدث عندما كتب بمهارة الكونت فيميوسو إلى جلالته «يا سيدي، يجب أن تزود سرية الفروسية ببندقية قصيرة وطبنجتين لكل جندي، وأن تزود تلك البندقيات بطلقات بندقية الموسكيت أو أصغر قليلاً، على ألا يصل طول ماسورتها لثلاثة أرباع متر، فهذا يكفي، حتى تحتوي الماسورة هذا النوع من الطلقات، وإلا لن تعمل البندقية عملها

الضروري، ولن تقبض على خزانة الرصاص كما يجب أن تكون؛ أما الطبنجات فيجب أن تزود بنوع جيد من الرصاص وأن يصل طول ماسورتها لنصف متر تقريبا، على أن تأتي بجراب ليعلق في الحزام، وفي السروج يجب عمل حزامين ليشبكا الجندي، ومن الخير أن ترسلوا لي بالإضافة للبنادق والطبنجات كميات أخرى لأصنع منها سلاحاً آخر وكميات من الحديد لـــ فيلا فيزوسا، لتقسيمها بين الضباط المتخصصين في صناعة البنادق، وقد يتبقى جزء من هذا الحديد في مونتيمور وايفورا، وهذا ما أراه نافعاً لسرية الفروسية، لكن ما تأمر به جلالتك سيكون أكثر نفعاً».

لكن، بسبب بعض تعثرات في بيت المال، كان يحدث أن يتأخر جلالته في دفع الرواتب التي كانت ضئيلة أيضاً «لقد عمل الناس في مونتيمور حتى الآن في تشييد الحصون مقابل ألفي مسكوكة تكرمت جلالتك بمنحها، بالإضافة لألفين آخرين دفعهما الشعب، وبما أن الاتفاق كان أن تدفع جلالتك ستة آلاف والشعب كذلك، فقد كتبت لي البلدية أنه من الضروري أن تدفع جلالتك ألفين حتى يدفع الشعب مثلك، فكان ردي أن يحاولوا هم دفع الألفين، وأن أخبر جلالتك لترسل لهم الألفين حتى يساهم الشعب بما يجب عليه». تلك رسائل بيروقراطية، عديمة الثقة، تشبه لعبة المقايضة، لكن لا يتم فيها الفصال في الدماء، فلا يمكن أن يقال «أعطني جلالتك لتراً من دمك، سواء كان دماً أزرق أم أحمر، فبعد أن يسيل على الأرض لمدة نصف ساعة، سيختفي لونه». لا تتجرأ الشعوب أبداً في طلب المزيد، إذ قد لا يكفي دم كل البيت الملكي، حتى لو وضعنا في المكيال نفسه دماء الأطفال ولاداً وبناتاً، بمن فيهم أبناء الملك والملكة غير الشرعيين الذين جاؤوا لضرورات الحرب. فليدفع الشعب الدم والمال، فجلالة الملك سيمنح المسكوكات المعدودة بعد أن يدفعها الشعب أولاً في شكل ضرائب.

أبداً لا تختفي البلايا من القائمة. فحكايات فرقة الفروسية والمسكوكات والحصون، فضلاً عن الدم الذي يستبيحه الجميع، تنسب للقرن السابع عشر، إنها شديدة القدم مليئة بالرعب، لكن الأمور لم تتحسن، فحدث بعد ذلك أن فقدنا أوليفينزا في حرب البرتقال(8) ولم نستردها مرة أخرى، وهكذا، من دون إطلاق رصاصة واحدة، يا للعار، يدخل مانويل جودوي من هنا بلا مقاومة، ولسخريتنا وكرمه يرسل غصن برتقال إلى عشيقته الملكة ماريا لويسا، ولم يكن ينقصنا إلا إرسال مرتبة لهما. إنها بلية غير متناهية، حسرة لا سلوى لها، أن يجري حتى أول أمس ما كان يجري في القرن السابع عشر، لا بد أن البرتقال فأل سيئ يؤثر على مصائر الأشخاص والجماعات، ولو لم يكن الأمر كذلك ما أمر ألبيرتو رئيس العمال بدفن أغصان البرتقال المتساقطة في وقت البرد وما قال له «ادفنوا البرتقال». ولو ضُبط أحد يأكله يطردونه يوم السبت، وهكذا طردوا العديد لأنهم أكلوا خفية الفاكهة المحرمة التي كانت لذيذة في تلك الآونة، بدلاً من أن يتركوها للتلف والعفن تحت الأرض، مدفونة بالحياة، يا لها من مسكينة، وأي ذنب ارتكبت هي أو ارتكبنا نحن. لكن لكل شيء سبباً، فلنتأمل الأمور، فلكي تنتهي تلك الحرب البادئة الآن في أوروبا، أرسل شخص يدعى هتلر هوركيس الألماني في جمع غلمان تتراوح أعمارهم من الثانية عشرة إلى الثالثة عشرة ليشكّل منهم معارك الهزيمة الأخيرة بالزي الرسمي المعلق على سواعدهم والملفوفة به سيقانهم كما الرهبان، ويحملون سلاح التقهقر فوق كتف لا يحتمل السلاح بعد، وهذا هو بالضبط ما يشكوه أصحاب الوسايا، إذ لا يجدون غلماناً في السادسة والسابعة ليرعوا الخنازير والديوك الرومية، ماذا سنفعل

إن لم يكسب الفتيان رزقهم، كان يردد ذلك الآباء الخشنون الذين دفعوا الدم والمال وما زالوا إلى الآن لم يفهموا الحقيقة، أو بدؤوا في الشك، كما ارتابوا في
قرن آخر في أعذار جلالته.

وماذا لو صارت حياتهم حروباً في حروب. الإنسان يتكيف مع جميع الظروف، فبين حرب وأخرى ينجب أطفالا ويسلمهم للوسية، بعيداً عن الرماية والبندقية التي تقطع الآمال، فقد يضحك الحظ للولد ويصير رئيس عمال، أو إدارياً، أو خادماً حافظاً للسر، أو ربما يفضل الذهاب ليعيش في المدينة، تلك الحياة الشبيهة بالموت النظيف. ليس ثمة أشر من الأوبئة والجوع، عاماً يصيب وعاماً قد لا يصيب، فيأتي ليقضي على الشعب، فتصير الحقول خالية من الناس، والقرى مغلقة، وعلى مدى البصر لا ترى نفساً واحدة، ومن آن لآخر تطل أقوام رثة الثياب وبائسة، تسير بطرق لا يرتادها إلا الشيطان رغماً عن الرجال. يضلون طريقهم، فتفترش الأرض الجثث، وحين ينتهي الوباء ويرتاح الجوع، يعدون الأحياء لآخر رقم يعلمونه في العد، فلا يجدون إلا قليلاً.

كل هذه الأمور مصائب، ومصائب كبرى. ولو استخدمنا لغة الأب أجاميدس لقلنا إنها مصائب سفر الرؤيا الثلاث التي كانت أربع، ولنبدأ بالعد على الأصابع، لمن لا يعرف طريقة أخرى للعد، أولها الحرب، ثانيها الطاعون، ثالثها الجوع، والآن يأتي رابعها وهي حيوانات الأرض المفترسة، ذات الحضور الكبير والتي تتمتع بثلاثة وجوه، أولها وجه صاحب الوسية، ثانيها وجه حارس يدافع عن الوسية وعن صاحبها، ثم يأتي وجه ثالث، حيّة ذات ثلاثة رؤوس ومقصد حقيقي واحد. ليس أكثر من يأمر هو أكثر من يقدر، ولا أكثر من يقدر هو أكثر من يظهر. لكن من الأفضل أن نتحدث بوضوح أكثر. في كل المدن، في كل القرى والضواحي والأماكن، يسير هذا الفرس ويتنزه بعينين غاية في الحيطة وبأرجل تشبه يدي الإنسان وقدميه، لكنها ليست أيدي ولا أقدام إنسان. ليس إنساناً هذا الذي سيقول لمانويل السيف، بعد ذلك بسنوات وعندما يتوجه لأداء الخدمة العسكرية في جزر أزورس، وأتمنى ألا يختل نسق القصة بتقديم هذا الحدث، «عندما أترك هذا سأعمل في المخابرات وأمن الدولة»، ويسأله مانويل «ما معنى هذا؟»، فيجيبه الآخر: «إنه البوليس السياسي، لا تتخيل كيف حال الواحد هناك، إن وجدت فرداً لا تستخف ظله تحبسه، تسوقه للسلطة المدنية، ولو راق لك اضربه بالنار طلقة واحدة فقط في رأسه بعدها تقول إنه قاومك، وانتهى الأمر».

إنه فرس يقوّض أبواب البيوت بترو، يأكل على مائدة الوسية مع الأب أجاميدس ويلعب الورق مع الحارس الجمهوري بينما المُهر مسعود يضرب برجليه رأس السجين. في كل المدن، في كل القرى والضواحي وجميع الأماكن الأخرى، نجد الجياد تصهل، تفرك بوزها في نفسها، تتبادل الأسرار والوشايات، تخترع عنف المعتقد والمعتقد العنيف، ولهذا نفسه رأينا جميعاً أنهم لا ينتسبون إلى سلالة الجياد، كم هو أحمق هذا الأب أجاميديس الذي لكونه قرأ فقط في التوراة اعتقد أنها حقيقةً جياد، وهو خطأ أساسي وقع فيه مانويل السيف في أزورس، أوقعه فيه زميله البشير. إن جذور شجرة المعرفة لا تختار أرضها ولا ترتاب في المسافات البعيدة.

لكن الأب أجاميدس أيضاً يصيح «ثمة رجال يسيرون من هنا خفية ويرجفون حاستكم السادسة، ونعمة الرب ربكم ومريم العذراء أرادت أن ينسحقوا في إسبانيا، إنهم كما الشيطان أعوذ بالرب منه، واجبي أن أقول إن عليكم أن تفروا منهم كما تفروا من الطاعون والحرب والجوع، فهم أشد مصيبة من الممكن أن تقع على أرضنا المقدسة، هم كآفة الجراد التي حدثت في مصر، لهذا لن أكِلّ من أن أقول لكم انتبهوا وأطيعوا أولي الأمر الذين يعرفون أكثر منكم في الحياة الدنيا، وانظروا لحارس الوسية كما تنظرون للملاك الحارس، فلا تحملوا له كرهاً، فالأب نفسه يضطر أحياناً لضرب ابنه الذي هو فلذة كبده، ونعرف جميعاً أن الابن يقول عندما يدرك «كان ذلك من أجل مصلحتي»، ويختفي الضرب من جسده، هكذا، يا أبنائي، يكون الحارس، ولن أتحدث عن السلطات المدنية والعسكرية، ولا عن السيد رئيس المجلس المحلي والسيد المفتش والسيد قائد الفرق العسكرية والسيد المحافظ والسيد قائد الفيلق، والسادة الآخرين المكلفين بإصدار الأوامر، بدءاً ممن يهبكم العمل، نعم، فلتتخيلوا أحوالكم من دون أن يهبكم أحد عملاً، كيف كنتم ستطعمون عائلاتكم، قولوا لي، أجيبوني، فمن أجل ذلك أسألكم، أعلم جيداً انه في القداس لا يصح الحوار، لكن عليكم أن تجيبوا أنفسكم بينكم وبين ضمائركم، ومن أجل هذا أوصيكم، أناشدكم وأواعدكم كيلا تعطوا آذانكم لهؤلاء الشياطين الحمر الذين يتجولون هنا لجلب المصائب لنا، آمنوا أن الرب لم يخلق هذه الأرض من أجل ذلك، وإنما خلقها لتكون محفوظة بين حِجر مريم العذراء، إن آمنتم أن هناك من يريد أن يضللكم بكلماته الرقيقة، فتوجهوا لموضع الحراسة وبلغوا عنه وسيكون ذلك عملاً لوجه الرب، لكن إن خالفتكم شجاعتكم، خشية أن ينتقموا منكم، فسأسمع إليكم في الاعتراف وسأرعاكم كما يملي على ضميري وروحي، والآن فلنصلِ جميعاً صلاة ربانية لإنقاذ وطننا، صلاة ربانية لإنقاذ روسيا، صلاة ربانية بنية حكامنا، هؤلاء الذين يضحون كثيراً من أجلنا ويحبوننا، آبانا الذي في السماء، فليقدس اسمك».

الأب أجاميدس معه حق في كل ما يقول. ثمة أناس يتجولون في الوسية، يجتمعون في مجموعات من ثلاثة أو أربعة رجال في أماكن خفية عن العين، خالية من السكان، وأحياناً
في بيوت مهجورة، يراقبون وأحيانا يلتقون تحت ستر وادٍ، اثنان من هنا، اثنان من هناك، ويتحاورون. عادة ما يتكلمون واحدا واحدا والآخرون يستمعون، من يراهم من بعيد قد يقول «إنهم متشردون، غجر، حواريون»، وعندما ينتهون يتفرقون في الوادي، كل في طريق مختلفة، يحملون أوارقا وقرارات. هذا ما يسمى مُنظَمة، والأب أجاميدس يشتاط غضبا، إنه الغضب المقدس، «عليهم اللعنة، فلتتهاوى أرواحهم في الدرك الأسفل من النار، إنهم وباء ضار لا يرغبون إلا في تعكير حياتكم، حتى إني بالأمس تحدثت مع السيد رئيس البلدية، وقال لي يا سيدي القس اجاميدس، انظر، لقد لوث الداء اللعين قريتنا، وعلينا أن نفعل شيئاً ضد العقائد الخبيثة التي يروج لها أعداء عقيدتنا وحضارتنا بين العائلات. لا تكونوا ناكرين للجميل، أقول لكم الآن، إنكم تجهلون أن بلدنا هذا محط حسد الأمم الأخرى، لأننا نتمتع بالسلام، بالنظام، والآن اقتربوا هنا وقولوا لي إن أردتم أن تفقدوا كل هذا، أتشتكون من عيب، هذا ما يحدث».

لم يكن جوان المنحوس أبداً رجل قداسات، لكن لأنه الآن يعيش في جبل لافري يرتاد الكنيسة من آن لآخر لينال رضا زوجته وللحاجة أيضاً. يسمع هذه الكلمات الثائرة من الأب أجاميدس، يقارنها

داخل رأسه بالكلمات الأخرى التي قرأها في الأوراق التي أعطوها له في الخفاء وما زال يتذكرها، ويصدر حكمه كرجل بسيط، وإن كان يصدّق في شيء ما تقوله الأوراق، فهو لا يصدق شيئاً إطلاقاً مما يقوله القس. يبدو أن الأب اجاميدس نفسه يجد صعوبات ليصدق نفسه، فيلجأ للصياح والصراخ بأعلى صوته، فيهرب الزبد من فمه ويصير منظره غير لائق بوزير الرب. وحين ينتهي القداس، يخرج جوان المنحوس من الفناء مع بقية الحاضرين، يلتقي بفاوستينا التي كانت بين النساء، يهبط معها حتى منتصف الشارع ثم ينضم لأصدقائه ليتجرع كأساً، فقط كأساً واحدة، فيسخرون منه، «يا منحوس، إنك تشرب كما الأطفال»، فيبتسم هو، ابتسامة تقول كل شيء، لدرجة أنها تُلزم الآخرين الصمت، كما لو كان من إحدى كمرات الحانة سقط جسد رجل مشنوق. ويقول له أحدهم «لقد تحدث القس جيداً، أليس كذلك؟ »، سؤال لا جواب له لأن هذا أحد اثنين أو ثلاثة من جبل لافري لا يذهبون أبداً للقداس، فسأل فقط ليزعجهم. يبتسم المنحوس من جديد «العظة دائماً لا تتغير، ولا تزيد، لأنها تسير في طريق الأربعين، لا تشرب كثيراً فالشرب الكثير لا يصون اللسان». لكن من يد هذا الذي تحدث في الحال جاءته الأوراق، حينئذ تبادلا النظر، وبإحدى عينيه غمز له سيجيسموندو، هذا اسمه، ورفع الكأس «في صحتك».

في أيام رعي أنطونيو المنحوس للخنازير، رأى مانويل السيف هناك، يعمل في عمل لا خبرة له فيه لأنه لم يجد عملاً آخر، إذ ذاع صيته، لمسافة فرسخين، أنه محرض على الإضراب هو وزملاؤه. ومثل بقية سكان جبل لافري، اطلع أنطونيو المنحوس على الخبر، وفي طفولته التي خرج من طورها في التو، وجد ثمة تشابهاً في تمرده الوهمي على رئيس الرعاة، شاوي الصنوبر الضارب بالعصا، لكنه لم يتجرأ أبداً على التعبير عن هذا التمرد، خاصةً لأن بينه وبين مانويل السيف ست سنوات، وهو عدد كاف من السنوات ليفصل بين الطفل والفتى وبين الفتى والشاب. لم يكن رئيس الرعاة هنا يتحرك أكثر من الآخر، لكنه كان معذوراً لأنه عجوز، وكان الصِبية يتحملون أوامر العمل، فلا بد من أحد يأمر، هو يأمرنا ونحن نأمر القطيع. أيام الرعي طويلة، خاصة في فصل الشتاء، وساعات اليوم تمر ببطء، بلا تعجل، وكل حين ينتقل الظل من هنا إلى هناك، وتغدو الساعات أكثر بطئاً عندما يكون القطيع خنازير، فالخنازير لا تتمتع بالخيال ودوماً تلصق بوزها بالأرض، ونادراً ما تبعده عنها قليلاً، ولا يستقيم حالها إلا بضربة حجر أو هراوة على ظهرها، حينها تنضم الخنازير الشاردة إلى القطيع من جديد، وتنفض آذانها، كأن شيئاً لم يحدث، بارك الله فيها، فهي لا تحمل كراهية لأحد لأنها تتمتع بذاكرة فقيرة.
هكذا كان يفيض وقت للثرثرة عندما يرقد رئيس الرعاة تحت شجرة سنديان، أو عندما يشرد بالقطيع بعيداً عن هذا الجانب. حينها كان مانويل السيف يتحدث عن مغامرته كمُضرِب، بلا مبالغات تخالف شخصيته، ويلمّح بوصف نظري إلى ما يمكن أن يحدث في الأحواض الليلية لنساء الحراسة، خاصة لو كنّ من الشمال وجئنَ بلا رجل. لقد صارا صديقين، وبات أنطونيو المنحوس شديد الإعجاب بصفاء صديقه الأكبر منه، فلم يكن له من قبل أصدقاء، إذ بمجرد ما كان يضع قدميه في مكان، يرفعهما، كما سنرى بعد ذلك. لقد ورث حب التشرد من جده دومينجو المنحوس، لكنه يختلف عنه في روحه المرحة على طريقة غير معتادة، إذ يتمتع الحفيد بوجه مسرور وضحكات منطلقة. ما يعشقه وما يكرهه يتفق مع سنه، يحمل على عاتقه قضية عتيقة لم تحل أبداً، قضية تفرّق الغلمان عن العصافير، وله قول مستقل وأفعال متجاسرة سيعلنها يوماً فتعبر عن

التمرد والاستياء. سيعشق الرقص كما عشقه أبوه في صباه، لكنه لن يهوى الفتيات بشغف. سيكون راوي قصص عظيم، قصص عاشها أو تخيلها، وسيمسك بزمام الفن الرفيع ليمحي الفواصل بين هذه وتلك. وهذا القص، لطبيعته، سيكون أحد أعمدة الفنون الريفية. ليس ما نفعله الآن قراءةً للكف، وإنما معلومات أساسية لحياة ظهرت منها أشياء وأشياء أخرى لم تبدُ مرتبطة بجيله.

لم يستمر أنطونيو المنحوس طويلاً في رعي الخنازير. ترك مانويل السيف في المهنة وذهب ليتعلم مهنة أخرى كان الآخر يعرفها لأنه أكبر منه سناً. في الثالثة عشرة، غدا يصحب رجالاً ناضجين في الأراضي الزراعية، ويحفر معهم السواقي، وهو عمل يتطلب قوة ساعدين وجهداً كبيراً. وما إن بلغ الخامسة عشرة حتى تعلم نزع الفلين، وهي حرفة جديدة بالذكر وصل فيها لدرجة معلم، مثل كل الحرف الأخرى التي دخلها، بلا غرور. شاباً صغيراً، هاجر في التو حضن أمه وأبيه وتجول في أماكن ترك فيها جده أثراً وذكريات مريرة. لكنه كان مختلفاً تماماً عن جده لدرجة أن أحداً لم يربط بين اللقبين ليعتقد أن بينهما صلة قرابة. كان يميل كثيراً للبحر، وهناك اكتشف ضفاف سادو وغامر، فلم تكن رحلة صغيرة قام بها سيراً على الأقدام ليربح فقط عدة سنتات أكثر كان يفاصل فيها في جبل لافري. وذات يوم، بعد ذلك بكثير، فلكل وقت أذان، سيذهب إلى فرنسا ليدفع سنوات من عمره مقابل عملات أكثر.

الوسية لها أيضاً راحاتها، أيام تسير فيها بلا مبالاة أو هكذا تبدو لهم. أي يوم اليوم. الحقيقة أن الناس يموتون ويولدون في فترات معروفة، والجوع لا يعرف إلا صوت المعدة، والعمل الثقيل لا يخف أبداً. التغيرات دائما تأتي من الخارج، طرق مكتظة بسيارات، راديوهات ووقت فراغ يسمعونها فيه، أما فهم ما يقال فتلك خاصية أخرى، وزجاجات بيرة ومياه غازية، لكن عندما يرقد الرجل ليلاً، سواء في سرير بيته أو على قش الحقل، يعاوده ألم الجسد نفسه، وسيكون محظوظاً لو لم يكن في بطالة. أما النساء فلا يستحق الأمر الحديث عنهن، فما زلنَ صامدات في عملهن كوالدات وحيوانات للحمل.

ورغم كل شيء، عند النظر إلى هذا القفر الذي يبدو ميتاً، وحده الأعمى بالميلاد والأعمى بإرادته لا يستطيع رؤية ارتجاف الماء النابع من العمق ليسبح على السطح، وهو عمل ناتج عن الضغط المتراكم في الوحل، بين التكوين والتفكيك وعادة التكوين الكيميائي، حتى ينفجر الغاز المتحرر. لكن لاكتشافه يجب أن تكون منتبهاً، لا أن تقول وأنت عابر: «الأمر لا يستحق الوقوف، فلنواصل سيرنا». لو ابتعدنا فترة ما، وشردنا مع المناظر الطبيعية المختلفة والصور الفاتنة، سنرى عند عودتنا كيف يتغير كل شيء حتى ولو لم يبدُ ذلك. هذا ما يحدث عندما سنترك أنطونيو المنحوس يصنع حياته ونعود لخيط القصة التي بدأناها، رغم أنها قصص تُسمع، حتى قصة جوزيه القط، المعروف بشرّه هو وأصحابه، شر كان أنطونيو المنحوس شاهداً عليه.

هذه ليست أحداث لامبياس البغيضة التي تنسب للعصابة البرازيلية وسمعتهم يحكون عنها، ولا أفعال قُطّاع طرق آخرين قريبين من هنا، كما كان حال جوان برانداو أو جوزيه دو تيليادو، وهم

أناس أشرار بطبعهم أو يرتكبون الشر خطأ، من يدري. لا أريد أن أقول إن الوسية كانت خالية من المغتصبين، قطاع الطرق الذين لأتفه شيء كانوا يقتلون المسافر ويسرقونه، لكني لم أعرف إلا جوزيه القط محترفاً لهذه المهنة، هو ورفاقه، والأفضل أن نسميها عصابته، وكانت تتكون، إن كنت أتذكر جيداً، من بارّياس وفينتا راتشادا ولودجيرو وكوستيلو، ومن آخرين لا أتذكر أسماءهم، فالإنسان لا يستطيع أن يتذكر كل شيء. أنا لا أعتقد أنهم كانوا لصوصاً. نعم كانوا متشردين، هذه هي الكلمة المناسبة. فعند وجود عمل، كانوا يعملون مثل الآخرين بل وأكثر منهم، فلم يكونوا ماكرين، لكن كان يأتي يوم وينفجرون، فيتركون الفأس أو المعول، ويذهبون لرئيس العمال أو المسؤول ويطالبونه بأجر الأيام التي عملوها، ولم يكن هناك من يتجرأ على رفض طلبهم، ثم يختفون. في البداية كان كل واحد منهم يفعل ذلك منفرداً، حتى جاء يوم اتحدوا فيه وكونوا عصابة. عندما تعرفت عليهم كان جوزيه القط هو رئيسهم، ولا أعتقد أن أحداً كان يتناقش في قيادته. أكثر ما كانوا يسرقون كانت الخنازير، حيث كانت تلك الأرض غنية بها. كانوا يسرقون ليأكلوا، وأيضاً ليبيعوا بالطبع، فالرجل لا يقود حياته بما يأكله فقط. كانوا يمتلكون مركبا راسياً بنهر السادو، وكان ذلك مخبأهم. كانوا يقتلون الحيوانات ويحفظونها في ماء مالح لفترات القحط. وبمناسبة ماء الملح، لديّ حكاية سأرويها، فذات مرة لم يجدوا ملحاً، وكانوا في أشد الحاجة إليه، وبدؤوا يسألون أنفسهم ماذا نفعل، ماذا لا نفعل، فقام جوزيه القط، وكان رجلاً متحدثاً إن استدعى الأمر، وقال لبارّياس أن يذهب ليبحث عن الملح في الضفاف. في أعم الأحوال، كان يكفي أن يقول لهم جوزيه القط كن فيكون، فقد كانت كلمته مقدسة ككلام الرب، لكن في هذه المرة لا أعرف أي شيطان وسوس لبارّياس ليقول لن أذهب. فندم بعد ذلك ندماً شديداً. سحبه جوزيه القط من قبعته ورماه في الهواء وبينما كانت القبعة تطير أمسك ببندقيته وصوب عليها طلقتين فتمزقت، ثم قال لبارياس، بصوت غاية في الهدوء: «ستذهب لإحضار الملح »، فألقى بارياس البردعة على ظهر الحمار وراح لإحضار الملح. هكذا كان جوزيه القط.

لمن يسير بالقرب من هنا في عمل ويتجرأ، كان جوزيه القط هو متعهد توريد لحم الخنازير. وذات مرة ظهر فينتا راتشادا في المكان الذي كنت أحصد فيه، ظهر مقنّعا، ليسأل إن كان أحد يريد لحماً. أردت أنا واثنين من زملائي، واتفقنا أن نتقابل في مكان يسمى كرسي الصنوبر. إلى هناك ذهبنا، كل منا معه كيسه وقليل من المال على سبيل الإحتياط، فبعض الذي كنا قد ادخرناه خبأناه في المزرعة، فربما نرجع بخُفيّ حُنَين. كان معي خمسونَ ألف ريس، وزملائي المبلغ نفسه تقريباً. نشر الليل جناحيه، وكان شكل المكان قبيحاً، وفي

انتظارنا كان فينتا راتشادا، بعيداً، حتى إنه داعبنا باختبائه، فعبرناه من دون أن ننتبه إليه، فخرج لملاقاتنا.«الآن لو أردتُ»، وصوّب ناحيتنا بندقيته، فضحكنا جميعا، متغلبين على خوفنا، فقلت حينها «لن تربح الكثير»، فانفجر فينتا راتشادا في الضحك، وقال «لا تخافوا، هيا بنا».

عندما حدثت هذه الواقعة، كانت جزارة جوزيه القط في سلسلة جبال لوريرو، في أراضي بالما، أنتم بالطبع تعرفونها. كان ثمة شجرات قطلب أعلى من بيت، ولم يكن أحد يغامر بتسلقها. وداخل عنبر لفلاحين من أزمنة ماضية، مهجورٍ، كانت توجد الجزارة. كانوا جميعاً يعيشون في العنبر، لكن عندما يشعرون بأي حركة، جيران، أخبار عن الحرس، كانوا ينتقلون إلى وكر آخر. ما زلنا

نسير على أقدامنا، ونسير، وعندما نصل لرؤية العنبر سنقابل فنانَين، يحمل كل منهما بندقيته من أجل الحراسة. عرفوا بارياس، ودخلنا حيث كان جوزيه القط وصحبته يعزفون الأوكورديون ويرقصون الفاندانجو، أنا لا أفهم كثيراً في الرقص، لكني أظن أنهم كانوا يرقصون بمهارة، فمن حق الجميع أن يلهو. كان ثمة أسلاك متصلة بكمرة العنبر، بغلاية معلقة ومجمرة، وكانوا يطبخون لحم خنزير. يقول جوزيه القط «إذن هؤلاء هم المشترون». فيرد فينتا راتشادا «إنهم هم، لم يأت أحد غيرهم»، فيقول القط: «اهدأوا، أيها الغلمان، فقبل أن نبدأ البيع، سنأكل معاً ما في هذه الغلاية، كلام جميل»، «نعم يا سيدي، فنحن قد سال لعابنا فقط على الرائحة». كان لديهم خمر وكل شيء. ولنصالح جوعنا أخذنا قطعة صغيرة من لحم فخذ الخنزير وكوب خمر. كان جوزيه القط يعزف على الأوكورديون ويلتفت للغلاية، كان يرتدي بنطلونا من جلد الخروف له أزرار كبيرة، كما كانت العادة، ويرتدي أيضاً صديري، وكان يبدو فلاحاً، صعلوكاً. في احد أركان العنبر لاحظنا بنادق، كأنه مخزن أسلحة، إحداها وصل لخمس طلقات، أما ما يتعلق بمارثيلينو، فسأحكيه الآن. كنا في هذا الحال عندما سمعنا صوت صفارة. يجب أن أعترف بأن فرائصي ارتعدت، وسنرى إن كانت النهاية طيبة أم لا. قال جوزيه القط الذي شعر بخوفي «اهدأوا، إنهم معارفنا وجاؤوا من السوق». كان مانويل دا ريفولتا، واكتسب هذا الاسم من محل كان يديره في جبل ريفولتا، وتدور حوله قصص سأرويها فيما بعد حين يأتي وقتها. وصل حينئذ الصديق مانويل دا ريفولتا بستة خنازير فوق عربة يسوقها، وفي اليوم التالي، كما هو معروف، يدور في البلدة ليبيع اللحم، كان يقول إنها خنازيره، ذبحها هو، ويمر من الحرس، نعم يا سيدي، ويبيعها أيضاً لهم، وإلى الآن لا أدري هل كان الحرس يشتبه فيه أم أن التجارة كانت رابحة بالنسبة إليهم. جاء بعد ذلك بائع سردين نعرفه جميعاً، فهو من كان يمدنا بالسمك والتبغ وأشياء أخرى كان يحددها جوزيه القط. حمل بائع السردين خنزيراً فوق دراجته، تاركاً فقط رأس الخنزير فلم يكن يهمه في شيء. ثم جاء آخر، دون صفارة، لكنه أعطى الإمارة بصفارة من فمه، ورد عليه من كانوا يقومون بالمراقبة، هذا ما كان يحدث، كانوا يعملون في أمان. أخذ معه خنزيرين، حملهما فوق بغلة، لم يكن أيضاً في حاجة للرأس، رأس الخنزير بالطبع لا رأس البغلة، فالبغلة بحاجة لرأسها لترى أين تضع أرجلها. مضت الخنازير تختفي، وفي النهاية لم يتبق إلا خنزيران، قبعا فوق جوالين قديمين. ما إن انتهوا من سلق الطعام حتى حمّروا عدة قطع من اللحم، ووضعوا كل التوابل والبصل والأشياء الأخرى، والتهمنا كل هذه النعمة لتستريح في بطوننا، كان أكلاً شهياً، أما الخمر فكان أكثر من دورق. حينئذ قال جوزيه القط «هيا، أرني ما أحضرت، يا منحوس». «أحضرت خمسين إسكودو، وهذا كل ما أملك»، فقال جوزيه القط «مبلغ ليس بكثير، لكن لا تشغل بالك فلن تخرج دون الزاد»، فقطع لنصفين خنزيراً قد يزن خمسة وأربعين أو خمسة وخمسين كيلوجراماً. «افتح الجوال»، لكن قبلها أخذ النقود وأدخلها في جيبه. فعل الشيء نفسه مع زميلَي، وحذرنا جميعاً «والآن أغلقوا أفواهكم إن كنتم لا تريدون الندم»، وحملنا اللحم، وخيرا فعل عندما حذرنا، علمنا ذلك بعدها، حيث إن الخنازير كانت مسروقة من الوسية التي كنا نعمل بها، ورئيس العمال ظل يلاحقنا بأسئلته. لكننا تصرّفنا بشكل رجوليّ، نحن الثلاثة. أما أنا، فقمت بعمل حفرة في الأرض بالفلين، ووضعت لحمي في صفيحة وغطيتها بخرقة، وملّحتها كلها بعد أن قطّعتها لأجزاء، ولم تفسد، وكما ترون، لديّ طعام يكفيني فترة طويلة.

كانت هذه إحدى الحكايات. وربما لو كان جوان براندواو هناك لاختلف الأمر، أو ربما لم يختلف، فالحكاية أني تعاملت مع جوزيه القط، أما الآخر فلست على يقين. بعد ذلك انتقلت العصابة إلى منطقة فالي دي ريس، وهي منطقة لا يمكن أن يتخيلها أبناء المدينة، فهي صحارى قاحلة، مجموعة مغارات، عدة كهوف مهلكة بين أشجار العوسج، لا يتجرأ أحد على الاقتراب من تلك المجاهل، ولا الحرس، ولا الحرس يتجرأ على الاقتراب. كانوا هناك مختبئين، وفي جبل ريفولتا كان ثمة دائما خفير، عندما يظهر الحرس كانت أم مانويل ريفولتا تضع هراوة ملفوف رأسها بخرقة في المدخنة، وعندما تحركها كانوا يفهمون الإشارة. أحد أفراد العصابة كان مكلفاً دوماً بوضع عينيه في المدخنة، وعندما تظهر الخرقة في رأس الهراوة، ينبه الآخرين وحينها يختبئون جميعاً، يختفون، ولا يتركون أثراً. لم يأت الحرس أبداً ليقبض على أحد. حتى نحن، الذين نعرف الخديعة، عندما كنا نمضي في عملنا ونرى الإمارة كنا نقول «الأعداء في الضفة».

رائع، حينئذ حدثت قصة مارثيلينو التي سأسردها الآن. كان مارثيلينو رئيس العمال في فالي دي ريس، وكان لديه بندقية شهيرة اشتراها له صاحب الوسية ليطلق النار على أتباع جوزيه القط إن رآهم في طريقه. لكن قبل أن أحكي هذه الحكاية، أود أن أحكي حكاية أخرى، أيضاً عن البنادق. كان مارثيلينو يمتطي فرساً عندما قطع عليه الطريق جوزيه القط مصوباً ناحيته البندقية ويقول له بسخرية، وهي غالباً طريقته في الكلام «ليس أمامك إلا أن ترفع ذراعيك وأن تسلّمني الفرس»، فلم يجد مارثيلينو أمامه حلاً آخر، مع أن ذلك كان أمراً عسيراً. كان القط ضئيل الجسد لكنه ميت القلب. بعد ذلك حدثت واقعة البندقية ذات الخمس طلقات. الواحد منا يبدأ في سرد حكاية فتنهال عليه مئات الحكايات الأخرى المرتبطة بها. كان مارثيلينو في طريق الهبوط من الجبل، بين العشب، هذا الذي لا يعتني به أحد فقط يقطعون قشرته ويقسمونها إلى أجزاء صغيرة، في النهاية كانت أرض شجيرات كثيرة وملفتة. جاء مارثيلينو متعجرفاً ببندقيته ذات الخمس طلقات وبها خمسة خراطيش، ويفكر «فليظهر أمامي الآن من يريد»، وبالفعل، مسنوداً على شجرة سنديان نحيفة، كان جوزيه القط ينظر إليه من عين التصويب «ارم بندقيتك، فأنا في حاجة إليها» وأخذها منه. كان يقال بعد ذلك إن صاحب الوسية قال لمارثيلينو «سأشتري لك بندقية صغيرة، فلن أتركك مسخرة أمام الناس» فرد عليه مارثيلينو غاضباً «يا سيدي لا أريد، لا أريد أي بندقية صغيرة، سأراقب العمل من فوق فرسي وبنبوتي، وهذه أفضل مراقبة».

كان مارثيلينو رجلا قليل الحظ في مسألة البنادق، هذا جليّ. حتى بندقيته الخاصة التي لم يشترها له صاحب الوسية وكان يحتفظ بها في بيته، فقدها. وذات مرة نبحت كلاب مُرَبي الخنازير، فتوقعوا حدوث أمر خارج عن المألوف، رائحة أمر غريب، فذهب مربي الخنازير وقال لمارثيلينو «الكلاب تنبح، لا بد أن هناك من يرغب سرقة خنزير». فقبض مارثيلينو على بندقيته وخزانة الرصاص بمجرد سماع ذلك، وبدأ في الحراسة. ومن حين لآخر كان يطلق رصاصة، ففهم رفاق جوزيه القط من مخبئهم أنهم المقصودون، فردوا عليه، لكن دون استهلاك ذخيرة بتبذير. وحيث كان جوزيه القط فوق السطح، فقد صعد من دون أن يشاهده أحد، وبقي طول الليل ملتصقاً بالقراميد كما السحلية حتى لا يكتشف أحد وجوده، لقد كان رجلا جريئا. ويأتي الصباح، بعد شقشقة الفجر أو ربما بعدها بقليل عند وضح النهار، ويقول مارثيلينو «لقد سكت الرصاص من هذا

الجزء، فلا بد أنهم رحلوا، سأستريح قليلا وأتناول قهوتي، وسريعاً سأعود». أما مربي الخنازير الذي لا بد أن الفكرة راقت له وفتحت شهيته ففكر «وأنا أيضاً سأذهب لتناول شيء، فأنا لست أقل من الآخرين». وعندما تخلو المنطقة من الأعداء، يقفز جوزيه القط من فوق السطح. لقد نسيت أن أقول إن مارثيلينو قد ترك بندقيته في الكوخ. يقفز القط من فوق السطح، يأخذ البندقية ومعها حذاء مربي الخنازير الجديد ذو الرقبة، وبطانية، فربما كان لديهم بطاطين قليلة، وبينما كان يفعل ذلك، كان رفاقه الخمسة، كان عددهم خمسة في ذلك الوقت، يمسكون بخمسة خنازير وينقلونها من هناك حتى مكان العوسج. الخنازير مثل الرجال، لهم هنا طيّة لو قطعتها لهم، التزموا السكينة، وهذا ما حدث مع هذه الخنازير بالقرب من الحظيرة، على بعد مائة أو مائة وخمسين متراً لا أكثر. كان هذا عادة مع أحد الحراس. وينتبه الآخرون لغياب الخنازير، يذهبون بحثاً عنها بعيداً، في الطريق، من دون أن يخطر على بال أحد هذا المكان. وعندما يقبل الليل، يسير جوزيه القط بحثاً عنها. وهكذا فَقَدَ مارثيلينو بندقية أخرى.

ثمة حكاية أخرى أهم من سابقتها. كان مارثيلينو يسير نوبتجياً بلا بندقية، فقد اختفت جميعها، وفكّر جوزيه القط أن يدخله في حوض الفول، كان الفول محصوداً ومجموعاً في حوض. كان مسرح الحكاية قريباً من وكر العصابة، لكن لم يكن أحد يشتبه به، واكتشف العمال الأمر عندما اضطروا لتنظيف ما بين الأشجار في هذا المكان، وبعد أن اختفوا هم من هذه الأماكن. لقد عثرنا على مخبئهم، داخل مغارات مصنوعة بمهارة وشديدة العمق. كانت رواب عالية، فوقها صفصاف أبيض كثير، فتحوا لها سبيلا كما تفعل النموس، صنعوا فتحات جانبية، وهناك كانت أسرّتهم المصنوعة من الأسَل والغصون، إنها معجزة، المهم، ذهب جوزيه القط إلى حوض الفول، ولاحظ مارثيلينو حركة هناك حيث ثمة فول مهروس وقش. قال مارثيلينو «يا أبناء القحاب، أتسيرون لي في الفول، ماذا خطر ببالك»، «سأختبئ هناك» ويدخل القط فرسه في المغارة ويسحب جوالاً، ففي الصيف لا يستخدمون بطاطين، كما يسحب هراوة. في ساعات الليل المتأخرة يسمع مارثيلينو ضجيجاً، كان جوزيه القط يعبئ جوالا بكفيه ويسحقه بقدميه، وكان هذا جافاً من شدة الحرارة، ويذروه ثم يأتي أحد رفاقه ليساعده في نقل الشحنة، وفي الساعة المحددة كانا يحملان بينهما مائة لتر من الفول. ربما كانوا يقايضون مع مانويل ريفولتا الفول بالخبز أو أي شيء ضروري آخر، من أين أعرف أنا! الحكاية أن جوزيه القط كان شارداً يطأ هذا، فمضى مارثيلينو يقترب منه ويقترب، حافي القدمين، وعندما يحكي مارثيلينو تنفجر في الضحك، يقول «ذهبت حافي القدمين، خطوة خطوة، واقتربت من الهدف بستة أو سبعة أمتار، ولو اقتربت منه ثلاثة أو أربعة أمتار أخرى لأوزعته ضرباً بالعصا، لكنه أيضاً شعر بوجودي، كان شفافاً، ستعتقد أني سأضربه، لا، فلم أقبض عليه، فهذا لم يكن قطاً، بل أرنباً، نعم كان أرنباً، فبينما أنا أفكر أنه وقع في يدي لا لم يقع بعد، قفز قفزتين، وأنا لم أكن ساكناً، لكنه قفز قفزتين وأصبح أمامي ببندقيته في وجهي». يمشي جوزيه القط ويقول لمارثيلينو، هذا ما يرويه مارثيلينو «من حسن حظك أنك تعاملت بالحسنى مع صديق لي». فذات مرة عندما تخطى الحراس حقيقة حدودهم في الصرامة، قبض مارثيلينو في بيته على أحد أفراد العصابة وأكرمه وأعطاه طعاماً. «هذا من حسن حظك، فلو لم تفعل ذلك لكسرت ظهرك هنا، هيا، ارحل». لكن مارثيلينو كان أيضاً شجاعاً. فكان بوسعه أن يطلق صفارة، لكنه أخرج علبة الدخان، لف سيجارة ووضعها في فمه ثم أشعلها، «الآن أرحل».

بعد ذلك قبضوا على العصابة. القصة بدأت في لا بيزارّاس، بين مونيولا ولانديرا، في مكان شديد الخفاء. كانت ثمة مواجهة مع الحرس، إطلاق نار، كأنها حرب. قبضوا عليهم ثم استغلوهم في العمل. فينتا راتشادا آل مصيره لحراسة مزرعة العنب بزامبوجال، وآخرون مثله. لو كان هناك شيء يروق لي سماعه، سيكون الحوار بين الحراس والإقطاعيين «لدينا هنا سجين»، «سيبقى معي»، فأنا لا أعرف أيهم أكثر وقاحة من الآخر. أسروا جوزيه القط بعد ذلك في فينداس نوفاس. كان يعاشر بائعة خضار ويسير دائماً متخفياً، لهذا لم يعثروا عليه أبداً، وهناك من يقول إنها هي من وشت به، من أين أعرف أنا! قبضوا عليه في بيت هذه المرأة، كان في غرفة المهملات غارقاً في نومه، وقال «لو لم تقبضوا عليّ نائماً فتيقنوا أنكم ما كنتم لتقبضوا عليّ». يُحكى أنهم ساقوه بعد ذلك إلى لشبونة، بالطريقة نفسها استغلوا الآخرين في العمل لحساب أصحاب الوسايا، يُقال إن جوزيه القط أُرسل للمستعمرات للعمل في المخابرات والدفاع عن الدولة. لا أعرف هل أصدق ذلك أم لا، فمن الصعب تصديقه، أم أنهم قتلوه وأشاعوا هذه الشائعة، فقد حدث ذلك في أحوال أخرى، لا أعرف.

كان لجوزيه القط حسناته، يجب أن نعترف بذلك. فلم يسرق أبداً فقيراً، فقط كان يسرق الأثرياء، كما كان يفعل جوزيه دو تيليادو، كما يقولون. لكن ذات مرة قابل بارّياس سيدة كانت في طريقها لشراء أشياء لأسرتها، فسرق ما معها، كان من شياطين الإنس. لكن من سوء حظه أن قابلت السيدة جوزيه القط وهي تبكي، المسكينة. فسألها لمَ تبكي؟ وفهم من إيماءاتها أن بارّياس من قام بهذه الفعلة المخزية. فأعطى السيدة ما يكفيها لشراء حاجاتها لثلاثة أيام وأعطى لبارّياس أشد علقة شاهدها في حياته. وفعل خيراً.

كان جوزيه القط رجلاً يغرك منظره، فهو قصير القامة، لكنه شجاع القلب. وهذا الأمر قد حدث في جبل دا ريفولتا الذي كان مكاناً عالمياً يمر به الناس من كل حدب وصوب، يكفي أن نقول إن رجلا من «الجارفي»، كان يعمل في قلع الأعشاب وصنع هناك كوخاً من الطين بسقف من القصب وعاش هناك مثل كثيرين لا يمتلكون حتى بيتاً. وهناك أراد رجل أن يحدث وقيعة بين جوزيه القط ومانويل دا ريفولتا، حيث قال لمانويل إن القط قال له إنه ذهب ليضاجع زوجته. لكن مانويل ريفولتا كان شديد الثقة بجوزيه القط، فقال للقط «انظر، إن العاهر قال لي كذا وكذا». فقال القط «إنه ابن قحبة، هيا إلى بيته لنرى إن كان يقدر أن يواجهني بهذا الكلام»، وذهبا حينها ووصلا إلى هناك «أيها العاهر، لقد قلتَ لمانويل كذا وكذا، هيا كرّر ما قلته له الآن، فأنا أود سماعه»، فرد الآخر «يا رجل، لقد كنت ثملاً أكثر من اللازم، لكن الحقيقة أنك لم تقل لي شيئاً من هذا». فأجابه القط بكل هدوء «هيا امش مائة خطوة» ، هكذا تراءى له أنه لا يستطيع قتله «إلى الخلف، إلى الخلف»، وأطلق عليه طلقتي رش في عموده الفقري، فقط ليترك له ذكرى في جلده، وبقية الطلقات لم تصبه لأنه لم يرغب قتله، ضربه كذلك ضربتين بسوط فسقط على الأرض. «هذا لتتعلم الرجولة، فنحن هنا لا نريد لعب صبية». لقد رأيت جوزيه القط دائماً كرجل دخل حياة الصعلكة فقط لأنه لم يجد لقمة العيش.

لقد سار من هنا في فترة ما، عندما كنت صبياً. كان زعيماً في هذه الأرض المستوية، من جبل لافري حتى كوروتشي. صنع الطريق كثيرون من المتجولين، كان كثير من الناس هكذا، يعملون ثلاثة أو أربعة أسابيع وعندما يمتلكون شيئاً من المال يرحلون، ويأتي غيرهم. هنا ظهر جوزيه القط، ولاحظوا أنه رجل ذو خبرة، وبالتالي عينوه زعيماً، لكنه لم يتجول أبداً بالمناطق الفقيرة. في هذه الفترة كنت أرعى الخنازير، كان ذلك قبل أن أتعرّف على مانويل السيف، ورأيت كل شيء. يقول الناس إنه حدثت بينه وبين الحرس مشاكل، وحينها كشفه الحر أو أنّ أحداً وشى بأنه في هذه المنطقة يختبئ، فجاؤوا بحثاً عنه واصطادوه. لكنهم كانوا يعرفون جيداً من هو جوزيه القط. جاء أمام دورية الشرطة في هدوء شديد، بينما الحرس يطير فرحاً بالصيد الذي حصلوا عليه، وفجأة قفز منهم، وسدد لكمة لعين أحدهم وقفز هنا وقفز هناك، وهرب منهم. لم يعثروا عليه أبداً قبل أن يقبضوا عليه بشكل نهائي. كان القط رجلاً شارداً، صارماً وجاداً. كنت أشعر دائماً بأنه وحيد. هذا ما أقوله، من يعرف الحقيقة.

هذا العالم، مع عظمة ثقله، يشبه كرة لا بداية لها ولا نهاية، كرة مغطاة ببحار ويابسة وتشقها أنهار وجداول ووديان تجري فيها المياه ذهاباً وإياباً دون أن تتغير، فتشكّل السحب
أو تختبئ في أماكن الينابيع تحت ألواح حجرية واقعة تحت الأرض. هذا العالم يبدو ككتلة ضخمة تسبح في السماوات، أو تدور في صمت كما سيراها علماء الفضاء ذات يوم ونستطيع أن نتوقع ذلك، هذا العالم، عندما نشاهده من جبل لافري، نجده شيئاً هزيلاً، كما الساعة التي تحتمل عددا محددا من اللفات، ولا تحتمل لفة واحدة زائدة، وترتجف وتهتز إن اقترب إصبع غليظ من رأس عقربها، إن لمس، ولو برقة، زنبركها الرقيق المتلهف كما القلب. الساعة شيء متين داخل صندوق جميل، لا يصدأ، صامد للصدمات بقدر قوة احتماله، صامد للماء لمن تسول له نفسه أن يستحم بها، معها ضمان لعدة سنوات، من الممكن أن تكون سنوات طوال إن لم تأت الموضة لتسخر مما اشتريناه بالأمس، إنها طريقة للحفاظ على المصنع في غزوه للسوق والتهامه للأرباح. لكن، لو خلعوا غطاءها، لو بدأت الريح والشمس والرطوبة في الدوران وضربها من الداخل، بين ياقوتها وتروسها، سيستطيع أي أحد أن يراهن بيقين من الفوز أن الأيام السعيدة تنتهي. عند مشاهدة العالم من جبل لافري، ستجده كساعة مفتوحة، أمعاؤها للشمس، في انتظار أن تأتي ساعتها.
لأنّ القمح قد زُرِع في موعده، فقد كبُر ونما والآن أصبح ناضجاً. قبل الحصاد ننزع عود القمح، نفركه بين كفينا، إنها طريقة قديمة. يتساقط القش اليابس والساخن، ونجمع في راحة اليد ثمانية العشر أو العشرين حبة من هذا النبات، ونقول «إنه وقت الحصاد». هذه عبارة سحرية تُحرك الرجال والماكينات، هذه لحظة يفقد فيها ثعبان الأرض جلده ويبقى بلا دفاع، نقصد بذلك الساعة بالطبع. يجب أن نمسك بهذا الثعبان قبل أن يختبئ إن أردنا تغيير شيء. ومن جبل لافري، هذا المكان العالي، ينظر أصحاب الوسايا إلى أمواج صفراء هائلة تتمايل تحت يد ريح ناعمة، ويقولون للمشرفين «إنه وقت الحصاد»، وبقولهم هذا، أو بإطلاعهم على الأمر وهم في بيوتهم بلشبونة، يؤكّدون ذلك بتراخ، إن لم يقتصروا على قول «حقاً»، على ثقة بأن العالم قد أخذ دورته وعاد للمكان نفسه، وأن الوسايا تكرر انتظام الأمور والفصول، كما أنهم يستريحون بشكل ما عندما تضع الأرض مولودها. لقد انتهت الحرب وستبدأ مرحلة أخوة العالم. يقال إنهم سريعاً ما سيسحبون بطاقات التموين، هذه الأوراق الحمراء التي تعطي حق الأكل، وسيوجدون ما يُدفَع به

وسيوجدون ما يقايض به المال. والحقيقة أن هؤلاء الناس قليلاً ما يندهشون؛ فطوال حياتهم أكلوا دوماً القليل والسيئ من الطعام، وعانوا من الجوع المتتابع، حتى الإضرابات عن الأكل جاءتهم من الخارج مثل التقاليد وحكايات أمراض العين. ومع كل، يوفي الزمن دوماً بوعده. نستطيع جميعاً أن نرى أن القمح ناضج، والرجال أيضاً.

ثمة شعاران: عدم قبول يومية بخمسة وعشرين اسكودو، وعدم العمل بأقل من ثلاثة وثلاثين اسكودو في اليوم، من شروق الشمس لمغربها، لأن العمل ما زال يجب أن يكون كذلك، فالثمار لا تنضج كلها في الوقت نفسه. قد يقول المحصول، لو نطق، بكل ذهول «ماذا حدث كيلا يأتوا ليحصدوني، أهناك منهم من قصّر في واجبه؟». إنها خيالات. المحصول قد نضج وفي انتظار الحصاد الذي قد يفوت أوانه. إما أن يشرع الرجال في الحصاد وإما ستفوتهم الفرصة، فالجذع بدأ ينحني، والعود بدأ يذبل، والحبوب كلها ستتساقط وتأكلها العصافير والحشرات، وفي النهاية، حتى لا يضيع كل شيء، ستدخل المواشي الأرض المزروعة كما لو كنا نعيش في أرض الرخاء. كل هذا أيضاً خيالات. فإما أن يتنازل هؤلاء أو أولئك، فالذكرى تقول، كما تدرك، إن الحصاد دائماً يتحقق، وعدم تحقيقه يساوي رابع المستحيلات. الإقطاعيون يأمرون رؤساء العمل والمديرين أن يثبتوا، وهو تعبير يستخدم في الحرب. «لا تتراجعوا، فحرس الإمبراطور يموت ولا يتراجع، ما ينقص هو أن يموت هؤلاء»، لكن السمع يرهف لصدى أبواق، إنْ لم يكن حنيناً لمعارك اختفت الآن. يبدؤون في فتح أبواب ثكنات الحرس، يطل الأونباشية والشاويشية من نافذة النقطة ليتشمموا ما يحدث، وفي مكان ما يبدأ تنظيف البنادق ويُعطى للخيول ضعف الجراية بعد أن تضاعفت الميزانية. يجتمع الرجال في القرى، رجل في كتف رجل، يتهامسون. يعود رؤساء العمل من جديد ليتفاوضوا. «رائع، إنكم قررتم إذن»، فيردون عليهم «لقد قُضي الأمر، لن نعمل بأقل مما قلنا». ومن بعيد، في هذا النهار القائظ، ينطلق بخار حارق يصعد من الأرض، ما زالت التلال بجذورها تسند الجذوع الصلبة. مختبئة في وسط المحصول، يصل صوت الحِجال للسمع الرقيق. لا تُسمع خطوة رجل ولا رجفة موتور، ولا تهتز أعواد القمح مرتعشة أمام اقتراب المنجل أو طاحونة الحصّادة. يا له من عالم غريب!

وعلى هذه الحال يأتي يوم السبت. اجتمع رؤساء العمال وقالوا «لن يتنازلوا، إنهم عُنّد»، فأجابوهم أصحاب الوسية الثلاثة: نوربيرتو، ألبيرتو، داجوبيرتو، بصوت واحد، كل منهم في مكانه من المنظر الطبيعي «دعوهم، وسيتعلّمون». في البيوت، تناول الرجال عشاءهم، هذا القليل الذي تبقى من الأيام الماضية، والنسوة ينظرن صامتات، ومنهن من تسأل «وآخرتها؟» ثمة رجال يكمشون أكتافهم قانطين، ومنهم من يقول «المؤكد أنهم غداً سيوافقون على مطالبنا». وسنجد منهم من يحل المعضلة بقبول ما يمنحونه له، أجرة العام الفائت نفسها. الحقيقة أن ثمة أخباراً تأتي من كل جانب مفادها أن الرجال، أغلبهم، يرفضون العمل مقابل أجرة بائسة، لكن ماذا بوسعه أن يفعل هذا الرجل الذي يعول زوجة وعيالاً، بعض صغارهم
يشبون على أطراف أصابعهم يسندون ذقنهم على منضدة قديمة، وبأصابع مبللة بلعابهم يصطادون فتات الخبز كأنهم يصطادون نملاً. منهم من كان محظوظاً، رغم أن ذلك لا يبدو لمن يعرف قليلاً في هذه الأمور، إذ استطاعوا ترتيب أحوالهم مع صغار الملاك الذين هم مزارعون يمتلكون

أراضٍ قليلة وليس بوسعهم المجازفة بفقد المحصول، وبالتالي اضطروا لدفع الثلاثة والثلاثين إسكودو. سيكون الليل طويلاً، كأننا في الشتاء. وفوق أسطح البيوت تمكث، كما هو معتاد، قمامة يمكن أن تؤكل، نجوم بعيدة، صفاء سماء أخّاذ يستغله الأب أجاميديس ليعيد ويزيد في الخطبة نفسها، هذا رجل لا يعرف خطبة أخرى «هناك في السماء، حقاً، ستنتهي كل صراعات الدموع بهذا الوادي، وسنكون جميعاً سواسية أمام الرب». الأمعاء الخاوية تعترض، تعمل بلا جدوى، تعكس عدم المساواة. المرأة بجانب الرجل يجافيها النوم، ولا حتى تواتيها الرغبة في النوم فوقه. ربما السادة غداً يتوصلون لاتفاق، ربما تكتشف السيدات قدراً مليئاً بالذهب، ربما تضع الدجاجة بيضاً من ذهب حتى ولو كان من فضة فسينفع أيضاً، آه لو كان ممكناً أن يستيقظ الفقراء فيجدوا أنفسهم أغنياء والأغنياء فقراء! لكن ولا حتى في الأحلام تحدث هذه الأماني.

«يا أبنائي الأحباء» يقول الأب أجاميدس في القداس، إذ اليوم يوم الأحد. «يا أبنائي الأحباء»، ويتصنع أنه لم ينتبه إلى قلة عدد المستمعين وأعمارهم، نساء عجائز وخدام القداس. «يا أبنائي الأحباء»، وربما تفكر العجائز أنهن لسن أبناءً، بل بناتاً، لكن ماذا سنفعل إن كان العالم للرجال. «يا أبنائي الأحباء، انتبهوا، لقد نفخت ريح الثورة في هذه الأرض السعيدة، وأقول لكم مجدداً ألا تعيروها انتباهاً»، الأمر لا يستحق أن أكتب بقية الخطبة، فكلنا نعرف ما يقوله الأب أجاميدس. وتنتهي الخطبة، ويخلع أجاميدس ثوبه الرسمي، فاليوم يوم الأحد، وهو يوم مقدس على وجه الخصوص، والغداء، بارك الرب فيه، سيُقدم في مطعم كلاريبيرتو المميز ببرودة جوه المنعش، أما كلاريبيرتو فيذهب للقداس فحسب عندما يروق له ونادراً ما يحدث ذلك، والسيدات مثله، لقد أصبحن الآن كسولات، لكن الأب أجاميدس يتفهم الأمر بمرونة، ولو حكم الورع واشتد الخوف من الآخرة فهنا تقبع قاعة منزل الأشراف، حيث ثمة قديسون جدد ومُلمعون، والشهيد سان سيبستيان مثقوباً بسهام بشكل منتظم، «يغفر لي الرب إن لم يستمتع القديس بذلك أكثر مما تسمح به النزاهة»، ومن الباب الذي يدخل منه الأب أجاميدس يخرج الإداري بومبيو حاملاً في أذنيه رسالة تبعث على السلوى «ولا سنتاً آخر»، فليس للرجل أفضل من امتلاك سلطة، سواء في الأرض أو في السماء .

يسير من هنا عدة رجال، عددهم قليل، رغم أن الساحة مفتوحة لوقت متأخر. ومنهم من يقترب ويسأل الإداري «ماذا قرر صاحب الوسية؟»، فيرد عليه «ولا سنتاً زيادة، فالقواعد العادلة والملائمة لا يمكن أن تضيع ولا تتغير»، فيقول الرجال «لكن هناك من يدفع ثلاثة وثلاثين»، فيقول بومبيو «إنهم هناك، وإن أرادوا أن يخربوا بيوتهم فبالهناء والشفاء». حينئذ يفتح جوان المنحوس فمه لتخرج كلماته طبيعية كما لو كانت ماءً يجري من ينبوع متدفق «إذن سيبقى المحصول بلا حصاد، فنحن لن نعمل بأقل مما نطالب به». لا يرد الإداري، فالغداء أيضاً في انتظاره وليس لديه وقت يضيعه في مهاترات غير مجدية. الشمس تغرب في تؤدة وتبرق كسيف الحرس.

من استطاع أن يأكل أكل، ومن لم يستطع تآكل. والآن، نعم، حانت ساعة الساحة، اجتمع فلاحو جبل لافري جميعاً بمن فيهم من لديه يومية، لكن كانوا فقط من يطالبون بالثلاثة والثلاثين، أما

الآخرون الذين رضوا باليومية القديمة فيأكلهم الخزي في بيوتهم، ويشعرون بالخيبة أمام أبنائهم الذين لا يعرفون الجلوس ساكنين، فيصفعونهم على وجوههم، لا أحد يعرف لماذا، والسيدة التي دائماً يد العدالة في العقاب تقول «نحن من ولدنهم» وتعترض «لا تضرب بريئاً هكذا»، أبرياء أيضاً هؤلاء الرجال المجتمعون في الساحة، لا يطلبون المستحيل، فقط ثلاثة وثلاثين اسكودو في اليوم من شروق الشمس لغروبها، ليس في ذلك أي استغلال، يقصدون أن صاحب الوسية لن يخرج خاسراً. هذا ليس جواب الإداري بومبيو والآخرين، لكن ربما يصيح بومبيو أكثر بسبب اسمه الروماني «ما تطلبونه استغلال، أنتم تريدون خراب الزرع». تقول أصوات «هناك من يدفع مثل ما نطلب»، فيرد الإداريون في صوت واحد «أما نحن، فلا». ويبقون على حالهم هكذا كمن يفاصلون في الأسواق، مرة تلو مرة، وسنرى من سيتعب أولاً، فهذا حوار لا يستحق أن نسجله، لكن ليس لدينا حوار آخر، هذه هي القضية.

تقتحم الأمواج الشاطئ، إنها عبارة تقال ولن يستطيع الجميع فهمها لأن في هذه الأرض ثمة من لم يتغرّب بعيداً، وهم كُثر. تقتحم الأمواج الشاطئ، ولو اصطدمت بحصن من الرمال أو بحاجز هش ستقوّضه في دفعتها الأولى أو الثانية، فالحاجز مجرد سياج تتحكم فيه الموجة ذهاباً وإياباً، هذا على أقل تقدير. ربما من الأفضل أن أقول إن كثيراً من الرجال قد قبلوا الخمسة والعشرين إسكودو، وإن القليل منهم ظل راسخاً يقاوم. والآن نراهم أمام الموجة العالية يتساءلون إن كان الأمر يستحق، ويقول سيجيسموندو كاناسترو الذي رافقهم في هذه الاتفاقيات «علينا ألا نفقد حماسنا، فما يحدث هنا لا يحدث فقط في جبل
لافري، سنفوز في معركتنا، وسيعُم الخير على الجميع». ما الأسباب التي لديه ليكون على كل هذه الثقة بينما لم يتبق من الرجال سوى دستتين لا يحتاج إليهم المُلاّك؟ «آه لو كنا كثرة»، يردد جوان المنحوس قنوطاً. يبدو أن الدستتين على وشك الانقسام من دون أن يكون أمامهم إلا الرجوع إلى البيت، وهو مكان ملعون اليوم. يقول سيجيسموندو كاناسترو مسترسلاً في فكرته «غداً نذهب جميعاً متحدين إلى الأراضي، سنقول لزملائنا ألا يعملوا، ففي كل الأماكن يحاربون من أجل ثلاثة وثلاثين اسكودو، ولا يمكن أن نظل في جبل لافري نعاني الضنك، فلا يمكن أن نقبض أقل من الآخرين، ولو حدث هذا في كل ناحية، سننتصر على الإقطاعيين». ثمة من يسأل في المجموعة «ماذا يحدث في النواحي الأخرى؟» وثمة من يجيب، ربما سيجيسموندو أو مانويل السيف أو أي أحد، ففيما يهم اسمه، «ما يحدث هنا يحدث في كل مكان، يحدث في بيجا، في سانتاريم، في بورتاليجري، في سيتوبال، إنها ليست فكرة ناتجة عن رأس واحد، فإما أن نثور جميعاً وإما أن نضيع». ينظر جوان المنحوس لبعيد كما لو كان ينظر لذاته، يقيّم نفسه، إنه أكبرهم سناً ويفرض عليه ذلك التزامات مضاعفة، يقول «لا بد أن نفعل ما يقترحه سيجيسوندو، هذا ما يجب أن نفعله». من مكانهم يمكن رؤية موضع الحرس. ظهر الأونباشي تباكوا عند الباب، يتناول مرطب الظهيرة، وبمحض مصادفة مؤكدة، قاطعاً الهواء بعذوبة، خرج الخفاش الأول للغسق. إنه حيوان نادر، شبه أعمى، يشبه الفأر بجناحين، يطير مثل البرق ولا يصطدم أبداً بشيء. ولا بأحد.

صباح حار من أيام يونيه. خرج اثنان وعشرون رجلاً من جبل لافري، فُرادى حتى لا يلفتوا انتباه الحرس، لكنهم اتفقوا على التلاقي عند ضفاف النهر، بالقرب من جسر كافا وبجانب أشجار الأسل.

فكروا ملياً أيرحلون من هناك في شكل مجموعة أم متفرقين، وبعد أن وزنوا الأمر قرروا أنهم، بما أنهم قلة، فمن الأفضل ألا ينقسموا. سيتحتم عليهم السير أكثر وبسرعة أكبر، لكن، لو سار كل شيء على ما يرام، سينضم إليهم زملاء آخرون. حددوا برنامج سيرهم، أولاً منطقة الحجر الكبير ثم راية النساء، ثم البيت الجميل، وكاريثا وجبل فوجيرا وتل الخرق. أما المناطق المتبقية فستأتي بعد ذلك، عندما يتاح وقت أكبر وأناس أكثر يقومون بتلك المهمة. خرجوا من هناك عابرين النهر بمعدية، وكانت المياه قليلة في هذا المكان كما لو أنه معبر طبيعي، وكان عيداً لأطفال يضحكون بوجوه حزينة، أو يلعبون لعبة العسكر لكن بأسلحة قليلة، ويخلعون نعالهم ويلبسونها، وعندما يقول أحدهم واحد، بدعابة ظاهرة، يقفز أحدهم في الماء ولا يخرجه أحد. أمامهم ثلاثة فراسخ للوصول لمنطقة الحجر الكبير، طريق وعر، ثم أربعة فراسخ أخرى لبلوغ منطقة راية النساء، وثلاثة أخرى للوصول للبيت الجميل، ومن هناك للنهاية من الأفضل ألا أحكي حتى لا تتخلى الناس عن هدفها. هناك يذهب الحواريون، وقد لا يضايقنا الآن أن تحدث معجزة السمك المشوي على النار والمتبل بالزيت والملح تحت هذه السنديانة، وإن لم يحدث ذلك فالأمر يرجع للواجب الذي ينادينا بصوت رقيق لا نعرف أيأتي من خارجنا أم من داخلنا، أيدفعنا من خلفنا أم هو أمامنا يفتح لنا ذراعيه مثل المسيح، شيء غريب، إنه أول رفيق يهجر الأرض بمحض إرادته الحرة وحيداً، من دون أن ينتظر أن يشرحوا له الأسباب، الآن هم ثلاثة وعشرون، هم حشد. على مدى النظر يظهر «الحجر الكبير» وأمامنا الحقول، لقد أهلكوهم، يعملون بغضب، من الذي يتحدث معهم، يتحدث سيجيسموندو، فهو يعرف أكثر. «يا أيها الزملاء، لا تتركوهم يخدعونكم، يتحتم أن نصنع اتحادا بين الأجريين، لا نريد أن يستغلونا، فما نطالب به ليس إلا فتاتا بالنسبة للمالك». ويتقدم مانويل السيف «لا يمكن أن نكون أقل من زملائنا الذين يعملون في أراض أخرى ويطالبون الآن بتحسين أجورهم». هناك أيضاً كارلوس، مانويل، الفونسو، داميان، كوستوديو ودييجو، وأيضاً فليبي، وكلهم يقولون الشيء نفسه، يكررون الكلمات التي سمعناها للتو، فقط يكررونها لأنه لم يتح لهم الوقت ليبتكروا كلماتهم الخاصة، والآن يتقدم جوان المنحوس «الحسرة تملؤني لأن ابني انطونيو ليس بيننا هنا، لكن عندي أمل أنه سيقول ما يقوله أبوه، أيا كانت أراضيه الآن، فلنتحد جميعاً لنطالب بأجرتنا، فقد آن الأوان لتخرج أصواتنا لتتحدث عن قيمة عملنا، فلا يمكن ان يظل السادة دائماً يقررون وحدهم ما يدفعونه لنا». عندما نأكل تُفتح شهيتنا للطعام، وعندما نتحدث نتعلم الكلام. يقترب رؤساء العمل ويحركون أذرعتهم، يبدون كما الأشباح التي تطرد الفلاحين، ابتعدوا من هنا الآن، اتركوا من يريد أن يعمل لعمله، فما أنتم إلا مجموعة تنابل ولا تحتاجون إلا لزيادة الحمل فوق ظهوركم. لكن الناس توقفت، والزمرة جلست على الأرض، والرجال والنساء اقتربوا يكسوهم الغبار وتحرقهم الشمس، من دون حتى أن يتفصد عرقهم. أنهوا عملهم، واجتمعت المجموعتان «قُل للمالك إن أرادنا سنكون هنا من الغد، وحسابنا امر يسير، ثلاثة وثلاثون اسكودو في اليوم». يقول أحد العلماء الظرفاء المتخصصين في أمور الدين إنه في زمن المسيح لم يكن ثمة تكاثر في الأسماك، لكن كان ثمة تكاثر في البشر. هنا شكلوا مجموعتين واقتسموا طريق سيرهم، نصفهم لمنطقة راية النساء والنصف الاخر لمنطقة البيت الجميل، وفي هذا الجبل سيجتمعون من جديد ليتوزعوا مرة أخرى.

في السماوات العُلى، تطل الملائكة من النوافذ أو من فتحات الدرابزين الفضية التي

تحيط بالأفق كاملاً، ويمكن رؤيته في أيام الصفاء، يشيرون بأصابعهم وينطقون بأسماء البعض والبعض الآخر، بكل شقاوة، وتتسرب السنون، وأحدهم، أعلاهم درجة، يركض لينادي على اثنين أو ثلاثة من القديسين القدماء المرتبطة حياتهم بأمور الزراعة والمواشي، ليروا بأعينهم ما يحدث في الوسايا، حالة من القلق، من الاضطراب، أفواج من الناس في النواصي والطرق، في كل مكان، حتى داخل السبل الجبلية المختبئة، يسيرون في طرق مختصرة أو في خطوط مستقيمة، على حواف حقول القمح مثل صفوف من النمل الأسود. منذ زمن طويل تسرب الملل في نفس الملائكة، فالقديسون يقدمون شرحاً سطحياً حول النباتات والحيوانات، وتنقصهم المعلومات بسبب ضعف الذاكرة، لكنهم ما زالوا يشرحون كيف ينمو القمح وكيف ينضج الخبز، وكيف أن الخنزير يؤكل بأكمله، وإذا أردت أن تعرف جسدك فافتح جسد خنزيرك، فكلاهما سواء. تأتي تلك المعلومة في شكل تأكيد مليء بالهرطقة والجسارة، وتخلق الوساوس حول الخالق الذي، لكونه لم يعرف أن يبدع أكثر من ذلك، تحتم عليه أن يعيد خلق الإنسان عند خلق الخنزير، لكن ذلك قد يكون حقيقة، بما أن كثيرين يقولونه.

في علوهم وبُعدهم، وقد نسيتهم الدنيا التي عاشوا فيها، لا يعرف القديسون أن يشرحوا أسباب تجمهر الناس التي تسير من البيت الجميل إلى كارّيزا، من جبل فوجيرا إلى تل الخرق، والآن بينما يسير البعض في جانب، يتقدم البعض الآخر نحو مكان بعيد، صوب منطقة مزرعة البطاطين، صوب جبل الرمال، يخوضون في أرض لم يسر فيها الرب من قبل أبداً، حتى لو كان قد سار فيها فأي فائدة ستعود عليه، وعلينا. «إنهم هراطقة»، هكذا سيصيح الأب أجاميدس كل يوم، يصيح من نافذة بيته، حيث بدأ الحجاج في زيارة جبل لافري التي ستصير القدس الجديدة، إنها مثل معرض الخميس ببلدة إسبيجا، والآن يعبر الشارع ركضاً أونباشي الحرس، من يدري أين يذهب، أيكون أحد قد استدعاه، «المالك يأمر أن أذهب لرؤيته»، يرتدي القبعة ويخرج شاداً حزامه على وسطه، إنها أوامر الانضباط العسكري، الحرس أصبح على وشك أن يكون قوات عسكرية، ما يجعلهم يشعرون بعظم المصيبة. يدخل قبو الخمر المعطر حيث يقبع هومبيرتو «حسناً، أنت تعرف»، والأونباشي تباكو يعرف كل شيء، بل ومضطر أن يعرف كل شيء، فمن أجل ذلك يتقاضى راتبه. «نعم يا سيدي، سار المضربون عن العمل مجموعة مجموعة، وكلهم هناك الآن»، «وماذا سنفعل؟»، «لقد طلبت أوامر من مونتيمور، وسنرى من هم الزعماء»، «لا تشغل بالك، فمعي قائمة بأسمائهم، عددهم اثنان وعشرون، لقد رأوهم يتآمرون علينا في جسر كافا قبل أن تتحرك المجموعات»، بينما يدور هذا الحوار، يتناول الأونباشي تباكو كوب ماء، ونوربيرتو يتجول من جانب لآخر، ضارباً بكعب حذائه بصلابة البلاط الصغير. «إنهم أوباش، تنابلة، ليسوا إلا ذلك، لا يريدون العمل، لو انتصر في هذه الحرب من أعرفه، لما كان بوسعهم أن يحركوا إصبعا واحدا، ولظلوا هناك صامتين مثل الفئران، يعملون مقابل ما نريد أن ندفعه نحن لهم»، هذا ما يقوله البيرتو ويرتبك الأونباشي فلا يعرف بماذا يجيب، فهو لا يحب الألمان، بالقدر نفسه يكره الروس، ونقطة ضعفه الإنجليز، وعندما يفكر في هؤلاء وأولئك تزداد حيرته فلا يعرف جيداً من انتصر في الحرب، يتلقى القائمة، إنها معلومات قيمة يستطيع تدوينها في صفحة الخدمات، اثنان وعشرون مضرباً خبيراً ليسوا مجرد عرف ديك رومي يمكن الإمساك به، رغم أن كل ذلك يبدو مسلياً للملائكة الذين ما زالوا صغاراً، لا يجب أن نأخذ ذلك مأخذ السوء، فيوماً ما سيتعلمون حقائق

الحياة القاسية، عندما ينجبون أبناءً فيما بينهم، هذا إن افترضنا وجود ملائكة إناث كما يقول العدل والأخلاق، حينئذ سيتحتم عليهم تغذيتهم، ولو كانت السماء وسية سيرون الخير.

ومع ذلك انتصر النمل. عند انكسار الشمس تجمع الرجال في الميدان وجاء الإداريون بوجوه عابسة وكلمات قليلة، لكنها تحمل معنى الهزيمة، «بداية من الغد يمكنكم الذهاب للعمل مقابل ثلاثة وثلاثين اسكودو»، وينسحبون مكسورين، تراودهم أفكار انتقامية. في تلك الليلة عمّ السرور الحانات، لدرجة أن جوان المنحوس قرر تجرع كأسه الثانية، يا له من تجديد عظيم، بدأ أصحاب الدكاكين في التفكير في استرداد الديون وحساب فائدة ارتفاع الأسعار، أما الأطفال الصغار الذين سمعوا قبل ذلك عن النقود فلم يعرفوا ما الذي سيشترونه، وبما أن الجسد حساس لأفراح الروح، اقترب الرجال من النساء والنساء من الرجال بسعادة جمة، وهمسوا بأن لو تفهم السماء شيئاً من حياة البشر، لترددت في ملكوتها أناشيد التسابيح وصيحات الأبواق، يا لها من ليلة قمرية بديعة، تشبه ليالي يونيه.

والآن يطل صباح جديد. صار كل يوم عمل يساوي ثمانية اسكودو أكثر من ذي قبل، ما يعادل أقل بكثير من عشرة سنت في الساعة، ولا شيء في الدقيقة، فليست هناك عملة تمثلها، وفي كل مرة يدخل فيها المنجل القمح، كل مرة تمسك اليد اليسرى الجذوع وبقوة تضرب اليمنى بمنجل يقطع القمح من جذوره، يستطيع فقط علماء الحساب أن يقولوا لنا كم يساوي هذا العمل، كم صفر يجب أن يُكتب على يمين الفاصلة، أي ملاليم تقيس العرق، ضغط الساعد، عضلة الذراع، الكلية المنهكة، نظرة التعب المكسورة، الشمس التي تسقط بتؤدة. كثير القفز قليل الصيد. لكن الغناء لم يغب عن مجموعات العمل، ولو أنه كان أقل

القليل، حيث سريعاً ما يأتي خبر يروي أن الحرس بالأمس ملؤوا ميدان مونتيمور بالأجراء، وحشدوهم كالقطيع وسجنوهم. أصحاب الذاكرة القوية يتذكرون ما حدث في باداخوث، تلك المذبحة التي وقعت أحداثها في ساحة ثيران، تبدو هاجساً، قتلوهم جميعاً بطلقات الرشاشات، لكن لن يحدث هذا في أرضنا، فلسنا بهذا القدر من الهمجية. تنتشر توقعات سوء سوداء في الحقول، يتقدم خط الحصّادين حائراً، بلا إيقاع، بينما يصرخ رؤساء العمل ومعهم كل الحق، يصرخون بأعلى صوت، كما لو كان المال مالهم. «أروني كيف تعملون الآن وقد زادت أجرتكم، لقد صارت الأرض مليئة بالتنابل». والخط، المترع بالنشاط، لا يريد أن يقع في دين مع المالك، لذلك يتحركون بسرعة، لكن سريعاً ما تعاودهم الخيالات، ميدان مونتيمور مكتظ بذوينا، مكتظ بكل أماكن هذه الوسايا، وثمة من يجف لعابه من الخوف فيطلب أبريق ماء من الساقي. «من يدري بما سيحدث لنا». يدري هؤلاء الحرس القادمون من هناك، يدوسون الأرض، يشكلون صفوفاً قصيرة، يحملون البنادق في وضع الاستعداد ويضعون سبابتهم على الزناد. «إن حاول أحد الهرب، ستكون الطلقة الأولى في الهواء، أما الثانية ففي الساق، أما لو تحتم إطلاق الثالثة فسيسود التفكير في الذخيرة، فهؤلاء الناس لا يساوون ثمن طلقة». ينتبه الحصادون ويبدؤون في سماع أسمائهم: كوستوديو كالزون، سيجيسموندو كاناسترو، مانويل السيف، داميان كانيلاس، جوان المنحوس. في مجموعتنا، هؤلاء هم المحرضون على الثورة، أما الآخرون فمحجوزون حتى هذه الساعة، تم حجزهم أو سيتم، ولو ظنوا أنهم لن يدفعوا ثمن تبعيتهم، فهم مخطئون، ولا يعلمون في أي وسية

يعيشون. أحنى الذين تبقوا من المجموعة رؤوسهم، أذرعتهم، الجذع كاملاً بالقلب والرئتين، ضغطوا على الكليتين ليتحكموا بالجسد، وعاد المنجل للدخول في القمح، ليقطع ماذا؟ الجذوع الجافة؟ نعم بالطبع، فلم يتبق سواها. رئيس العمل يدمدم كما الذئب في صف المأمورين «لقد كان من حظكم أن لم يسوقوكم كلكم، فقد كنتم تستحقون السجن، لو كان الأمر بيدي لنكلت بكم تنكيلاً لن تنسوه ما حييتم».

يسير المتآمرون الخمسة وسط الحراس الذين يستفزونهم «أكنتم تظنون أنكم ستسيرون آمنين وأنتم تشدون فتيل الفتنة، ويل لكم مما ينتظركم». لا أحد من الخمسة يجيب، يسيرون برأس مرفوع، رغم تقلصات معدة غير ناتجة عن جوع وأقدام متعثرة أكثر من العادة، فالأعصاب هكذا، تسيطر علينا ويتساوى الحديث الكثير مع الصمت، لكنها مجرد أعراض مصيرها الزوال، فالرجل رجل، حتى لو لم نعرف عن يقين إن كان القط حيواناً. يريد جوان المنحوس أن يقول شيئاً لسيجيسموندو، لكنه لا يستطيع، فالحرس يد واحدة، إرادة واحدة، قلب واحد «احذروا من فتح فمكم، وإلا سنضربكم على أعناقكم حتى تغرز أسنانكم في الأرض»، فلا يتجرأ أحد على فتح فمه، وهكذا يصلون إلى جبل لافري، يصعدون التل حتى الكتيبة التي بها الباقون، عددهم اثنان وعشرون، «لا بد أن هناك يهوذا وشى بنا». وضعوهم في كوخ بالفناء الخلفي، كلهم فوق بعض، دون أن يجدوا شيئاً يجلسون عليه إلا الأرض، ماذا يهم، هم معتادون على ذلك، ضربوا الأعور على عينه! فجلد هؤلاء الناس أقرب لجلد الحمار منه لجلد الإنسان، والحمد لله، فهكذا تتضاءل العدوى، فلو حدث لنا، نحن أبناء المدينة، ما يحدث لهم، ما كنا احتملناه. الباب مفتوح، لكن أمامه يجلس ثلاثة حراس تحت سقيفة من الصفيح، يضعون بنادقهم في وضع الاستعداد. أحد الثلاثة يبدو غير راضٍ عن نوبتجيته، تنحرف نظرته وتميل ماسورة بندقيته صوب الأرض، يلاحظ أيضاً أنه لا يضع سبابته فوق الزناد، يبدو حزيناً، من يستطيع أن يقول ذلك! لا يقولون شيئاً، فقط يفكرون، فالأوامر رسمية، لكن سيجيسموندو يهمهم «الشجاعة يا رفاق»، ومانويل السيف يرد «لو استجوبونا فلتكن إجابتنا الإجابة نفسها: لا نريد إلا أن نكسب ما نراه عدلاً»، وجوان المنحوس يقول «لا تخافوا، فلسنا في حالة إطلاق النار ولن يسوقونا لأفريقيا».

يأتي من الشارع شيء يشبه هزيز الريح ويضرب بأجنحة في الشاطئ المهجور. إنهم الأقارب والجيران يطلبون معرفة الأخبار، يرجون الحرية المستحيلة، ويُسمَع صوت الأونباشي تباكو صارخاً «ابتعدوا جميعاً وإلا سنهاجمكم»، إنها مبالغة في المناورة التكتيكية، فكيف يهاجموهم وهم بلا جياد، ولا يمكن أن يتخيل أحد أن أحداً من الحرس سيغرز حربة بندقيته في بطن الغلمان والنساء، «بعضهم يستحق ذلك يا سيدي النقيب»، أو في بطن الأجداد الذين يحتملون بالكاد الوقوف على أقدامهم، وخير مكان لهم هو القبر. لكن الجموع تستند على الجوانب وفي العمق، ويصل لأسماعنا نهنهة بكاء رقيق تذرفه النسوة اللاتي لا يردن البكاء بصوت عالٍ مخافة أن يعاني الأزواج والأبناء والأخوة والآباء، لكنهن في داخلهن يتألمن كثيراً «ماذا سيكون مصيرنا لو سجنوه».

عند انكسار الشمس تصل عربة من مونتيمور تحمل حامية مهيبة من الحرس، هؤلاء غرباء عن أهل هذه الأرض الذين نعتادهم، لكن ما الحل؟ القضية ليست أن نغفر لهم، ومن أين لنا بذلك، وإنما في أن هؤلاء الحرس قد أنجبتهم بطن من الشعب تجوع وتتألم والآن هم يحاربون الشعب الذي لم يرد لهم شراً. تسير العربة متسلقة التل حتى مفترق الطريق، حيث يفتح لها طريق فرعي يؤدي لمونتينيو، هناك عاش جوان المنحوس وكذلك أمه المرحومة سارة، وأخواته، بعض هنا وبعض هناك، ولم يبق أحد في جبل لافري، والقصة قصة من بقي هنا وليس من رحل، وقبل أن أنسى، الطريق الفرعي للشارع هو الطريق الذي يمر منه كثيراً الإقطاعيون المحليون أصحاب الوسايا، الآن لقّتْ الحافلة وتهبط متعثرة، تدخّن وتثير غبار الطريق الصاعد الجاف، والنسوة والغلمان وكذلك العجائز، نراهم تدفعهم هذه الحافلة المتأرجحة، وعندما تتوقف، ملتصقة بجدار يحتمل الانحدار المشيدة فيه الكتيبة، تمسك النسوة اليائسات بدرابزين الحافلة، لكن هذه المرة تضرب الدورية التي تمضي للداخل بمؤخرة البندقية على الأصابع الغامقة والمتسخة، هؤلاء الناس لا يستحمون يا أب أجاميدس. حقاً، يا سيدة كليمينتيا، ماذا سنفعل، إنهم أقذر من الحيوانات. ويصرخ شاويش مونتيمور، ويدعي أرمامينتو، قائلاً «إن اقترب أحد سأطلق عليه النار»، وسريعاً ما يظهر هنا من يمسك زمام السلطة. تلتزم الجموع الصمت، تتقهقر لمنتصف الشارع بين الكتيبة والمدرسة. «يا أهل المدرسة ازرعوا»، تقال هذه الجملة بينما تبدأ مناداة المساجين من الدورية المشكّلة في صفين من الباب حتى الحافلة وتشبه حظيرة من الخوابير وغصون الشجر، أو تشبه نوعاً من صهاريج تربى فيها الأسماك، أو الرجال الذين في وقت شبكهم لا يختلفون كثيراً. خرجوا جميعاً، الاثنان وعشرون، وكلما ظهر أحد عند عتبة النقطة انطلقت من بين الحشود نهنهة بكاء وصريخ لا يمكن كبحه، أو صرخات، لأنه بداية من الثاني والثالث صارت الصرخة صرخات. «آه يا زوجي» «آه يا أبتي»، بينما تصوب البنادق الخفيفة نحو الثوريين، والحامية المحلية تغرس عيونها في الحشود تحسباً لأي انتفاضة. الحق أن ثمة مئات من الأشخاص وكلهم يشعرون باليأس، لكن ثمة أيضاً بنادق تقول مواسيرها «اقتربوا، اقتربوا إن أردتم، وسترون ما سيحدث لكم». يبدأ المساجين في الخروج من نقطة الحراسة، يتجول بعضهم بعينيه لكن ليس هناك وقت، يتقدمون، وعند وصولهم لسلم السور عليهم أن يقفزوا داخل الحافلة، حركات بهلوانية، يبدو أنهم يتعمدون بث الرعب في نفس الشعب الطيب، وأثناء ذلك تغرب الشمس وتختفي الظلال ولا يمكن التعرف على وجه أحد، خرج الأول واستعد الجميع وانطلقت الحافلة، قامت بمناورة وحشية كما لو كانت ستحصد أرواح الجموع، ثمة من يسقط، والحمد لله لم يصبه مكروه إلا بعض الخدوش. الهبوط من التل أسهل، الرجال يجلسون داخل صندوق الحافلة وملقيين مثل الأجولة، بينما يمسك الحرس بدرابزين الحافلة دون العناية بالتصويب، باستثناء الشاويش أرمامينتو الذي يعطي ظهره لكابينة السائق، ويقف فوق قدمين راسختين في مواجهة حشود تركض خلف الحافلة، سيظل المساكين في الخلف يكسبون أرضاً في الخلفية عندما يتحتم القيام بمناورة ناحية اليسار، لكنهم هناك لا يستطيعون عمل شيء آخر، إذ إن الحافلة تنطلق سريعة صوب مونتيمور، الناس المساكين يلهثون ويتملكهم التعب ولا تبقى إلا إشارات وصيحات تنطفئ مع البعد، ما عادت تسمع، بعضهم يتمتع بقوة في ساقيه يحاول مواصلة الركض، من أجل ماذا؟ في المنحنى الأول تختفي الحافلة، ما زلنا نراها وهي تبعد عابرة الجسر، والآن، الآن، أين العدالة وأين الأرض؟ لماذا كان نصيبنا نصيب الأسد من الألم والمعاناة، كان من الأفضل أن يقتلونا كلنا مرة واحدة لينتهي بذلك مصيرنا المؤلم.

تدور في رأس كل منهم أفكاره. ومن خلال كلام سمعوه بينما كانوا ينتظرون الخروج من الثكنة، عرف كل من سيجيسموندو كاناسترو وجوان المنحوس ومانويل السيف أنهم يعتبرونهم زعماء الإضراب. من بين الثلاثة يعد سيجيسموندو أكثرهم هدوءاً. جالساً على الأرض، مثل الآخرين، بدأ يسند رأسه بين ذراعيه المتشابكتين، المسنودتين على ركبتيه. يريد أن يفكر بشكل أفضل، وفجأة خطر بباله أن زملاءه ربما يعتقدون، بسبب وضعه المستسلم، أنه فقد حماسه، وكان هذا ما ينقص، فرد جذعه، ها أنا ذا. يتذكر مانويل السيف ويقارن. يتذكر أنه منذ ثماني سنوات سار في هذا الطريق نفسه بعربة وبرفقة زملاء، غلمان مثله، هنا فقط يمضي أوجوستو باتراكاو، بالمينيا أراح رأسه، فلديه مشاريع أخرى، أما فليسبيرتو لامباس فقد رحل من هنا، مهاجراً، ولا أحد يعرف عنه شيئاً. يقول مانويل السيف لنفسه إن الأمر الآن صار جاداً، فما يحدث اليوم لا يقارن بما حدث قبل ذلك، فالواقعة الأولى كانت لعبة صبية، أما الآن فجميعهم رجال ومسؤولياتهم مختلفة، وهو أمر لا ينكره أحد. هؤلاء الثلاثة، فعن الجميع لا يمكن السرد، تدور في رؤوسهم أفكار شتى لا نهاية لها، شيء من الهمة، شيء من التراخي، شيء من الشجاعة، شيء من الرعشة في اليد والسيقان، ما لا يمكن لأحد أن يهرب منه. يغيب جوان المنحوس في نوع من الحلم، لقد هبط الليل، وإن هربت من عينيه دمعتان، فصبراً، فالرجل مخلوق من لحم ودم لا من حجر، لكن من الضروري ألا ينتبه أحد لهاتين الدمعتين، حتى لا تهبط عزيمتهم. تحيط الصحراء بجانبي الطريق، أرض فضاء متسعة بعبور منطقة فوروس، وعلى مسافة صغيرة من هنا يسطع القمر، نحن في شهر يونيه ويسطع سريعاً، وأمامنا نجد أحجاراً كبيرة، هائلة الحجم لحد الدوار، إنه مكان رائع لعمل كمين، تخيل أن هناك يختبئ جوزيه القط وبصحبته عصابته، فينتا راتشادا، البارّياس، لودجيرو، كاستيلو، ويقفزون جميعاً على قارعة الطريق في حركة فجائية، وهم متمرسون في هذا، بعد أن يقطعوا الطريق بوضع جذع شجرة في منتصفه «الزموا مكانكم»، تفرمل الحافلة بكل قوتها، ماسحةً الأرض، ونرى آثار أطرها، وبعدها «سأطلق النار على من يتحرك»، فكلهم يحملون البنادق ولا يعرفون الهزل، تعكس ذلك وجوههم، ها هي بندقية جوزيه القط ذات الخمس طلقات التي سرقها قبل ذلك من مارثيلينو. يقوم الشاويش

أرمامينتو بإيماءة، هذا ما ينتظره منه رؤساؤه، لكنه يسقط من مكانه العالي بطلقة في قلبه، ويشد جوزيه القط الأجزاء للطلقة الثانية ويقول «فليخرج المساجين». يرفع الحرس جميعهم أذرعتهم، كما يحدث في أفلام الغرب، ويبدأ فينتا راتشادا وكاستيلو في سحب خزائن الطلقات منهم، هنا خلف الأحجار تقبع بغلتان اعتادتا على حمل الخنازير، تستطيع أيضاً حمل هذه القاذورات. ترنح جوان المنحوس وفكر إنْ كانت تناسبه العودة إلى جبل لافري أم البقاء مختبئاً خلال هذه العاصفة، لكن عليه حينئذ أن يرسل خطاباً لأهله، ليطمئنهم فيه بأن كل شيء انتهى على ما يرام لحسن الحظ.

«اقفزوا جميعاً، سريعاً، سريعاً»، يأمر الشاويش أرمامينتو العائد للحياة بلا ثقب في قلبه. هم الآن أمام باب ثكنة الحرس بمونتيمور، ولا أخبار لديهم عن جوزيه القط ولا عن ظله. الحرس يشكلون صفوفاً، لا يشعرون بالاضطراب السابق نفسه لأنهم الآن في بيتهم، فلا خطر من تمرد ولا اعتداء بيد مسلحة. أما مغامرة جوزيه القط التي توقعها الجميع وليس من الصعب تحقيقها، فلم تكن إلا خيالات مرت بذهن المنحوس. بقيت الأحجار في مكانها، على حافة الطريق، والله وحده يعلم منذ متى وهي هناك، لكن لم يقطع أحد الطريق، ومرت الحافلة بهدوئها الميكانيكي، تركتهم هناك وذهبت بعد أن أدت مهمتها. يدفعون الاثنين والعشرين رجلاً في طرقة، ويجتازون جميعاً دهليزاً،

ثمة حارسان على باب، يفتحه أحدهما ليجدوا بالداخل حشداً من الناس بعضهم يقف على قدميه والبعض الآخر يفترش الأرض فوق حقائب مقطوعة من الخيش فرشوها ليناموا عليها كأنها سرائرهم. الأرض إسمنتية، الزنزانة يشتد فيها البرد، أمر غريب لا يلائم قيظ هذا الفصل من السنة ولا هذا التجمع من الناس في مكان مغلق. ربما الأمر كذلك لأن الحائط الخلفي منحوت في تل الحصن. يصل عدد المساجين داخل الزنزانة لسبعين رجلاً تقريباً، وهو عدد هائل من الحصّادين. يُغلق الباب بضجيج مفزع ، يبدو عمداً، وصرير الباب يكشط الأعصاب كواحدة من تلك القطع الزجاجية التي يضعها المُلاّك فوق أسوار وسيتهم لتكشط الأيدي. عندما تشرق الشمس بطريقة ما، تُسرّ العين، كل شيء لامع، وفي الجانب الآخر ثمة شجر برتقال، فاكهة جميلة فوق غصنها، ومن يقول برتقال يقول كمثرى، فهي أيضاً فاكهة رقيقة، كذلك ثمة شجيرات ورد معدة في عقود في طرق حديقة الفواكه. يمر رجل من هنا مشغولاً بعمله فتملأ أنفه رائحة العطر، أنا لا أدري إن كانت لهم روح لتقدّر هذا الجمال أيها القس أجاميدس! سقف الزنزانة منخفض، له لمبة ملتصقة به، لمبة وحيدة، خمسة وعشرون واط فقط، فما زلنا نحيا بعادة التوفير، بعد ذلك يطل القيظ الذي لا يمكن احتماله، من قال عكس ذلك. يعرف الرجال بعضهم بعضاً ويتعارفون، هناك رجال من اسكورال، ورجال من برج جادانيا، يقولون إن أهل كابريلا كانوا سيتوقفون في فينداس نوفاس، لكن ذلك غير مؤكد، والآن، ماذا سيفعلون معنا. «فليفعلوا ما يفعلون»، هذا ما قاله أحد رجال اسكورال «فلن نتقاضى أقل من ثلاثة وثلاثين اسكودو، ما يجب أن نفعله الآن هو أن نحتمل».

يحتملون. تمر الساعات. من آن لآخر يُفتح الباب، تدخل مجموعات جديدة، تضيق بهم الزنزانة. أغلبهم لم يأكل شيئاً منذ الصباح، وليست ثمة بارقة أمل في أن الحرس ينوون إطعام مساجينهم. ثمة من يرقد فوق الخيش، وأكثرهم طمأنينة أو أصحاب الأعصاب الحديدية يغطون في نوم عميق. يدق جرس منتصف الليل في ساعة المجلس المحلي، لن يجرى اليوم شيء آخر، ففي تلك الساعات لا يحدث شيء، وأفضل شيء يفعلونه أن يناموا، الأمعاء تعترض لكنها لا تصرخ، وعندما يضيق المساجين ذرعاً ويؤرقون في منامهم وتصعقهم الرائحة الكريهة وعرق الأجساد المتكدسة، يُفتح الباب بهمجية ويظهر الشاويش تباكو بصحبة ستة من الحرس، ممسكاً بورقة في يده، ويتحرك الحرس حوله بالبنادق كما لو كانوا حديثي الخروج من بطون أمهاتهم، ويصيح الشاويش «جوان المنحوس، من جبل لافري، اجوستينيو ديريتو، من سافيرا، كارولينو دياس، من برج جادانيا، جوان كاتارينو، من سانتياجو دو اسكورال». ينهض الأربعة رجال، إنهم أربعة ظلال، ويخرجون. زملاؤهم يشعرون بقلوبهم تقفز تريد أن تهرب من حناجرهم، كيف سيكون حالهم، هؤلاء المساكين! حينئذ ينطلق صوت أحد لا يستطيع ان يكتم السر أكثر من ذلك «يبدو أنهم بالأمس قتلوا هنا رجلا».

لا يجتازون الدهليز هذه المرة. يسيرون بمحاذاة الحائط، بين الحرس الذين يدفعونهم نحو الباب. ضوء اللمبة هنا أشد بكثير من هناك، ترمش عيون المساجين لتدفع عن نفسها قوة الضوء المفاجئ، الأول. خرج الحرس، لم يبق سوى الشاويش الذي وضع الورقة فوق منضدة يجلس عليها رجلان أحدهما يرتدي الزي الميري، وهو النقيب مسرور، والآخر بملابس مدنية. تلقى الأربعة أمراً بالوقوف صفاً واحداً بجانب بعض: جوان المنحوس، اجوستينيو ديريتو، كارولينو دياس وجوان

كاتارينو. «ارفعوا بوزكم، لنرى إن كنتم تشبهون أم لا القحاب اللاتي أنجبنكم»، قال الرجل المدني. لم يستطع جوان المنحوس أن يمسك أعصابه «أمي ماتت منذ سنوات طويلة»، فرد عليه الآخر «أتريد أن أهشم وجهك، هنا لا أحد يتكلم إلا بأمري، وعندما يجب أن تتكلم، سترى كيف ستفقد فوراً رغبتك في الكلام».

بدأ النقيب مسرور في إصدار أوامره «قفوا انتباه، يا غوغاء، فأنتم هنا لستم في حانة، المعاملة هنا ميري، انتبهوا لما يقوله السيد المأمور». نهض الرجل المدني، دار حول مجموعة الأجراء مثبتاً فيهم النظر، واحداً تلو الآخر، عليكم اللعنة لقد حرقتم دمي، وليألف وجوههم ظل مثبتاً فيهم النظر وقتاً طويلاً، واحداً واحداً، «ما اسمك؟»، أجابه المستجوَب «جوان كاتارينو»، «وأنت؟»، «دياس كارولينو»، «وأنت؟»، «أجوستينيو ديريت»، «وأنت يا من ماتت أمك، يا أيها المسكين، ما اسمك؟»، «جوان المنحوس». ابتسم المأمور بمرح «اسم جميل، حتى تبقى الأمور واضحة، ويناسب أيضاً الموقف الذي نحن فيه». خطا فجأة ثلاث خطوات صوب المنضدة، أخرج طبنجته من الجراب ووضعها برفق فوق المنضدة، وعاد نحو المنكوبين «اعلموا أن أحداً منكم لن يخرج من هنا حياً قبل أن يتقيأ ما يعرفه حول هذا الإضراب، من نظّمَهُ، من أطلق الأوامر به، من صنع دعايته، هذا ما أريد معرفته وبسرعة، وويل لكم لو أطلتم». أخذ النقيب مسرور أربع كراسات مدرسية كانت فوق المنضدة مهملة «سأحجز كل واحد منكم داخل غرفة مكتب بصحبة هذه الكراسة، وبالداخل قلم رصاص، وعليكم أن تكتبوا ما تعرفونه، بالأسماء والتواريخ، والأماكن والبيوت التي كنتم تلتقون فيها وتستلمون وتسلمون الورق، ولا تخرجوا من الداخل قبل ان تنتهوا من شرح كل شيء بوضوح». عاد المأمور للمنضدة، وضع الطبنجة في الجراب، لقد انتهى من إبراز القوة، «تجعلونني أفقد رشدي، هناك يمكث رجل معاقب دون أن تعرف عيناه النوم بسبب هذا الإضراب الملعون، من الأفضل لكم أن تستعيدوا رشدكم وتكتبوا كل ما تعرفونه دون مداراة شيء، فأنا سأطلع على كل شيء بعد ذلك بطريقتي، وسيكون عقابكم أشد». يقول جوان كاتارينو «أنا ضعيف في الكتابة»، ويقول أجوستينيو ديريتو «لا اعرف إلا كتابة اسمي»، ويقول جوان المنحوس «أنا أكتب قليلا»، ويقول كارولينو دياس «وأنا كذلك». «أنتم تعرفون بما فيه الكفاية ما يهمنا» يقول المأمور ـ «لقد اخترناكم أنتم تحديداً لأنكم تجيدون القراءة والكتابة، وإن لم يرُق لكم ذلك فهو أسوأ لكم، فهذا معناه أنكم لم تتعلموا بعد، والآن أؤكد لكم أنكم ستندمون على أنكم لم تستمروا حيوانات». ضحك المأمور من خفة ظله، ضحك الجاويش وأيضاً العسكري، كما ضحك النقيب مسروراً جداً. أعطى النقيب أمراً للجاويش، والجاويش للعسكري، ففتح الأخير الباب وخرج الفسقة الأربعة، بالخارج ينتظرهم عساكر آخرون، وكمن يدخل قطيع الخنازير في زريبته، يسيرون في الدهليز ويفتحون لهم الأبواب ويدفعونهم للداخل، كل في زنزانته، كل بصحبة كراسته، دياس، ديريتو، كاتارينو، المنحوس، «إنهم حثالة»، يقول الأب أجاميدس «فليغفر لي الرب».

يسود صمت هائل يقطعه صوت خفيف مثل صوتهم جميعاً في ثكنة الحرس. الرجال المساجين في الزنزانة يرتجفون ويتنهدون قبل أن يناموا، وبعد نومهم، لكن هذه عادة الأجساد المنهكة، إنها وخزة واتته منذ كان يعمل في الفحم وأراد رفع جذع شجرة ثقيل مثل الكارثة، والآن تواتيه من جديد، «كان يعاملنا باحتقار. ماذا يفعلون الآن مع رفاقي؟»، لا يُسمع لهم صوت، لا يأتي للآذان

إلا خطوات النوبتجية بالخارج ودقات ساعة المبنى، يا ليتها تصمت للأبد تلك الدقات التي تشبه أم قويق الملعونة، حتى ولو حدث ما هو أسوأ. في حبسهم، قام الأربعة بالفعل نفسه، نظروا حولهم، وجدوا المنضدة والقلم الرصاص، كانت تبدو لعبة، كأنهم في المدرسة من جديد وفي حصة الإملاء، لا ينقص إلا المدرس الذي يملي عليهم، المدرس هنا هو ضميرهم ذاته، ضمير سيقرر ما يكتبونه بحروف معوجة وواشية، لكنهم جميعاً، عاجلاً أم آجلاً، سيكتبون في الورقة الأولى في السطر الأول، في أعلاها، كما لو أنهم يدخرون بقية الورقة للكثير الذي سيخطونه، أقول سيكتبون فقط أسماءهم. اسمي أجوستينيو ديريتو، اسمي جوان المنحوس، اسمي جوان كاتارينو، اسمي كارولينو دياس، ثم يواصلون النظر في الورقة، في الأسطر الكثيرة حتى نهايتها، وفي بقية الورق حتى نهايته، يبدو أرضاً مزروعة، لكن هذا المنجل الذي هو القلم لا يتحرك للأمام، يأبى أن يتحرك من مكانه، لقد ارتشق في حجر، يا أيها السادة، ماذا سأكتب، أينتظرون أن أقول ما أعرفه في هذه الأسطر المعوجة، أم أقول الحلم الذي يراودني. أول من يترك الكراسة جانباً هو جوان كاتارينو، يكتب اسمه ويكتفي بذلك، يبقى الاسم حتى يعلموا أن صاحب هذا الاسم لم يكتب إلا اسمه، دون كلمة أخرى زائدة، وبعدها، في ساعات مختلفة، كل رجل من الباقين، بنفس إيماءة اليد الخشنة والغامقة، يتركون الكراريس، بعضهم يغلقها، البعض الآخر لا، تركوها مفتوحة حتى يكون الاسم أول ما يُرى عندما يأتون بحثاً عنهم، لا شيء آخر.

«بصيص ضوء يدخل من السقف»، إنها عبارة ريفية وتصويرية ولدتْ مع صنع السقف بالقرميد، بالعروق، هذا السقف الذي بسبب عدم تمكن الصانع من مهنته ومرور الزمن، فَتَحَ فمه ناحية الخارج، أو بمعنى أدق فَتَحَ ثقوباً، ومنها يدخل النور عندما يطلع النهار، رغم أن الضوء البسيط يستطيع المرور أيضاً قبل طلوع النهار عندما تنهك نجمة في رحلتها الليلية فتبقى هناك، فتلتقطها عين من يخاصمه النوم. قد تكون قصة الكراسات هذه حيلة لجأ إليها المأمور والنقيب حتى يستطيعا النوم براحة بال بينما يعترف المثيرون للفتنة، أو طريقة ذكية لتوفير أجرة كاتب بأن يكتب المضربون مجاناً. قد لا نعرف الحقيقة كاملة حتى ينقضي الأمر في قصة السجن هذه والاستجواب. بصيص ضوء يدخل من السقف، يجب أن نعود لهذه النقطة لأن الدورة لم تكن قد اكتملت ولا الإحساس بالهجران كذلك عندما فتحت
الأبواب وظهر المأمور في كامل أناقته وبهائه، كمن نام حقاً بالخارج وفوق سرير مريح، وبانتقاله من مكتب لمكتب كان غضبه يزداد اشتياطاً لأنه كان يجد في كل كراسة ما يعرفه سلفاً، أن هذا الشخص يسمى جوان كارينو، وأن هذا التيس يدعى أجوستينيو ديريتو، وأن ابن السفاح هذا يطلق عليه كارولينو دياس، وأن ابن القحبة، نعم ابن قحبة، ينادونه جوان المنحوس. يبدو أن هؤلاء الأوغاد قد اتفقوا على ذلك. «تعالوا هنا جميعاً، لقد انتهى وقت التروي، الآن أريد أن أعرف من نظّم الإضراب، ومن هم المتحالفون معهم، وإلا سأحوّلكم على الآخر». لا يعرفون من هو هذا الآخر، ولا يعلمون شيئاً، يحركون رؤوسهم، برسوخ وإجهاد من عدم النوم، بشجاعة وجوع يأكل بطونهم، لدرجة أن أمام عيونهم تقبع سحابة. ويقول النقيب مسرور الذي جاء أيضاً «إن كنتم لا تريدون الذهاب جميعاً إلى لشبونة، فالأفضل لكم أن تعترفوا هنا، في أرضكم، أمام من تعرفونهم». لكن المأمور هدأ قليلاً، لا نعرف لماذا، «ابعثهم معاً إلى الآخرين، وسننظر بعد ذلك ما سنفعله معهم». ساقوهم جراً بالممر حتى الطرقة، شاهدوا السماء أمامهم، يا صديق، يرون كل شيء

واضحاً رغم أن الشمس لم تطلع بعد، ودخلوا بعد ذلك متعثرين في الأجساد المفروشة على الأرض، وسط ظلمة السجن حيث يرقد زملاؤهم. من نام تحتم عليه الاستيقاظ، أو الهمهمة نحو الجانب الآخر، سادت الطمأنينة بين الجميع لأن الأربعة قبل أن يرقدوا ويخوضوا في النوم، وهو حق مشروع، استطاعوا أن يخبروهم بأيديهم فوق قلوبهم أن السلطة لم تستطع أن تسحب منهم ولا كلمة واحدة. لم يتمتعوا بنوم طويل، فهؤلاء الناس تعودوا على النوم القليل، وبمجرد أن تشق الشمس طريقها في جبال إسبانيا، يكورون بطاطينهم، فضلاً عن أن الأرق الصديق يشق طريقه في أزقة اللا وعي، فيرجفها ويمددها، إنها وحشية، وهكذا يرهق البدن، مضيفاً كنهاية هذه الدائرة المؤلمة في المعدة التي يعلم الله منذ متى لم تعرف طعم الزاد. إنها معاملة لا تصلح حتى للحيوانات.

كانوا في منتصف الصباح عندما فُتح الباب من جديد ونادى الأونباشي تباكو «جوان المنحوس، زيارة». أما جوان المنحوس الذي كان يثرثر مع مانويل السيف وسيجيسموندو كاناسترو حول المصير الذي ينتظرهم، فنهض مذهولاً بين دهشة الآخرين، والأمر لا يستحق أقل من ذلك، حيث إنهم يعرفون أنه في مواقف مثل هذه لا توجد زيارات، فالسلطة لا تعرف الطيبة، وثمة من ينظر بريبة، تراوده الوساوس إن كان رفيقهم حقاً لم يشِ بالجميع، لهذا يخرج جوان المنحوس بين صفين صامتين ومقطبين ويجر قدميه كما لو يحمل فوق ظهره خطايا الدنيا. تبدو دوامة، الآن يروح، الآن يأتي، وكانت الشمس تملأ السماء، من يا ترى جاء لزيارتي، لا بد أنها فاوستينا وابنتاي، لا، هذا غير معقول، فلن يسمح بذلك النقيب، أما المأمور المرتدي زياً مدنياً، هذا الكلب ذو اللسان القذر، فلن يفكر في ذلك إطلاقاً.

خُيّل إليه أن الطرقة صارت أقصر بكثير من ذي قبل، مر أمام الباب الذي خلفه قضى الليلة السابقة متأملاً الكراسة المدرسية، كم يكلف هذا التعليم، اسمي جوان المنحوس، والآن، بينما يطرق الحارس الباب وينتظر الأمر بالدخول، يفكر المنحوس، أهي فاوستينا، أم يقولون لي ذلك ليخدعوني ويعاودون أسئلتهم نفسها، ربما يضربونني، ماذا كان يقصد المأمور عندما هددنا إن لم نتكلم سيرحلنا إلى الآخر؟ أي آخر؟ الأفكار تأتي سريعة، لهذا يستطيع جوان المنحوس أن يفكر بينما ينتظر، لكن عندما فُتح الباب بقي ذهنه خالياً إلا من حُلكة الليل داخل رأسه، ثم شعر براحة كبيرة، إذ رأى بين النقيب والمأمور القس أجاميدس، لا بد أنهم لن يضربوني أمام القس، لكن ما الذي أتى به إلى هنا؟

هكذا سنكون في السماء، أنا في الوسط كما يتطلب العمل الروحي الذي أمارسه منذ عرفت نفسي وعرفتموني، وحضرتك، أيها النقيب، على يميني، لتقوم بعملك كحامٍ للقوانين ومن يضعها، وحضرتك، أيها المأمور، على يساري، لتقوم بباقي العمل الذي لا أريد معرفته حتى ولو أجبروني. يفتح باب بيت الانضباط هذا، ماذا أرى، عيون حزينة من أجل هذا خُلقتْ، يا ليتكم كنتم عمياناً، صححوا لي إن كنت مخطئاً، أهذا هو جوان المنحوس ابن جبل لافري، المكان الذي تقطنه رعيتي، المُحِبة للعمل مثله، أجننت يا رجل، السيد النقيب والسيد المأمور أو السيد المأمور والسيد النقيب أخبراني بأنك لم ترغب أن تقول ما تعرفه، إن من الخير لك أن تقول، لتستريح أنت وأسرتك، يا

لها من أسرة مسكينة، ليس لها من ذنب فيما جناه الأب واقترفه من أخطاء ومهاترات، أب لا يعرف الحياء، جوان المنحوس، هذا الرجل الملتحي والوقور، كيف ورطت نفسك في هذه الأفعال الصبيانية، أين رأيت في حياتك فتنة كهذه، كم مرة قلت لكم جميعاً في الكنيسة: يا أخوتي الأعزاء، اتقوا شر هذا الطريق، فآخرته الهلاك المبين، حيث الدموع لا تنفع ولا الصّر على الأسنان؛ قلت لكم ذلك مئات المرات، قلت لكم حتى أنهكني القول، لكنني كنت أحرث في بحر، يا جوان المنحوس، الأمر ليس أني لا أهتم بالآخرين، لكن السيد المأمور والسيد النقيب أخبراني بأنه من بين كل رجال جبل لافري طلبوا منك وحدك أن تكتب في هذه الكراسة، أنا لا أعرف الآخرين، وأخبراني بأنك لم تكتب، لم تساعدهم، يبدو أنك تسخر منهم، وهم من يتمتعون بصبر جم، يقضون الليل بلا نوم، كم هم مساكين، هم أيضاً لهم عائلاتهم، ماذا تظن، أن ينتظروهم بسهاد، ومن أجل عنادك يتحتم عليهم أن يقولوا لهم: سآتي اليوم متأخراً، أو يقولوا: لدي عمل لا بد أن أنهيه، تناولوا أنتم عشاءكم دوني وناموا لأني لن أصل البيت قبل الصباح، لكن حتى هذا لا يتحقق، فقد حانت ساعة الغداء وما زال السيد المأمور والسيد النقيب هنا، يبدو مستحيلاً، يا جوان يا منحوس، ليس لديك أي مبرر لتتعامل بهذه الطريقة مع السلطة، ماذا يكلفك إن قلت من نظم الإضراب، ومن المسؤول عن المنشورات، من تلقاها ومن وزعها، ومن أين جاؤوا وكم عددهم، نعم، ماذا يكلفك، يا عبد الرب، لقد كنت على وشك أن أطلق سبة، قل ما أسماؤهم، وسيهتم السيد المأمور والسيد النقيب بالآخرين، أما أنت فتعود إلى بيتك، لذويك، ليس هناك أجمل من أن تعود إلى أهلك، من أن تكون بينهم، هيا، قل لي، فأنا لا أعرف، فوضعي لا يسمح لي أن أفشي أسرار الاعتراف، لكن ألم يكونا فلانو أو مينجانو، ألم يكونا هما، أجب، قل نعم بإيماءة من رأسك إن لم ترد الجواب بصوت مرتفع، السر سيبقى بيننا نحن الأربعة، أكانا فلانو ومينجانو، نعم، قل، فهذا ما أريده، لكني لست على يقين ولا أقول إنهما هما، أنا فقط أسأل، يا لموقفك هذا من كارثة، يا جوان يا منحوس، قل لي إنك لست نادماً، إنك تعذب بذلك أسرتك، أجب يا رجل.

أجب يا رجل، ها هو أمامك القس أجاميدس والنقيب والمأمور، وأنت، وليس بينكم شهود، من مصلحتك أن تقول ما تعرفه ولو قليلاً، فمن يعطي ما لديه من قليل ليس مضطراً لأن يعطي أكثر. «يا سيدي القس اجاميدس، أنا لا أعرف شيئاً، ولا يمكن أن أندم على ذنب لم أقترفه، وأنا على استعداد أن أعطي كل ما أملك من أجل أن أكون الآن مع زوجتي وبنتيّ، لكن ما تطلبونه مني لا أملكه، لا يمكن أن أبوح بشيء لأني ببساطة لا أعرف شيئاً، وحتى لو كنت أعرف فأنا لا أعرف إن كنت سأبوح أم لا». يرد المأمور «آه منك أيها التيس، الآن تثبت أنك متورط في العملية». فيقول القس اجاميدس بصوت خفيض «دعه وشأنه، إنهم جُهّال مساكين، هذا ما كللت من قوله، وبالأمس كررته في بيت السيدة كليمينثيا، أغلب الظن أنه لا يعرف شيئاً، فما هو إلا إمّعة»، «لكنه هنا يعد زعيم الإضراب» يقول النقيب مسرور. فيرد المأمور «اتفقنا، سُقه للحجز مجدداً».

يخرج جوان المنحوس، وبينما يمر بالطرقة للمرة المائة، يظهر على الباب، بين حرس مسلحين، فلانو ومينجانو، يعرفهما ويعرفانه ويتبادلان النظر، يسيران بكدمات، مساكين، وجوان االمنحوس، عند عبور الممر، يشعر بأن الدموع تهرب من عينيه، ليس من الشمس، فالشمس معتادة، وإنما من الفرحة العبثية، لأنه في النهاية تم القبض على فلانو مينجانو ولم يكن هو من وشى بهما، «ولم أكن

أنا من وشيت بهما، ما أروع أن يسجنوهما، يا للشر، لا أعرف ما أقول»، وبكي مرتين، مرة من الفرحة ومرة من الحزن، وكلاهما لأنه رآهما هناك، بعد أن ضربوهما، «أنا على يقين من ذلك كما على يقين أن اسمي جوان المنحوس، كان المأمور محقاً عندما قال إن اسمي يناسب الأيام التي نعيشها».

---

(8) حرب البرتقال هي حرب عسكرية نشبت بين فرنسا وإسبانيا ضد البرتغال لأنها لم تغلق موانيها أمام الإنجليز سنة 1801، واستطاعت إسبانيا تحت قيادة جودوي الاستيلاء على العديد من المدن البرتغالية التى تمت إعادتها بمعاهدة باداخوث، باستثناء مدينة أوليفينزا الحدودية التي بقيت للأبد إسبانية. وترجع تسمية الحرب بالبرتقال لغصن برتقال أرسله جودوي لماريا لويسا، ملكة إسبانيا. (م)

دخل الزنزانة وروى ما جرى. شاهدوا الدموع تهرب من عينيه فسألوه إن كانوا قد ضربوه، فأجاب بالنفي، وواصل بكاءه بنفس حزينة غاب عنها الفرح ولم يبق إلا الأسى، أسى وقتي. يحاوطه أهل جبل لافري، يقترب منه من هم في مثل عمره، بينما ينأى قليلاً ويتحفظ الأصغر منه عمراً، فمن غير اللائق أن يقتربوا من رجل اشتعل رأسه شيباً وهو يبكي مثل طفل صغير، ما المصير الذي سنلقاه. إنها هواجس سنصنع معروفاً لو قبلناها بلا تحليل ولا مناقشة.

مر نصف يوم على انتهاء الأمر على ما يرام. ساقوهم إلى الطرقة حيث اجتمعت هناك العائلات التي جاءت من بعيد، جاء منهم من استطاع، والآن فقط سمحوا لهم برؤيتهم في بعض غرف الانتظار الخاصة بالسلطة، غرف كانوا قد انتظروا فيها أمام الثكنة تحت رقابة فصيلة من الجيش، وهناك ضاعفوا من تنهيداتهم وشكاويهم، لكن عندما جاء الأونباشي تباكو ليسمح لهم بالدخول اشتعلت الآمال كلها، هناك كانت فاوستينا وبنتاها جراثيندا وأميليا، جئن سيراً من جبل لافري، على بعد أربعة فراسخ، لقد خُلق الإنسان في كبد، وأغلب النساء الأخريات جئن، «ها هن قد وصلن»، وحينئذ أوقف الحراس جهاز الأمن، يا لها من قبلات جائعة فوق خدود جافة، لا جافة ولا يحزنون، تعانق المنكوبون فيما بينهم، وهربت الدموع من مآقيهم، كان يبدو يوم بعث الأرواح، لكن قبلاتهم خلت من أي فن، وبقي مانويل السيف هناك، وحيداً، فلا زوجة له ولا ولد، مطلقاً نظراته صوب جراثيندا التي كانت تعانق أباها الذي تفوقه طولاً، ومن فوق كتفه تتبادل النظر مع مانويل الذي تعرفه ويعرفها، فلم يكن حباً من النظرة الأولى، ثم تقول له «كيف حالك يا مانويل»، فيجيبها «كيف حالك أنت يا جراثيندا»، ومن يظن في شيء آخر فقد أخطأ.

وبينما كان الأقرباء في حفلة الأحضان هذه، هلّ النقيب مسرور والمأمور على باب الطرقة، وفي نفس واحد خرج من فم الاثنين الخطاب نفسه، ومضيعة للوقت محاولة معرفة من يقلد الآخر، فربما كانت ثمة تقنية ما موصلة بأحبال كهربية بلشبونة جعلتهما يتحدثان بهذه الطريقة مثل جهازي مسجل. «انتبهوا أيها الأولاد، وخذوا حذركم بعد ذلك، سنطلق سراحكم هذه المرة، لكننا نحذركم، لو عدتم لارتكاب هذا الإرهاب مرة أخرى ستدفعون الثمن مضاعفاً، لا تسلموا عقولكم للآخرين ليخدعوكم تحت مسمى عقائد زائفة، لا تكونوا حميراً، لا تقبلوا أفكار أعداء الوطن، وإن عثرتم على منشورات في شوارع القرية، أو في الطرق، لا تقرؤوها، وإن قرأتموها، فأحرقوها في الحال، فلا تعطوها لأحد ولا ترددوا ما قد قرأتموه، لأن هذه جريمة، تدفعون أنتم وعائلاتكم البريئة بعد ذلك ثمنها، وإن صادفتكم مشكلة تريدون حلها، فلا تورطوا أنفسكم في الإضراب، وتوجهوا إلى السلطات واعرضوا عليها طلباتكم، فمهمة السلطات الوقوف علماً على كل شيء ومساعدتكم، وهكذا ستنالون حقوقكم طبقاً للقانون، بلا شغب ولا ضجة، ومن أجل هذا نحن هنا، والآن إلى العمل في سلام، وليعنكم الرب، لكن قبل أن تذهبوا، عليكم أن تدفعوا أجرة الحافلة التي جاءت بكم من جبل لافري لمونتيمور، فأنتم من أسأتم التصرف وعليكم دفع الثمن، فالدولة لا يمكن أن تتحمل مصروفات أخطائكم».

جمعوا في الحال النقود المطلوبة، نفضوا شنطهم وجيوبهم، حلّوا مناديلهم، ها هي النقود يا سيدي النقيب مسرور، وبهذا نكون غير مديونين للدولة التي من المؤكد أنها ينقصها الكثير، وما نأسف له

هو معرفتنا أن الطريق من جبل لافري لمونتيمور ليس بهذه المسافة الطويلة، فكلنا نعرفه. لم ينبسوا بهذه الكلمات، إنها من عند الراوي، لكن الكلمات التالية نعم قالها المأمور، بصوت فردي «الآن قد صفيتم حسابكم، عودوا إلى بيوتكم في رعاية الرب، وأشكروا هنا السيد القس الذي أظهر مودته للجميع». يرفع القس أجاميديس ساعديه كما لو كان فوق المذبح، بينما لا يعرف الناس ماذا يفعلون، بعضهم يقترب منه ليشكره، وبعضهم يتصنع أنه لم يسمع وينظر لأعلى أو يحاور زوجته وأولاده، أما مانويل السيف، الذي يعلم الله وحده ما سبب التصاقه بجراثيندا المنحوس، فيقول من تحت ضرسه، كما لو كانت الكلمات تلدغ قلبه «الواحد منا يشعر بالخجل، فلقد اعتقدنا أننا سنبقى هنا للأبد»، لكن الأب أجاميدس يرد عليه بوجه بشوش «إنه خبر سار، فلتأتوا جميعاً معي، فهناك عربات في الشارع تنقلنا مجاناً، وضعها السادة تحت أمرنا، تستطيعون جميعكم ركوب عربات وسيارات المُلاّك، حتى ولو كان منكم من يكرههم». يتقدمهم القس أجاميدس بزيه الديني المفتوح، معطياً انطباعاً بالسواد والشمع، جاراً في رائحته المباركة قطيع الفقراء المذهولين الآكلين من الشنط الخيش التي جاءتهم من بيوتهم، طعاماً مقتراً، ومانويل السيف، الذي يعلم الله لأي سبب كان ملتصقاً بجراثيندا المنحوس، يقول «وبعد ذلك يريدون أن نشكرهم، أي احتقار هذا، لقد مات من اختشى!». لم ترد جراثيندا وعاد مانويل السيف إلى وده «أنا لا أحد يجرني خلفه، سأعود مشياً». «حقاً»، وتحركت الفتاة متلهفة وقالت بخجل وجسارة «لكن المسافة بعيدة»، وسريعاً ما صححتْ، دون أن تعرف جيداً أتثني أم تتكتم، فلا تعرف أتسير مع المطيعين أم مع هذا الثورجي «أنت أدرى». فأجابها مانويل بالايجاب، فهو أدرى، وابتعد ثلاث خطوات، لكنه رجع ليقول «أتمنى أن تكوني خطيبتي»، فأجابته بنظرة كانت كافية،
وعندما دار مانويل السيف في أول ناصية، قالت جراثيندا موافقة في قلبها.

وفي الأيام التالية عَمَرَ بيت القس أجاميدس بخيرات جاءته من رعيته، معذرة لو كان قليلا، لكننا نهبه لك بنفس راضية مقابل ما فعلته من أجلنا، قدر من الفاصوليا، جوال ذرة، دجاجة سمينة، زجاجة زيت، وثلاث نقاط من الدم.

إلى الحلبة.
هبط المأمور القضائي إلى ميدان مصارعة الثيران بأمر من الرئاسة، فتّش على مغالق الزرائب وعدّ الأرسان واعتبرها كافية، ثم تنزه في الميدان ليستمتع بجمال المنظر الكلي، منظر المدرجات المكشوفة والحواجز ومكان الفرقة الموسيقية والظل والشمس، فيما تخترق أنفه رائحة روث طازج، ويقول «الآن يمكن الدخول»، حينئذ تُفتح الأبواب ويدخل القطيع الذي سيصارع اليوم طبقاً لأعراف الفن بأردية حمراء وبحراب قصيرة، معاقبين بضربات عُصي وبرقاب متوجة بمقبض سيف نفذت ضرباته إلى قلبي وتركت فيه علامات.

إلى الحلبة.

جاء القطيع يسوقه الحرس الجمهوري. من قريب ومن بعيد يأتي، من أماكن سبق أن ذكرناها مصادفة في موضع آخر من هذه القصة، لكنها ليست جبل لافري، رويداً رويداً يمتلئ الميدان لا المدرجات، يا لها من فكرة! الجمهور هنا مختلف، إنه حرس يحيط بالساحة بحثاً عن ظل لو كان ذلك ممكناً، ويحيطون بكل شيء ببنادق في وضع التصويب، فدون البندقية لا يشعرون برجولتهم. يمتلئ الميدان بقطيع غامق، يأكل في فراسخ وفراسخ من معارك الحرس البطولية عند الهجوم والاقتحام، ها هم يتحركون، محمولين فوق حيوانات الإضراب، أسود المناجل، رجال المعاناة. «هؤلاء هم أسرى المعركة الضارية، وتحت قدمي سيادتكم نحط الأعلام والبنادق التي سلبناها من العدو، انظر سيادتكم كم هي حمراء، لكنها أقل احمراراً من بداية المعركة، ذلك لأننا أثناء المعركة كنا نغمسها في التراب ونبصق فوقها، يمكن لسيادتكم أن تعلقوها في المتحف أو عند مدخل المجلس المحلي، هناك حيث سيذهب المجندون ليطلبوا راكعين أن نعرض لهم غبطتنا الصوفية لكوننا حراساً، أو ربما كان من الأفضل، سيادتكم، أن نحرقها، لأن رؤيتها يجرح المشاعر التي علمتمونا أن نحسها، ونحن لا نريد أن نتغير». أمر المأمور القضائي، لكونه يرأس عملاً فاضلاً، أن يغطوا الرمل ببعض أجولة الخيش من أجل الرجال الأشداء، لأنهم رجال، هذا أمر لا ريب فيه، لكنهم ليسوا أسوداً ولا أحضروا معهم المناجل، ها هم يجلسون أو يرقدون، مجتمعين تقريباً في مكانهم الأصلي، فلا يمكن تفادي اتّباع الجماعة، ينقصهم مع ذلك بعض الرجال، قلة منهم، يتنقلون من جماعة لجماعة، يربتون على أكتافهم وينبسون بكلمة تسليهم، أو يلقون نظرة مع إيماءة لها مغزى، حتى يصير كل شيء آمناً وجلياً بقدر المستطاع، والآن عليهم الانتظار.

ينظر الحراس من شرفتهم، فيقول أحدهم للآخر بضحكة عسكرية صرف «يبدو أننا في قرية القرود، لو كان معنا الآن فول سوداني لألقيناه لهم، وستموت من الضحك عند رؤيتهم يتصارعون عليه». يقصد هذا أن يقول إن الحرس يسافرون، يعرفون حديقة الحيوانات، يمارس عادة التأمل الكلي والتصنيف السريع، وأن وصفوا بالقرود رجال المعاناة المكدسين في ميدان مصارعة الثيران بمونتيمور، فمن نكون نحن لنبطل قولهم، خاصة عندما يصوبون بنادقهم ناحيتنا. ربما كان من الأفضل أن يسموا الحراس «حرادق» على وزن «بنادق»، فلقد شكلت البنادق جزءاً منهم. الواحد منا يتحدث ليقضي وقته، أو لكيلا يتركه ينقضي، إنها إحدى طرق وضع اليد على الصدر والقول له أو رجائه «لا تمش، لا تتحرك، فلو خطوت خطوة، ستدوسني»، كم أوقعت بك ضرراً! إنها أيضاً تشبه سجودي ووضع يدي على الأرض والقول له «توقف، لا تتلف، فما زلت أود رؤية الشمس». هنا تكمن القضية، في هذا اللعب بالكلمات؛ برص بعضها بجانب بعض، لنرى أيختلف معناها، وهكذا لم ينتبه أحد إلى أن المأمور القضائي هبط للميدان ويبحث عن رجل، رجل واحد في هذه اللحظة، رجل ليس أسد المنجل ولا جاء من بعيد، وهذا الرجل، إن أعطوه كراسة ليكتب ما يعرفه، كما سيفعل في اليوم التالي رجال جبل لافري وإسكورال وسافيرا وبرج جادينيا، سيكتب في السطر الأول، وفي كل السطور حتى لا يراودنا الشك في رجل ذي أفكار، ومن أول صفحة لآخر صفحة، اسمه فقط، وسيكتب: جيرمانو سانتوس فيديجال.

أمسكوا به. يجره الآن حارسان، أينما نعود لا نراه مرة أخرى، يسحبانه من الميدان وعند الخروج من باب القطاع 6 يضمون إليه اثنين آخرين، الآن يبدو كل شيء مرتباً، مثل التدرج من درج

لآخر، كأننا نشاهد فيلماً عن حياة المسيح، هذا طريق الآلام، هؤلاء قادة الرومان بهيئة المحارب الشقي قوي البنيان ويحمل رمحه معشقاً في قوسه، الطقس قائظ بشكل خانق، شديد القيظ. يسير في الشارع عدة رجال منفردين ولهذا يقول الأونباشي تباكو، وقد شعر بالخوف من أن يكونوا جوزيه القط وعصابته «امشوا بسرعة، هذا رجل مقبوض عليه». يسرّع الرجال الفرادى الخطى بقدر استطاعتهم، يصطدمون بحائط، لا خطر من هؤلاء بل يبدو أنه قد راق لهم الأمر والنبأ، ما زال أمام القافلة مائة متر سيراً حتى يصلوا لأعلى نقطة. نراها أعلى من السور، إنها امرأة تنشر ملاءة على الحبل، من المثير للضحك أن يكون اسم

هذه المرأة بيرونيكا، لكن لا، فاسمها ثيسالتينا، وليست سيدة كنيسة. ترى رجلاً يعبر برفقة الحرس، تتابعه بعينيها، لا تعرفه، لكنها تشعر بشيء، تضم وجهها للملاءة كأنها كفن، وتقول لابنها المشغول باللعب في الشمس «هيا ندخل يا بني».

يعبر الحرس الطريق الصاعد صوب الحصن، وهناك يتسع الطريق من الجزء السفلي ويبدو كميدان صغير. ما زالت أمامهم خطوات كثيرة ليخطوها بينما المكاسب قليلة، إن اعتقدوا أنْ هذا ما يفكر فيه المسجون فقد أخطأوا، فلا نعرف ما أفكارهم الآن ولا بعد ذلك، لذا فمن الضروري أن نشرع نحن في التفكير. لو بقينا في هذا الجانب، خلف هذه المرأة التي تسمى ثيسالتينا، وبدأنا مثلاً اللعب مع هذا الغلام الذي لا يحب الأطفال، ستكون النتيجة أننا سنبقى دون معرفة ما سيحدث، وهذا بالتحديد ما سنتجنب فعله. على الباب يقف خفيران، والحرس بأكمله في وضع الاستعداد للحرب، ارفعوا من جديد مجد البرتغال، الحق أنه من هنا نرى جزءاً من منظر طبيعي «سيدة الزيارات، مجيدة حيثما كانت»، لكننا لا نريد هنا أناشيد وطنية، كما نرى أيضاً بعض بساتين قليلة، ففي هذا المكان الضيق لا يمكن العثور على بساتين كثيرة. «هيا ندخل يا بني»، قالتها ثيسلتينا لابنها. نحن أيضاً سندخل من هنا، من بين الخفيرين ولن يلمحانا، وهذا امتيازنا، نجتاز الطرقة، من هنا لا، فهذه زنزانة، نوع من العنابر المخصصة لمرتكبي الجرائم الكبرى، غداً سيحتجزون هنا رجال جبل لافري وآخرين من أماكن مختلفة، أمر لا أهمية له، هذا هو الباب، لكن ذلك ليس الممر، فلنلف من هذا المنعطف، عشر خطوات أخرى، انتبه حتى لا تصطدم بالمنضدة، إنه هنا، لسنا في حاجة للتقدم أكثر من ذلك، لقد وصلنا، يكفي فتح الباب.

لم نصل في الوقت المناسب لنحضر المقدمات. لقد تلكأنا في مشاهدة المنظر الطبيعي واللعب مع الغلام الذي يعشق اللعب في الشمس مهما حذره أبواه، أيضاً وجهنا أسئلة لـ ثيسالتينا التي لم يشترك زوجها في هذه المتاعب مصادفة، إنه موظف بالمجلس المحلي ويدعى أوريكي. كل ما نرويه هذا ليس إلا ذرائع، مماطلات، طريقة لغض البصر، لكن حان وقت الإبصار. بين أربعة حوائط مدهونة بالجير، فوق بلاطات هذه الأرضية، علينا أن نتفادى الغناء الممزق، كم خطوة عبرت من هنا وتركت آثارها المستديرة، ولعل أشد ما يجذب الانتباه صف النمل هذا الذي يسير على الأرض فوق حافة فتحات عريضة تشبه الوديان، تعلوه السماء البيضاء وهي السقف، وفي مواجهته الشمس التي هي اللمبة المضاءة، وتتحرك أمامه أبراج شاهقة وهم الرجال، النمل يعرفهم جيداً، فجيلاً وراء جيل شعروا بثقل أقدامهم تهرسهم، كما شعروا بسخونة غيطهم المطرود من أمعاء خارج الجسد، وهكذا راح النمل ضحية الاختناق أو الهرس في كل بقاع الأرض، لكن في الحالة التي

نشاهدها الآن يفترض أنهم في منأى عن كل ذلك، فالرجال هنا لديهم مشاغل أخرى. يتمتع النمل بجهاز سمعي وتربية موسيقية لا يسمحان له بفهم ما يقوله البشر ولا ما ينشدوه، لهذا ليس من اليسير عليهم إدراك الاستجواب كاملاً، لكن الاختلافات ليست كثيرة، فغداً، داخل نقطة الحراسة لكن في مكان آخر أقل انعزالاً، سيستجوبون رجال جبل لافري وبرج جادانيا وسافيرا وإسكورال، وحينها سنعرف كل شيء، بما في ذلك الشتائم، «يا ابن القحبة، يا تيس، يا ابن القحبة، يا خروف، يا ابن القحبة، يا خول»، هذه شتائم تافهة، فالناس لا يشعرون بالإهانة أمامها، إنها حكايات مضحكة مثل حكايات الدادة، سيدة فلانة، سيدة علانة، إنه سب بسيط، وفي ثلاثة أيام يتصالحون، لكن في هذه الحالة لا يحدث ذلك.

فلنمسك بهذه النملة، لا، الأفضل ألا نمسك بها، فربما نقتلها، فلنكتف بالنظر إليها فهي واحدة من كبار النمل كما أنها ترفع رأسها مثل الكلاب، الآن تسير ملتصقة بالحائط مع قافلة من أخواتها، سيكون لديها وقت لتقوم بهذه الرحلة الطويلة ثلاث مرات بين مسكنها ونحن لا نعرف مدى الإثارة والفضول الذي يغمرها، أم أنها ببساطة رحلة غذائية داخل هذه الغرفة المنعزلة قبل أن يكتمل حدث الإبادة. الآن وقع في التو أحد الرجال، بقي في مستوى النمل، لا ندري أيراه أم لا، لكن النمل يراه، سيسقط الرجل مرات كثيرة حتى يحفظ النمل ملامح وجهه، لون شعره وعينيه، رسمة أذنيه، خطي حاجبيه الأسودين، رسمة شفتيه بظلهما المتراخي، وعن كل هذا ستدور لاحقاً محادثاتهم في مسكنهم ليبصّروا الأجيال المقبلة، فمن المفيد للشباب أن يطلّعوا على ما يحدث في العالم. سقط الرجل، ثم ساعده رجلان على النهوض بركلتين وهما يصرخان فيه كل من جانبه، مرددين سؤالين مختلفين، كيف يكون من الممكن الرد عليهما حتى لو أراد، وهذه ليست الحالة، لأن الرجل الذي سقط وأنهضوه لن ينطق بكلمة ولو قتلوه. بعض الهمهمات تهرب من فمه، وفي أعماق روحه تكمن آهات حتى عندما تتكسر أسنانه ويحتاج لبصق أجزائها، يعود الرجلان لضربه ولديهما الذرائع القوية، فالبصق يلوث ممتلكات الدولة، بالإضافة للضوضاء التي يسببها، فقط البصق يسبب ضوضاء! هذه الحركة الميكانيكية غير الواعية للشفاه! وبعد ذلك يتناثر اللعاب على الأرض، يغلفه الدم، فيفتح شهية نمل يتناقل الخبر من واحدة لواحدة، دعوة مفتوحة على أمطار المَنّى الجديدة، أحمر فريد يتساقط من سماء بيضاء.

سقط الرجل مرة أخرى. «إنه الرجل نفسه» قالت نملة، «رسمة الأذن نفسها وخط الحاجب وظل الفم، إنه هو بلا أدنى شك، لكن لماذا دائما يختارون الرجل نفسه؟ ربما لأنه لا يعرف الدفاع عن نفسه، لا يعرف الصراع». إنها آراء نملة تتحدث من منطلق ثقافتها، فهي لا تعرف أن حرب جيرمانو سانتوس فيديجال ليست ضد المعتدين عليه، جارجاجو وجارجاجيو، وإنما ضد جسده ذاته، الآن يموت ألماً مما بين فخذيه، من خصيتيه كما تقول كتب الفسيولوجيا، من بيضه كما تقول اللغة الدارجة التي نتعلمها سريعاً، من هاتين الكرتين الهشتين المليئتين بأثير لا يمكن تقديره ومن خلاله ننهض في وقتنا الحرج، أنا أتحدث عن الرجال، فهاتان الكرتان تجعلاننا ننهض في رحلة بين السماء والأرض، لكن هذه الرحلة لا تجري الآن، فالخصيتان تعانيان من نكبة وتحاول اليدان سدى حمايتهما، وما تلبث اليدان أن تتخليا عن حمايتهما عندما تأتي ركلة قدم بكعب الحذاء، ركلة وحشية لها دوي تهوى فوق الكلية. يصاب النمل بصاعقة عند رؤية ذلك، وسريعاً ما تعبُر.

النمل لا يستطيع أن يتوقف فلديه التزامات، مواعيد يجب أن يوفيها، إنه يبذل كثيراً من الجهد عندما يرفع رأسه كما الكلاب ويحلق ببصره الضعيف ليتأكد من أن الرجل الذي سقط هذه المرة هو نفسه من سقط المرة الفائتة، أم أنهم أدخلوا بعض التعديل على المشهد. النملة الكبيرة تجولت في منطقة كانت تنقصها على الحائط، مرت من تحت عقب الباب، سيمضي بعض الوقت حتى تعود، وعند عودتها ستجد المشهد قد تغير كلية، إنها مجرد عبارة، نعم هم ثلاثة رجال كما كانوا، لكن الرجلين اللذين لا يسقطان أبداً يتسليان الآن، لا بد أنها لعبة، لا يتراءى لها تفسير آخر، كم هو غريب ألا يلعب هكذا ابن ثيسالتينا، يتسليان بدفع ثالثهما صوب الحائط، يمسكانه من كتفيه ويضربانه فجأة وحينئذ يحدث أمر من اثنين: إما السقوط على ظهره وارتطام رأسه بالأرض وإما السقوط على وجهه بمواجهة الحائط، فيطبع الوجه المهشم على الدهان الجيري بعض الدم الذي يبقى كأثر، دم هارب من الفم والحاجب الأيمن. ولو تركاه هكذا سينزلق بلا مغزى، لا أتحدث عن الدم، بل عن الرجل، سينزلق حتى أسفل الجدار حتى يبقى مكوما فوق الأرض، بجانب صف النمل الذي سريعا ما يغزوه شعور بالرعب عند سقوط هذه الكتلة الضخمة من أعلى، رغم أنها في النهاية لا تلمسها. وخلال الوقت الذي تركاه فيه هناك، تسلقت نملة فوق ملابسه، أرادت أن تشاهده عن قرب، إنها أكثر النمل حماقة، إذ هي أول من تلقى حتفها، فالمكان الذي تستريح فيه الآن هو المكان الذي سيتلقى فيه الضربة الأولى، هي لن تشعر بالضربة الثانية، سيشعر بها الرجل الذي ستقفز معدته من مكانها من شدة الألم، ومن جديد يسقط، تصرخ معدته من عنف الرفسة أو الركلة، ومرة أخرى يوجهان الضرب لأجزائه، إنها كلمة مشهورة لا تؤذي الأذن.

خرج أحد الرجلين، ذهب ليستريح بعد جهده المبذول. إنه جارجاجيو، رجل مولود من أم وأب، متزوج ولديه أولاد، تلك معلومات لا طائل منها لأن الآخر أيضاً، ويسمي جارجاجو، هذا الذي بقي مع السجين، ولد أيضاً من أم وأب، ومتزوج ولديه أولاد، إذن كيف نميز بينهما إن لم نذكر ملامح كل منهما، يمكن ذلك بالاسم، فأحدهما جارجاجو والآخر جارجاجيو، وليست بينهما قرابة وطيدة إلا أنهما ينتميان للعائلة نفسها. يتمشى بالطرقة، يسير غاية في التعب لدرجة أنه يسدد ضربة للمنضدة ويقول «هذا العمل سيقضي عليّ، يأتون برجال لا يتكلمون، لكن لا، سأقطعهم وإلا لن أكون أنا جارجاجيو». يتجرع دورق ماء لا يترك فيه قطرة، إنها حمى متقدة، وحينئذ تقتحمه نوبة عصبية فيدخل الزنزانة من جديد بعد أن استراح واسترد عافيته، إنه إعصار استوائي يقفز كما الكلب على جيرمانو سانتوس فيديجال، إنه كلب ويسمى جارجاجيو، وعندما أشار له جارجاجو ليتوقف، لم يكن ينقص إلا أن يعض، وربما عض أيضاً، فبعد ذلك سنرى أنه يستعرض أسنانه، أسنان رجل أو أسنان كلب، لسنا على يقين، ففي بعض الأحيان يطلع لبعض الرجال أسنان كلب، كل الناس تعرف ذلك. كم هي مسكينة تلك الكلاب التي يعلمونها أن تعض من يجب عليها احترامه وفي أماكن لا يصح فيها العض، هنا، في هذا المكان الذي يحقق ذكورتي، أكثر من ذراعي ولحيتي، أو في مكان آخر هو قلبي، محل بصيرتي، أو في عقلي الذي هو عيناي الحقيقيتان. كانوا يقولون لي في صغري إن هذه الآلة المضطربة هي محل رجولتي، ورغم أني لا أؤمن كثيراً بذلك، إلا أني أقدرها، وليس عدلاً أن تعضها الكلاب.

تسير النملة الكبرى في رحلتها الخامسة وما تزال اللعبة مستمرة. هذه المرة خرج جارجاجو ليستريح، سار حتى الممر ليمسح تعبه بتدخين سيجارة، مر بمكتب النقيب مسرور ليخبره كيف تسير العمليات الميدانية، المناورات الكبرى، وقال له النقيب إنهم يجرون مسابقة عامة للمضربين في المجلس المحلي، وكل القوات في وضع الاستعداد، سيصير كل شيء على ما يرام لو أرسلوا لنا قوات أكثر، رغم أننا نعتمد على قوات أخرى كثيرة موجودة في ميدان مصارعة الثيران. «هل تكلم جيرمانو سانتوس فيديجال»، سأل النقيب مسرور بتحفظ، لأن هذا السؤال ليس من تخصصه، ومن حق جارجاجو ألا يجيبه إن أراد، لكنه أجابه «إلى الآن لم يتكلم، إنه رجل عنيد»، فرَد النقيب حريصاً وودوداً «سنضطر لاستخدام الوسائل الأكثر وحشية. إن بلدة مونتيمور لخير مساعد لأنها سقف وحماية». وبعد أن أسدى النصيحة وأشعل سيجارة، جاءته إجابة جارجاجو بضيق صدر «نعرف جيداً ما نفعل»، وخرج وصك الباب بصخب، «يا له من لجوج». وربما لذلك، وبسبب هذه المضايقة، دخل الزنزانة حيث يسير النمل وأخرج من الدرج سوطاً مسنوناً بالفولاذ، وهو سلاح قاتل، ولبس الحزام على رسغه زيادة في الأمان، وعندما حاول هذا الرجل المعذب، المصعوق، تفادي ضربات جارجاجيو، وقع سوط جارجاجو المدوي فوق كتفيه، وانتقل سنتيمترا سنتيمترا إلى أسفل ظهره، كما لو كان يهرس شيلماً أخضر، حتى وصل لكليتيه وطال هناك الضرب، مثل أعمى بعينين مفتوحتين، وليس ثمة أعمى أسوأ من أعمى يرى، وكان يعزف الضرب بإيقاع فوق الرجل الساقط الآن على الأرض، يعزفه بنظام حتى لا يضجر نفسه بشكل زائد، فكل شيء يُدفع إلا الضجر، لكن رويداً رويداً يفقد السيطرة على نفسه ويتحول كلية إلى آلة مجنونة لضرب فريسة، لإنسان آلي سكران، لدرجة أن جارجاجيو مسكه من ذراعه «انتظر يا رجل، لا تبالغ، بهذا ستسحقه». النمل يعرف عن خبرة معنى هذه الكلمة، فقد اعتاد على رؤية موتاه وعمل التشخيص من النظرة الأولى، فأحياناً يسير النمل في صف ساحباً طرف سنبلة فيصطدم بشيء صلب، محدّب، لا يمكن فك شفرته، فلا يرتجف، ويحرك قرون الاستشعار يمنة ويسرة ويقول، مع أنه يحمل ثقلا إلا أنه يتكلم بوضوح «هنا ثمة نملة ميتة» وبعدها ينظر في اتجاه آخر، وعندما يعود أحد لذلك المكان يجد الجثة قد اختفت، هكذا النمل، لا يترك موتاه تحت رؤية أحد كتنفيذ لواجب. بقي أن نقول إن النملة الكبرى، في رحلتها السابعة، تعبر الآن وترفع رأسها وترى ضباباً كثيفاً أمام عينيها، لكنها تبذل أقصى ما في وسعها، تدقق النظر وتفكر «يا له من رجل شاحب، لا يبدو أنه هو، فقد صار وجهه منتفخاً، شفتاه ممزقتين، أما عيناه، آه على عينيه، لا يمكن رؤيتهما من بين القروح، صارتا مختلفتين عن العينين اللتين جاءتا سليمتين، لكني أعرف هذا الرجل من رائحته، فحاسة الشم عند النمل أفضل حواسه». كانت النملة مستغرقة في هذا التفكير عندما فجأة هرب الوجه من أمامها، فالرجلان الآخران سحبا الرجل المرمي وأرقداه على ظهره ثم سكبا الماء على وجهه، كان دورقاً مليئاً لحسن الحظ بالماء البارد، ماء سحبوه من أعماق بئر أسود بالطلمبة، ولم يعرف هذا الماء من أجل من كان محفوظاً وكامناً في أحشاء الأرض، ومسافراً في رحلة تحت أرضية لزمن طويل بعد أن عرف أماكن كثيرة، درجات البئر الحجرية وخشونة الرملة المضيئة، ليونة الطمي الفاترة وهدوء المستنقع العفن ونار الشمس التي بتؤدة محته من وجه الأرض، فذهب حيث لم ير أحد، وأخيراً تحول لسحاب يعبر فوقنا. كم من وقتٍ استغرق. وفجأة يتساقط على رؤوسنا مطروداً من علاه، وتتلقاه الأرض لتغدو مشرقة، ولو يستطيع الماء اختيار مكان يتساقط فيه ما وجدنا جفافاً في مكان وفيضاناً في مكان آخر، فجأة سقط على الأرض، مضى مسافراً، يصفق، ماء نقي، شديد النقاء، حتى وجد عَرَقاً يسير فيه، تدفقا معاً، صنعا مجرى مثقوباً

بمضخة ماصّة، بئراً صافياً وغامقاً، وفجأة عثر على دورق، والآن ينسكب بقطراته اللامعة، ما مصيره؟ أيروي عطشاً أم لا؟ يسكبانه من أعلى فوق وجه، سقوط خشن لكنه يلطف سريعاً بسيولة بطيئة شفتي هذا الوجه، عينيه وأنفه، ذقنه وخديه الممصوصين، ويعبر أيضاً فوق جبهته المبلولة بماء آخر هو العرق، وبهذا يتعرف على الملامح الحية لهذا الرجل. يسقط الماء على الأرض، يطرطش على المنطقة المحيطة، تبقى البلاطات حمراء، لا داعي لأن أروي أن النمل مات مخنوقاً، لم تنج إلا النملة الكبرى التي مضت في رحلتها الثامنة بلا كلل.

يرفع جارجاجو وجارجاجيو جيرمانو سانتوس من إبطيه، ينهض بسهولة، لم يرد أن يضايقهما، يجلسانه على كرسي، ما زال جارجاجو يمسك السوط بيده والسير برسغه، لقد راق له أن يضربه بهذا الشكل لكنه الآن يصيح ـ أيها التيس ـ ويبصق في وجه الرجل المهدود فوق الكرسي ويشبه جاكتة مخلوعة لا يرتديها أحد. يفتح جيرمانو عينيه، وبرغم أن ذلك لا يصدق، إلا أنه يرى صف النمل، ربما لكثافته في المكان رأته العين بمجرد فتحها، بالمصادفة، لا غرابة في ذلك، فالدم البشري غذاء للنمل، والنمل بعد أن فكّر جيداً عرف أنه لا يعيش على شيء آخر، هنا سقطت ثلاث قطرات دم ، أيها الأب أجاميديس، وثلاث قطرات دم تشكّل بركة، بحيرة، محيطاً. فتح عينيه، إن اعتبرنا هذا فتحاً، ثقب ضيق يعبر منه الضوء بالكاد، لكن الضوء الداخل زائد عن اللازم، وألم الجفون حي يشعر به فقط لأنه ألم جديد، نصل سكين يُغرَز في مكان غُرِزتْ فيه من قبل مئات الطعنات وفي اللحم يتقلب، وعندما يتحرك يهمهم بكلمات يميل أمامها جارجاجو وجارجاجيو بجزع، يشعران بالندم على ما أفرطا فيه من تعذيبه، ليس بوسع المسكين تحريك لسانه وفتح شفتيه، لكن جيرمانو سانتوس فيديجال، هذا الرجل المسكين الخاضع للآن لاحتياجاته الجسدية، يريد أن يمضي للداخل ليفرغ مثانته التي يعلم الله لماذا أعطت الآن إشارة الطوارئ، أم أنه سيتناثر هناك. لا يريد جارجاجو ولا جارجاجيو توسيخ الأرض أكثر مما يُرى، وأيضاً على أمل أن تكون قد تحطمت مقاومة العنيد أخيراً وعلى اعتبار أن هذا الطلب أول إيماءة منه، يذهب أحدهما للباب ليرى إن كانت الطرقة خالية، يقوم بإشارة ويعود للداخل، يحيطان بجيرمانو سانتوس فيديجال في مسافة الخمسة أمتار التي تفصل الزنزانة عن المرحاض، ويضعانه على المبولة، وعلى المسكين أن يفك أزراره بأصابعه المتثاقلة، وأن يبحث ويُخرِج من لباسه العضو المعذّب، وألا يتجرأ على لمس خصيتيه المتورمتين، والصفن الممزق، ثم عليه أن يركّز، أن يستدعي كل عضلاته لمساعدته، أن يطلب منها أن تتقلص أولاً ثم تسترخي مرة واحدة حتى ترتخي العضلات العاصرة، وليهدأ الضغط الفظيع، يحاول مرة، اثنتين، ثلاثاً، وفجأة يخرج الدم مندفعاً، وربما البول أيضاً، مَنْ يستطيع أن يميز البول بين هذه الدَفعة الدموية؟ طلقة الدم توحي كما لو أن كل عروق الجسد تقطعت ووجدت أمامها مخرجاً في هذا الجانب. يحتبس، لكن الدفعة لا تتوقف. إنها الحياة وتهرب منه في هذا المكان. ما تزال تخرج عندما في النهاية يحبسها، ويستطيع احتواءها، ويبقى بلا قوة ليزرر بنطاله. يسحبه جارجاجو وجارجاجيو، وهو يجر قدميه صوب غرفة النمل، ويجلسانه فوق الكرسي من جديد. يسأله جارجاجيو بصوت مليء بالأمل، أتريد أن تتكلم الآن؟ إنها فكرة راودته، فشيء مقابل شيء، لقد تركاه يذهب للمرحاض وبالتالي عليه أن يتكلم، إلا أن ذراعي جيرمانو سانتوس فيديجال يسقطان ورأسه يقع على صدره، وينطفئ الضوء داخل عقله. بينما النملة الكبرى تختفي تحت الباب بعد أن قامت برحلتها العاشرة.

عندما ستعود النملة من مسكنها، سترى الزنزانة مكتظة بالرجال. ستجد جارجاجو وجارجاجيو والنقيب مسرور والشاويش أرمامينتو والأونباشي تباكو وعسكريين مجهولين وثلاثة مساجين تم اختيارهم بالمقاس ليكونوا شهوداً. عندما أعطى رجال الشرطة ظهرهم له لمدة دقيقة واحدة، فقط دقيقة واحدة لإنهاء أمر طارئ، عادوا ليروا السجين مشنوقاً بسلك، كما هو الحال الآن، طرف السلك ملفوف في هذا المسمار، والطرف الآخر ملفوف لفتين حول رقبة جيرمانو سانتوس فيديجال، نعم، فاسمه جيرمانو سانتوس فيديجال، للاسم أهمية قصوى لاستخراج شهادة الوفاة، حيث يجب استدعاء مندوب الصحة، والمتوفى يجلس راكعاً، كما ترون، نعم، راكعاً، لا غرابة في ذلك، فعندما يريد أحد شنق نفسه، يفعل ذلك حتى في عارضة سريره، فالقضية تكمن في الرغبة، ألدى أحد أي شك؟ أنا لا شك لدي، يقول النقيب، كذلك الشاويش والأونباشي والعسكريان، كذلك الثلاثة مساجين الذين تبسّم لهم الحظ وربما يُطلق سراحهم اليوم. يشعر النمل بحنق عظيم، لقد كانوا شهوداً على كل شيء، بعضهم حضر بعض المشاهد والبعض الآخر حضر مشاهد أخرى، لكن أثناء ذلك كانوا يجتمعون ويجمعون ما يرونه، لذلك فلديهم الحقيقة كاملة، بما فيهم النملة الكبيرة التي كانت آخر من رأت وجهه عن قرب شديد، وكان هائلاً، يشبه منظراً طبيعياً ضخماً، ومن المعروف جيداً أن المناظر الطبيعية تموت لأنهم يقتلونها، لا لأنها تنتحر.

لقد ذهبا بالجثة بالفعل. والآن يداري كل من جارجاجو وجارجاجيو عدة الشغل: السوط والمقرعة، ويفركان العُقد ويفحصان مقدمة الحذاء وكعبه، فربما علق به خيط من ملابسه أو بقعة دم تشي بهما أمام عيني المخبر شارلوك هولمز الحادتين فيبدو ضعف قولهما بعدم وجودهما أثناء الجريمة أو عدم توافق الساعات، لكن لا خطر، فهولمز قد مات ودُفن، وشبع موتاً مثل جيرمانو سانتوس فيديجال، وشبع دفنا مثلما سيشبع هذا من دون تأخير، وفوق هذه الأحداث ستمر السنون وسيعبر الصمت حتى يأتي وقت فيه يتكلم النمل ويقول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء إلا الحقيقة. أثناء ذلك، إن أسرعنا، سنرى إلى الآن الدكتور رومانو، ها هو يتقدم مطرقاً، بحقيبته السوداء في يده اليسرى، لهذا يمكننا أن نطلب منه أن يرفع يمناه. أقسم أن تقول الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء إلا الحقيقة، مع الدكاترة يجب أن نكون هكذا، فهم معتادون فعل الأشياء بكل رفعة. قُل لي يا دكتور رومانو، أيها الطبيب المبعوث من قبل الصحة، أقسم بذكرى أبقراط ومجهوداته في الشكل والمضمون، قل لي، يا دكتور رومانو، بحق هذه الشمس التي نقف تحتها وتضيء لنا، هل مات حقاً هذا الرجل مشنوقاً؟ يرفع الدكتور مبعوث الصحة يده اليمنى، يحيطنا بنظرة من عينيه الناصعتين، إنه رجل تحترمه المدينة بأسرها، يرتاد الكنيسة ويراعي واجباته الاجتماعية، وليظهر لنا روحه النقية يقول، إن عثرنا على سلك ملفوف لفتين حول رقبة رجل، والطرف الآخر معلق بمسمار فوق رأسه، وكان السلك مشدوداً نظراً لثقل الجسد أو جزء منه، فهذه بلا أدنى شك وبشكل تلقائي حالة شنق. وبعد أن قال هذا، أنزل يده ومضى لأشغاله. لكن، انتظر، يا دكتور رومانو يا مبعوث الصحة، لا تذهب بهذه السرعة فلم تحن ساعة العشاء بعد، إن كانت لديك شهية بعد ما رأيت، فأنا أحسدك على معدتك، كيف تقول بشنقه ولم تر جسده، لم تر قرحه، آثار ضربه، جروحه، كدماته السوداء، عضوه المتورم، دمه؟ لم أر كل ذلك، أخبروني أن السجين مات مشنوقاً، إذن فقد مات مشنوقاً، ليس على أن أرى شيئاً. أنت تكذب، يا دكتور رومانو يا مبعوث الصحة، متى وكيف ولماذا اعتدت عادة الكذب القبيحة. أنا لست كاذباً، لكني لا أستطيع أن أبوح بالحقيقة. لماذا؟ لأني أخاف. إذن فلتمض في سلام، أيها الدكتور الجبان، نم في سكينة وضاجع ضميرك،

ضاجعه جيداً فهو يستحق أن تضاجعه جيداً، كما تستحق أنت أن تضاجع نفسك. سلام، يا سيدي المؤلف. سلام يا سيدي الدكتور، واقبل النصيحة التي سأسديها لك: تجنب النمل، خاصة النمل الذي يرفع رأسه مثل الكلاب، فهذه الحشرات قوية الملاحظة، لدرجة لا يمكنك أن تتخيلها، يا أيها الدكتور الجبان، واعلم أنك تحت نظر كل النمل في كل مساكنه، لا تخف فلن يؤذوك، هم موجودون فقط ليعرّفوك أن ضميرك يخونك، ويمدوا لك طوق النجاة.

الشارع الموجودون فيه يسمى شارع العريش، لا أحد يعرف سبب الاسم، ربما في أزمنة ماضية كانت تظلله عُرُش كَرْم معروفة، وربما لعدم وجود اسم قديس أو سياسي أو فاعل خير أو شهيد ليضعوه على الناصية بقي اسم العريش إلى أجل غير معلوم. ماذا سنفعل الآن إن كان رجال جبل لافري واسكوربال وسافيرا وبرج جادانيا لن يصلوا حتى الغد، وإن كان
ميدان الثيران مغلقا ولا أحد يدخل، ماذا سنفعل، فلنذهب إذن إلى المقابر، من يدري فربما وصل جيرمانو سانتوس فيديجال، فالأموات، عندما يرحلون، يسيرون بسرعة، والمسافة ليست ببعيدة، نسير في هذا الشارع على طول، فالطقس يتحسن، ثم نكسر يميناً، كما لو كنا في الطريق إلى ايفورا، طريق سهل، ثم نكسر يساراً، لا أحد يتوه، ها نحن نرى الأسوار البيضاء والسرْو، كما في كل المناطق. هنا معرض الجثث لكنه مغلق، إنهم يغلقون كل شيء ويأخذون معهم المفتاح، لا نستطيع الدخول. نهارك سعيد يا سيد اوريكي، أما زلت تعمل؟ نعم، ماذا سنفعل، فالناس لا تموت كل يوم لكن كل يوم علينا أن نعتني بالأسرّة، نكنس الشوارع، نهايته. لقد رأيت في الشرفة زوجتك ثيسالتينا وابنك، إنه ولد جميل. هذه حقيقة. كم هي رائعة هذه الكلمة يا سيد أوريكي، حقيقة. قل لي إذن الحقيقة، هل الجسد المسجى في معرض الجثث مات من سوء المعاملة أم أن سيدك القديم قرر أن يشنقه؟ إنها حقيقة أن ابني ولد جميل جداً، مع أنه يعشق اللعب في الشمس دوماً، وإنها حقيقة أن الجسد الموجود بالداخل مشنوق، وإنها حقيقة أيضاً أن الحال التي وجد عليها بالقوة التي يفتقدها لا تسمح له بأن يشنق نفسه، كما أنها حقيقة أن أعضاء جسده كانت ممزقة، حقيقة أخرى أنه عبارة عن كتلة من الدم، وحقيقة ثالثة أنه بعد موته لم تختف جراحه ولا كدماته ولا ورم خصيتيه، والحقيقة الأخيرة أني لو تلقيت نصف ما تلقاه من العذاب لكنت في تعداد الأموات، مع أني معتاد الموت. شكراً يا سيد أوريكي، لقد حان وقت إغلاق الباب، بلّغ سلامي لثيسالتينا ووصل قبلتي للابن الذي يعشق اللعب في الشمس.

هذه الكلمات تُقال على سبيل الوداع، ومن هذا المكان لأسفل يُرى الحصن، مَنْ يمكنه حصر قصصه! تلك القصص الماضية والآتية، سيكون خطأً كبيراً أن نحكم ماذا تفعل الحروب اليوم في الجانب الآخر خارج الحصون، لقد انتهت العمليات التي اشتركوا فيها، حتى الصغيرة، حتى الأقل مجداً، كما كان يقول ماركيز ماريالفا. لقد لفت نظر سعادتكم إلى أن مانويل رويث أديبي، حاكم مونتيمور، ليس مؤهلاً لحكم هذا الميدان لأنه، فضلاً عن قصوره في كل شيء، يعفو الأجراء من المجيء للعمل في الحصن بسبب القليل الذي يدفعونه لهم، ولهذا تأخر العمل كما يمكن أن نرى، وبالتالي أرجو سعادتكم أن تسمحوا لي بتقديم تقرير بأسماء الأشخاص الصالحين لهذا المنصب، وأرى أن جنرال المدفعية، مانويل دا راتشا بيريرا، تجتمع فيه كل الشروط الكافية، من نشاط وحمية، واستعداد تام لشغل هذا المنصب، فلتقوموا سعادتكم بطلبه لمزاولة مهام منصبه، بصفته

رئيساً للميدان العام، أما مانويل رويث اديبي فيمكنه أن يتمتع بمرتبه بلا عمل كما يتمتع به رواد الفروسية الآخرون الذين قمتم سعادتكم بإصلاحهم، فلا تنقصهم المزايا ولا يحملون على عاتقهم التزامات ثقيلة تعوقهم عن الراحة، حتى ولو نقصت رواتبهم. هذا الشيطان المدعو أديبي، الذي لم يكن يعتني بخدمة سعادته ويعتني بكل اهتمام بخدمته هو الشخصية، ذهب مع الأزمنة الغابرة، والآن نجد موظفين غيورين يقتلان داخل ثكنة الحرس في مونتيمور ويخرجان ليدخنا سيجارة، ويحييان بالإشارة، إلى اللقاء غداً، هذا الحارس الذي يراقب بجسارة الحد الأفقي كيلا يطل الإسبان من هناك، ثم يهبطان للشارع بنفسٍ مطمئنة ويتحدثان بخطى ثابتة، ويتذكران عمل يومهما، كم لكمة سددا، كم ركلة، كم ضربة سوط، فيشعران بالرضا عما فعلا، هذان لا يسمى أحدهما أديبي، وإنما جارجاجو وجارجاجيو، يبدوان توأمين، ويتوقفان بعدها أمام دار سينما تعلن عن فيلم الأحد، غداً بدء الموسم الصيفي مع الكوميديا المثيرة «الكسلان الساحر». إنها فكرة رائعة أن نصطحب زوجتينا، فهما تعشقان السينما، مسكينتان، فالفيلم بالتأكيد يستحق المشاهدة، لكن الفيلم الأروع فيلم الخميس، بطولة استيريبتا كاسترو، معجزة الغناء والرقص، وأنطونيو فيكو، وريكاردو ميرينو ورفائيلا ساتوريس، إنه فيلم « زلزال غندور»، فيلم جميل، هيا.

بين صرعى وجرحى هرب هؤلاء، لن نحصيهم بأسمائهم، يكفي أن نعرف أن بعضاً منهم ذهب ليعيش في لشبونة، في سجون وزنزانات، وأغلبهم عاد لنهر التاجو والآن يتقاضون أجرتهم الجديدة بينما يستمر الحصاد. الأب أجاميديس يوبخ المضلين بشكل أبوي، يذكرهم بطريقة غير مباشرة، لا يعرف المباشرة، كم يدينون له والآن هم مضطرون أكثر من أي وقت مضى للوفاء بواجباتهم المسيحية، حيث إن الأم القديسة قادرة على إظهار قوتها وسلطتها بكل جلاء، إذ كانت تكمن في لمس حلقات السلسلة وإذابتها وفتح الحواجز الحديدية، زغرودة! يعلن هذه المعجزات داخل كنيسة غير مأهولة، لا يزورها إلا السيدات العجائز، فالآخرون يسيرون يفكرون كم كلفهم العرفان بالجميل ولا يخرجون بنتيجة لحساباتهم. في جبل لافري قليلاً ما يعرفون عن الاعتقالات، فكل شيء مبهم، حتى يعترض سيجيسموندو كاناسترو معلناً أنها كثيرة، أما عن الموت الذي وقع فسيبدؤون في معرفته فقط غداً، من حديث المجموعات مع جار في الجيش، لكن ضجر الأحياء يبدو أكثر ثقلاً من الاحتضار العضال. أبي في حالة سيئة، لا أعرف ماذا نفعل له، هذه اهتمامات خاصة مرتبطة ببيت كل واحد، حتى لا يتحدثون عن حصاد أوشك على نهايته وبعد ذلك ماذا نفعل. ربما نفعل ما فعلناه في الأعوام السابقة، لكن نوربيرتو وألبيرتو وداجوبيرتو يعلنون الآن ويردد لعناتهم رؤساء العمل ويقسمون أن مجموعة التنابل هذه ستندم أشد الندم على إضرابها وستدفع

ثمنه غالياً. ومن لشبونة كتب أدالبيرتو يقول إنه بعد انتهاء الحصاد والدرس، يبقى فقط رعاة الخنازير والغنم والحرس، فهو لا يريد أن يرى أراضيه يدوسها المضربون والمتطفلون، ثم سيقول ما تبقى ويتحتم فعله، سيتوقف ذلك على الزيتون. سيجيبه رئيس العمل، لكن هذه مراسلات مستمرة لا تخفى على أحد، يستلم الخطاب، ينفذ المكتوب فيه أو يرد على أسئلته، وأين يضع الخطابات بعد ذلك؟ من الطريف أن يرتبها وتُحكى من خلالها القصة، فهي طريقة أخرى للسرد، إن أسوأ ما في الحياة أننا نعتقد أن القضايا الكبرى هي وحدها القضايا الهامة، فنبدأ في الحديث عنها وعندما نريد معرفة من الأبطال، من شاهد حدوثها، ماذا قالوا عنها، تعترض طريقنا الصعوبات.

اسمها جراثيندا المنحوس وعمرها سبعة عشر عاماً. ستتزوج مانويل السيف، سيحدث ذلك متأخراً. البنت ما زالت صغيرة، لا يمكن أن تتزوج هكذا بهذه السرعة، وبدون أن أقسم على شيء، فلتتمتعا بالصبر. إنها عراقيل جلية، فضلاً عن عدم وجود بيت للزوجية. كما ترى، علينا أن نرحل للعمل في أراض أخرى. لا تفعلي مثل أخيك، دوماً في الغربة، أعلم أن وضعك مختلف لأنك فتاة، لكن يكفيني غياب ابن واحد بعيداً عن عيني، آه يا إلهي من هذا الابن، هذا ما تقوله فاوستينا، أما جوان المنحوس فيوافقها بهزة رأس، فكلما ذكرت سيرة الابن شعر بألم في قلبه، يا له من ولد شيطان، في الغربة وهو ابن الثامنة عشرة وبهذه الغريزة المتشردة، مثل جده يرحمه الله. ستروي جراثيندا المنحوس مضمون هذه المحادثات لمانويل السيف، وسيرد هو عليها، لا يهمني أن أنتظر، فأنا أريد أن أتزوجك، يقول ذلك بكل وقار، وتلك عادته في كل الظروف، هو أسلوب يجعله يبدو أكبر من سنه. الفارق بينكما ليس صغيراً، قالت فاوستينا لابنتها عندما جاءت هذه وحكت لها أن مانويل السيف طلب يدها. هو إذن أكبر منك بكثير! نعم، لكن لا يهم، هذا ما ردت به جراثيندا، غاضبة ومحقة، لأن هذه لم تكن القضية إنما القضية أنها معجبة بمانويل منذ هذا اليوم من شهر يونيو الذي التقت به في مونتيمور، كان يتبقى فقط أن يفكر كل منهما حتماً في مسألة فارق السن هذه، مع أن مانويل السيف، عندما حدثها، لم ينس هذا اللطف من جانبها. أنا أكبر منك بسبعة أعوام، فردت عليه بنصف ابتسامة، لكنها مرتبكة في تفكيرها، وما أهمية ذلك، يجب أن يكون الزوج أكبر من زوجته. وما إن انتهت من قولها حتى ضرب وجهها للحمرة لأنها وافقت من دون أن تقول إنها وافقت، وهو الشيء الذي فهمه مانويل السيف بشكل جيد، فجاء سؤاله الثاني، أتوافقين إذن؟ فأجابته، نعم. وصارا خطيبين منذ تلك اللحظة وطبّقا أعراف التودد من عتبتها، فقد كان مبكراً وقتها تخطي العتبة، لكن ما لم يطبقا فيه الأعراف هو أمر مفاتحة مانويل لأبويه فوراً في أمر الخطبة بدلاً من أن ينتظر فترة حتى يتأكد من مشاعره، فلم يحفظ سره. حينئذ قدم جوان المنحوس وفاوستيينا أسباب رفضهما، بلا أي جديد، فليست هناك نقود من أجل الزواج وبالتالي عليهما الانتظار. سأنتظر طيلة الفترة الضرورية، قال مانويل السيف وخرج من هناك على استعداد للعمل والإدخار، رغم أنه يجب أن يساعد في بيت أبويه حيث يعيش معهما. إنها تفاصيل صغيرة في الحياة الصغيرة، تفاصيل لا تتغير أو تتغير قليلاً في جيلين ولا تلاحظ الاختلافات، وجراثيندا المنحوس تعرف أيضاً أنها ابتداء من هذه اللحظة عليها أن تجادل وتساوم مع أمها لتأخذ جزءاً من أجرة أبيها لتدّخر لجهازها، كما يقول العرف.

لقد تحدثنا كثيراً عن الرجال، وقليلاً عن النساء، وبما أن الأمر كذلك، ولأنهن ظهرن كغمام عابر وأحياناً كمحاورات ضروريات مُشكّلات جوقة نسائية، إما معتادات الصمت لثقل الهموم التي يحملنها فوق ظهورهن أو داخل أرحامهن، وإما أمهات معذبات لأسباب عديدة، ابن ميت، وآخر جوال، أو بنت جلبت العار، وكلها أمور موجودة، سنتحدث عنهن هنا أكثر، كما سنواصل الحديث عن الرجال. لكن حديثنا عن النساء ليس له علاقة بهذه الخطبة والزواج المقبل، فكم من خطبة عقدت، خطبة سارة جدة جراثيندا المتوفاة، وخطبة فاوستينا أمها التي تعيش سعيدة، ولقد تحدثنا قليلاً في هذه الأمور، على أن خطبة جراثيندا مختلفة المنطق، وربما لها منطق غير مضبوط، فلقد تغير الزمن. الغريب يكمن في أن السيف أعلن مشاعره على باب السجن، أو الثكنة ومكان الموت، كلاهما سيان، وهو أمر يتعارض مع الأعراف واختيار الوقت الملائم للبوح، فهي ساعة حزن وإن

كان يهبها سرور الحرية الخائفة قول الولد للبنت، أتمنى أن تكوني خطيبتي. هذا الجيل لا يشبه جيلي في شيء.

جراثيندا أكبر بعامين من أختها إيميليا ، إلا أن فوران جسد الأخت الصغيرة قبل أوانه أزال الفارق السني بينهما أمام عيني من لا يعرف الحقيقة مسبقاً. لا تشبه إحداهما الأخرى، ربما لمجيئهما من دماء مختلطة واستعداد كل منهما للظهور مختلفة. يخطر لنا هذا الجد الذي جاء من الشمال البارد واغتصب فتاة عند الينبوع دون أن يلقى عقاباً من سيده لامبيرتو هوركيس المنهمك في غاراته وأولاد آخرين. لكن، وحتى يرسخ داخل نفوسنا تواضع الدنيا وصغرها، ها هو أمامنا مانويل السيف يطلب يد جراثيندا المنحوس على حافة هذا الينبوع نفسه، وبجانب السرخس الذي لم يحرَق ولم يسقط هذه المرة كما حدث في ذلك الحين عندما استسلم جسد الصبية المغتصبة، ووقع مهزوماً. لو استطعنا أن نربط الخيوط المفككة، ستكون الحياة أكثر الأشياء المبررة والقوية. لو استطاع الينبوع أن يتحدث! إنها
مجرد هلاوس، مع أن حديثه واجب ومنصف، ففي أعماق مياه هذا الينبوع الشادي، المحفور منذ خمسمائة عامٍ أو أكثر بكثير لو كان من أعمال المسلمين، لو استطاع أن يتكلم سيقول بالتأكيد. هذه الصبية كانت هنا، ملتبس عليه الأمر لكنه معذور، فمع مرور الوقت تضطرب ذاكرة الينابيع، هذا دون أن نتحدث عن الاختلاف الكبير بين السيد الأول ومانويل السيف الذي يلمس بالكاد يد جراثيندا المنحوس. أتقبلين؟ ويعاودان الصعود تاركين السرخس لمناسبة أخرى.

هؤلاء الصبية يعرفون الكثير وتتنوع معارفهم. بين أنطونيو المنحوس، الابن الأكبر، وإيميليا المنحوس، البنت الصغرى، أربع سنوات فقط. لقد مر عليهم زمن كانوا فيه مجرد ثلاث قطع لحم حمراء تعاني من سوء التغذية والبرد، وما زالوا يعانون من الأمرّين لليوم، في مراهقتهم، رغم أن العبارة السابقة عبارة رقيقة لا تتناسب مع هذه المناظر الطبيعية وتلك الوسايا. حملهم أبوهم وأمهم على كاهلهما، وضعاهم في سلال فوق رأسيهما عندما كانوا في المهد صغاراً، فلا تحملهم سيقانهم أو تكل سريعاً من المشي، حملهم أبوهم فوق كتفه وأمهم حملتهم بين ذراعيها أو في حجرها، وواصلوا أسفارهم التي، مقارنة بأعمارهم، فاقت أسفار اليهودي المذنب الذي شُتِت في الأرض. دخلوا في حروب عظيمة ضد الناموس في أراضي الأرز، بينما كان المساكين الأبرياء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فلا مهارة لديهم لهش الكتائب التي تغزو وجوههم وتزن حولها برغبة في مص دمائهم والاستمتاع بها. إلا أن أصحاب المقاومة الباسلة خرجوا دوماً منتصرين في كل حروبهم، ذلك لأن حياة الناموس قصيرة وعُمر الأطفال أطول، هؤلاء الأطفال الذين نتحدث عنهم لا عن الآخرين الذين أهلكتهم حمى الثلث. على أن انتصارهم لم يلازمهم دائماً، لكنه حدث أحياناً.

شاهِدوا الآن هؤلاء الصغار، ركزوا في هذه الصغيرة أو في أي منهم، سواء الولد الأكبر أو البنت الوسطي أو الصغرى، إنها تفرد بدنها في صندوق تحت ظل شجرة سنديان بينما تعمل أمها بالقرب من هنا، لكنها ليست قريبة بحيث تراها بكل وضوح، ولأننا نعرف أنها صغيرة، حتى أنها لا تعرف الكلام، نعلم أن ثمة مغصاً في البطن يهاجمها، أو ربما يكون انقباض البطن للتبرز، الحمد

ﷲ أنها ليست دوسنتاريا هذه المرة، وعندما تذهب فاوستينا لتبحث عنها تكون ساعة الطعام قد حانت وتكون جراثيندا قد تبرزت على نفسها ويغطيها الذباب مثل مزبلة، معذرة، هي حقاً مزبلة. وبينما تغسل وتتوقف عن الغسل، ليس فقط الجسد الوسخ حتى الظهر، وإنما أيضاً الثياب التي ترتدي، وتنتظر حتى يجف بعد أن نشرته فوق قطع الحطب، يمر الوقت ويأخذ معه الشهية للطعام. وفي هذه اللحظة لا نعرف من علينا أن نراقبه، جراثيندا التي صارت نظيفة ومنتعشة لكنها وحيدة، المسكينة، أم فاوستينا التي تعود لعملها وهي تقضم كسرة خبز ناشف. فلنبق هنا، تحت السنديانة، لنهوّي بغصن على وجه الصغيرة التي تريد النعاس، فالذباب عاد من جديد، كما أن بوجودنا نجنب أبويها الهم، أليس من الممكن أن يعبر من هنا موكب الملوك والفرسان، وتشاهد مربية الملكة العقيم هذا الملاك النائم فتحمله إلى القصر، ما أقبح ألا تعرف حينئذ الطفلة اللقيطة أبويها الحقيقيين فقط لأنها ترتدي ثياباً من سندس واستبرق وتعزف على العود في غرفتها العالية المطلة على الوسية. الحواديت الشبيهة بهذه الحدوتة ستترويها سارة بعد ذلك لأحفادها، وقد لا تصدق جراثيندا إن قلنا لها عن الخطر الذي كان سيقع لو لم نكن موجودين وجالسين فوق هذا الحجر نهوي لها بهذا الغصن.

لو كان بيد الأطفال لكبروا. وحتى تصلهم سن العمل يبقون في رعاية الأجداد أو مع الأمهات إن لم يعملن، أو مع الأمهات والآباء إن لم يكن الآباء يعملون، وبعد ذلك، إن كان لديهم أطفال قلة وكلهم أجراء، والآباء والأمهات والأولاد والأجداد لا يجدون عملاً، هنا، سيداتي سادتي، يظهر معدن الأسرة البرتغالية كما يروق لكم أن تتخيلوها، مجتمعة في نفس الجوع، وحينئذ يتوقف كل شيء على الوقت. فلو كان وقت سقوط البلوط، ذهب الأب من أجل البلوط بينما نوربيرتو، ادالبيرتو أو سيجيسموندو لا يأمرون الحراسة بالتجول ليلاً، فمن أجل التجول ليلاً أيضاً شكلتها الجمهورية فوراً عقب ميلادها. تلك حواديت طويلة وممتدة. لكن الطبيعة مسرفة، ثدي غزير يصب في كل سياج. هيا بنا إلى الصبار السكري، إلى كشك ألمظ، إلى نبات الأرض، وقولوا لنا بعد ذلك إن كانت ثمة حياة منظمة أكثر من هذه. ومن يقول كشك ألمظ يقول سبانخ، فكلها واحد في هذه الحالة وإن اختلف المذاق في الفم، فعند طبخه ونضجه وأكله ببصلة خضراء، يسيل لعابي. ها هو الصبار السكري، نظف لي هذه الصبّارة، ألق عليها عشر حبات أرز، إنها وليمة، بالهناء والشفاء يا سيدي القس اجاميدس، فمن يأكل اللحم يستطيع أن يقضم العظم. كلنا مسيحيون، حتى غير المسيحيين يستحقون الأكل ثلاث مرات يوميا، إفطار، غداء، عشاء، حتى ولو أطلقوا عليها أسماء أخرى، فأهم شيء ألا يُترك الطبق فارغا، أو الطاسة، فما دام هناك خبز وطبخ فالأكل يقدم في الطاسة أكثر لأنها تعطي رائحة فواحة. إنها قاعدة من ذهب مثل غيرها من القواعد ذات النبل الخاص، حق بشري، يتساوى فيه الآباء والأبناء، وذلك حتى لا آكل أنا مرة واحدة وهم يأكلون ثلاثاً، مع أن الحق أن اختراع ثلاث وجبات كان يقصد خداع الجوع أكثر منه ملء البطن. الناس تتكلم وتتكلم، لكنهم لا يعرفون ما معنى الحرمان، فليرجعوا للصندوق

وليعرفوا أن آخر قضمة خبز أكلناها كانت أمس، حتى لو رفعوا الغطاء مرة أخرى، ماذا سيحدث، معجزة الورود، حتى حدوث هذه المعجزة ضرب من المستحيل، فلا أنا ولا أنت نتذكر أننا وضعنا ورداً في الصندوق لنحصدها، لا تصدقوا أن الورود تزدهر في أشجار البلوط، لو حدث ذلك سيكون رائعاً، لكن ذلك هذيان ناتج عن الجوع. اليوم الأربعاء، هيا يا جراثيندا، اذهبي إلى بيت

الأشراف، اذهبي مع أختك إيميليا، اصطحبيها من يدها، فلن يذهب انطونيو هذه المرة. إنه تحريض على التسول، هذه هي التربية التي يربيها الآباء لأبنائهم، حتى إنه يبدو أكذوبة أنهم لا يعقدون لساني عندما أقول هذا، عندما أقول ألا أقع على الأرض وأتقلب مثل ذيل السحلية، هكذا ربما أتعلم السير بلباقة في الكلام وألا أتحدث عن البطن الممتلئة، فهذا حديث قليل الأدب.

الأربعاء والسبت، يومان ينزل فيهما الرب لهذه الأرض ويتجلى في لحم الخنزير والفاصوليا. لو كان القس أجاميدس هنا لصرخ بهرطقتنا ولجأ لمحكمة التفتيش المقدسة ضدنا لأننا نقول إن الرب يتجلى في الفاصوليا ولحم الخنزير، فشرّ القس أجاميدس يكمن في ضيق خياله، لقد تعود أن يرى الرب في هالة مثل الدقيق الأبيض الناصع ولم يستطع أبداً أن يتخيله بطريقة أخرى، يتخيل الإله الأب بلحية كثة وعين سوداء، ويتخيل الإله الابن بلحية صغيرة وعين عسلية، وبهذا الاختلاف في الألوان وصم التاريخ المقدس صورة الإله. تعرف السيدة كليمينثيا كثيراً عن هذه التجليات الإلهية، فهي زوجة وصندوق فضائل منذ لامبيرتو حتى آخر بيرتو، ففي يومي الأربعاء والسبت تقود طقس الصدقة، ترشد وتراقب سُمك شريحة الخنزير التي تختارها بين ألياف اللحم، وآه لو كانت شحماً نقياً، فهو يغذي أكثر، ويتحقق العدل الصافي مع المسطرة التي يسوى بها سطح الكيل المستخدم لوزن الفاصوليا، كل ذلك عمل طيب يبغي تفادي حروب الحسد الطفولي. أنت أخذت أكثر مني، أنا أخذت أقل منك، إنه طقس جميل تخضع فيه القلوب أمام الشفقة المقدسة، فلا تبقى عين ضامرة ولا أنف، خاصة في الخارج، فنحن الآن في الشتاء وأطفال جبل لافري الذين جاؤوا طلباً للصدقة يستندون الآن على حوائط التراب المدكوك، انظروا كيف يعانون؟ كيف يسيرون حفاة الأقدام؟ كيف يقتحمهم الألم؟ انظروا كيف ترفع الصبايا قدماً وراء قدم بالتبادل من شدة برودة الأرض المثلجة، لو كان لهن أجنحة لرفعن أرجلهن في الهواء، تلك الأجنحة التي يقولون إنهن يمتلكنها عند مماتهن لو متن صغيرات، وانظروا كيف ينزلن ثوبهن لأسفل، لا لأن أحداً قد خدش حياءهن، فالصبية لم يصلوا بعد لسن البلوغ، وإنما يحاولن تدفئة أقدامهن. يقف صف في الانتظار، كل واحد بعلبته في يده، رافعاً وجهه لأعلى، يصفّر، حتى تُفتح أخيراً نافذة الطابق العلوي وينزل سَبَت من السماء مربوط بحبل رقيق، بكل بطء، فكرم الأخلاق لا يعرف العجلة أبداً، هذا ما ينقص، فالعجلة أمر سوقي وجشع، أما هم فلا يلتهمون الفاصوليا فقط لأنها ما زالت نيئة. يضع أول صبي في الصف علبته في السَبَت، يأتي الآن الصعود الكبير، هيا ولا تتأخر، فالبرد يمر بطول حائط التراب كما يمر موس الحلاقة على البشرة، سنرى من يستطيع أن يتحمل ذلك، سيحتمله الجميع بغية ما ينتظرونه، ويظهر الآن رأس الخادمة، وينزل السَبَت الآن بالعلبة ممتلئة أو لنصفها حتى يعلّموا المحنكين والمستجدين أن حجم العلبة لا يؤثر على العطية التي تهبها محسنة هذه الكاتدرائية الخيرية. قد يُعتقد أن من شاهد هذا شاهد كل شيء، هذا ليس صحيحاً. لا أحد يبتعد عن هنا حتى يتلقى آخر واحد مكياله ويحتجب السَبَت حتى يوم السَبْت التالي. يجب أن ينتظروا حتى تطل السيدة كليمينثيا من النافذة، شبه مختبئة وراء عطاياها، فتلقي عليهم تحية الوداع والبركة، بينما الكورال الطفولي المنتعش والحبّوب يشكرها بلهجات مختلفة، باستثناء المنافقين الذين يكتفون بتحريك شفاههم فقط. آه يا سيدي القس اجاميدس، يا للسعادة التي تشعر بها روحي. وإذا أقسم أحد أن ما تقوله السيدة كليمينثيا نفاقٌ، فهو مخطئ، فهي حقاً تشعر أن روحها تختلف في يومي الأربعاء والسبت عن بقية أيام الأسبوع. وعلينا الآن أن نعترف ونثني على التعذيب المسيحي الذي لاقته السيدة كليمينثيا التي كان في متناول يدها، بالوقت والثروة، أن تنال الراحة المستمرة والآمنة

لروحها الخالدة، لكنها رفضت أن تهب الفاصوليا واللحم طوال أيام الأسبوع، وهذا هو خطؤها. فضلاً عن ذلك، يا سيدة كليمينثيا، هؤلاء الصبية لا يحتملون قسوة الحياة، فكيف سيكبرون لو لم ينالوا متطلبات حياتهم.

عندما كبرت، لم تلتحق جراثيندا المنحوس بالمدرسة. ولا إيميليا. ولا أنطونيو. في أزمنة قديمة جداً، عندما كان أبو الثلاثة طفلاً، كان دعاة الجمهورية يجوبون الضواحي ويصرخون: أرسلوا أبناءكم للمدرسة، كان هؤلاء الدعاة مثل الحواريين بلحى صغيرة وشارب وقبعة رقيقة يعلنون الخير الجديد، نور التعليم، يدعون لحمل الصليب، لكن حمل الصليب هنا مختلف تماماً عن حمله قبل ذلك لطرد العرب من القدس ومن قبر الرب، لم تكن دعواهم الجديدة عن عظام غائبة، بل عن حيوات حاضرة، حيوات فيما بعد قد تسير مع جوال الكتب في حزام على الكتف معلق بدوبارة، وداخل الجوال كتاب المبتدئين الذي تقدمه الجمهورية نفسها التي تأمر بشحن حراسها ضد آبائهم عندما طالب الآباء براتب أكبر. لهذا تعلم جوان المنحوس القراءة والكتابة التي تكفيه ليكتب في كراسة مونتيمور
اسمه خطأ: جوان النحوس، برغم أنه كان يكتبه أحيانا، على غير يقين، جوان المنحوس، بشكل صحيح. لقد تطور العالم بقدر المستطاع. لكن في جبل لافري لم يتطور بشكل كاف حتى يلتحق الأخوة الثلاثة بالمدرسة، والآن، كيف ستراسل جراثيندا المنحوس خطيبها عندما يرحل بعيدا، هذا سؤال وجيه، وكيف سيخبر أنطونيو المنحوس أهله بأخبار حياته، فالمسكين لم يتعلم ويسير بشكل مؤقت من جماعة لأخرى. يريد الله ألا يصيبه مكروه، ولم يصبه، تقول فاوستينا لزوجها، لقد رأيت خير مثال فيك.

يوافقها جوان المنحوس بإيماءة من رأسه، لكنه، داخل قلبه، يرتاب. يؤلمه ألا يكون ابنه بجانبه، أن يلتفت حوله فلا يجد غير النسوة. فاوستينا التي اختلفت الآن عن سنوات شبابها، سنوات لم تكن حينها جميلة، والبنتان اللتان ما زالت نضارتهما تقاوم العمل في نزع العشب، المؤسف أن أسنان إيميليا تالفة. جوان المنحوس لا يعرف اليقين في الأمثلة الحلوة. فخلال حياته الطويلة لم يفعل إلا كسب الخبز، ولم يتحقق هذا الكسب كل يوم، ما ترك في حلقه غصة أن يأتي الرجل إلى الدنيا دون أن يطلب ذلك، فيعاني البرد والجوع في طفولته دون حساب، إن وجد حساب من أصله، وعندما يكبر يتضاعف جوعه كعقاب على أن جسده احتمل كل هذا العذاب، وبعد ذلك يلاقي سوء المعاملة من سادته ورؤسائه، من الحراس والخفراء، ويصل إلى الأربعين، فيقول ما يعتقده، فيسوقونه إلى السجن كما يسوقون القطيع إلى السوق أو المذبح، وفي السجن لا يجد الواحد إلا الذل، حتى الحرية ليست إلا لكمة، فتفوتة خبز مرمية على الأرض، هيا أتأخذها. هذا ما نفعله للخبز عندما يقع، نضعه في اليد، ننفخ فيه برقة كما لو أننا نعيد الروح إليه، بعد ذلك نقبله، لكني لم آكله بعد، أقسمه إلى أربعة أجزاء، جزءان أكبر من جزأين، خذي يا إيميليا، خذي يا جراثيندا، وهذا لك، وهذا لي، و لو سأل أحد لمن النصيب الأكبر، فهو أقل من حيوان، لأن حتى الحيوان سيعرف ذلك.

لا يستطيع الآباء أن يفعلوا كل شيء. الآباء يأتون بالأبناء على هذه الدنيا، يفعلون من أجلهم القليل الذي يعرفونه، ويبقون في انتظار أن تسير الأمور على أحسن ما يكون، ويبدو لهم أنهم يقدمون

أقصى رعايتهم أو حتى شيئاً منها، فالأب عادة يخدع نفسه بأي شيء، على أي حال، من المستحيل أن يكون ابني رحالة، وبنتي مهتوكة، دمي مسموماً. عندما يعبر أنطونيو المنحوس في فترات على جبل لافري، ينسى جوان المنحوس أنه أب شاب شعره، فيظل يدور حول ابنه كما لو يريد أن يشبع منه ليعوض غيابه في أماكن بعيدة مثل كوروتشي، سادو، ساموراً، كوريبا، انفانتادو أو حتى الضفة الأخرى من التاجو، وتأتي حكايات الابن الحقيقية لتؤكد أو تذبذب أسطورة جوزيه القط، نقول أسطورة، رغم أننا يجب أن نضع كل شيء في مكانه المناسب. جوزيه القط رجل بائس بلا مجد، ترك رجال جبل لافري لمصيرهم في السجن، هذه الحكايات لها قيمة أكبر لأن أنطونيو المنحوس يظهر فيها، إما لأنه شارك فيها أو سمع هناك عنها، وهي معلومات مثيرة للصورة الذهنية لقصة الإجرام الصغيرة والريفية. ولجوان المنحوس أحياناً رأي لا يستطيع التعبير عنه في كلمات بإسهاب، لكن، بشكل موارب، يبدو أنه يتحدث عن الأمثلة الحلوة التي يتناقشون حولها، ربما لم يكن رجال جوزيه القط بكل هذا الشر كما يقولون، مع أنهم يسرقون ويظهرون في ساعات غير ضرورية. يوماً ما سيقول أنطونيو المنحوس، لم يكن لي في حياتي إلا مدرس واحد وشارح واحد، والآن، في سني هذه، أعود للبداية لأتعلم كل شيء من جديد. إذا كان من الضروري إيضاح بعض الأشياء، سنقول إن المدرس هو أبوه، والشارح هو جوزيه القط، وما يتعلمه أنطونيو المنحوس لا يتعلمه وحده.

تتذكر عائلة المنحوس هذه الدروس جيداً. عندما تتزوج جراثيندا المنحوس، ستكون قد عرفت القراءة. كان هذا جزءاً من هدية الخطوبة، كتاب ألف باء للمدرس جواو دي ديوس، ذو الخطوط السوداء والمسطرة واللون الرمادي لتمييز المقاطع، لكن ليس من الطبيعي أن تنطبع هذه التدقيقات في ذاكرات مولودة بين أقوال أخرى، يكفي التلجلج عند القراءة والوقوف بين الكلمات في انتظار أن يضاء في العقل نور الفهم. ـ إنها ليست سجرة يا جراثيندا، إنها شجرة، هيا تعرفي على الفرق في النطق، يدخل مانويل السيف البيت، لو لم يكن بسبب كتاب القراءة لظل على العتبة وقتاً أطول، في النهاية، يبدو مخالفاً للعرف أن يبدأ الدرس بينما يمر الناس عليهما، بالإضافة إلى أن الخطوبة بينهما راسخة، مانويل السيف فتي طيب، تقول فاوستينا، أما جوان المنحوس فكان ينظر لمستقبل صهره وكان يراه يتجول من مونتيمور لجبل لافري على قدميه، مزدرياً العربات الكارّو والكاريتات، فقط لأنه متمسك برأيه، وحتى لا يشعر بعينه مكسورة أمام فضل أحد رفض من قبل أن يعطيه لقمة خبز. كان ذلك درسا، أخذه كما هو، رغم أن سيجيسموندو كاناسترو قال، لقد تصرف مانويل السيف بشكل جيد، لكننا لم نتصرف بشكل سيئ، فهو لم يربح شيئاً عندما جاء مترجلاً، ونحن لم ننزل لباسنا عندما جئنا راكبين، القضية تكمن في ضمير كل شخص منا. سيجيسموندو كاناسترو، صاحب الضحكة الماكرة ذات الأسنان القليلة، قال بعدها، علينا أن نضع في الاعتبار أنه ما زال شاباً بينما نحن قد وهن العظم منا. حقا، لكن لو كان ثمة ثلاثة وثلاثون سبباً للترحيب بما طلبه مانويل السيف من أبوي جراثيندا، سيكون السبب الأول، لو اعترف جوان المنحوس لنفسه به، سير هذا الصبي عشرين كيلو مترا على قدميه، رد فعل هذا الغلام الغاضب، هذا التأكيد على أنه رجل خلال أربع ساعات مشاها تحت الشمس بلا توقف، ضارباً الأرض والتراب بحذائه كما لو كان يحمل علماً لا يمكن أن تحمله عربات الوسية. هكذا، وكما حدث في الدنيا منذ أن خلقت، تعلم الشيخ الكبير من الغلام.

مايو شهر الزهور. يسير الشاعر بحثاً عن المارجريت بعد أن سمعهم يتحدثون عنها، وإن لم يلهمه المنظر بقصيدة أو سونيتة سيلهمه على الأقل بمقطوعة شعرية ما، هذه معرفة مشتركة. لم تصل حرارة الشمس بعد لجنونها كما في يوليو أو أغسطس، بل إن النسيم الرهيف لا يزال يلامس الخدود، وحيث تستريح العين وهي تتطلع من هذا المكان ومن هذا العلو الذي كان في أزمنة أخرى مرصداً، نرى كل الحقول خضراء، فما من منظر مثل هذا له القدرة نفسها على بث الغبطة في الأرواح، ليس إلا جمود القلب ما يجعل الواحد منا لا يشعر بلمسة السعادة. عند النظر صوب هذا الجانب، نرى الأرض المشجّرة حديقةً بلا ري ولا جنايني، كلها نباتات تحتم عليها أن تتعلم بنفسها طرقاً للمصالحة مع الطبيعة، مصالحة حجر ثقيل يقاوم تغلغل الجذور، وربما هذه الطاقة المتأصلة في أماكن يبتعد عنها الرجال، هنا حيث تنشب حروب بين النبات والمعدن ثمة خلاصة عطرية نفاذة، وعندما تحرق الشمس التل، تتفتح كل العطور وقد ننام هنا للأبد، وربما نموت بوجوه ملتصقة بالأرض، بينما النمل، برؤوس مرفوعة مثل الكلاب، يتقدم وتحميه أقنعة الغاز، فهذه أيضاً مساكنها.

إنها أشعار سهلة. الغريب ألا نرى رجالاً. تنمو الغلال شديدة الخضرة، أما المراعي فتعيش بين السكون والعبير، وعندما نعاود النظر، نجد القمح قد فقد نضارته الرقيقة، مجرد قطرة ذهبية صغيرة تُرى بالكاد داخل مساحة شاسعة، والرجال، أين الرجال ولمَ لا نراهم داخل هذا المنظر السعيد؟ أتمنى ألا يكونوا قد صاروا فلاحين مستعبدين، مربوطين كما الماعز في وتد ليأكلوا فقط مما هو موجود. وقت الفراغ متسع حتى ينمو القمح، يلقي الرجل البذرة في الأرض، ولو كان العام حسناً، هيا لننم، سيستدعوننا عندما تأتي ساعة الحصاد. لا يُلاحظ إذن أن مايو شهر الزهور شهر متجهم، ولا نتحدث عن الطقس، فهو طقس رائع وواعد، وإنما عن الوجوه والعيون، عن الفم وإعوجاجه. لا يوجد عمل، يقولون، ولو شدَت الطبيعة فخير ما فعلت، فلسنا نحن أهل شدو.

فلنأخذ جولة في الحقل، لنصعد فوق الجبل. وفي طريقنا سطعت الشمس فوق هذا الحجر، فلمع، ونحن من نعتقد بالسعادة نقول، هذا ذهب، كما لو كان كل ما يلمع ذهباً. لا نرى الرجال يعملون فنقول في الحال، يا لهذه الراحة التي يعيشونها، القمح ينمو بمفرده بينما الناس يستريحون بلا هم. لكن من المناسب أن نتفاهم فيما بيننا. يمر الشتاء، كما قد قلنا، وأعددنا الولائم الكبيرة والفاخرة من الصبار السكري والسبانخ وكشك ألمظ، ولفتح الشهية أضفنا البصل الأخضر وبعض حبات الأرز وكسرات الخبز، وأخرجنا الطعام من أفواهنا لنضعه في أفواه أبنائنا، ليس علينا أن نكرر ذلك، لأنهم سيفكرون أننا نزكي أنفسنا بتضحيات نقوم بها، يا لها من فكرة! لقد فعل آباؤنا ما نفعله نحن الآن، وكذلك فعل آباؤهم من أجلهم، وآباء آبائهم كذلك حتى زمن السيد لامبيرتو وما قبل السيد لامبيرتو، وما قبله حتى لا تتذكر الذاكرة متى بدأ، فالشتاء دوماً هكذا، ولو مات أحد من الجوع فأسباب الموت كثيرة، وهي أسباب أقل إهانة للحياء والأدب. منتصف يناير، ثمة من يأمر بتقليم الأشجار، سواء كان نوربيرتو أو داجوبيرتو، ثمة من يسترزق من هذا العمل، لكن ليس جميعهم. اختر لي أناساً طيبين، يعملون في صمت بلا مشكلات. بعدها، وقد شذبت الأشجار، يبقى الحطب على الأرض فيأتي الفحّامون، يشترون من هنا وهناك، حينئذ يعمل بعض آخر في الألعاب النارية، والكلمات المستخدمة لجمع الحطب هي: حشا وأدخل في الفرن، حرق وهبّ، وبينما نتذوق هنا هذه الأفعال، يقومون هم بتطبيقها بالفعل، من نحن، لسنا سوى أشخاص نعرف الكلمات، بل إننا لم نكن

نعرفها قبل ذلك، وتعلّمناها سريعا لحاجتنا إليها. لو كان كل شيء جاهزاً، هيا نجففه ونشحنه. إلى اللقاء في العام القادم، اسمي بيرس، عندي في لشبونة خمسة وعشرون مصنع فحم، كما أملك مصانع أخرى في ضواحيها، قل للسيدة إن هذا من أجود أنواع الكربون، فهو من شجر السنديان ويحرق ببطء، لهذا فهو غالي الثمن، يجب أن يكون غالياً. فلنحترق يا صديقي في هذا الجفاف، في هذا الغبار، في هذا الدخان، سأذهب لأرى ما يمكن أن أشربه هناك، أضع الدورق على فمي، أرمي رأسي للخلف، أقرقر، يثلج صدري ببرودة الماء، تهرب من جانبي فمي، تخط أنهاراً فوق الجلد المختبئ تحت طبقة الكربون. لا بد أننا جميعاً مررنا بهذه الأشياء وأشياء أخرى، بكل التجارب، فالحياة رغم قصرها تُرينا العذاب ألواناً، بعضنا عاش قليلاً وقضى حياته كلها في هذا العمل.

ذهب الفحامون، والآن نحن في مايو الزهور، من يعرف نظم الشعر يحاول أن يأكل منه. ثمة نعاج لرعيها، من يعرف هذه الحرفة؟ أنا أعرف، وأنا أعرف، القليل يعرف، والآخرون يسيرون مرتاحين، يعانون شظف العيش عدة أسابيع ويخرجون من البيت ويدخلون البيت، حتى توشك الغلال على الحصاد، فيأتون هنا قبلها بقليل، ويروحون هناك بعدها بقليل. تعالوا أنتم، الباقون ينتظرون. تظل المعزة مربوطة في الوتد وليس أمامها ما تأكله. منذ فترة لا أكل أمامها. حينئذ يسأل العمال في الميدان، كم تدفعون لنا في اليوم؟ ويترجل رؤساء العمل على طول الكتائب منزوعة السلاح، فالمنجل في البيت والمطرقة ليست حرفتنا،
وأثناء ترجلهم يقولون، أو يضعون أصابعهم في جيب الصديري، يوميتكم مثل الباقين، كما يدفع الآخرون ندفع. تلك محادثة قديمة جداً كانت تجري أيام السادة الملوك، و لم تغير الجمهورية شيئاً، فالأمور لا تتغير لمجرد نزع ملك ووضع رئيس مكانه، فالشر يكمن في ملوك آخرين، من لامبيرتو جاء داجوبيرتو، ومن داجوبيرتو جاء ألبيرتو، ومن ألبيرتو جاء فلوربيرتو، وبعد ذلك جاء نوربيرتو وبيرتو وسيجيسبيرتو وأدالبيرتو وأنجيلبيرتو وجيلبيرتو وأنسبيرتو وكونترابيرتو، الغريب أن أسماءهم تتشابه حتى صارت أسماؤهم مرادفاً لكلمة مالك الوسية، فأسماء الملاك الآخرون قليلة جداً لهذا لا ينطق رؤساء العمل أسماءً، يقولون «الآخرون»، ولا أحد يسأل من هم الآخرون، ربما يرتكب هذه السذاجة أبناء المدينة.

ما زالوا في سؤالهم، كم يوميتنا؟ وما زال رئيس العمل ثابتاً على رأيه، ما يدفعه الآخرون. ولنخرج من هذه الدائرة المغلقة، العمياء، سألت أنا ولم تجب أنت، هيا إلى العمل وسنرى فيما بعد، بهذه الكلمات، أو باختلاف طفيف، يكرر الرجل الشيء نفسه لزوجته، سأعمل وسنرى فيما بعد، فتفكر، أو تقول بصوت عال، وربما لا يصح أن تقول ذلك لأنها أمور تجرح، على الأقل لديك عمل، ويوم الإثنين يتوجه الأجراء إلى الحقل وفاءً بالتزامهم، ويقول بعضهم لبعض، كم سيدفعون، كم سيمتنعون عن دفعه، لا أحد يعرف شيئاً، والأجراء في الوسايا الأخرى والذين يعملون في الجانب الآخر، لقد سألتهم ولا يعرفون شيئاً أيضاً، وهكذا يأتي يوم السبت، وحينئذ يأتي الصراف ليقول لهم، اليومية كذا، يعملون طيلة أسبوع ولا يعرفون مقابل عملهم، والمرأة تسأل رجلها ليلاً، أعرفت كم يوميتك؟ ويجيبها الرجل بعصبية وبلا رغبة، من أين أعرف أنا، دعيني في حالي. فترد عليه، لا أسأل من أجلي وإنما لأن الخبّاز سألني، فله دين علينا. إنها حوارات بائسة. ويواصلون،

أيعطونك القليل؟ لا أعرف، لا أعرف، يقولون إنْ دفعَ الآخرون أكثر أدفع أنا مثلهم. أكاذيب، كلنا نعرف أنها أكاذيب، لكن هذه الأكاذيب رتبوها بين أنسبيرتو وأنجيلبيرتو، بين فلوريبيرتو ونوربيرتو، بين بيرتو وصاحب الوسية، فـــ «صاحب الوسية» أصبح مرادفاً لأسمائهم.

في كل عام، وفي تواريخ محددة، ينادي الوطن أبناءه. إنها مقولة مبالغ فيها، صورة طبق الأصل من بعض الشعارات المستخدمة في لحظات أزمات الأمة أو من يتحدث باسمها، عندما يريدون لأهداف معروفة أو مجهولة أن نظهر كعائلة واحدة مكونة من أخوة، دون أي تمييز بين قابيل وهابيل. الوطن ينادي أبناءه، ويُسمع صوت الوطن وهو يناديهم ويناديهم، وأنت، يا من حتى اليوم لم تستحق شيئاً ولا الخبز الذي يسد جوعك ولا الدواء الذي يشفي مرضك، ولا المعرفة التي تمحي جهلك، أنت، يا ابن هذه الأم التي ظلت تنتظرك منذ ولدت، أنت ترى اسمك في ورقة على باب المجلس المحلي ولا تعرف القراءة، لكن شخصاً متعلماً يشير لك إلى أحد الخطوط حيث تلتف وتنبسط دودة سوداء، إنه أنت وتعرف أن هذه الدودة هي اسمك، كتبه كاتب مصلحة التجنيد وضابط لا يعرفك يريد فقط أن يتعرف عليك، يضع اسمه تحتك، إنها دودة أكثر تشابكاً واضطراباً حتى إنك لن تعرف حتى اسم الضابط، وبداية من الآن لا تستطيع الهرب، فالوطن ينظر إليك ويحدق فيك وينومك مغناطيسياً، لا ينقص إلا أن تهين ذكرى أجدادنا واكتشافاتهم. اسمك أنطونيو المنحوس، ومنذ جئت لهذه الدنيا وأنا انتظرك يا بني، حتى تعرف أنني أم حنون جداً، وإنْ لم أعطك طوال كل هذه السنوات رعاية كافية فيجب أن تعذرني فأنتم كثيرون وليس في وسعي أن أنظر لكم جميعاً، لقد سرت أعد الضباط الذين سيتحكمون فيك، فلا يمكن أن نعيش بلا ضباط، فكيف ستتعلم إذن المشية العسكرية، واحد اثنين شمال يمين، للخلف در، أعلى أعلى، أو كيف ستتعلم استخدام السلاح، انتبه لمؤخرة البندقية عندما تطلق الرصاص، لا تترك إصبعك يتزحلق للخلف عند الضغط على الزناد، ويقولون لي إنك لا تعرف القراءة فأصابني الذهول، ألا توجد مدارس ابتدائية في الأماكن الاستراتيجية، ألا توجد معاهد، أم أنك لا تحتاج إليها، أم أن حياتك مختلفة، وتأتي لتقول لي إنك لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا السرد، إذن فأي عمل ستقدمه لي يا أنطونيو المنحوس، سيتحتم عليك أن تتعلم في الكتيبة، فأنا لا أريد أبناءً أميين تحت عَلَمي، ولو نسيت بعد ذلك ما علموه لك، فاصبر، فالذنب ليس ذنبي، الحمار هو أنت، أنت القروي والفلاح، حقاً ما أقوله لك، فجيشي مليء بالفلاحين والحمد لله أنهم يبقون فترة وينصرفون، وبعد أداء الخدمة العسكرية ستعود إلى عملك، لكن لو أردت عملاً أثقل مثل الجيش، يمكن تنظيم ذلك.
لو تقول الأوطان الحقيقة، كنا سنسمع هذه الخطبة بإضافات زائدة أو كلمات ناقصة، لكن حينئذ سيتحتم علينا أن نعاني ألم التخلي عن الإيمان بقصص الأطفال المبهرة، قصص الأمس واليوم التي أحياناً تكون درعاً بقفازه، وأحياناً أخرى تكون جراباً للسيف ودرعاً للساق، مثل قصة الجندي الذي كان يقطن خندقاً بينما يقتله الحنين لأمه التي ولدته وماتت واستقرت روحها في السماء، إذ كان يجلس يتأمل صورة من وهبته الحياة، ثم ذات يوم جاءت رصاصة طائشة، أو ربما على العكس كانت رصاصة مقصودة خرجت من طبنجة رامٍ ماهر من رماة العدو، فهشمت الصورة إلى شظايا وأرسلت صنم العجوز العذب والأم السيدة إلى خامس جهنم، حينئذ وثب الجندي من المتراس وقد أصابه الجنون من شدة

الألم، وركض مصوباً سلاحه ضد خنادق العدو، لكن، قبل أن يركض كثيراً، سقطت فوق رأسه سلسلة طلقات نارية أهلكته. هذا ما تقوله قصص الحرب، وقد صوّب سلسلة الطلقات هذه جندي ألماني كان يحتفظ في جيبه أيضاً بصورة أمه العجوز الرقيقة، وبهذه الإضافة تكتمل قصص الأمهات والأوطان وقصص من يموت أو يقتل بناء على هذه الحواديت.

ترك أنطونيو المنحوس عمله حيث كان، هبط إلى جبل لافري وخرج من القطار في فينداس نوفاس، نظر من الخارج إلى ثكنة يجب أن يكون بداخلها في غضون ثلاثة أيام، وسار في طريقه. أمامه ثلاثة فراسخ، ولأن الطقس كان رائعاً تمشى بخطوة راسخة لكن بلا تسرع، تاركاً على يده اليسرى ميدان الرماية، ثمة أراض ولدت موصومة بسوء الطالع ومعاقبة بتفجيرات عقيمة، أراضٍ مثل بعض الرجال، وفي نهاية المطاف تختفي عن الأنظار أو بمعنى أدق تُهمل حتى لا يدري أحد أهي موجودة أم لا. ينتفض أنطونيو المنحوس بمجرد التفكير في أنه سيقضي عاماً ونصف مسلوب الحرية، يتذكر جوزيه القط ويسأل نفسه إن كان قد أدى الخدمة العسكرية أم لا، ويشعر براحة جمة تتسع في صدره، كأن القدر يفتح أمامه باباً في طريق ويقول له، دعك من كل هذا، لماذا تحبس نفسك داخل كتيبة بين أربعة جدران، وتعود بعد ذلك لتنزع الفلين وتحفر وتحصد، هل أنت أحمق، هيا ابحث عن جوزيه القط، هذه هي العيشة، مَن يتجرأ أن يضع يده فوق كتف القط، فمن ورائه عصابته، وهو الزعيم، ما يأمر به ينفذ، ولماذا لا ينتهي بك المآل زعيماً مثله، عليك أن تتعلم فأنت ما زلت شاباً، لن تكون بداية سيئة. إنها وساوس، لدى كل منا وساوسه التي يحتملها أو يتعلم احتمالها. قد تبدو وساوس غير مناسبة لغلام تربى في بيت شريف، بيت سمعته بيضاء لا يلطخها إلا حياة وموت جده دومينجو المنحوس، لكن لا يمكن أن يظل الواحد منا يقلّب طول حياته في هذا الأمر، فليلق الحجر الأول من لم يفكر في أفعال كهذه أو أسوأ منها، لا سيما عندما يكون أنطونيو المنحوس غير مطلع على قصة جوزيه القط بأكملها، فما زال ينقصها ما هو على وشك الحدوث، ولا يجد إلا الطعم اللذيذ للحم الخنزير الذي اشتراه سراً بمال كسبه بالحلال.

عندما يكون أمامك خمسة عشر كيلو متراً، يكون لدى المرء وقت كاف ليفكر ويعيد حسابات حياته، بالأمس كان طفلاً وبعد قليل سيصير مجنداً، لكن من يسير في طريقه الآن، بقدم ثابتة، هو أفضل منتزع لسنديان الفلين من بين الصبية التسعة الذين تعلم معهم، وربما يجد أحدهم في المعسكر. اشتد الحر، ومع أن المخلة ليست ثقيلة إلا أنها تتأرجح وتتزحلق من كتفه، سأجلس هنا لأستريح بعيداً عن الطريق بعدة أمتار، تحت ظل أفرش البطانية فرشة مزدوجة لأتجنب سخونة الأرض، أريح رأسي على المخلة وأغط في سبات عميق، فما زال أمامي وقت للوصول لجبل لافري. جلستْ بجانبي الآن سيدة عجوز غاية في العجز، حظي قليل وحظها كثير، حظي قليل، أفكر، فأي قوة تملك، قد تكون ساحرة تمسك بيدي وتفتح أصابعي المغلقة، وتقول، أرى في يدك، يا أنطونيو المنحوس، أنك لن تتزوج أبداً ولن تنجب أولاداً، أنك ستقوم بخمس سفريات طويلة لأراض بعيدة وستدمر صحتك، ولن تملك أرضاً إلا قبرك، ولست استثناءً عن الأخرين، وهذه الأرض ستكون ملكاً لك عندما تكون تراباً فقط، ثم سيتوقف عظمك المتبقي مثل عظام الآخرين في مكان ما، حيث لا تصل نبوءاتي، لكن بينما أنت على قيد الحياة تُرزَق لن تُلحق ضرراً بأحد حتى لو أخبروك بعكس ذلك، والآن انهض، لقد آن الأوان. لكن أنطونيو المنحوس الذي كان يعلم أنه

يحلم تصنع بأنه لم يسمع الأمر وواصل نومه، وكانت حماقة منه لأنه بذلك لم يعرف أن الجالسة بجانبه كانت أميرة تبكي فأمسكت بيده الخشنة والمتصلبة رغم أنه ما زال شاباً، بل في عز شبابه، وبعدها، لما طال انتظارها، رحلت الأميرة تجر حرير فستانها فوق الجوالق وجذامات القمح، لذلك عندما استيقظ أنطونيو المنحوس كان الحقل مغطى بزهور بيضاء لم يرها من قبل.

في حياة الوسية تحدث أمور كثيرة تبدو من المستحيلات مع أنها حقيقة الحقائق. من هنا حتى جبل لافري سار أنطونيو المنحوس متأملاً حيث وجد في راحة يده قطرتي ماء ولم يخمّن ليعرف مصدرهما، فضلاً عن أن إحداهما لم تختلط بالأخرى. كانتا مستديرتين مثل اللؤلؤ، إنها معجزات تحدث عادة في الوسية، فقط يشك فيها مدّعو العلم. اتفقنا على أن يد أنطونيو المنحوس ما زال بها اليوم قطرتا ماء، وإذا حدث أنه عند وصوله للبيت، بعناقه لأمه، لم تهربا من يده ولم تطر عدة أجنحة بيضاء ناحية الباب الموارب، ستسأله أمه: ما هذه العصافير؟ لا أدري يا أمي.

ثمة أناس نومهم ثقيل، وآخرون نومهم خفيف، ثمة من يهجرون الدنيا بنومهم، ومن لا ينفصلون عن العالم فيرون منامات، فلنقل إن جوانا كاناسترا من هؤلاء. اتركوها تنام في سلام، هذا ما يحدث عندما يصيبها المرض وقبل أن يشتد عليها الألم، وبذلك تنام في وضع تعلمته في المهد، قد يقول ذلك من يعرفها منذ ذلك الحين، بوجه فوق يد مفتوحة، وخمرية اللون مجهدة البدن تغط في أعماق سبات طويل. لكن لو انتبهتْ قليلاً، وانتباهها يأتي في ساعة محددة، ربع ساعة قبل وقت يقظتها بغتة، كأنها تطيع بشكل ميكانيكي ساعة داخلية، تقول: يا سيجيسموندو، انهض. لو حكى هذه القصة من عايشوها في الحال سنرى كيف ستختلف روايتهم، بعض الروايات اختلقت بلا قصد وبعضها الآخر عمداً، كما جرت العادة،
لأن ما قالته جوانا كاناسترا حقيقة كان: يا سيسموندو، انهض. وهكذا نتأكد من صغر هامش الخطأ عندما نعرف الفارق بينهما، والدليل على ذلك أن سيجيسموندو كاناسترو، الذي نكتب اسمه بلا أي شك في خطأ إملائي، يلبي النداء ويرفع البطانية عنه، يقفز من سريره باللباس ويعبر عرض البيت ليفتح النافذة وينظر للخارج، ما زال الليل طابقاً، ينظر بعين حادة، عين وحيدة مفتوحة، أو يعرف ذلك بخبرة السنين وهي بحر ممتد، تسمح له بتمييز التقلب الذي لا يمكن تقديره ويوجد في الجانب الشرقي، ربما يفهم ذلك من يدرك ألغاز الطبيعة ولمعان النجوم الباهر عندما يكون العكس تماماً ما يحتمل أن يبدو صائباً. ليلة باردة، ولا غرابة في ذلك، فنحن في نوفمبر شهر البرد، لكن السماء تبدو صافية وستظل هكذا، كما هي العادة أيضاً في نوفمبر. تنهض جوانا كاناسترا، تشعل النار وتضع فوقه الكنكة المسودة بالهباب لتسخن القهوة، وهو اسم ما زالت تسمي به هذا الخليط من الشعير أو السريس أو الترمس المحروق والمطحون، إنهم حتى يشربون ما لا يعلمون، وستبحث في النملية عن نصف رغيف وثلاث سردينات مقليات، ثم لا يتبقى الكثير، وإن تبقى شيء تضع ما أخذته فوق المنضدة وتقول، القهوة ساخنة هيا لتفطر... تبدو هذه كلمات تافهة، فهؤلاء الناس ذوو اللكنة الفقيرة لا يتمتعون بخيال رحب، إذ لم يتعلموا أبداً تزويق أحداث الحياة الصغيرة بكلمات راقية، ولا مقارنة ممكنة بين وداع روميو وجوليت في شرفة الطابق الرابع عندما فقدت الفتاة عذريتها وبين كلمات تفوه بها الألماني ذو العينين الزرقاوين لفتاة لا تقل عنها عذرية، لكنها سوقية، تلك التي اغتصبها في أرض السرخس. ولا مقارنة أيضاً بين ما قالته جوليت وما قالته الصبية

المغتصبة. لو احتفظوا بهذه الحوارات في أعماق بئر كنا سنعرف، حتى ولو لم نكن الأوائل، أن خروج سيجيسموندو كاناسترو هذا سيتوافر له من يحكي عنه، ولهذا سوف نحكي. أكل سيجيسموندو كاناسترو نصف سردينة وقطعة خبز بلا طبق ولا شوكة، فقط كان يستخدم طرف سكين دقيق ليقطعهما، وهكذا استقرت في معدته راحة ناتجة عن سخونة القهوة المزيفة، لذلك فثمة من يقسم بأغلظ الأيمان أن البرهان على وجود الرب يكمن في وجود وتوافق القهوة مع السردين المقلي، لكن تلك قضايا خاصة باللاهوت ولا علاقة لها بالسفر الصباحي. لبس سيجيسموندو قبعته وانتعل حذاءه ذا الرقبة ورص معاطف الفرو القديمة وقال، أرى وجهك بخير يا زوجتي، ولو سألوك عني قولي إنك لا تعرفين إلى أين رحلت. لم يكن الأمر يستحق هذه التوصية، فدوماً يكررها، بالإضافة إلي أن جوانا كاناسترا لا تعرف الكثير لتقوله، ولو عرفت ما قالت ولو ذبحوها، حتى القليل الذي تعرفه لن تقوله ولو قتلوها. سيقضي سيجيسموندو يومه بالخارج ويعود عندما يفرد الليل جناحيه لأسباب متعلقة بالطريق والمسافة أكثر منها بسبب الوقت الحقيقي الذي عمله، مع أننا لا نعرف الحقيقة أبداً. تقول له زوجته، أراك بخير يا سيسموندو، وتصر على أن تطلق عليه هذا الاسم، فلا نضحك، ولا حتى نبتسم، فما ذلك إلا اسم، وبعد أن خرج من باب السياج، جلستْ هي بقرب النار وظلت هكذا حتى طلوع النهار، بيدين مضمومتين، لكنها لم تكن تؤدي طقس صلاة.

أما فاوستينا المنحوس، في الطرف الآخر من جبل لافري، فليست معتادة على ذلك، فهي مرتها الأولى. لهذا، مع أنها تعلم أن زوجها سيخرج من البيت عند مطلع الشمس، إلا أنها لم يغمض لها جفن طوال الليل، بل ومذهولة من أن جوان المنحوس الذي يلازمه الأرق كظله، ينام الآن في غاية السكينة، كمن لا يخاف شيئاً رغم مسؤولياته. إنها تعويضات يقوم بها الجسد لترتاح الروح المنهكة. عندما يصحو جوان المنحوس، ويكون اليوم صافياً رغم عدم سطوع الشمس بعد، تقتحمه فجأة فكرة ما سيحدث أمام عينيه، لدرجة أنه يغمضهما سريعاً، ليس خشية ألم المعدة الذي سيشعر به، وإنما كنوع من احترام الكنيسة أو احترام المقابر أو مولد طفل. يقبع وحده في الغرفة، يرهف السمع لضجيج البيت والشارع، لشدو عصفور منسي يعاني البرد، لأصوات بناته وطقطقة الحطب المضطرم. ينهض. سبق أن قلنا إنه رجل جاف وضئيل البدن، له عينان زرقاوان لامعتان وباليتان، وفي سنه هذه، اثنان وأربعون عاماً، غزا الصلع رأسه، وما تبقى من شعره اشتعل شيباً، لكن قبل أن يقف على قدميه ثبت في مكانه، أراح جسده من الألم الناتج عن النوم ويأتيه كلما نهض من رقدته، مع أن هذا الألم غير منطقي، بل يجب أن يحدث العكس لو استراح جسده. ارتدى ثوبه ودخل المطبخ، اقترب من النار كما لو يريد أن يستعيد دفء السرير، لا يبدو أنه اعتاد البرد القارس، يقول، صباح الخير تقترب منه بناته ليقبلن يده، قمة السعادة أن نرى لم شمل العائلة، الآن كلهم بلا عمل وعليهن أن يسلين أنفسهن بعمل شيء طول النهار، مثل ترقيع الثياب. جراثيندا تعمل في جهازها، تسير بتؤدة، صبورة قدر استطاعتها، لن يتم عرسها قبل العام المقبل، وعند الظهيرة ستذهب مع أختها لتغسلا في النهر حملاً من الملابس أخذته كل منهما من بيت الأشراف، دائماً مقابل عشرين إسكودو. لا تسمع فاوستينا المختوم على سمعها، ما قاله زوجها، لكنها شعرت بوجوده، ربما بسبب هزة أرضية من أثر وطأة قدميه أو ربما حركة الهواء التي لا يستطيع إلا جسده إحداثها، لكل منا خصائص جسدية، إنها حقيقة، لكنهما يعيشان معاً منذ عشرين عاماً، وأعمى من ينكر ذلك، وهي ليست عمياء وليس من حقها أن تشتكي في شيء، أما سمعها فهو ما يزول

عنها وإن لم تُصدق ذلك، وعذرها في كل يوم أن الناس تتحدث بطريقة مشوشة، كأنهم يتعمدون ألا تسمع. تبدو أشياء خاصة بالعجائز لكنها
أمور فقط خاصة بأناس تعبوا قبل الأوان. يأكل جوان المنحوس استعداداً ليومه، يتناول قهوته التي تشبه قهوة سيجيسموندو، يمضغ خبزاً مخلوطاً من مواد مختلفة، فأي قمح سيصنعون منه الخبز! يلتهم بيضة نيئة، يثقبها من جانب والجانب الآخر، إنها إحدى ملذات الحياة، يا ليتها تدوم للأبد. ها قد لبى نداء المعدة والآن يشعر بالعجلة عندما أطلت الشمس، يقول، أراك على خير، لو سأل أحد عني، فأنتن لا تعرفن أين ذهبت، هذه العبارة ليست كلمة سر متفقا عليها وإنما هي أمر طبيعي في هؤلاء الذين يقولون بألسنتهم ما في قلوبهم وليس علينا أن نبحث عن أسباب أخرى. لا جراثيندا تعرف أين يذهب أبوها ولا إيميليا كذلك، يسألانه بعد أن يكون قد خرج، لكن الأم صماء، كما نعلم، وتتظاهر بأنها لم تسمع. علينا ألا نفهم ذلك بسوء نية، فالصبيتان شابتان وثرثارتان، فقط لصغر سنهما لا لقلة وعيهما، وتلك صفات قد تجرح جراثيندا على الأقل، فهي على دراية بمغامرات مانويل السيف، أول مُضرب معروف في جبل لافري، وأذيع صيتاً من زملائه، عندما كان غلاماً صغيراً.

سيكون اللقاء في منطقة الأرض الباردة. إنها أسماء أطلقت على أماكن لسبب ما بلا شك قد نفهمه، لكن علينا أن نعود إلى أصول الوسية لنفهم كيف تسمى منطقة بالأرض الباردة مع أنها قائظة في الصيف شديدة البرودة شتاءً، وقد ضاعت هذه الأصول، كما اعتاد أن يقول الكسالى، في لحظة مظلمة من الزمن. قبل بلوغ قبلتهما، سيتلاقي سيجيسموندو كاناسترو وجوان المنحوس في تل أتالايا، لكن ليس في أعلى نقطة بالطبع حتى لا يكونا تحت نظر أحد من المارة، رغم أن هذه الأرض، وفي هذا المكان بالذات، لا تطأ الأرجل، فهي ليست مثل ميدان جيرالدو، إن فهمتم ما نقصده. سيتقابلان بالقرب من التل، حيث يكثر الشجر الكثيف، وهو مكان يعرفه جيداً سيجيسموندو كاناسترو ولا يعرفه بالدقة نفسها جوان المنحوس، على أي حال كل الطرق تؤدي إلى روما. ومن هناك حتى الأرض الباردة يسيران معاً في سبل لم يسر فيها الرب أبداً، وسار فيها الشيطان مضطراً.

ما من أحد في مرآة السماء المستديرة، مرآة قابعة فوق الأفق، مقصورة الملائكة المعتادة عندما تحدث حركة هائلة في رمال الوسية. هذه هي الخطيئة الكبرى والمشؤومة لأجناد السماء، أنهم لا يلعبون إلا بقذائف حربية، بينما يستخفون بالزمرة الصغيرة، بفصائل الجيش، بالمغامرين، بالمتطوعين في هذه المهمة، بهاتين النقطتين الضئيلتين وهما هذان الرجلان، المتقدم أحدهما هنا والمتأخر ثانيهما هناك، حتى عندما يبدو أنهما ضلاّ طريقهما صوب مكان لا اسم له في السماء، لكنه هنا في الأرض يسمى الأرض الباردة. يتقارب الرجلان. ربما يفكر الملائكة من ملكوت السماء منقطع السيل أن هؤلاء البشر يتوجهون بتفاهة إلى عملهم رغم عدم وجود عمل، كما لو أنه حتى في السماء عليهم أن يعرفوا بإنذارات الأب أجاميديس السببية، والحق أن الأمر أيضاً ينطوي على عمل. إنه سبب مختلف، مسؤولية كبيرة لدرجة أن جوان المنحوس سيسأل سيجيسموندو كاناسترو عندما يلتقيه، وبعد أن يخطوا خطواتهما الأولى لكن بلا تسرع حتى ينتصر على خجله،

أتعتقد أنهم سيقبلوني؟ ويرد عليه سيجيسموندو بثقة من هو أقدم منه في هذا الشأن وأكبر منه سناً، لقد تم قبولك، لا تخف، لو كان لدي أي شك ما أتيت بك اليوم معي.

ثمة من يأتي بدراجة ويتركها مختبئة في جانب مليء بالأشجار، يسهُل بطريقة أو بأخرى التعرف عليه، فاتجاه الشمال الأصلي لا يضيع. هذه المرة لن يرتعش خوفاً بسبب لوحة رقم الدراجة، فكل شيء يحدث داخل المجلس المحلي، إلا إذا كان الحارس سيئ النية أو هاجمه ريب مفاجئ، حينها قد يأمره أن يتوقف... أين تذهب؟ ولماذا؟ ومن أين تأتي؟ أرني رخصتك. هذه إذن عقبة، هذا الرجل يسمى بالمناسبة سيلفا، لكنه يسمى أيضاً مانويل دياس دا كوستا، وظننا أن سيلفا هو اسمه بين من يتحدث معهم في الأرض الباردة، أما بين الحرس فيسمى مانويل دياس دا كوستا، وله اسم مختلف بالنسبة للسجل المدني، وكذلك بالنسبة للقس أجاميدس الذي عمّده بعيداً جداً عن هذه الأماكن. ثمة من يقول إننا دون أسمائنا التي نُعرف بها لن نعرف هويتنا، إنها مقولة فطينة وفلسفية، لكن سيلفا هذا أو مانويل دياس دا كوستا الذي يبدل الآن بدراجته في طريق ممهد وملطخ بالوحل قد ترك بكل سعادة الطريق الذي يعبر منه الحرس على حين غفلة أو يظل أياماً كاملة مختبئاً، أبداً لا نعرف حقيقة أمره، وإن كان الأمر لا ينطوي على ألغاز، فسائق الدراجة هذا يسير في سلام مع نفسه لا تؤثر فيه هذه القضايا الرقيقة المتعلقة بالهوية، إلا إذا كانت مسألة أوراقه.
لكن، لو دققنا النظر، لا نرى الأمر كذلك، فالثقة يجب أن تكون في هويته كإنسان موجود أكثر من الأوراق التي تهبه اسماً. ولأنه إنسان ويفكر، يفكر أنه من الغريب أن يصدق الحرس في الورقة المكتوبة والمختومة أكثر من تصديقهم بما تراه أعينهم، رجل يركب دراجة، ولأنه متعب من فتحهم ورقه وغلقهم إياه، يمكنك أن تسير، فكر وهو يضع قدميه على البدال وينطلق، من الأفضل ألا يعود للعبور من هذا الطريق إلا بعد فترة، لهذا جاء لأول مرة صوب هذا المكان وكان محظوظاً، حيث لم يوقفه أحد.

وثمة من يأتي في قطار وينزل في ساو توركاتو، في خط سيتيل، أو في فينداس نوفاس، أو حتى في مونتيمور بعيداً، إن كان اللقاء في أرض البرج، ومن هذه المحطات يمكن الوصول للأرض الباردة. هذه الحالة في مصلحة من يأتي من ساو جيرالدو، وهو طريق
الكلاب، لكن لو خرج أحد اليوم من ساو جيرالدو ليقوم بمهام مشابهة، سيسير مسافة أبعد، وربما لا تكون مصادفة، فتلك قاعدة لها أساس. في هذه الساعة، من منتصف الصباح، لا نرى الدراجة، والقطارات تسير بعيداً جداً لكن تأتينا صفاراتها، وفوق الأرض الباردة تمر حدأة صيادة، ما أجمل أن تراها! لكن الأجمل من ذلك أن تشاهدها وتسمع فجأة صياحها، زقزقتها الطويلة التي لا يستطيع أحد أن يعبّر عنها بالكلمات، لكن عندما نسمعها نريد أن نقلدها ولا نخرج من هذه الحالة، حيوانات ذوات زقزقة وشدو هذا ما كان ينقص. يربط العصافير من كل نوع زقزقة مشتركة، لكن هذه الصيحة مختلفة، لها رنين يخرج من قلب الطبيعة الفاضلة، تسبب رعشة في الجسد، لا أندهش إن طلعت لي أجنحة من كثرة الإنصات لها، ففي الدنيا رأينا أشياء أغرب من ذلك. جانحة في علاها، تركت الحدأة رأسها تتدلى، إنها إيماءة فحسب، فربما بصرها لا يحدد من هذا القرب الشديد، فنحن من نعاني من أمراض قصر البصر والاستيجماتيزم، وهي كلمات للتوضيح فقط ويجب أن نتجنب استخدامها في هذه الأراضي، حتى لا تخلط الملائكة بينها وبين كلمة مشابهة تعني إصابة مثل

جروح المسيح، فيطلون من الشرفة بحثاً عن سان فرانثيسكو دي أسيس ويعثرون على حدأة مسكينة تطلق صياحاتها وخمسة رجال يقتربون، بعضهم قريب والبعض الآخر ما زال بعيداً عن الأرض الباردة. لا أحد إلا الحدأة تراهم جميعاً من علاها، لكن الحدأة ليست طائراً واشياً.

أول من وصلوا كانا سيجيسموندو كاناسترو وجوان المنحوس، لقد بذلا جهداً ليصلا قبل موعدهما لأن أحدهما كان مستجداً. وبينما كانا ينتظران، جالسين في الشمس حتى لا ينفضهما البرد القارس سريعا، قال سيجيسموندو كاناسترو، لو قلعت القبعة ضعها بوضعها على الرأس. لماذا؟ سأل جوان المنحوس، وأجابه سيجيسموندو كاناسترو، من أجل الاسم، فلا يجب أن نعرف أسماء بعضنا. لكني أعرف اسمك. تعرفه نعم، لكنك لن تقوله، والرفاق سيفعلون الشيء نفسه، فالجهل بأسمائنا يبقينا جميعاً في أمان لو اعتقلونا. ورغم أنهما تحدثا في أمور أخرى، كثيرة وطويلة، إلا أن جوان المنحوس ظل شارداً في حكاية الاسم هذه بانشغال كبير، وعندما وصل صاحب الدراجة عرف أنه لن يعرف أبداً الاسم الحقيقي لهذا الرجل، ربما بسبب الاحترام الذي يظهره له سيجيسموندو كاناسترو، مع أنه يعامله بصيغة «أنت»، إلا اذا كانت هذه الصيغة تحتوي على احترام أكبر. هذا هو الرفيق الجديد، قال سيجيسموندو، فمد صاحب الدراجة يده التي لم تكن يد أجير خشنة، لكنها قوية وصلبة في ضغطها. رفيق، كلمة ليست جديدة، فزملاء العمل يستخدمونها، لكنها هنا تكتسب احتراماً أكبر، تنثني ركبتا المنحوس وتحتقن حنجرته، وهو أمر غريب حتى يحدث لرجل تخطى الأربعين وشاهد الكثير من الدنيا والناس. يجلس ثلاثتهم ويزجون وقتهم بينما لم يصل الآخرون. ننتظر نصف ساعة، إن لم يأتوا سنبدأ، حينئذ يقلع جوان المنحوس قبعته وقبل أن يتركها على الأرض بوضع الرأس كما أوصاه سيجيسموندو كاناسترو، ينظر داخلها في الخفاء، ويرى فوق شريطها اسم: «جوان المنحوس» بخط بائع القبعة، وهذه كانت عادة ريفية في تلك الأزمنة التي فيها كانت المدينة تدرب نفسها على إخفاء الهوية. صاحب الدراجة، هذا ما نعرفه نحن، حيث إن جوان المنحوس يظنه جاء سيراً على قدميه، كنا نقول إن صاحب الدراجة يرتدي طاقية ولسنا على يقين أن اسمه مكتوب بداخلها، ولو كان مكتوباً، ماذا سيكون الاسم؟ هذه أشياء تباع عادة في الأسواق الموسمية، في المحلات الصغيرة التي لا يمكن وصفها بمعرفة الكتابة ولا أدوات النقش ولا الزخرفة، والأمر سيان بالنسبة للبائع أن تضيع الطاقية من الزبون أم لا تضيع.

بعد فترة قليلة، يصل الاثنان الناقصان كل من جانب. بعضهم يعرف البعض الآخر فقد التقوا من قبل وعدة مرات، باستثناء جوان المنحوس الذي كان، معذرة، مثل خيال المآتة، والجميع ينظر إليه محدقاً ليحفظوا ملامح وجهه في ذاكرتهم، وهو أمر يسير، فبعينيه هاتين لا يمكن أن يخطؤوا وجهه. طلب صاحب الدراجة بصوت أجهش وبسيط أن يكونوا أكثر دقة في مواعيدهم بعد ذلك، مع أنه اعترف أنه من الصعب حساب الوقت في المسافات الطويلة، أنا نفسي جئت بعد هذين الرفيقين، وكان يجب أن أصل أولكم. بعد ذلك رأينا أموالاً طفيفة تدفع بشكل عام، كانت فقط عملات فضية، وفي المقابل يتلقى كل منهم منشورات معدودة وملفوفة، ولو كان مسموحاً ذكر الأسماء، أو لو سمعتها الحدأة وكررتها، أو لو نظر بعضهم في قبعات البعض الآخر الموضوعة برأسها لأعلى، لكُنّا سمعنا: هذا لك يا سيجيسموندو كاناسترو، وهذا لك يا فرانثيسكو بيتينجا، وهذا لك يا جواو دوس سانتوس، أما أنت يا جوان المنحوس فلن تأخذ هذه المرة، والآن اروا لي كيف

تسير الأمور، أبداً أنت. الدور على فرانثيسكو بيتينجا الذي يقول: لقد اكتشف أصحاب العمل موضة جديدة، طريقة لادخار يوم عندما يتحتم عليهم استقبالنا في بيت القرية، عندما يأتي يوم السبت يطردوننا، لا يبقى أحد، وحينها يقولون: تذهبون يوم الإثنين لبيت القرية، وتقولون إني أقول إني أريد رئيس العمال، هذا ما يقوله صاحب العمل، لا أعرف إن كنت تفهمني أم لا، والنتيجة ضياع يوم الإثنين علينا في الذهاب لبيت القرية، ويبدأ السيد يدفع لنا يوم الثلاثاء، ماذا علينا أن نفعل؟ بعدها يقول جواو دوس سانتوس: في أرضي يتفق بيت القرية الخيري مع السادة، وإلا فلن يقوم بما يقوم به، يوزعنا ونحن نخرج من هناك إلى الحقول وأصحاب العمل لا يقبلوننا، ونعود حينئذ لعمدة القرية ونقول إنهم لا يقبلوننا، فيأمرنا أن نذهب من جديد، وبهذه الطريقة لا يريد أصحاب العمل أن يقبلونا ولا في صلاحيات بيت القرية أن يجبرهم أو يلعب بالعمال، ماذا علينا أن نفعل؟ يقول سيجيسموندو كاناسترو: والعمال الموزعون يتقاضون ستة عشر اسكودو من مطلع الشمس لغروبها، لكن هناك كثيرون لا يجدون عملاً، والجوع يأكل بطون الجميع سواءً بسواء، فالستة عشر اسكودو لا تفعل شيئاً، أصحاب العمل يسخرون منا، لديهم عمل لنقوم به ويتركون الأرض بلا ضربة فأس، لا يفعلون شيئاً، وما يتحتم علينا أن نفعله أن نشغل هذه الأراضي ولو تعرضنا للموت، فلنمت مرة واحدة، أنا أعرف ما أقول، وأعرف ما قاله رفيقنا سلفاً عن أن موتنا هذا يعد انتحاراً، لكنه انتحار أيضاً ما يحدث لنا، وأراهن إن أمكن لأحدكم أن يتفاخر بأنه تعشى ما يراه، وهذا لا يعني تكسير مجاديفكم، فماذا سنفعل؟ وافقه الجميع وشعروا بزقزقة عصافير بطونهم، لقد كان وقت الظهيرة وظنوا أن بإمكانهم أن يأكلوا هناك ما أحضروه من بيوتهم من خبز وملح، لكنهم في الوقت نفسه كانوا يخجلون من قلته، رغم أنهم جميعاً يعرفون ما البؤس. وصاحب الدراجة قليل الرداء، لا يبدو بجيوب منتفخة بشيء قد يكون غداءه، ونعتقد أن الآخرين في هذا الظرف لا يعرفون ذلك، كما أن رحلات النمل فوق دراجته بحثاً عما يؤكل تبوء بالفشل، فلن يجد حتى الفتات. صاحب الدراجة هذا يتوجه بسؤال غير متوقع لجوان المنحوس، وأنت، ألا تريد أن تقول شيئاً؟ فاجأ السؤال الرجل المستجد. لا أعرف، ليس لديّ شيئٌ لأقوله، والتزم الصمت كما التزمه الآخرون، وتبادلوا النظرات، ولما كان من العبث أن يجلس خمسة رجال تحت شجرة سنديان يتفلسفون وليس لديهم ما يقولونه، قال: نستريح ليلا ونهارا مع وجود عمل، ولا تعرف حياتنا الجائعة إلا عقاباً لا يستكين، أحفر قطعة في الأرض عندما يتركونها لي لأزرعها، ولساعات طوال، والآن نحن جميعاً في بطالة، ما أحتار في معرفته حقاً هو لماذا الأمور تسير بهذا الشكل وهل سيظل الحال على ما هو عليه حتى يأخذنا الموت؟ فلا عدل في أن يمتلك البعض كل شيء والبعض الآخر لا شيء، ما أريد أن أقوله فقط إن الرفاق يمكنهم أن يحكوا معي، فقط هذا ولا شيء آخر.

قال كل منهم أسبابه، إنهم تماثيل من بُعد، نراهم في هدوء مستكين، والآن ينتظرون ما يقوله صاحب الدراجة، ما سيقوله، ما يمضي قائلاً إياه. بنفس الترتيب تسير الجلسة ويتحدث أولاً للجميع، ثم لفرانثيسكو بيتينجا، ثم لجواو دوس سانتوس، وبكلمات قليلة لسيجيسموندو كاناسترو، لكن مع جوان المنحوس يطيل حديثه، إنه أمر يشبه جمع أحجار قارعة أو جسر، الأفضل أن نقول جسراً، ففوق الجسر ستعبر السنون والخطوات والأحمال، وتحته ثمة هاوية. من هذه المسافة نرى المشهد أبكم، لا نرى إلا إيماءات، وهي قليلة، فكل شيء يتوقف على الكلمة والتشديد عليها، كما يتوقف على النظرة، لكن من هنا لا يمكننا حتى أن نميز نظرة جوان المنحوس الزرقاء. لا نتمتع

بعيني حدأة، هذا الطائر الذي يجوب الفضاء وينحدر من علاه فوق منبت السنديان بشكل دائري، هابطاً أحياناً لضعف الهواء الذي يدعمه وبعدها، بضربات بطيئة ومرنة من جناحيه، يصعد من جديد ليبلغ ما هو قريب وما هو ناءٍ، هذا وذاك، الوسية المفرطة الحجم والصبر بمعدله المنصف.

انتهى اللقاء. أول من يبتعد صاحب الدراجة، ثم، بالحركة التوسعية نفسها لشمسٍ انفجرت وتناثرت شظاياها، يتفرق الأربعة رجال كل إلى قبلته، ما زال يقع في نطاق نظر البعض البعض الآخر، ولو نظروا خلفهم لتبادلوا النظرات، لكنهم لن يفعلوا ذلك لأنه مبدأ متفق عليه. ثم بعد ذلك يختبئون، لا يختبئون بإرادتهم بل يداريهم انحدار أعمق مكان في الوادي، أو يسدل الظل جناحه عليهم في البعد وراء حافة تل، أو ببساطة يسترهم المكان النائي وقسوة برد يشعرون به أخيراً ويجبرهم على غلق نصف أعينهم، فلا بد أن ينظر كل منهم أين تطأ قدماه، فلا يمكن السير بعينين مغمضتين تماماً. حينئذ تطلق الحدأة صيحة ترن في كل القبة السماوية وتبتعد صوب الشمال، بينما تركض الملائكة في رعب نحو النافذة متسرعين في أعمالهم، وقتها لا يرون أحداً.

يكبر الرجال، تكبر النساء، ويكبر فيهم كل شيء: الجسد ومساحة الاحتياج، وتكبر المعدة حتى تكون بحجم الجوع، ويكبر العضو الجنسي ليوفي بالرغبة، ونهدا جراثيندا المنحوس صارا كما موجتي بحر توقف سيله، لكن ليس هذا إلا أغنية معتادة، نشيد حب وصداقة، فرغبتها في عناقه ورغبته في عناقها، نتحدث عن مانويل السيف، لم يعرفا تقلب المشاعر، بل عرفا الرسوخ، ومرت ثلاث سنوات، وما زالت الرغبة مرفوضة أو غير مطلوبة في الوسية، لكنها تموج داخل المرأة كما الرجل، فلا فارق بينهما إلا في اليومية. يا أمي، أريد أن أتزوج، قالت جراثيندا المنحوس، ها هو جهازي، نعم جهاز فقير لكنه يكفي لأنام أنا ومانويل السيف في سريره وسريري، وفوق هذا السرير نعيش كزوج وزوجة، يدخل فيّ وأدخل فيه، ونظل هكذا كما كنا منذ الأبد، أنا لا أعرف كثيراً عما حدث قبل مولدي، لكن كل دمي يتذكر صبية كانت عند نبع أمييرو فجاءها رجل بعينين زرقاوين كعيني أبي، وأعرف أن من بطني هذه سيأتي ولد أو بنت سيكون له العينين نفسهما، لماذا، لا أعرف.

هذا ما كان ينقص، أن تقول جراثيندا المنحوس هذه الكلمات، فلو قالتها لأحدثت ثورة في الوسية، لكن واجبنا أن نفهم حقيقة الكلمات التي قيلت، أو تقال الآن أو ستقال فيما بعد، واجبنا أن نعرف جيداً صعوبة هذا الحديث الذي يعد قليلاً مقارنة بحديث كل يوم، فنحن لا نعرف أحياناً الكلمة المناسبة للتعبير عن هذا الشعور، أو لا نعرف الاختيار بدقة بين كلمتين، وأحياناً كثيرة لا نجد الكلمة التي تؤدي الغرض، ونتمنى حينئذ أن تكفي الإيماءة، أن تؤدي النظرة دورها، أو تعترف النبرة بمكنونها. يا أمي، لا ينقصني إلا القليل لأكمل بيتي، قالت جرثيندا، يا أمي، مانويل السيف يقول لقد حان وقت زواجنا. أو ربما لا تقول شيئاً من هذا بل تصرخ صرخة حدأة عزباء، يا أمي، لو لم أتزوج اليوم سأرحل من البيت وسأنام فوق السرخس المجاور لينبوع أليسو أو في وسط حقل القمح وسأنتظر هناك مانويل السيف ليأتي ويفض بكارتي، ثم أرتدي جلبابي وأغتسل في جدول الماء، ولا أدري أين سيصل دم بكارتي المهرول، لكني أعرف على الأقل من أنا. وربما لا يكون الحديث كذلك، ربما في ليلة ما قالت فاوستينا لجوان المنحوس، مقاطعةً ربما تفكيره في دس المنشورات غداً في فتحة بشجرة متفقٍ عليها، من الأفضل أن نزوج البنت، فقد أعدت جهازها. وقد

يجيبها جوان المنحوس قائلا، يجب أن يكون زفافاً متواضعاً، نعم أتمنى أن يكون زفافها أحسن زفاف في الدنيا، لكن ذلك مستحيل، كما أن أنطونيو لن يساعدنا في شيء لوجوده في الجيش، قولي لجراثيندا أن تعد نفسها وسنفعل ما بوسعنا. ما زال الآباء هم أصحاب الكلمة الأخيرة.

أصبح عند مانويل السيف بيت، دفع كل ما كان في جيبه، في جيبه الصغير، ليأخذ هذا البيت الذي استأجره، حتى لا نظن أن جراثيندا المنحوس ومانويل السيف سيقولان، هذا البيت بيتنا. بل إن لديهم نية لإخفاء أمره. أعيش هنا، في ركن ما. كما لديهم النية للعب لعبة اللاعب المحروق والأربع نواصي(9)، فهذه ليست لعبات المدرسة والمدينة فقط، كل ذلك من أجل ألا يعرف أحد أين يعيشان، في هذا البيت المكون من باب وحائط فقط، وأرض وسقف، وسلم صغير يرتجف عندما تضع قدمك عليه، ونيران منطفئة عندما نغيب عنهما. سنعيش في هذا المنحدر من جبل لافري، داخل هذا الجدار المفتقر لمساحة حتى لرفع الفأس إن أردنا أن نزرع كرنباً، حقاً أن الشمس تدخله طوال اليوم، لا أعرف إن كان يستحق السكن، حمداً لله أننا لسنا بدناء. سننام في المطبخ الذي سيكون غرفة نومنا عندما تأتي ساعته، وعندما نستيقظ، ماذا سنسميه؟ سيكون مطبخاً عندما نطبخ، ومشغلاً عندما ترتق جراثيندا ثوبنا بينما أطل أنا على التلال المواجهة لنا بيديّ فوق ركبتيّ، جالساً في صالة الانتظار، ثم سنعرف انتظار ماذا، يبدو ذلك لعبة كلمات وإن لم تفهموا فلأن ذلك يعد نوعاً من الحنين الذي يغزونا، كل منا يود أن يتكلم أولاً.

لو سبقنا الأحداث وروينا بهذه الطريقة، لن نتأخر في الحديث عن الأولاد ورعايتهم. اليوم يوم عيد، ستتزوج جراثيندا المنحوس من مانويل السيف، منذ سنوات طوال لم يشهد جبل لافري زفافاً هكذا، فالفارق السني بينهما كبير، هو في السابعة والعشرين وهي في العشرين، لكنهما زواج ناجح، هو أطول منها كما ينبغي، لكنها ليست قصيرة، حيث لم تطلع لأبيها. ها هما أمام عينيّ، ترتدي هي فستاناً وردياً يصل لركبتيها، له رقبة مقفولة وكم طويل مزرر حتى طرفه، لو كان الطقس حاراً ما شعرت به، أو شعرت به بطريقة ما يتساوى فيها الصيف
مع الشتاء، أما هو فيرتدي سترة طويلة غامقة، أقرب إلى الجاكت منها إلى البالطو، وبنطالاً ضيقاً وحذاءً لم يجد من يلمعه، وقميصا أبيض وربطة عنق مشجرة ولا يمكن فك رموزها مثل رؤوس أشجار لم يشذبها أحد. من العدل أن نقول إنه لا يوجد نشاز، وتشبيه الأشجار ما هو إلا تشبيه، فربطة العنق جديدة وربما لا تستعمل بعد ذلك أبداً، أو ستستعمل في زواج آخر قد تُدعى إليه.
موكب العرس ليس كبيراً، لكن حضره الأصدقاء والمعارف، وأطفال بالمرصاد للحلويات، وعجائز واقفات على الباب يقلن ما لا يعلمه إلا الله، فلا ندري أبداً ما تقوله العجائز، ألعنات أم بركات، يا لهن من مسكينات، فبمَ تفيدهن الحياة.

وتم الزفاف بعد القداس كما جرت العادة، والحمد لله أننا في فترة عمل، فبالعمل يستطيع السرور دوماً أن يرتسم على الوجوه. ولأن طقس اليوم معتدل، يا لها من عروسٍ جميلة، والصبية لا يتجرأون على قول مُزاحات الزفاف المعتادة، لأن مانويل السيف، أولاً وأخيراً، رجل كبير، اقترب من الثلاثين، وهي مبالغة كما نرى، لكنها ليست من اختراعنا، إنه موقف مثير بالفعل، فحتى الرجال المتزوجون ينصرفون عن المزاح. العريس، قطعياً، ليس صبياً، وله شخصية جادة، كان كذلك منذ صغره، ولا أحد يعرف أبداً فيما يفكر، طلع لأمه التي ماتت العام الماضي. أخطأ من تحدث هكذا. حقاً يسير مانويل السيف بوجه صارم، هذه هي طلعته، كما كان يقال قديماً، لكن من داخله، هو نفسه لن يستطيع شرحه لو أراد، فهو يشبه خرير المياه بين الأحجار في جسر كافا، هذا المكان القاسي الذي يثير قليلا من الخوف ليلا، لكن عند شقشقة الفجر نراه ناصعاً فيمحي أي سبب للخوف، وتشدو المياه بين أحجاره.

كثيرة هي المظالم التي تقع بسبب الحكم بالمظاهر، وواحدة من هذه المظالم كانت حال أم مانويل السيف التي كانت تبدو امرأة من الجرانيت، غير أنها بالليل تصب عذوبة في سريرها، وربما لهذا يبكي أبو مانويل السيف في صمت. ثمة من يقول، إنها دموع الفرح. ولا أحد سواه يعرف أنها دموع الحزن. كم شخصاً هنا؟ عشرون؟ كل منهم له قصته، ولا أحد يستطيع أن يتخيل تفاصيلها، سنوات وراء سنوات يعيشونها، فترات طويلة وأحوال كثيرة، لو كتب كل منهم حياته سنمتلك مكتبة هائلة الحجم، وسنضطر إلى أن نحمل الكتب للقمر، وعندما نريد معرفة مَنْ أو ماذا كان فلانٌ، نسافر في الفضاء لنكتشف ذلك العالم، ليس عالم القمر، وإنما عالم الحياة. تواتينا رغبة في العودة للوراء لنسرد بالتفصيل حياة وقصة عشق توماس السيف وفلور مارتينيا، إلا أننا في حاجة لسرد ما نراه الآن من هذه الأحداث والحياة الجديدة وغرام ابنه وجراثيندا المنحوس، إذ دخلا الكنيسة بالفعل، كما دخل الغلمان والمضطربون بشكل طائش، وهذا لا يصح، إنها أفعال صبيانية، كذلك دلف العجائز أصحاب الخبرة والعارفون بالطقوس والعظات، دلفوا بكل هدوء، يتزينون بثياب قديمة من أزمنة أناقتهم. مجرد دخولهم الكنيسة والبقاء فيها، بهذه الوجوه وهذه الملامح والتجعيدات، وتأملها بتأنٍ، جدير بأن يكون فصولاً ضخمة في كتب، في ضخامة الوسية التي تحيط بجبل لافري وتبدو كبحر.

يقبع الأب أجاميدس في المذبح، لا أدري ماذا حدث له اليوم، لا بد أن ريحاً طيباً هب في وجهه عند صحوه، ربما كانت نفحة من الروح القدس، لكن الأمر ليس كذلك، فالأب أجاميدس لا يستطيع أن يزهو بعلاقاته الخاصة بالشخص الثالث في الثالوث المقدس، هو نفسه متذبذب أمام بساطة الأفكار اللاهوتية، لكن أيا كان السبب، فشيطان القس في كامل أبهته، نعم، وفي كامل وقاره، لكن عينيه تلمعان، والسبب ليس شراهته الشبعى لأن الأكل لن يكون بالغزارة المدهشة. نعتقد أن السبب هو حب المباركة، فالأب أجاميدس في النهاية قسيس بشري، كما رأينا في كل زمان ومكان من هذه القصة، وسيفكر، حتى من دون أن يخطر في باله الاحتياج لأياد عاملة في الوسية دائمة التغير، كنا نقول إنه سيفكر أن هذا الرجل سيتزوج هذه الفتاة وسينجبان أولادا ويربيانهم بعد ذلك، وستعود الفائدة على الكنيسة في مولدهم وزواجهم وموتهم، تلك فائدة أحضرها وما زال يحضرها

زوار الكنيسة. هذا هو القطيع، والأفضل أن يكون بصوف قليل من أن يكون بلا صوف، فمن الفتافيت تصنع التورطة. كُل قطعة أخرى يا أب أجاميدس، وتجرع هذه الكأس من نبيذ أوبورتو، وبعدها تناول قطعة أخرى. أنا لا آكل إلا قدر طاقتي، يا سيدة كليمينثيا، فأكلتي ضئيلة. لكن قم بتضحية سيدي القس. هذا ما يفعله لكن بتأنٍ، تضحية القداس المقدس. والآن اقتربا، سأزوجكما.

يسود بعض الارتباك بين الأبوين، فلا أحد يتذكر أبداً في أي جانب يجب أن يكون، يتفوه الأب أجاميدس بكلمات قصيرة، يثني البطرشيل ويفرده، يلقي نظرة لائمة على السادن الذي تأخر، يا له من خاطر! ليس هذا جوان المنحوس، كم سنة يمارس هذا العمل، ولا القس هو القس، فالناس ليسوا خالدين. لم ينتبه أحد لنور لم يتغير، وكنيسة لم تمتلئ بالعروش والملائكة، وحمامة كانت تهدل في الحديقة وما زالت تهدل، مشغولة ربما بعِرسان آخرين، وجراثيندا المنحوس تحدق في مانويل السيف وتستطيع أن تقول، هذا زوجي. ومانويل السيف يستطيع أن ينظر لجراثيندا المنحوس ويقول، هذه زوجتي. وبداية من الآن فحسب تعد هذه حقيقة، إذ إن سرخس الينبوع لم يرحب بهما، رغم أن هذا على ما يبدو ما كان يجب أن يحدث.

يجتاز العروسان صحن الكنيسة الصغير وحين يصلان إلى بابها يظهر أنطونيو المنحوس في زي عسكري، فلم يصل في موعده إلى زفاف أخته، وهو أمر متعلق بتأخير القطارات وغياب روابط السكك الحديدية، ما اضطره أن يهبط ويصب لعنات قادرة على تذويب دوارة الريح بالبرج والطرق الوعرة التي يتخطاها بخطوات واسعة على حافة الطريق، ثم سار غاضباً يعد الكيلو مترات المتبقية، ولحسن حظه لا يقف الشيطان دائماً خلف الباب، إذ توقفت حافلة توزيع أسماك كانت تمر من هناك، وأمام هيبة الزي العسكري، سألت: أين تذهب؟ إلى جبل لافري، حيث زفاف أختي. فذلل أمامه العقبات. مبارك للعروسين. وتسلق الحافلة مثل قرد وعبر دون أن ينظر لبيت الصدقات، وأمام نقطة الحراسة قال لنفسه: لعنة الله عليكم. وفجأة تذكر أنهم ربما قد أنهوا الاحتفال، لكن لا، ما زال هناك أناس في الساحة، وآخرون في طريق آخر، وثب وثبتين ليصعد درجات سلم الدهليز، هذه أختي، وهذا زوجها، حمداً لله على وصولك يا أخي. كنت سآتي حتى لو تحتم على أن أشعل النار في الكتيبة في دقيقة. الآن نحن في الشارع، نركز عيوننا، لا على الزوجين، بل على أنطونيو المنحوس الذي جاء بتصريح لزفاف أخته، وكما يفرض الواجب، يعانق كل الناس، أمه وأباه، أقاربه وأصدقاءه، بينما يتناثر الموكب قليلاً، ويجب أن نكون حلماء، فجراثيندا لا تشعر بغيرة، إذ بجانبها مانويل السيف، رجل عظيم، يأخذها من ذراعها كما يحدث في حفلات الزفاف الرقيقة، فيضرب وجهها للحمرة. إله السماء، كيف يمكن أن تتجاهل هذه الأمور، هؤلاء الرجال وأولئك النسوة، فلو أنهم قد دعوا إلهاً لسَهوَا عن أن يمنحوه عيناً.

يعود مانويل السيف وجراثيندا المنحوس ليكونا ملكي الحفلة، دامت الفوضى قليلاً واستقر أنطونيو المنحوس بالخلف مع أصدقاء من سنه، فمن حين لآخر يجب أن يعيد أواصر الصداقات المتناثرة، لقد طال غيابه في سلفاتيراس، في سادو وليزيراس، ناحية الشمال، ثم في منطقة ليريا، والآن في الخدمة العسكرية. تُقام الحفلة في بيت مستعار. ثمة نبيذ، ثمة خروف في طست، قمة حلويات عرس وزجاجتا عرق، وأيضاً لحم خنزير. حفلة متواضعة لا علاقة لها بالأبهة، حفلة فقراء، فقراء

لدرجة أننا قد نرى جوان المنحوس مكروباً بيدين فوق رأسه لو أردنا أن نتذكره، لكن ذلك فعلة وحشية. هذه النفقات تضاعف ديونهم أربع مرات عند البقال وبائع الخردوات، وهم كلاب معروفة ستعوي بعد ذلك خلف كعبي المديون، لكن الآن يصمت الخونة. ألا تريد حقاً شيئاً آخر، فكّر جيداً فابنتك لا تتزوج كل يوم.

لا أحد يبدأ في الأكل حتى يأتي القس أجاميدس، لعنة الله عليه، لو يشعر بالجوع الذي أشعر، ويرى معدتي التي تغلي أمام رائحة هذا القدر الشهي. لا أدري كيف استطعت أن أصل إلى هنا، فلم أتناول عشائي ليلة البارحة لتكون شهيتي اليوم في كامل نهمها. لا أحد يعترف بهذه الأمور، مع أنها موجودة وتفيض، فالشح، مثل عدم العشاء لتستطيع الغداء بأكبر كمية على حساب الآخرين أحد نقاط الضعف البشري الذي نعرفه جيداً، كما نعرف منطقياً نقاط ضعفنا، ما يجعلنا نغفر ضعف الآخرين. لا سيما عندما يصل القس أجاميدس ويقول كلمتين لتوماس السيف وجوان المنحوس وزوجته، لا تسمع فاوستينا جيداً ما يقوله لكنها توافق بهزة رأس متماسكة، ويظهر على وجهها تعبير يختلط فيه الاحترام البنوي مع مسحة شديدة الصفاء، لكنها ليست منافقة، يا لها من امرأة مسكينة، إنما رنين صوت الأب أجاميدس يسبّب لها أزيزاً غريباً في سمعها، ولولا هذا الأزيز لسمعت تماماً. يتعامل القس أجاميدس بأبوية مع العروسين، يباركهما يمنة ويسرة بيده اليمنى، وهكذا شرد الجوع للحظة، لكنه الآن يضغط من جديد، أخيراً سيبدؤون. جاءت الأطباق المعقرة والصواني، كلها مستعارة، إنها مبالغة، فثمة طبقان لم يستعيروهما، أما بالنسبة لأطباق العروسة الصيني فقد كانت فاوستينا حازمة، لا يمكن استعمالها، سأرتب أنا أمرنا، فهذا ما ينقص، أن تبدئي حياتك الزوجية بأطباق مكسورة فيصيبك الفأل الشؤم. أخيراً أكلوا، في البداية بكل نهم، ثم بتأنٍ، فكلهم كانوا يعرفون أن الأكل قليل، فلا الخروف ولا الخنزير يكفي، أما النبيذ فكان غزيراً، حمداً لله.

بعد برهة، نهض الأب أجاميدس وطلب الصمت بإيماءة، إيماءة واحدة، ولا حتى طلب الصمت فمجرد نهوضه كان يفرضه. كان طويل القامة في غاية النحافة، ما أثار بلبلة في الأبريشية حيث كانوا يتناقشون حول أين يذهب ما يأكله الأب أجاميدس، فلم يكن يأكل قليلاً، وقد برهن على ذلك في حفلات الزفاف والتعميد. نهض ونظر للحشد المحيط بالمائدة، طوى أنفه الحساس أمام إهمال الأطباق وأدوات الطعام، إنهم أناس لم يعرفوا التربية يا سيدة كليمينثيا. لكنه بعد ذلك شعر بالشفقة تملؤه، ربما الشفقة المسيحية، وقال بعض الكلمات: يا أبنائي الأعزاء، أتوجه إليكم جميعاً وخاصة للعروسين، في هذا اليوم السعيد الذي فيه سرني عقد القران المقدس بين جراثيندا المنحوس ومانويل السيف، هي ابنة جوان المنحوس وفاوستينا جونكالفيس، وهو ابن توماس السيف وفلور مارتينيا، رحمها الله. ولقد نذر كل منهما الوفاء للآخر والتعاون المتبادل، وهو نذر تطالب به الكنيسة الأم المقدسة كل من يأتيها طالباً مباركة القران بين رجل وامرأة حتى الموت الذي يفرق بينهما. أخطأ الأب أجاميدس عندما أتى هنا بسيرة الموت، إذ أغمض توماس السيف عينيه حتى لا تقفز الدموع منهما، لكن لا سبيل لكبحها، فالدموع مثل مياه ترشح من فتحات جدار مشروخ، يتظاهر الجميع بعدم الانتباه له وهذا أفضل ما يفعلون، وما زال الأب أجاميدس يثرثر ويثرثر، ويعلم الله أين ينتهي. هذه الأرض التي نسكنها صغيرة، لكن لحسن حظنا نجد فيما بيننا

صداقة عميقة، خالية من نزاعات وأباطيل رأيتها في أماكن أخرى قد مررت بها، وإن كان حقيقة أنكم لا تتقربون كثيراً للكنيسة، الأم المحبة التي تنتظر في كل ساعة أولادها، فحقيقة أيضاً أن لا أحد منكم تقريباً يتخلف عن تقديم القرابين، ومن يتخلف فهم نعاج ضالة منذ زمن بعيد، وليس عندي أمل في إنقاذهم لسوء الحظ. فليغفر الرب لي، فلا يصح أن يفقد خليفة الرب الأمل أبداً في قيادة قطيعه حتى حجره تعالى. كان حاضراً أحد المهرطقين، بجانب زوجته التي لا تحط من قدر زوجها، إنه سيجيسموندو كاناسترو وجوانا كاناسترا، المبتسمان كما لو كانت كلمات الأب أجاميدس سلال ورد. بلا غرور، أعتقد أني أقمت الأدلة على اهتمامي المستمر بكم كراع طيب، عندما جرت الإضرابات منذ ثلاث سنوات، وأتمنى أن تكونوا جميعاً متذكرين، وهنا لدينا بعض من الذين أطلقت سراحهم من السجن، ولن يتركوني أكذب، وكان من الممكن، لولا سمعة جبل لافري الطيبة، أن يُدخلوا الاثنين والعشرين رجلاً في ميدان الثيران، كما حدث لرجال آخرين من أراض أقل تقديراً من قبل ربنا والعذراء، رغم أني أعرف أن هذه السمعة غير ناجمة عن كفاءاتي، فأنا مذنب، لكني تائب.

عند هذه النقطة، اشتد وجه جوان المنحوس حمرة، وتحتم عليه النظر لأحد، فنظر لسيجيسموندو كاناسترو الذي بدوره كان يحدق في القس بعينين جادتين وقد كف عن الابتسام، حينئذ سُمع صوت أنطونيو المنحوس يقول، نحن في حفل زفاف أختي يا سيدي القس وليس الوقت مناسباً للحديث عن الإضرابات ولا عن الكفاءات. كان الصوت صافياً خالياً من أي غضب، مع أنه كان غاضباً، فالتزم الجميع الصمت في انتظار ما سيحدث، وقال القس إنه سيتجرع نخب العروسين وجلس بعدها. لم تكن فكرة صائبة، يا سيدي القس أجاميدس، أن تتذكر هناك هذه الأمور، فما فعلته يشبه ذكر الحبل في بيت المحكوم عليه بالإعدام، هكذا قال نوربيرتو فيما بعد. معك حق، لا أعرف كيف واتاني هذا الوسواس، ربما أردت أن أظهر لهم أنه دوننا، نحن الثالوث المقدس، الكنيسة والوسية والدولة، رمز السلام أينما وجدنا، أنه دوننا كيف سيحافظون على أرواحهم وأجسادهم؟ ولمن سيدلون ومن سيُدلى له بأصواتهم في الانتخابات المقبلة؟ لكني أعترف أني أخطأت، ارتكبت ذنباً، ذنباً كبيراً، لهذا رحلت من هناك في الحال بحجة واجباتي كراع، والحق أني كنت شبه دائخ، رغم أني حقيقة لم أتجرع إلا القليل من الثمالة تلك خشية أن تسبب لي حموضة في المعدة، فليس ثمة أجمل من نبيذ قبوك، يا سيدي لامبيرتو.

حينئذ قال أنطونيو المنحوس، لقد رحل الأب أجاميدس، نحن الآن بين ناسنا، فليقل كل منكم ما يرغب بكل حرية وليفصح عن مكنون قلبه، فليتكلم مانويل السيف مع جراثيندا زوجته وأختي، وهل أختي الأخرى إيميليا لديها من تنظر إليه حتى لو لم تحادثه، وإن لم يكن موجوداً فلتفكر فيه وسنفهم جميعاً، أحياناً لا نستطيع أن نقوم بشيء آخر، وتذكرا يا أبويّ حياتكما وحياتنا، ما فعلتماه في شبابكما، وبهذه الطريقة ستغفرا لنا أخطاءنا، وليفكر الآخرون في أنفسهم وذويهم، أعلم أن من ذويهم من مات، لكن لو دعوتموهم لبُعثوا، فالموتى لا يريدون إلا ذلك، وهنا أشعر أنا بوجود فلور مارتينيا، أحدكم قد استدعاها، لكن بما أنني أنا من أتكلم، سأستمر في الكلام، ولا تندهشوا من بطولات الشفافية تلك، ففي الجيش لا نتعلم القتال فقط، فمن يرغب سيتعلم القراءة والكتابة والحكي،

وبهذا يمكننا أن نبدأ في فهم العالم وشيء من الحياة، فالحياة ليست فقط الميلاد والعمل والموت، أحياناً يتحتم علينا التمرد أيضاً، وهذا بالتحديد ما سأحدثكم عنه.

هنا انتهت المحادثات التي مضت على وتيرة متوسطة، وانحلت الأعين لكن يد جراثيندا المنحوس بيد مانويل السيف لم تنحلا، ورحلت فلور مارتينيا، إلى اللقاء يا توماس، وحول المائدة تهيأت الأكواع، هؤلاء الناس لا يجيدون الاتيكيت، ولو أدخل أحدهم إصبعه في فمه ليخرج ليف لحم خروف ممضوغ من بين تسوس ضرسه وأكله، فلا نسئ فهم ذلك، فنحن نعيش في أرض لا يمكن أن تبدد الطعام، لا سيما عندما يتكلم أنطونيو المنحوس بزيه القطني عن هذا نفسه، عن الطعام. حقاً أن الجوع يملأ جنبات هذه الأرض، فنجد أنفسنا مضطرين لأكل العشب ونسير ببطن مشدودة مثل جلد طبلة، وربما لهذا يفكر الكولونيل أن الحمار الجائع يأكل الشوك، ولأننا حمير، في الكتيبة لا نسمع كلمة أخرى، الحقيقة أننا نسمع كلاماً آخر، لكنه أسوأ، لأننا حمير علينا أن نأكل الشوك، إذن أقول لكم إنّ أكل الشوك أفضل من أكل طعام الكتيبة الذي لا يمكن أن تقبله إلا الخنازير، وبلا شهية.

توقف أنطونيو المنحوس لحظة عن الكلام، شرب جرعة نبيذ ليتحدث بشكل أفضل، ومسح فمه بظهر يده، أفضل فوطة طبيعية. ثم واصل حديثه، يعتقدون أننا لو عانينا الجوع في أرضنا فعلينا أن نحتمله جميعاً، لكنهم مخطئون، لأن جوعنا نظيف، والشوك الذي علينا انتزاعه تنتزعه أيادينا التي لو كانت قذرة فهي نظيفة، فما من يد أنظف من أيادينا، هذا أول ما نتعلمه عندما ندخل الكتيبة، ولا يعد ذلك جزءاً من تعليمات السلاح، لكن يمكن تخمينه، ويستطيع الرجل منا أن يختار بين الجوع الكامل أو الخجل من أكل ما يقدموه لنا،
حقاً جاؤوا ليبحثوا عني في جبل لافري لأخدم الوطن، كما يقولون، لكني لا أدري ما معنى خدمة الوطن، هل الوطن أمي وأبي، كما يقولون أيضاً، أنا أعرف أن أمي وأبي الحقيقيين، كما يعرفهما كل منكم، يخرجان الخبز من فميهما ليعطياه لنا، لو كان الوطن أماً وأباً فعليه أن يخرج الخبز من فمه ليضعه في فمي، ولو تحتم على أن آكل شوكاً، فعلى الوطن أيضاً أن يأكله، إلا إذا اعتبر الوطن أن هناك من هم «أبناء الوطن» و من هم «أبناء القحبة».

استاءت بعض النساء، وقطب بعض الرجال حاجبيهم، لكنهم يغفرون كل شيء لأنطونيو المنحوس المتمرد بعض الشيء، إذ استطاع أن يشغل مكان الأب أجاميدس، وما زال يقول عبارات تشبه خمر قبو السيد لامبيرتو، إنها مجرد صورة خيالية، لأننا لم نتذوق أبداً هذا الخمر. حينئذ قررنا أن نعترض في الكتيبة على طعام الجنود، فلا نأكل ما يقدموه لنا، كما لو كنا خنازير ترفض الحوض الذي يلقون به قاذورات أكثر مما يحتملها الخنزير، لا يهمنا أن نأكل فتات الأرض في العام، فالأرض نظيفة مثلنا، لكن ما يقدمونه لنا، لا، وأنا، أنطونيو المنحوس الذي أحدثكم، من كنت صاحب الفكرة وهذا يشرفني، فالواحد منا يعرف الفارق بعد تحقيق مبتغاه، تحدثت مع زملائي وكلنا كنا متفقين في أن معاملتهم لنا تشبه البصق في وجوهنا، وحينئذ جاء اليوم الموعود، قدموا لنا الطعام وجلسنا كما لو كنا سنأكله، لكن الأكل عاد كما جاء، وبرغم صرخات الشاويشيّة لم يلمس أحدنا الملعقة، وكانت هذه ثورة الخنازير، ثم جاء ضابط نوبتجية النهار وألقى فينا خطبة مثل

خطب القس أجاميدس، لكننا كنا كما لو لم نفهم لا القداس ولا اللاتينية، في البداية حاول إقناعنا بالحسنى، بكلمات عذبة، لكن سريعاً ما فقد وداعته وبدأ في الصياح، أمرنا جميعاً بالخروج، وفهمنا هذا الأمر لأننا كنا نريد الخروج من المطعم، وعند خروجنا كنا نقول بعضنا لبعض بفم معوج: صلابة، شجاعة، فهنا لا أحد يتراجع، وحينئذ خرجنا، وتركونا بالخارج نصف ساعة، وعندما ظننا أن هذا كان عقابنا شاهدنا رشاشات موجهة صوبنا، كل شيء موافق للنظام، رماة وخدم وتوابيت ذات شرائط، وحينئذ اقترب الضابط وقال إما أن نذهب لنأكل وإما يصدر أمراً باطلاق النار علينا، هذا صوت الوطن، كأنه صوت أمي عندما تقول إما أن تأكل وإما أقطع رقبتك، لم يصدق منا أحد، لكن ما حدث أنهم شدوا الأجزاء وبداية من هنا كنا لا ندري ما يمكن أن يحدث، أتحدث عن نفسي فأقول إني شعرت بعمودي الفقري يرتعش، أيكون حقيقة، أيطلقون النار علينا، أتكون مذبحة سببها طبق شوربة، أيستحق الأمر، ليست مسألة تراجع حماستنا، لكن في مثل هذه المواقف لا يمكن السيطرة على التفكير، وخلال وقفتنا هذه سُمع في الكتيبة صوت لا أعرف مصدره، ولا زملائي الأقرب مني كذلك، كان صوتاً هادئاً جداً، كما لو كان يسألنا عن صحتنا. يا زملائي، هنا لا أحد يتحرك. وصوت آخر من الجانب المضاد: يمكنكم إطلاق النار. وحينها لم أعرف ماذا حدث، وإلى الآن أود أن أبكي. صرخ جنود الكتيبة بأكملهم، كأنهم في مبارزة، يمكنكم إطلاق النار. أنا مقتنع أنهم ما كانوا ليطلقوا النار صوبنا، لكن لو فعلوها، أعرف أننا ما تحركنا من هناك، وكان هذا انتصارنا، ليس تغيير الطعام، فأحياناً نبدأ الصراع من أجل شيء فنفوز بشيء آخر، وهذا أفضل ما في الأمر. توقف أنطونيو المنحوس لحظة بعدها أَضاف، بحكمة تفوق سنه، لكن لنفوز بالثانية علينا أن نبدأ في الصراع من أجل الأولى.

هنا سنرى كيف تبكي النساء وتهرب الدموع من أعين الرجال، إنه أجمل حفل زفاف يمكن أن تتخيله، لم يشهده قط جبل لافري، وحينئذ ينهض مانويل السيف ويعانق أنطونيو المنحوس وهو يفكر كيف صار الجيش مختلفاً الآن، لقد أدى الخدمة العسكرية في أزورس وسمع أحد زملائه يقول، مهدداً لا يعرف مَنْ، عندما أحصل على الليسانس سألتحق بشرطة في مباحث المراقبة والدفاع عن الدولة، وإن قابلت من لا أستخف ظله سأعتقله، وإن جاءتني الرغبة في قتله سأطلق عليه رصاصة وأقول بعدها إنه حاول الهرب، فليس هناك أسهل من ذلك.

نهض الآن سيجيسموندو كاناسترو، بطول فارع وجسد نحيل كهراوة جافة، شرب نخب العروسين وعندما انتهى الجميع من تذوق النبيذ الحلو بلذة، قال إنه سيحكي قصة مختلفة عن قصة أنطونيو المنحوس وإن كانت تشبهها قليلاً، ففي مسائل القصص والأحوال دوماً ما نجد تشابهاً لو أمعنا النظر، مع أن ذلك يبدو مستحيلاً: منذ سنوات طوال توقف عن الحديث ليتأكد من أن الجميع منتبهون، وقد كانوا، وبنظرات معلقة فيه، بعضهم خامل لكنه يقاوم، وحينها تمكن أن يواصل منذ سنوات طوال، خرجت لأصطاد الطيور ووقعت حادثة. يا له من رجل، سيروي لنا حواديت حلوة أو ملتوتة، ثم يقول خلصت الحدوتة، لكن سيجيسموندو كاناسترو لا يمزح، ولا يرد على من يقاطعه، ينظر حوله فحسب معزيا نفسه بعدم وعيهم، وسواء بسبب هذه النظرة أو بسبب الفضول لمعرفة نهاية الحدوتة، حلّ الصمت، وجوان المنحوس الذي يعرف جيداً سيجيسموندو كاناسترو يعرف عن يقين أن هذا الرجل له أسراره، القضية تكمن فقط في أن نفهمه في ذلك الحين لم يكن

عندي بندقية رش فكنت أستعيرها، من فلان مرة ومن علان مرة أخرى، بحسب ظروفهم، وكنت أتمتع بمهارة في الصيد، وليقل ذلك أبناء جيلي، وكان هناك في ذلك الحين كلب كنت أسير معه أعلمه الطريق لفترة، وكان كلباً بارعاً، بأنف رقيق، حتى ذهبت ذات يوم مع زملاء لي، كل منهم معه كلبه، وكنا مجموعة ظريفة، وعدنا جميعاً غانمين، معنا ما يكفينا ويفيض، حدث ذلك في ضواحي

جواريتا دي جوديال، نهض فجأة حجل بري وسار كشعاع، أوجه البندقية صوب وجهه فيشرع في الطيران فزعاً في اللحظة التي أكون فيها على وشك الضغط على الزناد، والحق أن الطلقة لم تصبه، والحمد لله لخلو المكان من صاحب، فبذلك حُفظ ماء وجهي، لكن ثابت، وهذا اسم كلبي، هرول ناحية الحجل، فكر ربما أنه مجروح وأنه يسير بين الجولق الذي كان يشكل أرضاً شَعراء مغلقة لم أرها سوى مرات قليلة، وكانت ثمة أحجار كبيرة تغطي الرؤية، وما حدث أن الكلب تاه مني، ورغم كثرة ندائي عليه، يا ثابت، يا ثابت، وتصفيري له، لم يظهر، وكان عاراً في ذلك الوقت أن أعود للبيت دون الكلب، هذا دون الكلام عن الحنق، فهذا الكلب لم يكن ينقصه سوى الكلام. كان المستمعون في غاية الانتباه يستمعون ويتفاعلون، لكنها لم تكن حادثة تبعث السعادة في نفس الرجال أو تسر النساء، وحتى لو كانت أكذوبة مثل حجر الرحى، إلا أنها حدوتة حلوة، محكية بشكل جيد، ومن جديد سيواصل سيجيسموندو بعد عامين تحتم على أن أسير من جديد بهذه الأرض ورأيت فضاءً كبيراً من أرض الشجيرات نظيفاً، فقد مروا من هنا وسووا الأرض، لكن بعد ذلك، لا أدري لماذا، كفوا عن ذلك، وحينها تذكرت ما حدث، فدخلت بين الأحجار، ولا أعرف ما الفكرة التي قادتني، كان يبدو أن أحداً يقول لي: اكمل، اكمل، لا تتراجع يا سيجيسموندو كاناسترو، وماذا أرى، هيكل الكلب هناك واقفاً على أرجله ينظر لهيكل الحجل، سنتان وهما على هذه الحال، يحتمل كلاهما بأرجل راسخة، يبدو أني أراه، أرى كلبي المخلص ثابت، ببوزه متشامخاً، واقفاً على أرجله، لم تهب ريح لتدفنه ولا مطر ليكسر عظامه.

جلس سيجيسموندو كاناسترو ولم يقل شيئاً آخر. بلع الحاضرون لسانهم، لم يضحك أحد، ولا حتى أصغرهم سناً، هؤلاء الأكثر ريبة، وحينئذ قال أنطونيو المنحوس: حقيقةً ما روى عن هذين الاثنين، الكلب والحجل، فقد حلمت يوماً بهما، وليس هناك برهان أكبر من ذلك. وبمجرد أن قال ذلك صاح المستمعون في صوت واحد: ما زالا هناك، ما زالا هناك، حقاً ما زالا هناك. وأطلقوا قهقهة مدوية. وبمجرد أن بدؤوا في الضحك استمروا في ثرثرتهم وهكذا قضوا وقت الظهيرة كاملاً. سأحكي أنا حكاية. الآن احك أنت... يشرب كلانا. في هذه الساعة تكون أرض الطابور بالكتيبة خالية بينما هيكل جسد الكلب ثابت ينظر لهيكل جسد الحجل، كلاهما في رسوخه ثابتاً، وعندما هبط الليل تبادلوا كلمات الوداع، بعضهم رافق جراثيندا المنحوس ومانويل السيف حتى باب البيت، غداً يوم عمل، الحظ أن تجد عملاً. لا تتأخري يا جراثيندا، في التو يا مانويل. وفي فناء البيت المجاور، استغرب كلبُ الجيرة الجديدة، فعوى.

كان جوزيه كالميدو حارساً من بين حراس آخرين. عندما يكون في الوحدة لا أحد ينتبه إليه، فهو ليس أكثر من نكرة في مكان معروف، وحين يكون خارجها، في مهمة دورية أو مهمة أخرى، يغدو رجلاً حصيفاً، صبوراً على الفواجع، وكأن كل ذلك يجعله شارداً، فيشرد بذهنه. وذات يوم لا

يتوقعه أحد، ولا حتى هو نفسه، سيسلم لقائد نقطة جبل لافري، ليواصل الإجراءات المتبعة، طلباً بالاستقالة من الوحدة العسكرية ليرحل بعيداً عن هنا بصحبة زوجته وابنيه، وليتعلم أن يضع قدميه على الأرض كأي مواطن ويقضي بقية حياته ناسياً أنه كان حارساً. إنه رجل له قصة، لكن للأسف لا يمكن سردها هنا، باستثناء ما يتعلق بلقبه لأنها قصة قصيرة ومضحكة، وتوضح جمال الأسماء وانفراد ميلاده، فليس ثمة أسوأ من ضعف الذاكرة أو قلة الفضول التي تجعلنا لا نعرف أو ننسى أن اللقب سوسا(10) يعني حمامة مطوقة. لاحظوا الجمال وليس هذه البذاءة المكتوبة في شهادة الميلاد وسريعاً ما قصوا جناحيها، إنه من الخطر الكتابة عن ذلك أو الحديث عنه. لكن أجمل شيء عندما يكون جمال الأسماء نابعاً بشكل اجباري من الأسلاف أو من كلمات تقال من دون نية أن تكون أسماءً، مثل تحويل اسم بانطاليون إلى اسبانطاليون(11)، عائلة سعيدة تلك التي تحمل هذا الاسم وتسير في الدنيا بهذه المهمة الجديدة تطارد الأسود في الغابة والمدينة. لكننا نتحدث الآن عن الحارس جوزيه كالميدو وعن قصة اسمه القصيرة والطريفة عند مولده، وهذه هي القصة التي جاءت من تبجح غير مقصود لأحد أجداده الذي كان بلا أدنى شك سيموت من الخوف، لكنه لم ينتبه لخطر أحاط به، ثم أجاب من سأله عن أسباب عدم خوفه قائلاً، أي خوف؟ فكان جوابه صريحاً وتلقائياً فأذهل الحضور جميعهم، وبذلك صار كالميدو الشجاع بلا قصد والتصق الاسم بنسله حتى هذا الحارس وأولاده أيضاً، رغم من أن ثمة رواية أخرى تقول إن كالميدو مشتق من قمة الهدوء، أو شدة الحر، مثل هذا الحر الموجود الآن عندما يخرج من نقطته في مهمة، حاملاً معه أوامر سرية.

عليه أن يسير ثلاثة كيلو مترات ذهاباً وأخرى إياباً، مهمة راجل، فهذه حياة الحارس، ديك آخر يؤذن لحراس الفروسية، وهنا يسير جوزيه كالميدو، يهبط من جبل لافري إلى الوادي، ينحرف صوب الغرب ثم يميل ناحية الشمال مستغلاً الطريق الممهد، وتصير حقول الأرز على يساره، إنه صباح جميل من أيام يوليو، حار كما قلنا، أو كالميدو كما تقول إحدى الروايات، لكن وقت الظهيرة يصير قيظاً لا يطاق. ثمة خيط من سائل يتقطر لأسفل، عطش جم، ماء قليل، ويطأ برسوخ وبحذائه ذي الرقبة حافة الطريق، ويشعر برجولته وهو يطأ حافة الطريق، بينما تشرد رأسه في عنان السماء، وهي عبارة كان لها معنى وفقدته. كنا نسير

على الإسفلت، نهبط من المنحدر ناحية اليمين ونعثر على ظل رطب تحت القنطرة، والآن نختبئ في ظل أغصان لسان العصفور الوارفة، هذا المنظر يشبه الصحراء، من رآك ومن يراك، البركة الجافة، أطلال طاحونة الماء فوق الفرن بقراميد ممزقة، يبدو أن صاحب الوسية يدمر كل ما يواجهه، يريح جوزيه كالميدو بندقيته ويخلع قبعته ويجفف بمنديل جبهته حيث يُظهر الجلد الغامق والفاتح إثر الشمس وغيابها، حتى إنه يبدو أن الجزء العلوي من رأسه لا ينتسب له، بل ينتسب للقبعة. هذه افتراضات من يبحث عن الحقيقة.

لقد اقترب من قِبلته، تل الخرق، وسيصل نظرياً عند ساعة الغداء. سيعود معه جوان المنحوس، بأي عذر سيصطاده، وهي حالة لا معنى لها ولا علاقة لها به، القصة تحتاج ألا تكون معقدة، فكلما كانت بسيطة كانت أفضل، كانت قابلة للتصديق. بين الأشجار يرى المعسكر، الرجال يقفون على أقدامهم أمام النار، يسحبون القدر قبل أن يغلي أو يتشقق، سيكون سريعاً، وبمجرد أن يصل سيقول «تعال معي للنقطة». لن يخطو جوزيه كالميدو خطوتين حتى تحدق فيه عيون كل الحاضرين، لو

نظروا. يتقهقر خلف بعض الكثبان الرملية شديدة الارتفاع ويبقى هناك، حاسباً الوقت الذي سيستغرقه جوان المنحوس في تناول غدائه القليل، بينما ما زالت السحب تعبر السماء، سحب قليلة لدرجة أنها لا تخلق ظلة. يدخن جوزيه كالميدو سيجارة وهو جالس في الأرض، ساندا بندقيته على جذع شجرة، نازعاً سلاحه بنفسه. حياة الحراس حياة مرفهة، خالية إلا من العمل القليل، يجلس الحارس يشاهد مرور الأيام، ومن حين لآخر فقط تطرأ أحداث جادة، رغم أن ثمة من يتوقعها، وبعيداً عن هذا، تدخل شهور وتخرج شهور، تسود الطمأنينة والسكينة في الوسية، والسكينة والطمأنينة في الكتيبة والمنطقة، بين التقارير وعسس الليل، بين السيارات وشكاوي الجيران الأشرار الدائمة. الواحد منهم يعيش بهذا الشكل، ومن دون أن يشعر يجد نفسه في سن المعاش، إنها أفكار رجل مسالم، حتى يخيل لنا أنه لا يحمل بندقية وخزينة رصاص، ولم يمش سبعة فراسخ. فوق رأس كالميدو يغرد عصفور ما اسمه ليس معلقاً في عقد بصدره، يتقافز من غصن لغصن، يراه من مكانه فيشبه المروحة بذيله وجناحيه. لو نظرنا في الأرض، سنرى قبيلة حشرات حقيرة، نملة ترفع رأسها كما الكلاب، وأخرى دوماً تحملها صريعة، وعنكبوت صغير، أين سيزج ما يأكله، لكن دون شرود علينا أن نذهب لنقبض على رجل، نحن فقط ننتظر أن ينتهي من طعامه، أنا حارس نعم لكن عندي قلب، ماذا تظنون بي.

ما من مآدب فاخرة في الوسية. ينظر جوزيه كالميدو من بين الشجيرات، لقد انتهوا جميعهم. ينهض حينئذ ويتنهد ربما من المجهود الذي يبذله أو سيبذله، يعلق بندقيته على كتفه ويصدر إيماءات موزونة، لا لأهمية هذه الايماءات وإنما هي فقط نقاط للعون، طرق ليتماسك أمام نفسه وألا ينهزم أمام عدم منطقية أفعاله، ويبدأ في الهبوط صوب أعمق مكان في الوادي حيث يقبع الرجال. يرونه من بعيد ويعلم الله كيف حال القلوب النابضة بسرعة والمرتجفة، فقوانين الوسية صارمة، سواء التي تنظم ملكية البلوط أو جمع الحطب، هذا دون الحديث عن الاعتداءات. في النهاية يقترب جوزيه كالميدو، وعلى بعد خطوات ينادي لرئيس العمل، فهو لا يرغب أن يقترب حيث يجتمع الأجَرية ويثرثرون، فالرجل ليس صبياً لكنه يعرف الحياء، «قل لجوان المنحوس إنني أريد أن أقول له كلمتين».

يرتجف قلب جوان المنحوس ويقفز من مكانه كقلب عصفور صغير. ليس لأنه يعرف أنه متهم بذنوب غريبة، ذنوب من تلك التي اعتادوا ألا تغفر بالعقاب والركلات. وإنما يشعر بأنه هو المطلوب، وأنه بداية من اللحظة التي يقول فيها رئيس العمل «يا جوان يا منحوس، اذهب لتتحدث مع الحارس»، سيصير كل شيء مثل نزع قشرة من شجرة بلوط وسماعها تصر صريراً، ومعرفة أن الجهد سيصل لنهايته، جهدي وجهد الشجرة، لا ينقص سوى صيغة النداء، ياااااااااا، وضجيج القشرة عند انتزاعها، كرررر، «أمرك يا سيد كالميدو، ماذا تريد مني»، هكذا يسأل جوان المنحوس محاولاً أن يبدو هادئاً، كأنه يهنئ الحارس على أناقته، من حسن حظنا أن قلوبنا مخفية، وإلا لكنا جميعاً مدانين من قبل أو من بعد بسبب براءتنا عندما لا ندان بسبب جرائمنا، فالقلب طائش عاجز عن الرصانة ولا يعرف الصبر، لأن صانع القلوب لم يكن حاذقاً في مهنته، لكن المكر نتعلمه، الحمد لله، وإلا كيف كان سيقول جوزيه كالميدو دون أن يبلغه أحد برسالة «الأمر غير هام، فقط سؤال لاستيضاح أمر فردين سرقا بعض الغُبُط، والمالك يقول إنهما من سرقا وهما

ينكران ويقولان إن جوان المنحوس شاهد على أنهما لم يسرقا، وكما ترى، تلك قضية عسيرة لا أفهمها أنا نفسي». الحياة دوماً هكذا، مهما كانت النيات حسنة يستحوذ التشويش على ذهن الرجل حين يجب ألا يستحوذ عليه وما يقوله يتحول لرداء الشيطان، رداء يغطي ويكشف في آن واحد، رداء قصير، حتى عندما يقول جوان المنحوس بكل براءة الدنيا «أنا لا علاقة لي بهذه القضية، فلماذا تحشرونني فيها»، ترد عليه السلطة بحجة دامغة وثقة مطلقة «لا تخف، ستذهب، قل شهادتك وارحل في الحال».

وهذا ما حدث. يستعد جوان المنحوس لجمع عدته وبقايا طعامه في حقيبة خيش، لكن جوزيه كالميدو يواصل حديثه سابحاً في موجة من اختراعه ويقول «الأمر لا يستحق، ستعود في التو، فالقضية لا تستغرق وقتاً طويلاً». وبعد أن تحقق أكذوبته مبتغاها، يبتعد
وبصحبته جوان المنحوس المسكين العائش في حالة من السكينة، سائراً بقبقاب يخشخش ينتعله في عمله. من هناك لجبل لافري يسير كالميدو عاقداً الحاجبين، كما يناسب حارساً قبض على سجين ويرافقه، لكن هذا ليس هو السبب وإنما حزنه لتحقيق هذا النصر الضئيل، من أجل هذا ولد رجلان: سجين وسجان. وجوان المنحوس، الغارق في تفكيره وفي همه غير القليل، كان يحاول أن يقنع نفسه بأنه فعلا هناك سرقة للغبط وهناك بريئان يمكن بشهادته أن ينقذهما.

يدخل جوان المنحوس من جديد في نقطة حرس حُجز فيها عدة ساعات منذ أربع سنوات ماضية. كل شيء على ما كان كأن الزمن لم يمر. يتوجه جوزيه كالميدو إلى الشاويش ليبلغه بأن المقبوض عليه قد حضر بلا جديد، وأن المهمة قد تمت، لكن من فضلكم يسخر كالميدو داخل نفسه أجلوا الميداليات لمناسبة أخرى، دعوني هنا مع حياتي ومع سحب أفكاري هذه، في يوم ما ستنشرون أمامي ورقة مختومة ويقبع أمامي السيد الكوماندة العام للحرس القومي الجمهوري، بسعادته. الشاويش تباكو يأمر بالدخول ويقول «اجلس يا سيد منحوس»، ولا غرابة في هذه المعاملة المحترمة، فهم ليسوا دوماً جلادين. «أتعرف لماذا استدعيناك لنقطة الحرس». كان المنحوس على وشك أن يقول نعم فالأمر يتعلق بسرقة الغبط، لكنه لا يستطيع، ويعجز حتى عن فتح فيه، والحمد لله، فلو فعل لبقي جوزيه كالميدو موصوماً بالكذب، ولحسن الحظ أضاف الشاويش تباكو على الفور، لأنه كلما أسرع كان أفضل، «إذن أنت لا تعرف ما كنت تفعله في فينداس نوفاس»، «لا بد أن هناك خطأ ما، فأنا لم أفعل شيئاً»، «انظر، لدي هنا أمر من نقطة فينداس نوفاس بالقبض عليك بتهمة الشيوعية».

لدينا هنا نموذج لحوار بسيط ومباشر، خالٍ من أي ترتيب أو تعاقب سريع للنغمات في الأحبال الصوتية، خالٍ أيضاً من معية أو تطعيم الأفكار أو الذكاء، فلا يبدو أنها أمور جادة كما لو قالوا «ماذا، كيف ذلك»، «حسناً، شكراً وحضرتك»، «أحدهم يرسل لك التحيات من فينداس نوفاس، يا صديق»، «بلغه سلامي إن رأيته». داخل رأس جوان المنحوس، دق فجأة لسان جرس، صوت هائل كأن أبواب حصن صكت بصخب، هنا لا أحد يدخل. لكن صاحب الحصن يرتجف، تهتز يداه ويرتجف صوته، «دافعي عن نفسك، يا روحي»، وما كان ذلك إلا لحظة، هي الفترة التي تظاهر فيها بالدهشة، بالمفاجأة، بالبراءة المهانة والمحتقرة، «يا سيدي، لا تقل لي ما تقوله، فمنذ أربع

سنوات وأنا لا أورط نفسي في هذه الأمور منذ سجنوني في مونتيمور، لا بد أن هناك خطأ»، فيقول الشاويش تباكو «سيكون خيراً لك ألا تكون متورطاً، وحينها ستطلق السلطة سراحك في الحال». ربما لا يأتي الأمر بِشَر، ربما هو إنذار زائف، قرصة أذن لا سبب لها، ربما لا يوجد أحد مخنوق، ربما ينطفئ الحريق وحده دون أن يضطر أحد لحرق يديه، «من فضلك، يا سيدي الشاويش، بلّغ زوجتي أن تأتي لتتحدث معي». لا شيء أكثر طبيعية من قول ذلك، لكن الكوماندة، والكوماندة هنا هو الشاويش لأن جبل لافري ليست قرية هامة، مجرد قرية صغيرة داخل وسية رحبة، لا تحتاج إلى أكثر من شاويش مناوب، هذا الشاويش يجيب بثبات كما لو أنه الكوماندة العام صاحب الأمر في لشبونة «لا يا سيد، زوجتك لن تستطيع التحدث معك، لا هي ولا غيرها، فأنت تعتبر خطرا، اطلب ما ترغب وسيذهب عسكري ليحضر ما تحتاجه من بيتك». جوان المنحوس خطر! ساقوه الى غرفة تنفع كسجن، وكان جوزيه كالميدو مرة أخرى مَنْ ساقه، كأنه لا يوجد غيره في النقطة، فقال جوان المنحوس قبل أن يغلق عليه الزنزانة «إذن أنت خدعتني»، في البداية لم يرد كالميدو، كان يشعر بالإهانة، أراد أن يفعل خيراً وهذه هي النتيجة، لكنه لم يستطع أن يلتزم الصمت كمن اقترف جريمة «كنت أريد ألا تأتي مهموماً»، جوزيه كالميدو رجل لا يستحق الزي الذي يرتديه، لهذا سيقلعه ذت يوم وسيبدأ حياة جديدة في أرض لا يعرف فيها أحد أنه كان حارساً، وهذا كل ما نعرفه عن حياته.

دارت فاوستينا المنحوس وبنتاها حول النقطة. هربت الدموع الحانية من مآقيهن، لا يعرفن بماذا يتهمونه وكل ما يعرفنه أن الزوج والأب سيسوقونه إلى فينداس نوفاس، ولأن المصائب لا تأتي فرادى، هكذا اعتادوا أن يقولوا، ففي اللحظة التي غاب فيها الثلاث، لسبب أو لآخر، جاءت من فينداس نوفاس سيارة جيب بصحبة دورية تحمل بنادق وحراباً بحثاً عن المجرم. عند عودتهن سيعرفن أن من يبحثن عنه غير موجود، إنهن ثلاث نسوة في الطريق وأمام باب نقطة الحراسة المغلق في وجوههن. «غير موجود، إنها أوامر تلقيناها، عدن لبيتكن، ففي الوقت المناسب ستعرفن كل شيء»، يقولون ذلك للمسكينات التعيسات، ربما من قبيل السخرية، مثل تلك السخرية التي تحدث بها الحراس القادمون من فينداس نوفاس حين قالوا لجوان المنحوس «هيا، ادخل هنا في السيارة، حيث ستتنزه». هذا الرجل لا يستدعيه الحرس ليتنزه في أماكن أخرى، متنقلاً على حساب الوطن، فهذه الأشياء ندفعها جميعاً من جيوبنا، حقاً جوان المنحوس يعشق السفر، يتمنى الخروج من أرض الوسايا ورؤية أراض أخرى، لكن بما أنهم صنفوه خطراً فلا ينظرون لتعب الحرس الذين يقدرون راحته، ولا سعر البنزين، ولا انخفاض قيمة السيارات، وهكذا يعدون في الحال عربة جيب ودورية ببنادق وحراب ليذهبوا لجبل لافري ليبحثوا عن المجرم ويسوقوه بكل أمان

لفينداس نوفاس، «ادخل هنا، في السيارة، حيث ستتنزه»، لو لم تكن هذه سخرية، فأنا لا أدري ما السخرية.

كان سفراً قصيراً وصامتاً، ونفد ينبوع المرح سريعاً من الحارسين، دائماً الكلمات الساخرة نفسها، وجوان المنحوس بعد أن فكر وأعاد التفكير، قال لنفسه: ضربوا الأعور على عينه، وما دامت النتيجة واحدة فلن يعرف أحد معلومة من فمه تدين الآخرين، وقد يكون من الأفضل أن يوزعوا

مرايا في كل أنحاء الدنيا وأن يغلق عينيه من يأتيني، حتى لا يرى وجهي لو تكلمت. هذا الطريق لي معه ذكريات كبيرة، ففيه مات أوجوستو بينتيو عند عبور الجسر بعربته ذات البغلتين، وهناك، خلف الربوة، ضاجعتُ فاوستينا للمرة الأولى، كنا في الشتاء وكان العشب مبتلاً، كيف استطعنا أن نمارس الحب، إنه الشباب. وتروح نفسه لطعم الخبز بلحم الخنزير الذي أكلاه بعدها وكانت هذه أول وجبة لرجل وسيدة متزوجين طبقاً لقانون الطبيعة. يمرر جوان المنحوس يديه على عينيه كما لو كانتا تأكلانه، فلنقبل فكرة أنها دموع، فيقول له أحدهما «لا تبك يا رجل»، بينما يصر الآخر على إذلاله «دائماً يتذكر هؤلاء الدموع عندما نقبض عليهم»، وهذه ليست حقيقة «أنا لا أبكي»، يجيبه جوان المنحوس وهو محق، رغم أن الدموع تملأ عينيه، فما ذنبه هو إن كان الحراس لا يفهمون شيئاً عن الرجال.

الآن يقبع جوان المنحوس داخل مركز الحراسة بـ فينداس نوفاس، السفر كان حلماً ولا شيء يدعو للخداع في هذا الرجل المرتدي زياً مدنياً، فكلهم سواء، إنها خبرة جوان المنحوس الفائضة. يقول صاحب الزي المدني بينما يسلّك كوماندة النقطة أسنانه بخِلة «أمرك يا سيدي، ها نحن أحضرنا الرجل الذي سيتنزه معي حتى لشبونة»، ما هذه الفكرة المحددة لدى هؤلاء البشر، لا يتحدثون إلا عن النزهة، هيا نتنزه، وأحياناً تكون نزهات لا نعود منها، هذا ما نسمعه يقال، لكن أثناء ذلك يصير الرجل المدني حارساً ويصدر أمراً، كوماندة المركز هنا ليطيع، إنه مأمور، رجل لا قيمة له «خذوا هذا الرجل لصالة الاسترخاء، وليسترح هناك حتى الغد». يشعر جوان المنحوس أنهم يجرونه من ذراعه بأسلوب وحشي وأنهم يسوقونه إلى الجزء الخلفي من المركز، إنها حديقة تعبّر عن الذوق الوردي للحرس الجمهوري، ربما من أجل هذا تُغفر لهم كل خطاياهم الكثيرة، الحراس المساكين يعشقون الزهور، وهذا لأن روحهم المتصلبة لم تفقد كل شيء، فلحظة جمال وبهجة تمسح عن عيني القاضي الأعلى أسوأ الجرائم، وهي جريمة جر جوان المنحوس من جبل لافري وإدخاله زنزانة مؤقتة وسجون أخرى غير مؤقتة، دون أن نحكي ما ستعرفونه بعد ذلك. أنا الآن في زنزانة مركز مديرية، تتكون من دكة وحصيرة وحزمة من البطاطين التي تبعث في النفس الاشمئزاز، وبها أيضاً حنفية، ألهث من العطش، أضع فمي، ينزل ماء ساخن، أفعل ذلك بعد أن خرج الحارس، الآن نعم أستطيع البكاء فلا تسخروا مني، لدي أربعة وأربعون عاما، لكن يا رجل، في الرابعة والأربعين نكون أطفالاً، في قمة الحياة، هذا ما يدور في الوسية وفي وجهي من كلام سيئ. عندما أكون متعباً أشعر بنفسي هكذا، بهذه الوخزة التي لا تفارقني أبداً، وهذه التجعيدات التي ما زالت المرآة تعكسها، إن كانت هذه قمة الحياة، فدعوني أبكي في سلام.

قضى جوان المنحوس ليله بلا نوم، قضاه في التجول أربع خطوات ذهاباً وأربعاً أخرى إياباً، حتى إن الجسد لم يعرف الراحة فوق هذه الدكة. شق النهار الليل وتسرب التعب لجسد الرجل المتعب والساهد، ماذا سيكون مصيري، وعندما دقت التاسعة صباحاً فُتح الباب وقال حارس «اخرج من هنا أمامي»، هذه طريقة كلامه، فلم يعلّموه طريقة أخرى، والآن يقول الرجل ذو الزي المدني «هيا إلى القطار، لقد حان الوقت، هيا لنزهتنا». يخرجان معاً ويمران بباب كوماندة المركز، وهو هنا رجل كثير الوساوس حسن التربية «إلى اللقاء» يقول. ولو كان جوان المنحوس بريئاً، فلن يكون بالبراءة التي يظن بها أن هذا الوداع يخصه، وفي الطريق لمحطة القطار، في تلك الساحة

الصحراوية، يقسم بيأس «يا سيدي، أنا بريء». لو لم يكن القطار على وشك الإقلاع لاستطعنا أن نجلس هنا لنتناقش ونوضح ما البراءة ومن البريء، وإن كان جوان المنحوس يصدق بالفعل في القسم الذي أداه، وكيف يصدق يميناً تبدو كاذبة، وسنرى، لو كان أمامنا وقت وسفسطة، لعرفنا الفرق بين البريء من الذنب والذنب البرئ، رغم أن هذه الدقة لا تناسب مرافق جوان المنحوس الذي يجيب ثائرا «دعك من هذه الأحزان، ففي لشبونة سيرتبون لك سريرك».

يستغرق السفر ساعة، نرى أنه ليس فصلاً مقبولاً في تاريخ السكك الحديدية البرتغالية. إنه الجسد الرفيع يا سيدي الذي استطاع جوان المنحوس أن يخضعه للغفوة، تهزه بشدة العربة وارتطام العجلات بالقضبان، في الترسو، لكنه بعد ذلك كان يفتح عينيه بضيق ليكتشف كل مرة أنه لم يكن يحلم. ثم يصعدان لمركب يسوقهما لـ تيريرو دو باكو «لو ألقيت بنفسي في الماء»، إنها أفكار سوداء «بذلك سأقضي على حياتي»، وهو ليس فعلاً بطولياً، ولا يمثل لجوان المنحوس حدثاً مميزاً، فهو رجل لم يرتد السينمات ولم يعرف مدى سهولة القفز بلا أياد فوق باطن جنب المركب ولا كم التصفيق، ولا الغرق القاسي ولا هذا العوم الأمريكي الذي يفضي بالهارب إلى المركب السري المؤجر الذي ينتظر بعيداً مع الكونتسية الملثمة التي مزقت الروابط الأسرية وأعراف التراث الكونتي بسلوكها هذا. لكن جوان المنحوس،

وسنعرف ذلك فقط فيما بعد، ابن ملك والوريث الوحيد للعرش، العرش الملكي، الملكي من خلال جوان المنحوس ملك البرتغال، ها هو المركب يدنو من المرسى، ومن كان غافيا استيقظ، وعندما ينتبه السجين يجد أمامه رجلين يسألان «أهذا فقط؟»، فيجيب الحارس الذي يرافقه «هذه المرة هذا الرجل فقط».

نعبر من دون أن نتأمل المشهد المدني الملفت، الترام، السيارات الغزيرة، العابرين، مَن يكون اليد اليمنى لحصان السيد يوسف؟ يعبرون في خط قطري، يتعرف جوان المنحوس على الأماكن، فالميدان الكبير لا يمكن نسيانه، والأقواس، إنها أكبر من أقواس الجيرالدو، لكنه بغتة يرى كل شيء جديداً بالنسبة له، اختصار الطريق عبر الأزقة والسير العسير، وأمامه يظهر الطريق الطويل عندما يعود فجأة قصيراً، هذا الباب الموارب يفتح، بذبابة معلقة في خيوط العنكبوت، إنه ليس إلا وصفاً أكثر رقة وأصالة.

والآن صعود السلم. ما زال المنحوس يسير في وسط حارسين لا يأخذان حذرهما، لكنهما يفرضان أمناً عالياً، فهو رجل خطر. من أسفل لأعلى ثمة مكان يشبه مسكن النمل، تفيض منه الجلبة والبلبلة، يعملون كما النحل في خليته، تتطرق للسمع ضوضاء أجراس التليفونات، لكنه كلما صعد، الطابق الأول، الثاني، الأدوار العليا، كلما تضاءل الضجيج والاضطراب، يقل عدد الأفراد، وفي الطابق الثالث يسود الصمت شبه التام، لا تصل إلا جلبة مخنوقة، جلبة مواتير السيارات وهمس المدينة تحت قيظ الظهيرة. ثمة غرف في السطح وهذا الدهليز المفضي لتقسيمات عريضة، قصيرة السقف، حتى يكاد سقفها يلامس الرأس، وفوق هذه الدكك المنتشرة ثمة رجال يجلسون، بجانبهم سأجلس أنا أيضاً، جوان المنحوس، رجل طبيعي وجار من جبل لافري، أبلغ الرابعة والأربعين عاماً، ابن دومينجو المنحوس، الإسكافي، وسارة دي لا كونثيبثيون، المجنونة، والمصنف على أني

خطر، كما تكرم وأخبرني الشاويش تباكو، شاويش نقطة قريتي. ينظر الرجال الجالسون إلى جوان المنحوس لكن لا ينبس أي منهم بكلمة. هذا بيت الصبر، وهنا يجلس الجميع في انتظار مصيره. السقف فوق رؤوسنا بالضبط، يصّر من القيظ، لو صبوا عليه ماءً لغلى، ومنذ أربع وعشرين ساعة لم يتذوق المنحوس الطعام، وهذا الحر بالنسبة له لا يعد قيظا، بل يوما من أيام الشتاء، يرتجف كما لو أنه معرض لريح ديسمبر في الوسية، بلا غطاء إلا جلده المكشوف. ما هذا إلا تشبيه رقيق مثل التشبيهات الأخرى، وحقيقة صرف، هذه دكة العرايا، كل يتعرى بنفسه، وهناك لا يستر البعض البعض الآخر، غط نفسك بشدة وثبات، كأنك في عزلة الأرض البور، وتحليق الحدأة عالياً وهبوطها أخيراً لسطح الأرض لتروي لذويها وتقيّم شجاعة كل منهم. لكن يجب أن يطعموا الضحايا وإلا سيفقدونهم قبل الوقت المناسب. مرت نصف ساعة ونصف أخرى، ودخل في النهاية عسكري يحضر معه لكل سجين طبقاً به حساء سجنيّ وعشري لتر من النبيذ، إنها تحية من الوطن لزبائنه هؤلاء، فعليهم أن يشكروا. وعندما كان جوان المنحوس يمسح قعر طبقه بالملعقة، سمع شرطيا يقول لآخر، وهما عند الباب يحرسان الزريبة ويجمعان الورق «هذا الرجل سيتم عرضه على المفتش بافيا»، فأجابه الآخر «إذن فهو يحمل توصية معه!» فقال جوان المنحوس لنفسه «إنهما يتحدثان عني»، وكان خيراً له، كما عرف بعد ذلك، لو لم يظل على جهله. حملوا الأطباق والأكواب بداخلها واستمر الانتظار، ماذا عنّا، وعندما كان الليل على وشك الهبوط جاء أخيراً الأمر بالسير، بعض من هنا وبعض من هناك، إما إلى كاكسياس وإما إلى ألجوبي، تنظيم مؤقت لن يدوم طويلا تليه انتقالات أخرى، كعب دائر، وكلما نطقوا اسماً دار وجه، وعندما يدار وجه كساه الجبن. وكان صوت الوطن بلا شك هو صوت السيدة رعاية، الموظفة بهيئة الخدمة العامة، فلان إلى هنا، علان إلى هناك، والحق أن اسمها على مسمى فهو يناسب وظيفتها الراعية، الشيء نفسه يحدث مع السيدة كليمينثيا التي تتحدث الآن بلا شك مع الأب أجاميدس «يبدو أنهم اعتقلوا جوان المنحوس»، «بالطبع يا سيدتي، لقد اقترف جرائم والآن يدفعها مجتمعة، ولقد تعرضت لكثير من المضايقات من جانبه وجانب الآخرين»، «لكنه تبدو عليه الطيبة»، «هؤلاء هم أشر الناس، يا سيدة كليمنثيا، هؤلاء هم أشر الناس»، «كما أنه لا يرتاد الحانات»، «أتمنى أن يكون كذلك، فعلى الأقل لن ينشر شره بين الناس»، «وماذا اقترف»، «آه، هذا ما لا أعرف قوله، لكنه لو كان بريئاً ما جاؤوا لاعتقاله»، «من الخير أن نساعد زوجته في المستقبل بأي شيء»، «سيدتي كليمنثيا، أنت قديسة، فلولا رعايتك الرحيمة لا أعرف إلى ما سيؤول مصير هؤلاء المساكين البؤساء، لكن علينا أن نتركهم بعض الوقت حتى يتعلموا التنازل عن كبريائهم، فهذا أسوأ عيوبهم، الكبر»، «معك حق يا بابا أجاميدس، والكبر ذنب مميت»، «أسوأ الذنوب يا سيدة كليمنثيا، فالكبر من يجعل الإنسان يقف ضد ولي نعمته ويعترض على إلهه».

في طريق الخروج، عبرت العربة بـ بوا هورا لتأخذ بعض المساجين الذين ينتظرون حكما. كل شيء يتم حسابه بدقة، ولتطلع على أمر المركز يجب أن يستغلوا كل سنتيمتر في عربة نقل المساجين، وكما يقول المثل من يحمل الورق المتساقط يحمل قشر الشجر، وبما أن الوطن فقير، فالسجناء أول من يتقبلون فقره، ومن يدري ربما لا يشيرون لذلك، «علينا أن نعبر ب بوا هورا»، وثمة من يقول داخل نفسه «اسم ملعون»، «وسنأخذ من هناك من حكم

عليهم قضاة نزهاء»، وهكذا نذهب جميعنا، فليس أفضل من الصحبة، فالحسرة الحقيقية غياب أوكورديون عن صحبة هذه الأحزان. لم يسافر جوان المنحوس سفراً طويلاً كهذا طيلة حياته. يشبه في ذلك بقية أبناء الوسية، باستثناء ابنه أنطونيو، العسكري الذي جاب البلاد تحت ضغوط الحياة واحتياجات الفم، حاملاً حقيبته على كاهله، كما حمل على ظهره الفأس والمنجل، البلطة والقدوم، لكن أرض الوسية تشبه بعضها، قد يفوق سنديان الفلين في مكان ما البلوط الأخضر، وفي مكان آخر يفوق القمح الأرز، الحراس، رؤساء العمل، المديرون، المتعهدون، لكنها في الآخر تشبه بعضها، مع ذلك بعد هذا السفر مغامرات أخرى، طريق ممهد مرصوف بالقطران، ولو كانوا بالنهار لكانت الرؤية أفضل. الوطن يراعي أولاده العصاة خير رعاية، كما نرى ذلك في الأمن المحيط بهذه الأسوار العالية وحذر الحراس، آه يا سادتي، أيكون هذا وباء ينتشر في كل مكان، أم أنها لعنة صبت عليهم يوم مولدهم وهذا مصيرهم، لعنة تحل عليهم أينما وجدوا، لكن هذه اللعنة لا تهتم بالمصائب المعروفة، فلا عين لها ولا يد، وإنما لتقول «اركب الجيب فنحن سنذهب لنتنزه»، أو لتقول «أسرع»، أو «هيا تقدم، سنذهب للمركز»، أو «هذا نصيبك، ماذا سنفعل لك، هيا ادفع الغرامة واحتمل العلقة»، يجب أن يطبقوا ما تعلموه، فلو لم يفعلوا ذلك ما صاروا حراساً، فلا أحد يولد حارساً.

يجب أن تميز بين تأمل الراوي وفكر جوان المنحوس، لكن لاحظ أن كل ما يروى صواب، ولو عثرت على أخطاء، فاقسمها بيني وبين المنحوس. هذه البيروقراطية في التسجيل، في الأرقام والأسماء، على حالها منذ مولدنا، علينا ألا نتوقف أمامها، إلا اذا كان ممكناً ذات يوم أن نأتي هنا لنعرف بالتفصيل أي إيماءات أصدروها وأي معاملة تعاملوا بها، وذلك بدءاً من السطر الذي ذكر فيه الاسم، جوان المنحوس، في الرابعة والأربعين من عمره، متزوج، رجل طبيعي وجار من جبل لافري، أين قيلت هذه العبارات؟ في المجلس المحلي بمونتيمور أم في نوفو؟ يجب أن تكون نعم الإنسان. ساقوا جوان المنحوس إلى صالة بها سجناء آخرون، فلينم إنْ استطاع، أما بالنسبة للجوع فليحتمله، لأن ساعة العشاء قد فاتت. يُغلق الباب وينتهي العالم. جبل لافري صار حلماً، وفاوستينا صارت صماء، يا لها من مسكينة، لكن علينا ألا نقول، حتى لا تكون تشبيهاتنا خرافية ومحالة، إن هذه ساعة الخفافيش والهامات وأمهات قويق، تلك الحيوانات المسكينة التي لم ترتكب ذنباً لتكون قبيحة الشكل. أمن الممكن أن تقنع نفسك أنها جميلة؟ ينظر الأحمق. سيقبع هنا جوان المنحوس أربعاً وعشرين ساعة. لن يجد متسعاً من الوقت ليتحدث كثيراً، برغم أنه في اليوم التالي سيدنو من سجين ويقول له «اسمع يا صديق، نحن لا نعرف لماذا توقف مصيرك هنا، لكن من أجل مصلحتك اكتب هذه النصائح».

ثلاثون يوماً من العزلة تساوي شهراً لا يمكن أن يسعه أي تقويم. مهما حسبنا واستعملنا جدول الضرب، دوماً ستفيض أيام. لقد اخترع علمَ الحساب حفنةٌ من المجانين، فها نحن نعد: يوم، اثنان، ثلاثة، سبعة وعشرون، أربعة وتسعون، وفي النهاية نعرف خطأنا، فلم تمض إلا ستة أيام. لم يسأله أحد عن شيء، أحضروه من سجن كاكسياس في وضح النهار هذه المرة، ليتمكن من رؤية المنظر الطبيعي من خلال فتحات ضيقة، تشبه إطلالته بذلك رؤية العالم عبر ثقب إبرة. وبعد أن أمروه بأن يخلع ملابسه، وهو أمر متعلق بأمن الوطن وقد مر بهذه التجربة من قبل أثناء الكشف الطبي

العسكري، نفع ذلك أم لم ينفع لا يهم، لكن هذه المرة نفع، فمن المؤكد أنهم لن يرسلوني إلى الخارج عارياً، فتشوا في جيوبي، قلبوها، نفضوها، خلعوا فرش حذائي، كم أنتم أناس خبراء تعرفون أين تحفظ الخبايا، لكنهم لم يجدوا شيئاً إلا منديلين قد أحضرتهما معي، أخذوا أحدهما، وعلبتي سجائر أخذوا إحداهما، ووداعاً للمطواة، وأحياناً ما يشرد أيضاً هؤلاء الشرطيون، والآن فقط يسحبون مني المطواة الأخرى، تخيلوا لو راق لي أن أقتل نفسي! صلوا لأجلي بترنيمة لأجل الموتى «عندما نقطع عنه الاتصال لن يستطيع استقبال زيارات ولا الكتابة لأسرته، وعلى العكس تماماً، سيكون معاقباً». لكن ذات يوم، في وقت متأخر جداً، سمحوا لي بأن أكتب وتلقيت ثوباً نظيفاً، مغسولاً ومكوياً بيد فاوستينا، كان مبللاً بعض الشيء بدموعها، كم نحن شعب عاطفي لم يستطيعوا حتى الآن أن يجففوا ينابيع دموعه.

في اليوم الخامس والعشرين، في الثالثة فجراً، كان جوان المنحوس يعاني الأرق في نومه، وبالتالي استيقظ في الحال. فُتح باب الزنزانة وقال الحارس «يا جوان يا منحوس، انهض وارتد ملابسك، عليك أن تترك الزنزانة». يا الهي، أحقاً سيطلقون سراحي، خيال المنكوبين لا كابح له، يضرب يمنة ويسرة ويفهم صحة وخطأ كل شيء، يقبل ما يقال، ويشعر بجذب الأطراف، عسى ألا يقطعوا أجنحة خياله. يسوقونه إلى طابق مختلف حيث ثمة من ينتظره، إنه كلب حراسة قبيح، ويقول الحارس بمزاجه المعتاد «ها هو القروي جاء ليتنزه»، ولا شك أن قوله هذا من قبيل العادة، فنحن نعرف ما النزهة، فهم لا يخدعون أحداً، لكنهم يعودون ويكررون، كما لو أنهم لا يعرفون قول شيء آخر، ولا يضيفون إلا إضافات طفيفة، «هيا، امش أمامي، سأعلمك طريق الفرقة»، هذا ما قاله كلب الحراسة نابحاً لجوان المنحوس، أما حارس ألجوبي فرجل مرح، شيطان في هيئة رجل قادر على أن يقول في هذه الساعة المبكرة من الصباح «رحلة سعيدة». الكلمة لم تكن موجهة للرجل، هذا ما كان

ينقص، كلها غنائم وأحياناً يُساء استخدامها، وثمة كلمات يجب أن تباع غالية واضعين في الاعتبار من يقولها ولمن تقال، كما في هذه الحالة، «رحلة سعيدة»، كلمة تقال عندما نعرف أن الرحلة أبداً لن تكون سعيدة، والحق أن الحيوانات أكثر رحمة، فهي على الأقل لا تتكلم. لكن كلب الحراسة هذا يأخذني في شوارع صحراوية، يا له من ليل بديع، رغم أني لا أرى سوى هذا الرواق السماوي الساكن فوق البيوت، على يساري الكاتدرائية، وعلى يميني كنيسة القديس أنطونيو الأصغر حجماً، وبعدها، عند المنحدر، كنيسة أخرى، لا صغيرة ولا كبيرة، كنيسة المجدلية، إنه طريق كنائس وأنا أسير في حماية مملكة السماء وربما لهذا يحدثني كلب الحراسة حديثاً ناعماً «لا تقل إني من أخبرتك، وضعك في غاية السوء، يكفي أن أقول لك إن أحد زملائك من أرضك أعطاهم اسمك، ومن الأفضل لك أن تعترف بما تعرفه، فهذه أسرع طريقة للعودة سريعا لأسرتك، بالعند لن تربح شيئاً». هذا الشارع يحمل اسم القديس نيكولاس، والشارع الآخر القديس فرانثيسكو، ولو بقي بين شارع وآخر أي قديس في الطريق لاستغلوه «أنا لا أعرف عما تتحدث يا سيدي الشرطي، فأنا لم أرتكب جريمة وحياتي كانت دوماً عملاً في عمل منذ ولدت، لا أدري شيئاً عن هذه الأمور، وذات يوم اعتقلوني، يعلم الله منذ متى، ثم لم أعد للدخول في أمور السياسة»، قال جوان المنحوس هذه الكلمات، بعضها صادق وبعضها كاذب، وكلها كلمات وهذه ميزتها، إنها تشبه عبور نهر عبر أحجار كلها متشابهة، حذار من التعثر، فالماء يجري سريعاً لدرجة يغمي بها العين، احذر. يعوي الآن كلب الحراسة، والمكان يعرفه بالفعل جوان المنحوس، هذا المنحدر بقضبان الترام اللامعة. «آه، حقاً، سترى ما يقع فوق رأسك»، وساعة الفجر الناعمة تحتمل الشتائم المنطلقة، رجل ابن كذا

وابن كذا، وهي شتائم عرفها قليلا في الوسية. والآن حانت اللحظة التي يشعر فيها جوان المنحوس بأنه منهك القوة، فهو ملقى في الزنزانة منذ خمسة وعشرين يوماً، بلا حركة تقريباً، من الزنزانة إلى الحمام، من الحمام إلى الزنزانة، برأس مسكين لا يتوقف قط عن التفكير، رابطاً أفكاراً تقطعه في وسط تأمل مترع بالحزن، أما لياليه فبلا نوم، والآن يأتي طريق يبدو له طويلاً مع أنه لا شيء مقارنة بأرض الوسية التي تعرفها جيداً ساقاه، وفجأة يهاجمه الخوف من ألا يحتمل، الخوف من أن يحكي ما يعرفه وما لن يستطيع معرفته أبداً، لكنه يعود ليسمع صوت سجين كاكسياس «اسمع يا صديق، نحن لا ندري لماذا توقف مصيرك هنا، لكن من أجل مصلحتك اكتب هذه النصائح»، ولقد جاءت هذه الذكرى في موعدها وكانت الأمتار الأخيرة سريعة مثل حلم، ها هو يعبر الباب، يصعد درجات السلم، الطابق الأول من جديد، لا يرى أحداً، يسود صمت مرعب، الطابق الثاني، الطابق الثالث، لقد وصلنا، مصير جوان المنحوس ينتظره هنا، ينتظره بساق فوق ساق، هذا أكبر عيوب المصائر، لا تفعل شيئاً، فقط تنتظر، لنرى، ونحن من يتحتم علينا فعل كل شيء، مثل تعلُّم الكلام، وتعلُّم الصمت.

مرت عدة دقائق منذ وصل جوان المنحوس للمكتب، حيث دفعه كلب الحراسة، وبقي معه يحرسه. فُتح الباب فجأة ودخل رجل مهيب، حليق اللحية للتوّ، تفوح منه رائحة زيت الشعر اللامع، وأشار بإيماءة للآخر ليخرج وشرع في إطلاق صرخاته «بسبب هذا التيس، هذا الشيوعي الملعون، سيضيع عليّ قداس اليوم». ثمة من يحكي تلك الأمور الحقيقية، ومن الممكن ألا يصدقها أحد، لكنها حقيقة، ربما في هذه العادات الصحيحة تؤثر الجيرة الكنسية التي سبق الحديث عنها عندما كنا في طريقنا لـ ألجوبي، عندما شاهدنا شوارع الشهداء وميدان الكنيستين، كنيسة البعث والكنيسة الأخرى، ماذا تسمى؟ الأب أجاميدس هو من يروق له أن يقطن في هذا الحي، وربما يسمع اعتراف المفتش بافييا الغاضب لأنه سيضيع عليه القداس، لكن ماذا جرى! فقسم الشرطة هذا ليس به قس خاص، والآن، لتكون البناية كاملة، علينا أن نتخيل أن جوان المنحوس يقول «يا سيدي، لا تضيع القداس بسببي، لو أردت سأصطحبك». لا أحد يصدقه، ولا حتى جوان المنحوس سيعرف كيف قال ذلك، لكننا الآن ليس لدينا وقت لنتفحص ملامح البسالة هذه وعدم الوعي، فالمفتش بافييا لن يتركنا ولا حتى لنفكر، «عاهر، تيس، لوطي»، معذرة يا أب أجاميدس، فهذا ما قاله بالضبط، والذنب ليس ذنبي، «اخرس، وإلا سأركّبك أرجوحة البهلوان»، يا له من سيرك مليء بالفنون، فنون لم يكن يعرفها جوان المنحوس، لكنه يشاهد المفتش بافييا يتجه صوب منضدة، يا له من اسم سيئ، فلو فكرنا في معناه لوجدنا أنه غبط، هذه البلطة التي تستخدم للقمح وأضغطها على صدري، يخرج المفتش طبنجة من درجها، كذلك عصا الشرطي ومسطرة سميكة، «أيقتلني»، فكر جوان المنحوس، وقال له الآخر «أترى هذا، إنه من أجلك إن لم تحك الحكاية من الألف للياء، فاعترف، لأنك لن تخرج من هنا حتى تتقيأ كل ما تعرفه، كله بلا استثناء، وستظل واقفاً على قدميك هكذا ولن تتحرك قيد أنملة، ولو تحركت ستتشرب من هذه المسطرة».

كل ثلاث ساعات يخرج واحد ويدخل آخر. والضحية هو نفسه لا يتغير. «ماذا كنت تفعل في أرضك؟» «كنت أعمل لأعول أسرتي»، هذا السؤال الأول والإجابة الأولى، الأول سؤال متوقع والثانية إجابة صادقة، وكان من المفروض أن يطلقوا سراح هذا الرجل لأنه قال الحقيقة، «هل

كنت تعمل أم توزع أيُراً، أتظن أننا أغبياء!» «يا سيدي، أنا لم يكن لي دخل بهذه الأمور»، «إذن لم تكن أنت موزع الأُيُر، اتفقنا، لا بد أنك من كنت تقدم مؤخرتك، أنت وزملاؤك كنتم تقدمون مؤخراتكم لرئيس الخلية حتى يعلمكم العقيدة الشيوعية. انظر يا رجل، لو أردت أن تعود لجبل لافري ورؤية أولادك مرة أخرى سيتحتم عليك أن تروي القصة من الألف للياء، وألا تتستر على هذه العصابة التي كنت تجتمع معها، تذكر أسرتك وحريتك». يتذكر جوان المنحوس الأسرة والحرية، يتذكر قصة الكلب والحجل التي رواها سيجيسموندو كاناسترو، ولا يجيب، «هيا، احك الحكاية كما تقولون: هؤلاء الأوغاد، لصوص الحكم لن يعطوننا ما نريد، لكننا سنقضي على وجودهم، سننظم الثورات ضدهم وضد قوانين سالازار. أهكذا يتحدث بعضكم إلى بعض، أهذا ما تفكرون أن تفعلوه. قل الحقيقة يا شيوعي، لا تتستر على أحد، لو اعترفت بكل ما تعرف سنطلق سراحك غداً لتذهب لقريتك ولأولادك». وجوان المنحوس، كما هيكل الكلب الذي ينظر لهيكل الحجل، يكرر «يا سيدي، لقد قلت ما أعرف، اعتقلتوني سنة 1945، بعد هذا التاريخ لم أعد أبداً لنشاطي السياسي، ولو قال أحد غير ذلك فهو كاذب». يدفعونه نحو الحائط، يضربونه، يسبونه بكل السباب الموجود في اللغة البرتغالية، فعلوا ذلك وكرروه، بثبات لا يضاهى، من جانب لآخر، لكن الضحية ظل دوماً على موقفه.

سيظل جوان المنحوس واقفاً على قدميه كما التمثال لمدة اثنين وسبعين ساعة. تتورم ساقاه ويشعر بالدوار، وكلما ثُنيت ركبتاه يضربونه بالمسطرة وبالعصا، ضرباً لا يفضي إلى موت، فقط كافياً لجرحه. لم يبك، رغم أن الدموع تسكن عينيه، وعيناه اغرورقت بالدموع، لو رآه حجر لشعر نحوه بالشفقة. بعد عدة ساعات انفشّ الورم، لكن تحت الجلد تظهر عروق متهيجة وصل سُمكها لسُمك إصبع تقريباً. يغيّر القلب مكانه عندما يضربونه بمطرقة تضرب وتصعق، فيتردد صداها داخل الرأس، وحينئذ، في النهاية، تخور كل قواه ولا يحتمل البقاء واقفاً، فينحني وينحني من دون أن ينتبه لنفسه، حتى صار الآن في وضع القرفصاء. إنه أحد صعاليك الوسية المساكين يعصر خراء ضعفه الأخير، «انهض يا حيوان»، لكن جوان المنحوس لا يستطيع النهوض، لا يتظاهر بالضعف وإنما عدم استطاعته حقيقة أخرى تضاف لحقائقه السابقة. في الليلة الأخيرة سمع صرخات ونهنهات في الزنزانة المجاورة، ثم دخل المفتش بافييا بصحبة عدة هائل من رجال الشرطة، وبينما كان صدى الصرخات يكرر من جديد، وكل مرة تشتد حدتها، اقترب بافييا ببطء محسوب وقال بصوت أراد أن يكون مرعباً «ماشي يا منحوس، ها قد ذهبت لجبل لافري ورجعت، أتستطيع أن تحكي لنا الحكاية؟». من عمق البلوة، شبه لامس لألواح الأرض بكليتين ممزقتين وبعينين يغشاهما الغمام، أجابه جوان المنحوس «ليس لدي ما أرويه، لقد قلت كل ما يجب أن أقوله». تلك عبارة متواضعة، عبارة تشبه هيكل الكلب بعد أن تسمر في مكانه لمدة عامين، عبارة لا تستحق غالباً أن ندونها تدويناً خاصاً، فثمة عبارات تاريخية أكثر أهمية مثل «أيها الجنود، أربعون قرناً من الزمان تطل عليكم من قمة هذه الأهرامات»(12)، «ملكة ساعةً أفضل من دوقة طول العمر»، «أحبوا بعضكم بعضاً»، لكن دم المفتش بافييا يغلي «إذن ما معنى أن توزع خمسة وعشرين منشوراً في قريتك، لو أنكرت ذلك سأقتلك». فكر جوان المنحوس «إما الموت وإما الحياة»، والتزم الصمت. سيفقد المفتش بافييا القداس مرة أخرى، إلا إذا اعتبرنا أن الاثنتين والسبعين ساعة التي قضاها

المنحوس كما التمثال كافية لتعويض القداس الأول، والحق أنه قال «خذوا ابن القحبة هذا إلى الجوبي، وأريحوه هناك، ثم أعيدوه إلى هنا ليعترف أو ليدخل قبره».
يتقدم حينئذ تنينان، يمسكان بذراعي جوان المنحوس ويسحبانه على درجات السلم هابطين، من الدور الثالث حتى السفلي، وبينما يجرانه يقولان «أيها المنحوس، اعترف بكل شيء فذلك خير لك ولذويك، وإن لم تعترف سيرسلك المفتش إلى معسكر الاعتقال بـ تارافال، واعلم أنه يعلم كل شيء، فصديق لك من فينداس نوفاس قد تحدث عنك، ليس عليك إلا أن تؤكد ما قاله». أما جوان المنحوس الذي لا يستطيع أن يصلب طوله ويشعر بأن قدميه تتساقطان منه من درجة سلم لأخرى كأنهما لا تنتسبان له، فيجيبهما «لو أرادوا أن يقتلوني فليقتلوني، لكن ليس عندي ما أقوله».
يرميانه داخل عربة نقل السجناء، كان السفر قصيراً ولم يحدث زلزال، فما زالت جميع الكنائس منتصبة ومنتصرة، وعندما دخلوا ألجوبي وفتحا باب العربة «هيا، اقفز للخارج» سقط المسكين لأنه لم يدس على الرِكاب، فسحباه من جديد جراً وقد صارت قدماه الآن أكثر ثباتاً لكن ليس بالشكل الكافي، ودفعاه داخل الزنزانة التي كانت لأجل المصادفة او التحديد الزنزانة السابقة نفسها. كان جوان المنحوس راقداً على بطنه أمام مرتبة تبنية، على وشك الإغماء، لكنه ما بين اليقظة والحلم هُيئ له أنه استعاد قوته وسحب نفسه واستسلم للسقوط فوقها كما الميت، ثمان وأربعون ساعة بكامل ملابسه وحذائه. إنه تمثال ممزق، لا يسنده إلا أسلاكه الداخلية، ماريونيت الوسية تطل برأسها من فوق الستار وتعوج قسمات وجهها كلما حلمت، تكبر لحيته ومن شدقيه يهرب خيط من لعابه يفتح بتشرد طريقاً بين شعره وعرقه. خلال هذه الأيام سيظهر السجان ليتحقق إن كان شاغل الزنزانة حياً أم مات، وفي زيارته الثانية سيتنفس الصعداء حيث يجد النائم قد غيّر وضعه، هذا أمر معروف، فعندما يأتون من عمل التمثال ينامون هكذا، فلا يحتاجون حتى الطعام، لكن النوم الآن لا يكفي، وقد صار النوم أقل عمقاً. «استيقظ يا رجل، فطعامك على الرف». يجلس جوان المنحوس على المرتبة التبنية، لا يدري أحلم أم
علم، ففي الزنزانة لا أحد سواه لكن ثمة رائحة طعام، يشعر بجوع ضارٍ يلتهمه، وعند محاولة نهوضه الأولى تُثنى ساقاه وتتعكر عيناه، إنه الضعف، يحاول مجدداً، ليس إلا خطوتين بينه وبين الرف، أسوأ ما في الأمر أنه لن يستطيع الجلوس، فهناك يأكلون واقفين حتى يقعدوا سريعاً، وجوان المنحوس رجل قصير القامة، لا يصل حتى الرف، ولكي يأكل يجب أن يقف على أطراف أصابعه، إنه استشهاد بالنسبة لهؤلاء الضعفاء، ولو سقطت على الأرض حتى بقعة، يعرف أنه لن يفر من العقاب، من يمنح الخبز، يحكم.

مرت خمسة أيام حدثت فيها أشياء كثيرة لتروى، لكن التوقف عندها يعد نقطة ضعف في السرد، ففي بعض الأحيان يتحتم القفز فوق الزمن لأن الراوي فجأة يشعر بعجلة، لا ليختم القصة، فهذا ليس وقته، بل للوصول لواقعة هامة، لتغيير أرض السرد، والحدث هنا هو قفز قلب جوان المنحوس من مكانه لأن السجان دخل الزنزانة في التو وقال «يا منحوس، جهز نفسك للخروج من هذا السجن، يجب أن تدع البطاطين في الأمانات، كذلك الدورق والملعقة، أريد أن أرى كل شيء مرتباً فورا، سأعود في الحال». نقيصة رجال الوسية هؤلاء، بالإضافة لكونهم أبرياء، أنهم يفهمون الكلام بمعناه الحرفي، الخبز خبز، الخمر خمر، لهذا يسرّ جوان المنحوس ويطير من الفرح. «سأرى إن كانوا سيطلقون سراحي حقاً»، إنه رجل معتوه، سنعرف ذلك عندما يعود

الشرطي في الحال ليصطحبه إلى الأمانات، حيث يترك البطاطين والملعقة والدورق، ويتلقى أشياء قليلة ذات استخدام شخصي كانوا يحتفظون بها هناك، والآن «ستذهب للزنزانة المختلطة، لقد رفعوا عنك حظر الاتصال ويمكنك الآن أن تكاتب أسرتك وتطلب منهم ما تحتاج إليه»، وفتح الباب وبالداخل كان عالمٌ من الناس من كل الجنسيات، إنها صيغة مبالغة، أريد أن أقول إنهم كثيرون، رغم أن بينهم كان ثمة أجانب، لكن حياء جوان المنحوس ولهجة ألنتيجو الريفية التي يتحدث بها لم يسمحا له بالتعامل مع الموجودين بألفة، وبمجرد أن أُغلق الباب، أحاط به البرتغاليون راغبين في معرفة أسباب سجنه وأخبار البلد بالخارج، إن أمكن ذلك. ليس لدى جوان المنحوس ما يداريه، حكى كل ما حدث له وبطريقة ما ظل راسخاً في كلمته أنه منذ سنة 1945 لم يمارس أي نشاط سياسي، وظل يردد ذلك هناك، رغم أن أحداً لم يسأله.

هناك، غدا جوان المنحوس شعبياً جداً، لدرجة أنه عندما رأى أحد زملاء السجن يدخن، طلب منه سيجارة، وكانت هذه جرأة لم يعرفها من قبل، وحينئذ قدم له عدة زملاء سجائر، لكن أحلى ما قدم له كان من زميل آخر، يجلس نائياً يتابع الحوار، اقترب منه بعلبة دخان عالي الجودة ودفتر ورق بفرة وعلبة كبريت، «يا رفيق، عندما تحتاج إلى شيء، قُل، فما يمتلكه الفرد تمتلكه الجماعة» تخيلوا ماذا شعر جوان المنحوس، مع النفس الأول زاد شبراً، ومع الأنفاس التالية عاد لحجمه الطبيعي لكن بانتعاش أكبر، إنه رجل ضئيل الجسد وسط آخرين يشاهدونه يدخن ويبتسمون. حتى في حياة السجناء نجد الميول السعيدة والاتفاق. بعد يومين يستدعون المنحوس في مكتب خارج الزنزانة المختلطة ويقول له حارس بوجه مبتسم، كما لو كانت الهدية من طرفه، فهكذا الحرس يملؤهم التناقض «يا منحوس، لقد جاءك هذا الثوب وأربع علب دخان وعشرين إسكودو من طرف سيد من قريتك». اهتزت مشاعر جوان المنحوس من ذكر جبل لافري أكثر من ذكر الهدايا، وسأل «من كان هذا السيد؟»، «هذا لا يهمني، فبالنسبة للحارس حامل الشيء هو حامله، ليس إلا ذلك». لم يكن جوان المنحوس يعرف ذلك. عاد إلى الزنزانة المختلطة بكنزه وبمجرد أن دلف أطلق صرخة لا بد أن صداها تردد في الوسية الآن من جانب لآخر «الآن يا رفاق، من أراد أن يدخن، فها هو الدخان» فأجابه صوت آخر بصيحة، صوت يشبه مكبرات الصوت «هكذا يجب أن نكون أيها الرفاق، فما يمتلكه الفرد تمتلكه الجماعة، فهنا كلنا أخوة، بالحقوق نفسها». بشكل عام، اعتدنا أن نختار للبرهنة على التضامن الواضح أحوال ذات مواد مختلفة، لكن فليأخذ كل واحد ما يحتاجه وليعط ما يملك، سجائر، نُسالات دخان ملفوفة في كفنها الأبيض، والآن يمررون طرف اللسان المرتعد على طول ورقة البفرة، إنها النهاية، العمل المنتهي، مريض في إنسانيته من لا يدرك هذه الأفعال العظيمة.

خرج البعض، والبعض الآخر ظل سجيناً، ودخلت وجوه جديدة لكنها بشكل عام ليست وجوهاً مجهولة، فهناك دوماً من يقول «يا للمصادفة، أأنت أيضاً جاؤوا بك هنا»، وبعد مرور عدة أيام يظهر عند باب الزنزانة المختلطة شرطي يقول «يا منحوس، جهز نفسك، البس معطفك لأنك ستتفسح، لكنك ستعود في الحال، فلا تأخذ شيئاً معك». لا تبدو المقولة صدقاً، فكل ما يقولونه أكاذيب، مع ذلك يستعد المنحوس ليؤكد أن قلبه وقع في قدمه، وهذه حقيقة أكثر تأكيداً من كونه لم يمارس نشاطات سياسية في الأربع سنوات الأخيرة. يكرر الطريق نفسه بكلب الحراسة بجانبه،

هذه المرة يعد صبياً أمرد، يبدو متوترا، ربما يكون غير معتاد على ذلك، يضع يده باستمرار في جيبه الخلفي ولا ينبس بكلمة، على الأقل يستطيع جوان المنحوس أن ينظر للعابرين، أيعرفون أني سجين؟ يستطيع أن ينظر للترام، ومع مرور الدقائق ينسى الشعور بالخوف، والأن يداهمه الخوف مجتمعاً، تتشتت أفكاره ويهرب دمه، يشعر بالحنين للزنزانة المختلطة وللسيجارة التي يخمّس فيها الرفاق، وللحوارات التي تدور هناك. تخترق جسده مخاوف التمثال ولا أحد ينتبه إليه، لكن من يدري كم يعاني

هذا البرونز وهذا المرمر ليظل واقفا على قدميه! كيف لا تصاب بالانقباض عضلات هؤلاء الرجال ذوي الأذرع المفرودة، وهذه الحيوانات الواقفة بكامل قوتها فلا تنحني ولا تسقط، مع أنها جميعها تنقصها الإرادة التي يمتلكها إنسان من لحم ودم إلا أنه يصيبه الوهن فيجلس مقرفصاً، ولا تستطيع حتى أطراف أصابع قدميه أن تساعده على النهوض، فيستسلم للوهن الأخير وقد يدنس نفسه، ويكفي أن لسانه لا يتكلم إلا لتكرار الكذبة نفسها. لكن التنبؤ بأن العاصفة ستجدد الهواء أو ستلتقي بالألم المعروف من جديد، أو تخيل ما هو أسوأ، هذا بالتحديد ما يشغل بال جوان المنحوس، وفجأة يحيط بالمدينة ظلام عظيم مع أنهم بالنهار، وقيظ يشبه قيظ أغسطس، إنه جو غير مريح، ماذا سيحدث لي، أي استشهاد ينتظرني.

فُتح من جديد الباب مواربأً، صعد جوان المنحوس السلم وتحرش به كلب الحراسة الصارم. دخلا المكتب، انظر من جاء هنا، إنه رجل فينداس نوفاس الذي جاء في النزهة والسفر حتى تيريرو دو باكو مع جوان المنحوس، يسمى لياندرو لياندرس، ويقول الآن بنبرة ازدراء «أتعرف لماذا جئت لهذه الفرقة» بينما المنحوس ظل مؤدباً ومحترماً «لا يا سيدي، لا أعرف»، فيقول لياندرو لياندرس «جئت لتحكي لنا بقية الحكاية، ومن الآن فصاعداً لن أكرر كلامي، فلا يلف مبروم على مبروم»، فيجري التحقيق نفسه، كم منشوراً وزعت، لماذا رجعت للجنة المحلية، ولماذا أقلعت عن الاجتماع معهم، وكم كان عددهم، ومن هم، لدينا هنا أحدهم قد أدلى باسمك، وإن كان قد أدلى فقد صدق، إن لم تعترف لن تخرج حياً، أحسن لك أن تتكلم، أقول ذلك من أجل مصلحتك، لكن جوان المنحوس ليس متيقناً من ذلك بالذات، وحتى لو كان متيقناً فأيضاً سيقول «ليس لي علاقة بالمنشورات منذ أربع سنوات، ولم أر إلا تلك الأوراق التي عثرت عليها بالشوارع والطرقات، والحقيقة أني لا أتذكر من أعطاها لي، لقد مرت سنون على ذلك، والشيء الوحيد الذي يشغلني هو عملي، وأقسم لك بذلك». وبرغم أنه كان التحقيق نفسه، الأسئلة والأجوبة نفسها، الضغط والكذب نفسهما، إلا أن هذه المرة كانت خالية من الضرب، وتمثال جوان المنحوس ظل في مكانه الطبيعي محفوظاً، جالساً على كرسيه، وكان يبدو مستعداً لالتقاط صورة، مع أن روحه كانت تقفز داخل قلبه كمسكينة ومجنونة من الرعب، وإرادته الشاحبة الثابتة تقول «لا يمكن أن تعترف، اكذب كما تشاء، لكن لا تعترف». وكان ثمة اختلاف آخر، وجود كلب حراسة أقل رتبة من الأول يكتب على الآلة الكاتبة الأسئلة والأجوبة، وبعد استهلاك الكثير من الورق وجد أن التحقيق لم يكن يستحق التدوين لأنه كان مثل الحرث في البحر، دائما حلقة مفرغة، والبغلة تطأ روثها والشمس تمضي هابطة، وحينئذ كانت الاعترافات تنتهي وكاتب الآلة الكاتبة يسأل «أين أضع اعترافات هذا الرجل»، فيجيبه لياندرو لياندرس «اتركها هنا بجانب اعترافات البوركيركيه»، دون أن ينتبه لما يقوله، فوقع الاسم كالصاعقة على رأس جوان المنحوس الذي تعب من كثرة التفكير فيمن سيكون قد اعترف عليه، والآن يعرف، إنه البوركيركيه، يا له من جرح غائر، يا لها من حسرة، ماذا فعلوا

فيه كي يعترف، أم فعل ذلك بمحض إرادته، أم أصابه شيء في عقله، أحياناً يحدث ذلك، ولم يتنبأ جوان المنحوس بأنه بعد ذلك بسنوات سيرى البوركيركيه ذات يوم، عابراً بجبل لافري، هذا الرجل الجبان الذي كان يقول قبل ذلك إنهم لو جاؤوا سأضربهم هكذا، سأطلق عليهم رصاصة، سأفعل ولا أفعل، وفي النهاية تراجع خوفاً، وعندما خرج من السجن نصّب نفسه راعياً للبروتستانتيين، أنا لا أريد شراً للأديان، لكن كيف يدعو هذا الرجل لإنقاذ البشر أجمعين عندما لم يعرف هو إنقاذ رفاقه القليلين، من يدري ما سيقوله لنفسه ساعة الموت، لكن جوان المنحوس يشعر اليوم بحسرة، كما يشعر ببهجة لأنه لم ينبس بكلمة، ربما لا يضربوني الآن من جديد ولا يجبروني على عمل تمثال، لن أدري إن كنت سأحتمل.

عاد جوان المنحوس إلى ألجوبي، وبعد عدة أيام يسوقونه إلى كاكسياس، وستُعرف هذه الأخبار أيضاً في جبل لافري. يتبادل الخطابات بتفاصيل دقيقة مع فاوستينا، ولا هزل في ذلك، فكل شيء يسير بانضباط لو جاءت من بعيد لتكون في مكان محدد وفي ساعة محددة، ولا يكون اللقاء خفية، حتى إن الحارس نفسه هو من يقول «ادخلي»، إنه شيء معقد، حيث يجب الذهاب من جبل لافري إلى فينداس نوفاس في عربة، ثم من فينداس نوفاس إلى بيريرو في قطار، ومن يدري إن كانت العربة نفسها تجمع المنحوس وليAndرو ليAndرس معاً، ثم يكون الانتقال في مركب، هذه المرة الثانية التي تشاهد فيها فاوستينا المنحوس البحر، وفم النهر هائل، ثم تركب قطارا مرة أخرى لتصل حتى كاكسياس، فترى البحر فجأة أكبر حجماً، «آه يا صاحبتي، أهذا إذن هو البحر؟» وتبتسم صاحبتها التي ذهبت لتنتظرها في تيريرو دو باكو وتعيش في المدينة نفسها، تبتسم متفهمة ومتسامحة أمام معرفتها القليلة، وتجيبها بالإيجاب، نعم هذا هو البحر، لكن جهلها يصمت عما تكون حقيقة البحر، فالبحر ليس هذا الشق بين اليابسة، وإنما الحنين السائل اللانهائي، هذه الحركة المستمرة لكتل الزجاج والزبد، هذه الصلابة المعدنية التي تتراخى وتتجمد، هذا المكان الذي يحوي الأسماك الكبيرة وحوادث الغرق الفاجعة، البحر هو الشعر.

إنها حقيقة جلية أن من يعرف كثيراً لا يحيط علماً بكل شيء، وصاحبة فاوستينا المنحوس عرفت الهبوط من القطار في محطة كاكسياس، لكن أين السجن، لا تريد أن تظهر جهلها فتسير في أي طريق، ربما يكون هنا، نحن في أغسطس، والحر يحرق في هذه الساعة التي تقترب من الساعة التي علمت بها وحفظتها في ذاكرتها باجتهاد، ساعة الزيارة، وحينئذ تحتم عليهما سؤال أحد المارة وعرفتا أنهما قد أخطأتا الطريق فعادتا للخلف يسكنهما الغضب لسيرهما الضال، فخلعت فاوستينا حذاءها لأن قدميها لم تعتادا على فتحاته، وسارت بجوربين مرقعين لكن هذا يثير في النفس الألم، وسنكون بلا قلب لو أضحكنا ذلك، إنه خزي يظل يحرق ذاكرتنا ما تبقى في عمرنا، كان الأسفلت ليناً من شدة الحر، ومن خطواتها الأولى التصقا به جورباها، وكلما جذبتهما فاوستينا كلما تمطّى الجوربان، إنها نمرة في سيرك، أفضل ما في الموسم، كفى، كفى، لقد ماتت أم البهلوان في التو، وكل الناس تبكي، والبهلوان لا يثير الضحك، فالحزن يغلفه، هذا حالنا ونحن بجوار فاوستينا المنحوس نصنع حجاباً لتساعدها صاحبتها على قلع جوربيها، بحياء، فحياء النساء لا يصح لرجل أن يلمسه، والآن تسير حافية القدمين ونعود نحن للبيت، ولو ابتسم أحدنا فهي ابتسامة رقة. لكن عندما تصل فاوستينا إلى الحصن تكون الجروح قد أصابت قدميها، وبالإضافة

لذلك سيعاقبونها بلبس الحذاء بلا جوارب، شيء مؤسف، سواد الأسفلت ونزيف الدم من الجروح، يا لها من قاسية حياة الفقير.

خرج الزائرون ومرت الساعة. لم يأت أحد ليرى جوان المنحوس ويسخر منه زملاؤه، إنها طريقة غبية لإثبات الرجولة، «إنها لا تريد أن تعرف شيئاً عنك»، «هذا ما لم أكن أنتظره»، بينما فاوستينا المسكينة تقاتل على الباب من أجل الدخول «أيوجد زوجي هنا؟» تسأل «يسمى جوان المنحوس»، فيجيبها حارس البوابة مازحاً «لا يوجد هنا هذا الشخص الذي تبحثين عنه» ويزيد الآخر سخرية «وماذا كان يرتدي زوجك عندما جاء للسجن»، إنها طرق للتسلية، فهؤلاء الحراس يقضون حياة رتيبة، حتى إنهم يضربون السجناء، حراس آخرون يقومون بذلك، لكن فاوستينا المنحوس لا تميز «نعم يا سيد، إنه هنا، لقد أحضرتموه بأنفسكم، فلا بد أنه هنا»، وكانت في حنق عصفورة، في غضب دجاجة، في هجوم خروف، شيء لا أهمية له، وفي النهاية قلب الرجل صفحات الدفتر وقال «معك حق، إنه هنا في زنزانة 6، لكن لا يمكنك أن تريه، لقد فاتت ساعة الزيارة». تنفجر فاوستينا المنحوس في البكاء وهي محقة. إنها عمود يتهدم، ونرى كيف تُفتح شقوقه وتتساقط أجزاؤه، له قدمان مجروحتان عمود الوسية هذا، الآن أيضاً يمكنها البكاء لهذا السبب، لكل ما عانته في حياتها وما زال ينتظرها لتعانيه، إنه الوقت المناسب لتذرف كل الدموع، ولتبالغي لو أردت يا فاوستينا، تفتتي في دموع، ربما بذلك تستطيعين تحريك قلب هؤلاء التنانين الحديديين، وإن كانوا بلا قلب فمن المحتمل أنهم لا يريدون أن تضايقيهم، ولأنك امرأة مسكينة فلن يطردوك بالركلات، ابكي إذن، اطلبي رؤية زوجك «اسكتي مرة واحدة يا امرأة، سنرى إن كان هناك أي استثناء»، هذه لغة لا تفهمها فاوستينا المنحوس، لذلك تظن أن هناك سجناً يسمى استثناء، لهذا يفتحون لها الباب لترى زوجها. حتى الطرق الخطأ تؤدي إلى الهدف، كل ذلك لن يدوم إلا خمس دقائق لكنها كافية للتعبير عن حنين جارف، ها هو جوان المنحوس قادم يحمل معه الأمل، ورفاقه يقولون له «لا بد أنها زوجتك» وحقاً ما قالوا «فاوستينا» «جوان»، ويتبادلان العناق وتهرب الدموع من عيني كل منهما، وهو يريد معرفة حال الأولاد، وهي تريد معرفة حاله هو، وفاتت ثلاث دقائق، وهل أنت بصحة جيدة، وأنت كيف حالك، أتعملين، وكيف حال جراثيندا وإيميليا وأنطونيو، أكلكم بخير، لقد أصبحتِ أكثر نحافة، اهتمي بصحتك ولا تمرضي، خمس دقائق، الوداع، بلّغيهم سلاماتي، سلامات كثيرة، ركزي جيداً في الطريق حتى تعرفي العودة، أنا أعرف الطريق الآن، لن أتوه، أنا لم أضل طريقي، الوداع.

سيقومون بزيارات أخرى له لكنها مختلفة، أكثر هدوءاً، ستأتي بناته، ويزوره أخوه أنسيلمو، كذلك ابنه أنطونيو المنحوس وسيخرج غاضباً، لم يثر أحد غضبه لكنه سيخرج غاضباً، سيبقى وقتاً طويلاً يتأمل الحصن بوجه متجهم، حتى لا يبدو أنه أنطونيو المنحوس، سيأتي كذلك مانويل السيف، سيدخل رصيناً ويخرج بنور هادئ في وجهه، سيظهر أيضاً بعض الأخوال وأولاد الأعمام، بعضهم يقيم في لشبونة، لكن زيارة هؤلاء ستكون في الأروقة، خلف ستارة معدنية يصعب من خلالها رؤية الأشخاص في الجانب الآخر، ودوماً يمر حارس ليستمع للشكاوي. وتمر الشهور، أيام طويلة وليال أطول في السجن، وينتهي الصيف ويلحقه الخريف ويقترب الشتاء، وما زال جوان المنحوس هناك، لا يستدعونه من أجل استجوابات جديدة، لقد نسوا وجوده، من يدري

إن كان سيظل سجيناً مدى الحياة! حتى يأتي يوم غير متوقع يرى فيه البوركيركيه وسيجيسموندو كاناسترو. كان سيجيسموندو أيضاً مسجوناً وهو لا يعرف، والبوركيركيه كذلك، سيعرف المنحوس ذلك متأخراً عندما يعود لجبل لافري ويسمعهم يقولون إنهم أطلقوا سراح سيجيسموندو كاناسترو ويعود، ويتعانق كلاهما بقلب متحرر «لم أعترف»، «ولا أنا»، «فعلها البوركيركيه»، فيزيد ألم سيجيسموندو كاناسترو لكنه يضحك، بينما لا يستطيع المنحوس أن يتجنب حزنه الناتج عن ظلم أوقعوه عليه. يتحدثون كثيراً في الزنزانة 6، يتناقشون في قضايا سياسية وقضايا أخرى، ثمة من يدرس ويعلّم، يعطون دروساً في القراءة، في الحساب،
بعضهم يرسم، إنها جامعة عامة، تلك أحوال معروفة، فلا شيء لأرويه، أو أن الأبدية لن تكفي للسرد.

اليوم يوم التحرير. لقد مرت ستة أشهر ونحن الآن في يناير. حتى الأسبوع الماضي كان جوان المنحوس يعمل في طريق الدخول مع زملاء آخرين من الزنزانة 6، تحت المطر، وكم كان برداً، كان كما الجليد الذائب، الآن يجلس مشغولاً بمصيره، كثيرون حكم عليهم وهو إلى الآن لا، لكن ثمة من يؤكد له أنها بشارة خير، أثناء ذلك يفتح الباب ويظهر حارس ينادي بصوت غليظ كالعادة «جوان المنحوس»، وجوان المنحوس يجيب بثبات، كما تقول لوائح السجن، فيقول الحارس «جهز نفسك لتترك السجن، بسرعة». يا للسعادة التي يشعر بها زملاؤه الباقون في السجن، كيف يشعرون بذلك، كما لو كانوا هم من أطلق سراحهم، ويقول أحدهم، «كلما أفرغوا السجن سريعاً كان أفضل، فهنا لا نفعل شيئاً»، إنه استنتاج منطقي كما يقولون، «كلما أعطوني العدة سريعاً، كلما بدأت في العمل أسرع»، حينئذ تثار الجلبة وتظهر أمهات يلبسن ابنهن، وثمة من يلبسه حذاءه أو يساعده في ارتداء قميصه، ينفضون له معطفه، كما لو كانوا سيرسلون جوان المنحوس لمقابلة البابا، أين رأى منظراً كهذا، إنهم مثل الصبية، كلهم على وشك البكاء، لم يبكوا بعد، لكن المنحوس بكى عندما سألوه «حسناً يا منحوس، لا بد أنك لا تملك نقودا لتعود لبيتك»، فأجابهم «يا رفاقي، معي القليل، لكني سأرتب أموري»، فبدؤوا في جمع المال، بعضهم دفع خمسة اسكودو، بعضهم دفع عشرة، وحصدوا بذلك مبلغاً يغطي رحلته ويفيض القليل، والآن حقاً عندما رأى المنحوس أن المال القليل يستطيع أن يخلق الحب الكبير، لم يستطع أن يتمالك دموعه، فيقول «شكرا يا رفاقي، ووداعاً، حظاً سعيداً لكم جميعاً، وشكراً أيضاً على كل ما فعلتموه لأجلي». وكلما خرج أحدهم، أقاموا له حفلة مشابهة، إنها البهجة التي تحدث في السجن.

كان الليل قد هبط عندما تركت العربة جوان المنحوس على باب ألجوبي. يبدو أن شيطان هذه الأرملة الطروب لا يعرف طرقاً أخرى، وعندما نزل المنحوس، بقدم حرة الآن، قال له الحارس «اختف من هنا»، كما لو أنه يتألم عند رؤيته ماشياً، هكذا أفراد الشرطة، يتعودون على المسجون وبعد ذلك يصعب عليهم مفارقته. يسرع جوان المنحوس في طريقه هابطا من شارع منحدر، كأن الشيطان ما زال وراءه، وهكذا ينظر من فوق كتفه ليرى إن كان أحد يتبعه، فمن أدراني أن هذه ليست لعبة من ألعاب الشرطة، يطلقون سراح مسجون ثم ينقضون على صيدهم، ومهما هرب الصيد المسكين، لا بد أن يقع في الشبكة، وهكذا يقيدونه من جديد ويدخلونه في عربة نقل السجناء، ويضحكون جميعهم بقهقهات، ويمسك الحراس بطونهم من الضحك، يا للضحك، لا أستطيع أن

أحتمل ضحكاً أكثر من ذلك، لم أضحك في حياتي هكذا، ولا حتى في السيرك. إنهم قادرون على هذا التفنن.

كان الشارع خالياً، خالياً بجد، فالليل قد فرد جناحيه على كل مكان، ولحسن الحظ لا تمطر، لكن الهواء بين هذه البنايات العالية يشبه موسى الحلاق غير الحاد التي تتحرك بسرعة، فتلامس ثوب جوان المنحوس الرث، إنه هواء عار مثله على ما يبدو. لا يركض، فقد أقلعت قدماه عن تلك العادة، ويمشي مقطوع النفس، لا يعرف حتى المشي، يرتكز على ناصية بجواله وحقيبته المربوطة بحبال، ورغم أن كل ذلك خفيف الوزن إلا أن ذراعيه لا تستطيعان احتواء الحمل، لذلك يريحه على الأرض، من رأى هذا الرجل ومن يراه الآن! من رأى هذه الأحمال التي يحتملها! ما من مخلوق في الشارع، لو لم يكن البرد قارساً لترك جسده يسقط على الأرض، فالمعاناة التي عاناها كانت أكبر من أن يحتمل الوقوف على قدميه، إلا أنه ما زال واقفاً. يمر بعض الأفراد، دوماً يظهرون في التو، ولا ينظرون إليه، فكل منهم يسير مشغولاً بحياته الخاصة، ما زال ينتظرني جهد كبير، إنهم لا يتخيلون أن هذا الرجل الواقف على الناصية خرج حالاً من سجن كاكسياس حيث أمضى هناك ستة أشهر، عمل فيها تمثالا لمدة اثنين وسبعين ساعة ولاقى من الضرب ما لاقى، لا بد أنهم لا يصدقون أن هذه الأشياء تجري في بلدنا الجميل، ومن يروي ذلك فلا بد أنه يبالغ. ماذا سيفعل جوان المنحوس في مدينة لا يعرفها، فلا يجد أي باب يمكنه طرقه «يا رفاقي، هبوني مأوى هذه الليلة، فلقد خرجت حالا من السجن»، ستكون تلك محادثة مختلفة، ماذا يعرف هو عن هذه البيوت، لقد قبض عليه الحارس جوزيه كالميدو في جبل لافري، وعليه أن يعود إلى قريته، اليوم لا، فقد هبط الليل، غداً سيرحل، بهذا المال القليل الذي وهبه إياه بعض الرجال المحتاجون، هؤلاء حقاً رفاق، لكنه سيكون من المضحك أن يعود الآن لكاكسياس ويطرق باب الزنزانة 6، مفترضاً أنه يستطيع الدخول بكل هدوء الدنيا، وعندما يفتحون له الباب يقول «يا رفاقي، هبوني مأوى هذه الليلة، فلقد دخلت في التو»، سيكون مجنونا بلا شك. إما أن يفعل ذلك وإما أن ينام رغم البرد، ومن المحتمل أن النوم قد سقط عليه، فهو لم يعد واقفاً كما كان يعتقد، بل جالساً على حقيبته ويتذكر، وقد تذكر قبل ذلك، لكنه الآن يتذكر من جديد، أنه يمكنه أن يطرق باب بيت تخدم فيه أخته ويقول، «يا ماريا دي لا كونثيبثيون، أتعتقدين أن سادتك سيسمحون لي أن أبات هنا هذه الليلة» لكنه لن يذهب، ربما في ظروف أخرى ما همه ذلك، كانوا سيبعثون ماريا لتفرش لي مرتبة في المطبخ، فلا يجوز أن يتركوا مسيحيا ينام في الشارع مثل الكلاب بلا صاحب، لكن في هذا الوضع،

خارجاً من السجن، من هذا السجن، ولهذه الأسباب، حتى لو وافقوا سيضعون بعد ذلك الوجه الخشب أمام أختي، المسكينة، التي حتى لم تتزوج، ودوما تخدم السادة نفسهم، كما لو كانت قد ولدت لأجل ذلك، ومن يدري ماذا سيقولون حينئذ، ليس من الصعب تخيله «إنهم دخلاء، ولولانا لماتوا جوعاً، سيدفع أخوك ثمن أفكاره الشريرة غالياً، فأفكاره ضدنا، أتمنى أن تفهمي ذلك، أفكاره ضدنا، الحمد لله أننا أصدقاؤك، ولن نجعلك تدفعين ثمن أفكار أخيك، لكن، بداية من الآن، من الأفضل ألا يدخل هذا البيت، أما أنت فاحذري، وقد أعذر من أنذر».

هذه ابتهالات منزلية لربة البيت وسيدته، أما السيد فهو حازم، قليل الكلام «لا يضع رجله هنا، وسأبلغهم في أرضنا في جبل لافري حتى لا يعطوه عملاً مرة أخرى، وليذهب إلى موسكو». يبدو أن جوان المنحوس راحت عليه نومة مرة أخرى، لا ينام في هذا البرد إلا رجل قتله التعب، ينتفض، يضرب الأرض برجله فتدوي جلبة مضاعفة بسبب الأرض المجمدة، آه لو جاء الآن رجل شرطة وقبض عليّ من جديد بحجة تعكير صفو الجيران، حينئذ يأخذ جوان المنحوس جواله وحقيبته ويعيد الطريق، الشارع المنحدر، يرفع قدميه بالكاد، يعرج، يتذكر بشكل غير واضح أن المحطة تقع على يساره، لكنه يخشى أن يتوه، لهذا يسأل أحد العابرين، فيقول له هذا «أنت في الطريق الصحيح»، ويضيف بعض الشروح، الحمد لله، يأخذ المنحوس حقيبته وحزمته بيديه المنملتين ويستعد لمواصلة السير، لكن الآخر يسأله «أتريد مساعدة؟»، هنا من الممكن أن نرتجف أمام المغامرة، فالله أعلم إن كان هذا المار لصاً يريد سرقة ما يملكه، ما من شيء صعب، حتى في الظلام يلاحظ أنه متعب البدن «لا يا سيد، شكراً»، يقول المنحوس بكل أدب، ولم يلح الآخر، فلم يكن حراميا، ويقتصر على سؤاله «هل كنت في السجن، واضح عليك أنك خرجت منه في الحال»، ونحن من نعرف جوان المنحوس ونعرف مدى رقته أمام الكلمة الطيبة، نسمعه يحكي كل شيء، أنه قضى ستة شهور في كاكسياس ومن هناك قادم، وإنهم تركوه هنا وعليه أن يعود لقريته، لجبل لافري، التابعة لمجلس مدينة مونتيمور، فأنا من مقاطعة ألينتجو، نعم يا سيدي، ولا يعرف إن كان هناك مركب أو قطار في هذه الساعة «سأذهب لأرى المحطة»، وليس لديه مكان لينام فيه، له أخت تخدم هنا «لكنني لا أريد مضايقتها، فقد يغضب منها السادة» ويسأله الآخر، وهو رجل فضولي «وإن لم تجد مركباً ولا قطاراً، أين ستنام» فيجيبه المنحوس بكل بساطة «سأقضي الليلة في المحطة، فوق أي دكة، أسوأ ما في الأمر هو البرد لكني اعتدته، شكراً لاهتمامك»، وبقوله هذا يبتعد، لكن الآخر يقول له «سأصطحبك حتى هناك، اترك لي الجوال، أحمله أنا عنك»، وجوان المنحوس الذي يشك، يفكر أنه قضى ستة أشهر مع رجال يتصفون بالإنسانية، اعتنوا به، علموه أشياءً، أعطوه الدخان ونقود السفر، وليس معه حق في أن يرتاب الآن، ترك الجوال في يد الآخر، في المدينة ترى أحياناً مواقف مشابهة، وها هما يسيران جنباً لجنب، يهبطان معاً ما تبقى من الشارع، وبعده الميدان الكبير على طول عقود الجسر، ثم المحطة، يصعب على جوان المنحوس فهم جدول المواعيد، هذه الأرقام المكتوبة بخط صغير، فيساعده الرجل، يتجول بإصبعه على أعمدة الجدول، لا، لا يوجد قطار حتى صباح الغد، وبمجرد أن سمع ذلك بحث جوان المنحوس عن مكان يرقد فيه، لكن الرجل يقول له «أنت رجل تعبان ويبدو عليك الجوع، تعال ونم في بيتي، وهناك ستأكل طبق حساء وتستريح، فلو بقيت هنا ستموت من البرد» بعد هذا الكلام، لا أحد يصدق أن هذه الأمور من الممكن أن تحدث، لكنها حقيقة حقا، ولم يعرف جوان المنحوس إلا قول «أنا ممنون لك، فما تفعله عمل خير»، لو كان الأب أجاميدس هنا لألقى خطبة أثنى فيها على طيبة الرجال، معه حق القس، فهذا الرجل الذي يحمل جواله على كتفه يستحق الصدقة، مع أنه ليس رجل قداس، هو لم يقل ذلك، إنها أشياء يعرفها الراوي، بالإضافة لأشياء أخرى لم تأت مناسبة لرويها، فهذه القصة عن الوسية لا عن المدينة. الرجل أكبر من جوان المنحوس عمراً، لكنه أقوى منه بدنياً ويتمتع بساقين رشيقتين، لذلك عليه أن يعتدل في مشيته حتى يصطحب خطوة المبعوث المؤلمة، وليشجعه يقول «بيتي قريب من هنا، في الفاما»، ويدور حول شارع الفانديجا، يتحمس جوان المنحوس، ثم يدخلان في حوارٍ رطبة ومنحدرة، رطبة، ليس غريباً في هذا الجو، يجدون باباً، سلماً ضيقاً، درابزين، «مساء الخير يا ايرميليندا، هذا السيد سينام في بيتنا هذه الليلة، وغداً

سيذهب لأرضه حيث لا مأوى له هنا»، و ايرميليندا امرأة بدينة تفتح الباب كما لو كانت تفتح أحضانها «تفضل»، وجوان المنحوس، وَلْيعذره أصحاب الذوق الرفيع والذين يعتنون فقط ويهتمون بالوقائع الدرامية، فأول إحساس داخله كان رائحة الطعام، شوربة خضار وفاصوليا كانت تغلي، ويقول له الرجل «خذ راحتك»، ثم يسأله «ما اسمك؟» كان المنحوس قد جلس واخترق جسده انهاك مميت، لكنه قال له اسمه وأجابه الآخر «وأنا اسمي ريكاردو ريس، وزوجتي تسمي ايرميليندا»، إنها أسماء أشخاص، وهذا ما نعرفه عن أصحابها، وأشياء قليلة أخرى، وأيضاً أطباق الشوربة هذه التي وضعت على مائدة المطبخ، «كل ما يروق لك»، وبدأ البرد في التضاؤل، أخيراً شعر بأن لشبونة مدينة ناعمة، هذه النافذة تطل على النهر، ثمة ومضات لمراكب، في الضفة الأخرى تقل هذه الومضات، من يراها من هنا سيقول ذات يوم إنها حفلة. «اشرب كوب نبيذ أخرى»، وربما أيضاً لهذا، بسبب كوب النبيذ الجديد الممتلئ الذي شربه،

يبتسم جوان المنحوس كثيراً، حتى عندما يروي ما جرى له في السجن، ويكون الجو قد تأخر عندما ينتهي، فيسقط من النعاس، ويكون ريكاردو ريس متجهم الوجه وايرميليندا تفرك في عينيها، حينئذ يقولان له «الآن اذهب لتنام، فقد حان وقت النوم، وعليك أن تستريح». لم يلحظ حتى أنه سرير زوجية، ويسمع خطوات في الممر، لكنها ليست خطوات السجان، ليست خطوات السجان، ليست خطوات السجان، يتحرر من تلك الفكرة، ويسبح في سباته.

---

(9) الأربع نواصي لعبة تشبه الاستغماية، أما لعبة اللاعب المحروق فأصلها تشيلي و تلعب بعدد كبير من اللاعبين من عشرة إلى ثلاثين، داخل ملعب مستطيل مقسم لقسمين، قسم لكل فريق، يفصل بينهما خط، و يختار كل فريق لاعباً يقف عند خط الفريق الآخر ويسمى «السفير»، يقوم أحد اللاعبين باطلاق الكرة. لو لمست لاعباً من الفريق المنافس ووقعت على الأرض، يكون هذا اللاعب «محروقاً»، أما لو لمست الأرض قبل أن تلمسه فلا يكون محروقاً. وكل لاعب محروق يقف بجانب سفير فريقه . (م)

(10) سوسا: لقب المؤلف نفسه حيث يسمي جوزيه دي سوسا ساراماجو. (م)

(11) ساسبنطاليون : اسم يعني قاهر الأسود. (م)

(12) عبارة شهيرة لنابليون بونابرت أثناء الحملة الفرنسية على مصر. (م)

خلال الأشهر الستة حدثت تغيرات، أحياناً تبدو قليلة وأحياناً تبدو كثيرة جداً. لا تُلاحظ في المنظر الطبيعي إلا بالكاد، باستثناء تغيرات الفصول، لكنها تصعق من يرى كيف صار الأفراد عجائز، كيف قفزت الكهولة على أكتاف هؤلاء الآتين من السجن، وهؤلاء الذين لم يخرجوا من جبل لافري، وكيف كبر الغلمان، ولا يرى ذلك إلا جوان المنحوس وسيجيسموندو كاناسترو الذي وصل بالأمس وقال يجب أن نلتقي لنتحدث، بصرامة وإصرار لا يمكن أخذهما على محمل سوء. ثمة أناس يحلو لنا رؤيتهم، من هؤلاء جراثيندا المنحوس، آية الجمال التي زاد جمالها مع الزواج، هكذا تقول صديقاتها اللاتي يحببنها والبصباصون ذوو العيون الشرهة، لكن هؤلاء يبقون على حالهم، بينما تحدث تغيرات أخرى، فعلى سبيل المثال، الأب أجاميدس الذي كان طويل القامة ونحيفها صار قصيرا وبدينا، وقائمة البيع بالآجل في المحل صارت أكبر بشكل هائل، وهذا أمر طبيعي في غياب الزوج. لهذا السبب، عندما آن الأوان، ذهب جوان المنحوس مع ابنته إيميليا إلى حقول الأرز بـ إيلفاس، ولاحظ كيف تسير جغرافية هؤلاء الفلاحين، ففي جبل لافري كانوا يقولون إن هناك تقع مدينة اكستريمادورا الاسبانية. من يدري إلى أين ذهبوا ليبحثوا عن هذه المعرفة العالمية التي لا ترى حدوداً، وإن أردنا أسباباً للسفر فهي الأسباب الاعتيادية، وأهمها سبب رئيس هو سوء ظن الوسية في مهارات وحيل جوان المنحوس، المسجون السياسي، «حقاً خرج دون إصدار حكم عليه بالسجن، لكن الذنب ذنب الشرطة التي لا تعمل كما ينبغي». بعد مرور عدة شهور، ستعود المياه لمجاريها، لكن بُعده أفضل مؤقتاً حتى لا يلوث أرضنا الحبيبة، وقولوا لسيجيسموندو كاناسترو إنه لا يوجد عمل، وليبحث عن رزقه أين شاء.

ذهب جوان المنحوس لمنطقة إيلفاس واصطحب معه ابنته إيميليا، ذات الضب، التي لو كانت أسنانها مستقيمة ما استحقت حتى المقارنة بأختها. عليك أن تقول الآن إن الجحيم ليس ببعيد. إنهم مائة وخمسون رجلاً وسيدة مقسّمين لخمس مجموعات، وهذه العقوبة ستستمر أربعة أشهر، إنها فترة محصول الأرز المسببة للجرب والحمى، إنه عمل بالقطعة مليء بالمعاناة، تنقية وزرع من طلعة الشمس من قبل أن تسطع حتى بعد غروبها، وعندما يحل الليل يسير مائة وخمسون شبحا يجرون أقدامهم حتى يصلوا للجبل الذي فيه تقبع أكواخهم، الرجال في جانب، والنساء في آخر، لكنهم متساوون في حك جرب المشاتل الغزير، كلهم يدبغون حمى حقل الأرز «تتحقق هذه اللذة بالسكر واللبن والأرز، بالإضافة لبعض البيض، يا ماريا، كم مرة قلت لك ذلك، أريده رخواً، لا هذا العك، فيجب أكله حبة حبة، لعلك تكوني قد تعلمتي». ليلا، في الغرف، تسمع تنهيدات ورجافات هؤلاء المبتلين، حكات أظافرهم السوداء والخشنة بتلهف في جلدهم النازف، بينما آخرون تصطك أسنانهم وينظرون للسقف بأعين زجاجية من الحمى. ما من فرق كبير بين هذا وبين معسكرات الاعتقال، ربما يبذلون مجهودا أقل، وقد يرجع ذلك للإحسان المسيحي الكبير والاهتمام المترابط الذي يجعل أصحاب العمل كل يوم تقريباً، يشحنون الحافلات بضحايا الجرب والحمى وينقلونهم لمستشفى إيلفاس، اليوم يذهب بعضهم، وغدا بعض آخر، إنها ساقية تلف وتدور، والمساكين يذهبون كما الموتى، الحمد لله أن هناك طبا يداويهم في ثلاثة أو أربعة أيام يعودون بعدها كمخلوق جديد، نعم يعودون نحفاء وبسيقان مرتعشة، لكن فيما تهم هذه الأشياء التافهة، سأكتب لك إذن خروج، وأنت، وأنت، هكذا يعاملنا الأطباء، وتعود الحافلة لتفرغ شحنها في الجبل، بصحة منكسة، إنها مقاولة، فلا يصح تضييع الوقت «هل تحسنت يا أبي؟»، تسأل إيميليا ويجيبها «أحسن، نعم، يا ابنتي، كما ترين، لا شيء أبسط من ذلك».

نهاية الأمر، لم تطرأ تغيرات كثيرة. فما زالوا يتبعون طريقة جدي في تنقية الأرز وزراعته، ودويبات حقل الأرز لم تتغير عن شوكة المنخس واللعاب منذ أن خلق الله الدنيا، ولو قطع لك زجاج غير مرئيٍ إصبعاً، سيكون لون الدم نفس اللون. قد نحتاج إلى خيال رحب لنخترع أحداثا غريبة. فهذه الحياة تتكون من كلام مكرر وإيماءات معادة، فالقوس يرسمه المنجل مضبوطاً بالمللي على طول الذراع، ونشر حافة قش القمح الجاف يصدر الصوت نفسه، دائما الصوت نفسه، كيف لا تكل آذان هؤلاء الرجال وأولئك النسوة، إنه أيضاً حال هذا العصفور الأبح الذي يعيش في شجر البلوط بين القشرة والجذع، ويصرخ كلما انتزعوا له جلده، أو ربما ريشه، ولا يبقى أمام العين إلا اللحم المنفوش والمتألم، لكن هذا ضعف من الراوي، تخيُل أن الاشجار تيأس وتصرخ. سنفعل خيراً لو التفتنا إلى مانويل السيف المتسلق أعلى شجرة البلوط هذه، حافياً، يشبه حقاً عصفوراً جاداً وحافياً، يقفز من غصن لغصن، ولا يشدو، لا يروق له الشدو، فصاحب الأمر في هذا العمل هو البلطة وصف الأحبال، خط يلف حول الأغصان الغليظة، أو يرسم في الجذع بشكل طولي، ثم يأتي دور مقبض البلطة في القوة والرفع، والآن نعم، بعدها حقاً، هنا يقبع العصفور الأبح الذي يعيش داخل شجرة البلوط، يطلق صرخة، لكنها ألم لا يشعر به أحد. تمطر الأسطوانات من أعلى نقطة، تسقط فوق ألواح الجذوع المنزوعة، لا شعر يكمن هنا، ونتمنى أن نرى من يستخرج من هنا أي سونيتة عندما تنزلق البلطة من أحد هؤلاء الرجال وتسقط كالأغصان أرضاً، فتثب معه فلقات القشرة، وتكون النهاية ضربة في قدم حافية، قذرة وخشنة، لكنها هشة، فأمام رأس البلطة وجسمها لا قوة تقف، إلا أن هناك فرقاً لا يلاحظ بين قدم الفتاة الحضرية الوردية
وجلد مزيل قشور الأشجار المِجرِب، وتشابه ملحوظ، فعلى الأقل دم كل منهما يستغرق الوقت نفسه في النزيف.

كنا نتحدث عن الأعمال والأيام، وكنا على وشك أن ننسى تلك الليلة التي وصل فيها جوان المنحوس لجبل لافري، اجتمع في بيته الذي يسعهم بالكاد أصدقاء حميميون بزوجاتهم، من لا زال لديه زوجة جاء بها، وقطيع من الأولاد وبعض الدخلاء الذين جاؤوا دون أن تربطهم قرابة بأي من الحاضرين، لكن مَنْ كان يهتم بأمر كهذا. من الحضور أيضاً كان أنطونيو المنحوس العائد من الخدمة وكان يعمل في قشر الفلين، بالإضافة لأختيه جراثيندا وإيميليا ومانويل السيف، صهره. في النهاية، حشد من البشر. قضت فاوستينا وقتها في البكاء، من الفرح والألم أيضاً، وكفاها أن تتذكر اليوم الذي سجن فيه زوجها بلا سبب ولا وجه حق، فساقوه من فينداس نوفاس إلى لشبونة، والله يعلم متى سيعود لو كان سيعود. لم تتحدث عن واقعة حزينة لجوربين أتلفهما الأسفلت، ولا بنصف كلمة، وستصير هذه الواقعة دوماً السر في هذا الزواج، فحكيه سيسبب الخجل لكل منهما، وسيطلع في جبل لافري من يسخر من الواقعة، من المرأة التي التصقت جواربها بالقطران، كان يجب أن نشهدها، وأي منا سيدافع أمام هذه الوحشية. روى جوان المنحوس نكباته ولم يدخر شيئاً وهكذا اطلع الجميع على كم المعاناة التي لاقاها على يد تنانين الشرطة والحرس. كل هذه الحكاوي سيكررها ويؤكدها سيجيسموندو كاناسترو، لكن بشكل مختلف، شكل مليء بالسخرية، فلم يكن الرجل غير واعٍ بما وقع له، لكنه كان يحكي المرارات كما لو كانت أشياء طبيعية، فيثير في نفوس مستمعيه انطباعاً بالبساطة فلا تقترب من عيون النسوة دموع الشفقة، أما الغلمان فكانوا يبتعدون متحررين من سحره، كان حديثه شبيهاً بالحديث عن الزراعة، وربما كان كذلك، من يدري. وربما لهذا اقترب مانويل السيف ذات يوم من سيجيسموندو كاناسترو ليقول له كلمتين، مع احترام فارق

السن بينهما «يا سيجيسموندو، لو قبلوني، سأستطيع أن أساعدكم في شيء». كنا نخطئ كثيراً عندما نظن أن هذا القرار نابع من الحكاية الهادئة التي رواها سيجيسموندو، التي، في النهاية، قد تثير في سجايا مثل سجية مانويل السيف قرارا كله نُبل، والدليل على خطئنا أن مانويل قال «لم يعاملوا رجلاً مثلما عاملوا حماي»، وأجابه سيجيسموندو كاناسترو «لم يعاملوا أحدنا مثلما عاملونا، سنتحدث في هذا الأمر فيما بعد، فالنفوس تتعكر بعد هذا السجن، فلتترك الوقت يمر حتى تلتئم الجراح، فهذا مثل شبكة صيد، يستغرق الواحد منا في حياكتها وقتا أطول من تمزيقها»، أنهى مانويل الحديث قائلاً «سأنتظر الوقت اللازم».

أحياناً، يبدأ شخص قراءة حكاية هذه الأرض البرتغالية ويجد هذياناً يضحكنا، هذا أقل ما يمكن أن يقال، ومن الأفضل أن تكون الضحكة معلنة هنا، فليس في ذلك إهانة لأحد، فكل واحد يفعل ما يستطيع أو ما تأمره به الطبقة المالكة، ولو كان ما فعلته السيدة فيليبا دي فيلينيا عملاً جميلاً جديراً بالثناء حين سلحت أبناءها الفرسان للحرب من أجل إعادة الملكية للوطن، فماذا سنقول عن مانويل السيف الذي بلا فرسان يقول «أنا هنا» ولم ترسله أمه، الميتة بالفعل، وإنما أرسلته إرادته الخاصة كرجل. وتمتعت السيدة فيليبا هذه بمن يشدو لها ويطلق تصفيقاته، فهذا هو جواو بينتو ريبيرو، وهذا كونت ايريثيرا، وهذا فيثنتي جوسماو سواريس، وهذا جاريت، حتى فيرا بورتوجينسي رسم لها لوحة، لكن مانويل السيف وسيجيسموندو كاناسترو لم يجدا من يشدو لهما ويرعاهما، إنها ثرثرة بين رجلين، قالا ما يجب أن يقولاه والآن يمضي كل منهما لحال سبيله، فلا يجدر بهما أن يضيعا الوقت في ثرثرة وإطراء، فمن أجل هذا يكفي وجود الراوي.

خاصة عندما يتناسب بقوة التجول المتروي مجدداً بالوسية مع فهم هذه الأحداث، بلا هدف خاص ولا تصور مسبق، فليس علينا سوى أن نأخذ حجرا وغصن شجرة ونسميهما باسميهما، الشيء نفسه مع الحيوانات ومعرفة السبب، وعندما نسمع إطلاق النار نسأل ماذا يحدث، ولنبدأ من هنا، انظر إلى المصادفة، هذا هو الطريق الذي سار فيه جوزيه كالميدو قابضاً على جوان المنحوس، يبدو كما لو أن الوسية تحولت لقطعة أرض صغيرة، من السهل أن يلتقي الأشخاص في الأماكن التي التقوا فيها من قبل. الحقيقة أننا مررنا من هنا في مرة أقل ضجيجاً من هذه، هنا تقبع أطلال طاحونة الماء، وهناك، في مكان عال لا يمكن رؤيته، ثمة فرن لمصنع القرميد، لكن علينا ألا نخاف من الطلقات، طلقات الرماية الماهرة، ماذا تكون؟ ماذا لا تكون؟ إنها طلقة رصاص، عمل رقيق، لا علاقة له بطلقات الرش هذه التي تستخدم في الصيد، تلك إذن قصة أخرى.

توقف إطلاق النار، يمكننا أن نعبر بلا خوف، لكن من حيث كانوا يطلقون النار يهبط رجل نعرف أنه من عامة الشعب من تعامله وطريقته، ويجتاز الوادي، الأرض السوداء الملساء، ويعبر من خلال جسر صغير له درابزين منخفض، النهر هنا ليس إلا مجرى صغيراً عرضه ثلاث خطوات، ويبدأ في الصعود من هذا الجانب المليء برقعة من العشب الشوكي الذي يتمتع بطريق واحد ثعباني الشكل، حتى يتوه عن ناظرينا، ماذا سيفعل هنا هذا الرجل، بلا فأس كبير ولا صغير، بلا

بلطة ولا مشذب، فلنجلس هنا لنستريح بينما يصعد هو، يهبط اضطرارياً وفي الحال سنقف على الأمر «هذا مكان مهجور جداً»، هذا ما قاله «نعم إنه كذلك،
ولا تعتقد أن الطريق الضيق بين العوسج سينفع كثيراً الخادم الذي مر»، «أهذا خادم»، «نعم يا سيد، إنه خادم»، «لكنه لا يرتدي ملابس الخدم»، «مسألة الملابس كانت من العادات القديمة وعفا عليها الزمن، منذ زمن الكونتسة التي سلحت أولادها الفرسان، لا أدري إن كنت تعرفها، أما خدم اليوم فيرتدون ملابسنا نفسها، لا ملابسك، فأنت من المدينة، ونميز بين السادة والخدم من السلوك فقط»، «لكن لماذا تقول إن هذا الطريق الضيق لن ينفعه كثيراً»، «لأن ما يبحث عنه يوجد خارج الطريق، ولا يستطيع أن يرجع، فالرجوع أصعب، عليه أن يواصل للأمام، هذه هي الأوامر التي تلقاها، ويمسك بيده عكازاً ليفتح له طريقاً بين العوسج، لكنه كما لو أنه لا يمسك شيئاً»، «ولماذا يفعل ذلك»، «لأنه خادم، وكلما زادت الخدوش في بدنه عند عودته سريعا، كلما قدروه أكثر»، «أعندكم أيضاً هذه العبودية»، «نعم، لكن فلنرجع لمرجوعنا، كنت أقول لك إن هذه الأرض صارت مهجورة، لكنها لم تكن كذلك دوما، تستطيع أن تصدق ذلك، لقد جاء وقت كانت الحدائق تتسع على مدى البصر، فالأرض خيرة، ولا ينقصنا هنا آبار، بالإضافة للنهر»، «إذن، كيف صارت صحراء»، «جميل، حدث أن أبا سادة هذا الخادم الذين كانوا يطلقون النار، ظل يكافح حتى امتلك هذا المكان جميعه، للأبد، حيث كان يسكن هنا مزارعون صغار يمرون بأزمات مالية، حينئذ قام هذا الرجل، ولا أتذكر اسمه، أكان جيلبيرتو، أم ادالبيرتو، أم يا ترى نوربيرتو، شيء كهذا، قام بتسليفهم نقوداً، ثم لم يستطيعوا سدادها، وكانت سنوات سوداء، فمضى يسحب منهم أرضهم»، «هذا مستحيل»، «لا شيء مستحيل في الأمر، دائما ما حدث ذلك في الوسية، فالوسية مثل البغال التي تصبو عض من يسير بجوارها»، «ستحكي لي كثيراً»، «لا تظن ذلك، فلو حكيت لك كثيراً سنقضي بقية حياتنا في الثرثرة، والحكاية يجب أن تستمر حتى يراها أحفادنا، لا أدري إن كان لك أحفاد، لكن انتبه، فالخادم في طريق العودة، فلنتبعه».

كان الضجيج شيئاً ثقيلاً. يجر قدميه ويزحلقها بما يحمله على كاهله، يسقط فجأة ويظل يتدحرج لأسفل، متعرضاً لخطر الموت، «ماذا يحمل على كاهله»، «يحمل تنكة، والتنكة هي الهدف الذي يصوب إليه السادة وينتفعون منها كما ينتفعون من الخادم»، «لكن زمن العبودية انتهى»، «هذا ما تعتقده حضرتك»، «لكن كيف يرضى انسان بهذا»، «اسأله»، «بالطبع سأسأله، اسمع يا صديق، ما الذي تحمله على كاهلك»، « إنها تنكة»، «لكنها مليئة بالثقوب، فلا فائدة منها في حفظ الماء ولا أي سائل آخر، أتريد أن تملأها بالأحجار»، «إنها هدف سادتي ألبيرتو وأنجيلبيرتو، هما يطلقان النار، بينما أنا أذهب لأبحث عن التنكة ليحصوا إن كانوا أصابوا أم لا، بعد ذلك أعود لأضعها في المكان نفسه، وعندما تصير التنكة كالمنخل، آتي بأخرى وهكذا»، «وهل تقبل حضرتك بهذا»، «الدنيا مشيدة بشكل لا يصح معه الحوار»، يظهر من الجانب الآخر ألبيرتو وأنجيلبيرتو يصرخان بضيق صدر بسبب التأخير المفرط، لقد أوشكت الظهيرة أن تطل وما زال لدينا صندوقان من الرصاص، وسيعنفان الخادم، والرجل المسكين يعبر أعمق مكان في الوادي بجهد وبخطى قصيرة، يجتاز الجسر، التنكة حدبة هائلة وصدئة، والآن، عند صعوده التل المواجه لا نرى رجلاً، بل خنفساء، «حسنا، أما زلت تفكر أن العبودية انتهت»، «يبدو مستحيلاً»، «يا للهوس، ماذا تعرف عن المستحيلات»، «أنا أحاول أن أتعلم»، «إذن فلتصغ لهذه الحكاية فقط، على الضفة اليمنى من النهر، بعد عبور الجسر، ثمة شرفات ممتدة حتى التلال، أتراها، اتفقنا، باع

الراميان اللذان رأيتهما هذه الأراضي لبعض المزارعين الصغار، ولو كانا من الرجال الأنقياء، كما ينبغي، لباعا حتى ضفة النهر، لكن لا يا سيدي، احتفظوا بعشرة، بعشرين متراً، وبالتالي تحتم على الفلاحين الذين يحتاجون ماءً إلى حفر الآبار، ما رأيك»، «أرى ذلك مستحيلا»، «في الواقع، يبدو مستحيلاً، إنها الحالة نفسها التي تكون فيها عطشانا وأنا معي كوب ماء وأرفض أن أعطيه لك، ولو أردت ماءً، فلتحفر الأرض بأظافرك بينما أفرغ أنا كوبي وأستمتع برؤية الماء يجري»، «حتى أن الكلب يستطيع أن يقترب ليشرب من الضفة، ويحرم ذلك على الفلاحين»، «نهايته، أرى أنك بدأت تفهم شيئا، انظر، ها هو الخادم يأتي من جديد بتنكة جديدة»، «واضح أن سيديك أصابا في الرماية بشكل كبير»، «حقا يا سيدي، لكنهما سألاني عنكما، وقلت لهما إني لا أعرفكما، فقالا إن لم ترحلا في الحال سيستدعيان الحرس». رحل المتجولان، فللتهديد أهميته والدليل سلطته، غزو دخيل على الوسية، رغم أنها لا سور لها، ستكون جريمة خطيرة لو كان الحرس أبناء حرام، ولن ينفعهما في شيء إقامة الدليل على أنهما لا يعرفان الحدود، هنا، على سبيل المثال، لعدم وجود خدمة في الطريق، يمكنهما أن يقولا إنهما كانا محظوظين لأن طلقة لم تصبهما «فمجرد قول إن رصاصة طائشة أصابتهما، تنتهي القصة، هذا ما كانا يطلبانه هذان الرجلان، يا أخي ألبيرتو».

لكن في بعض المرات سيكون من العدالة أن ترن في الوسية قهقهة عندما يروق لنا الضحك، رغم أني لا أدري هل يستحق الأمر قهقهة، من الطبيعي هنا أن يضحك الناس ويتبع ضحكهم رغبة في البكاء أو الصراخ من الحنق الذي يسمع صداه في السماء، أي سماء وأي هراء، فالقس أجاميدس بجانبنا ولا يسمعنا، أو يتصنع الطرش، فلا يسمع صرخة سمعها كل من في الأرض، سنرى إن كانوا يسمعوننا أيها الرجال ويأتون صوبنا، لكن ربما لا يسمعوننا لأنهم يصرخون مثلنا. فلتسرد علينا حكاية أثناء ذلك وليضحك من يستطيع، خاصة لو
وضعنا في الاعتبار أنه لأجل هذا ينفع الحرس، لا لنسخر منهم «نستعيذ بالله من الفتنة، إلا اذا كانت نداءً مبعوثاً، وإن كان حقيقة أنه في أغلب المرات من يأمر بالفتنة ويستدعيها هو الحاكم المدني أو سلطات رسمية أخرى، للوسية أيضاً على الفتنة سلطة وقدرة، كما سنرى في الحكاية الجميلة التي يتدخل فيها أدالبيرتو، وراع، ومساعدان وثلاثة كلاب وستمائة نعجة وعربة جيب وعربة دورية للحرس الجمهوري، حتى لا نبالغ قائلين إنها فصيلة من الجنود بالبنادق في وضع الاستعداد، والخطوة العسكرية، فلتمشوا».

إنه قطيع يسير ببطء. يمكث في أراضي بيرتو، يتجول بأراضي بيرتو، إنه افتراض عام وطريقة غير ملائمة للحكي، فالأرض أرض أدالبيرتو وليست لغيره، وفي هذا التنقل يمر القطيع بأرض نوربيرتو، وأثناء المرور يأكل، فالنعاج ليست سرب كلاب يمكن تكميمه، ولو طبّقوا ذلك ووافقت به النعاج، فلن يضعوا كمامة للراعي وإلا ستكون جولته غير مجزية، رغم أن بإمكاننا إضافة افتراض آخر، هو أن يكذب الراعي. وفي حالة عدم معذرته لذهابه من أرض لأخرى وضلاله وعبوره الحدود عندما تكمن حرفته في استغلال الحدود والتعامل بطبيعية متناهية مع هذه الغارات ذات البراءة المهانة بوضوح من قبل الشكوك الظالمة، سيقول الراعي «لم أنتبه، كنت أسير مع الغنم، ربما أصابني العمى، اتجهت يميناً، كنت أظن أني ما زلت في أرض سيدي»، ليس إلا قول ذلك. سيكون الراعي في حالة تواطؤ، يقترح ذلك المتسرعون ولا ينقصهم الحق، لا يا سادة، لكن

هذه الأمور حساسة جداً، وأول ما يجب أن يتحققوا منه أن تصرُّف الراعي المعوج لا يشمل تفكيراً في بطون نعاجه بقدر التفكير في مصالح المالك بيرتو أو التستر عليها. وبعد أن سجلنا هذا حتى لا يبقى في الخارج أي احتمال، نعود لحكايتنا، إلى الستمائة نعجة التي تأتي راقصة في حماية راع ومساعدين وكلاب، وفي حمايتنا نحن أبناء المدينة الذين رحبنا بهذا الظل. تستحق الإعجاب رؤية الغنم هابطة من المنحدر أو في الأرض المستوية، يا للصفاء، بعيداً عن زحام المدينة المؤذي، وعن جلبة العاصمة المنتشرة. «ابدأوا يا ملهماتي، ابدأوا قصائدكم الرعوية»، أصابنا حسن الطالع لأن القطيع يأتي ناحيتنا، هكذا سنتمكن من تذوق الحدث من بدايته، يا رب الكلاب ما تعض الغنم.

أراد القدر أن يخرج أدالبيرتو في هذا اليوم ليتنزه في عربته ويتفقد بجولة ريفية مزارعه، ومن المعروف أن عشق الطبيعة يحتاج أحياناً إلى هذه التوسعات، وإن لم تستطع عربته أن تدخل بين الأعشاب في سبل وطرق وعرة، فعلى كل حال لديه حرية كاملة ليتمشى في الطرق الممهدة بمهارة طيار وصبر زنبرك، ما ينبغي أن يفعله ألا يمشي بتعجل. يسير أدالبيرتو وحيدا حتى يقدر بشكل أفضل العزلة الريفية وزقزقة العصافير، حتى لو عكر موتور العربة هدوء الطبيعة، فالقضية قضية تكامل القديم مع الحديث، وعدم التوقف عند متع الماضي، عند الكاريتا ذات الجواد المخبب. ومن جانب، تُرى قبعة ريفية وراء تموُّج سوط ممطوط يلمس من حين لآخر ردف الفارس، ليس إلا ذلك، وهو يدرك هذا. إنه جمال الوسية الذي قليلاً ما يشاهد، لأن ثمن الجواد يعادل ثروة، بالإضافة لكونه يأكل عندما لا يعمل، ونحن نعرف جيداً أن الحصان حيوان متميز، يذكرنا بأيام الإقطاعيات، لكن الزمن تغير، وماذا نفعل، والحقيقة أن العربة أكثر نظافة، تثير في الناس الذهول وتتدخر العلاقات الحميمة، هيا بنا لقد تأخرنا.

مع ذلك يسير أدالبيرتو اليوم متأنياً، يرسم منحنيات متثاقلة بكوعه الكريهة في النافذة المفتوحة، كل هذه الأرض ملكي منذ لامبيرتو، رغم أنها لم تكن كلها ملكاً لـ لامبيرتو، ستكون حكاية أخرى شيقة حكاية توزيع الأرض وإعادة توزيعها وجمعها وإضافتها، لكن ينقصنا الوقت، يا ليتنا كنا بدأنا قبل ذلك. الآن يظهر أدالبيرتو بين الأشجار، يلمع جلد عربته ولونها الكرومي، وفجأة يتوقف، «أيكون قد رآنا؟ من الأفضل أن نبدأ في الهبوط من هذا الجانب وبذلك نتفادى أسئلته، أنا رجل مسالم وأحترم ملكية الغير»، وعندما نعود لنرى إن كان يتبعنا أدالبيرتو الحانق ويقترب منا، نراه بذهول يخرج من عربته وينظر بوجه غاضب للقطيع المتأني الذي لم يعره اهتماماً، كما فعلت الكلاب التي تسير متشممة الأرانب، ثم بإيماءة تهديد يعود إلى العربة، يلف نصف لفة وينفض الأرض عقاباً لها على شرها، ويختفي بين ضباب مغبر، كما اعتادت الروايات أن تقول. لن نتحرك من هنا لأن شيئاً ما سيحدث، لماذا رحل الرجل من هنا، إنه قطيع نعاج وليس فرقة أسود، لكن لا أحد يعرف الأسباب سوى أدالبيرتو المتجه الآن لجبل لافري في طريق عظيم بحثاً عن قوات، هذه القوات هي الحرس الذين يموتون في هذه الساعة نفسها من الضجر داخل كتيبتهم. يحدث هذا في الوسية، تتعرض لاضطرابات كبيرة ثم لهدنة طويلة يسود فيها النوم. على أي حال، هذا مصير من يختار العيش من العسكرية، لهذا يقومون بمناورات وتدريبات، لكن شاويشنا لا يجهد كثراً ولا ينام كثيراً.

ينزل أدالبيرتو من عربته أمام بوابة كتيبة الحرس، مثيراً عاصفة من غبار، ورغم أن جسده ثقيل بسبب السن وأشياء أخرى، إلا أنه يدخل برشاقة. المكان ليس غارقاً في الراحة لكنه يسمح له بوضعه هذا أن يعبر بلا عراقيل كثيرة، كما أن عملية دخوله وخروجه المتكرر عندما أثيرت مشكلة الثلاثة والثلاثين اسكودو جعلتهم يتذكرونه بسهولة. وعندما يخرج،
يصطحب معه صحبة، الشاويش تباكو وأحد العسكر، يركبون العربة، يا إلهي المقدس، يا عذراء، أين سيذهب الحرس بهذه السرعة. السيدات العجائز الجالسات على مصطبة الباب لا يعرفن ذلك، لكننا نعرف كل شيء، إنهم قادمون إلى هنا من أجل القطيع الذي يرتع بينما يرتاح الراعي تحت شجرة بلوط، ومساعدوه يتجولون لرعي الغنم بتعزيز من الكلاب، إنها مناورة قليلة الاستراتيجية، لكن لها منطقها، الحفاظ على قطيع كبير العدد مرتعياً معاً، من دون وجود شرخ في صفوفه. والآن يروق لنعجة أن تتنفس ملء رئتيها، «والآن بينما يأتي أدالبيرتو هناك شيء يشغلني، هذا التفاهم التام بين الوسية والحرس، ما سببه؟»، «أهي سذاجة منك أم شرود، بعد أن وصلنا لهذه النقطة في الحكاية ما زالت لديك شكوك؟ أم يا ترى هو المكر أم تصنع البلاغة، أم حدث ذلك من أثر التكرار، أياً كان السبب، حتى الصبي الصغير يعلم أن الحرس موجود هنا لحماية الوسية»، «حمايتها من ماذا، هل ستهرب الوسية؟»، «حمايتها من أخطار السرقة، من النهب والنكبات الأخرى، فهؤلاء الناس الذين تحدثنا عنهم من سلالة واطئة، تخيل، هؤلاء البؤساء الذين لم يفعلوا شيئاً في حياتهم بأكملها وحياة آبائهم وأجدادهم وآباء أجدادهم إلا أن يتمزقوا جوعاً، كيف لا يتحتم عليهم الطمع في خيرات الآخرين». «هذا عيب، الطمع»، «أسوأ ما يكون»، «أتسخر مني؟»، «نعم أسخر منك، لكن هناك من يأخذ كلامك مأخذ الجد ويقول إن هذه الشرذمة من الريفيين يريدون سرقة أراضيهم، هذه الوسايا المقدسة التي جاءت من بعيد، وحينئذ وضعوا الحرس هنا لحفظ الأمن، هنا لا أحد يستطيع أن يحرك إصبعه»، «وهل يروق ذلك للحرس؟»، «نعم يروق لهم ذلك، فلهم مكافآتهم، زيهم، أحذيتهم، بنادقهم، سلطتهم التي يستخدمونها ويسيئون استخدامها، وامتنان أصحاب الوسايا. سأضرب لك مثلا، ففي هذه العملية العسكرية الغريبة، يتلقى الشاويش تباكو عشرات اللبترات من الزيت وبعض العربات المحملة بالحطب، والحارس، لو أخذ الشاويش سبعين، سيأخذ هو أقل قليلاً لأنها مسألة رتبة، فيتلقى ثلاثين أو أربعين، ففي هذا الأمر توفي الوسية بوعدها فلا تستدين بشيء، والحرس، بالإضافة، من السهل إسعادهم، ولك أن تتخيل ما سيحدث في لشبونة خلف الأبواب المغلقة»، «أحداث محزنة»، «لا تبك، ماذا ستفعل إذن لو جئت من بعيد حاملاً على كاهلك جوالاً به حطب، بعد قلع الأعشاب الضارة، حاملاً ولاهثاً مثل حيوان يحمل أثقالاً، وطلع لك في الطريق الحرس مصوبين بنادقهم ناحيتك، ارفع يديك، ماذا تحمل معك، فتجيبهم: أنا قادم من المكان الفلاني أو العلاني، وهم يتحققون من صدقك، وإن لم يتحققوا، فليتولاك الله برحمته»، «إذن فـ جوزيه القط أفضل منهم»، «نعم القط أفضل منهم، لكن أسوأ شيء أن تقابل بعد سيرك بقليل عربة محملة بستة أو ستمائة أو ألف كيلو حطب منشور بشكل جيد ومتساو من أجل الحرس، هدية من الوسية مقابل خدماتهم الجليلة والمخلصة»، «هناك من يبيعون أنفسهم بثمن بخس»، «من يبيع نفسه يبيع نفسه، فلا فارق بين ثمن بخس وثمن غال، فالشر بيع النفس سواء بسنت واحد أو بمليون».

لم يواصل حديثه، إذ توقف اهتمامه، لكن الراوي يستطيع أن يقول ما كان يريد هو قوله، وهذه ميزة. والآن نعم، جاء أدالبيرتو وجيشه وتوقفت العربة. فتحت أبوابها، إنه غزو، إنزال جنود، ومن

أعلى نقطة يقومون بإيماءات كبيرة للراعي، لكن هذا الراعي كسلان، حيوان يهرش في عزلته، كان جالساً وما زال جالساً، وفي النهاية، يتظاهر بتفاخر بأن عمله شديد الصعوبة، ينهض ويطلق صيحة، «ماذا يحدث؟» والشاويش يأمر بتنزيل السلاح، بالهجوم، بالضغط على زر القنابل، الأفضل ألا تبالوا بهذه المبالغات الحربية، ماذا سنفعل له، ففرصهم قليلة، الآن انتبه الراعي لما يحدث، حدث ذلك ذات مرة مع أبيه، كل هذا يشعر به في داخله كمعركة من الضحك، يلاحظ عليه ذلك في تجعيدات عينيه، على وشك أن يتقلب في الأرض، «أتظن أنه يصح أن تسير هكذا، بلا تصريح»، هذا سؤال الشاويش تباكو الذي يفرض العقوبات، سيد القانون والبندقية، «ستدفع غرامة خمسة اسكودو عن كل نعجة»، علينا أن نعد، إنها ستمائة نعجة في خمسة اسكودو، خمسة في ستة بثلاثين، نضع الأصفار، يا للهزل، ثلاثة آلاف اسكودو غرامة، يا له من عشب غالي الثمن، وحينها يقول الراعي «هناك خطأ ما، فالنعاج نعاج السيد الذي يسمعني، وأنا في أرض من ممتلكاته»، «ماذا، ماذا قلتَ» غضب تباكو ونظر العسكري للسحاب، ورد أدالبيرتو غاضباً «أهذا إذن ملكي»، «نعم يا سيدي، وأنا راعي هذه النعاج، وهي نعاجك»، «اذهبن يا ملهماتي العزيزات»، وانتهت الحكاية.

انسحبت القوات لثكناتها والتزم رؤوس الحملة الثلاثة الصمت. أصدر أدالبيرتو أوامره بشأن الزيت عند وصوله إلى بيته، بينما حفظ الشاويش تباكو والعسكري الأسلحة في صندوقها حاسبين الفائدة ومصلين لرئيس الملائكة القديس ميجيل ليجزل عطاءه عليهم في مغامرات أخرى ذات خطر مساو وفائدة مساوية. إنها أحداث صغيرة تجري في الوسية، لكن حجراً على حجرٍ يصنع جداراً، وحبة قمح مع حبة قمح تصنع غلة، «وما هذه الزقزقة»، «إنها أم قويق»، وسريعاً ما يرد عليها طائر آخر، اسمه دومينجو، هذا الذي يقبع قريباً من العش.

ليس معنى أن سيجيسموندو كاناسترو قد حكى لنا، في أجمل فترات حياته، حكاية الكلب ثابت والحجل، أن نعتقد أنه المطلع الوحيد على أحداث الصيد النادرة. فقد عاش أنطونيو

المنحوس أيضاً هذه الأحداث، بالإضافة لما عرفه بالسمع، وبهذا الكم والتنوع الذي يسمح له جيداً بأن يكون راوي هذه الحكاية المشار إليها، ومضيفا لـ سيجيسموندو كاناسترو تأكيداً على صدق ما حدث من خلال برهان حلم لا يدحض. حكايات عن الحرية والتغيير والعجائب ليس في جعبتها إلا الحديث عن الوسية المتسعة، عن ضياع الكلمات واكتشافها، حكايات ستروى بعد أيام كما ستروى بعد قرون، فمثلاً، تجلس تحت شجرة بلوط وتسمع المحادثة العظيمة بين الجذع وجاره، حكايات شديدة في القدم ومشوشة في الحقيقة، فمع مرور السنين تهذي أشجار البلوط قليلاً، لكن لا ذنب لأحد في ذلك، أو ربما الذنب ذنبنا لأننا لم نشأ أن نتعلم هذه اللغات. من يتوه في هذه الأماكن يبلغ التمييز بين المنظر الطبيعي والكلمات الموجودة فيه، لهذا نقابل أحياناً بالمصادفة رجلاً واقفاً في وسط الحقل، كما لو كان أثناء سيره وتنزهه قد أوقفه فجأة شخص ما، انظر، أنصت، والحق والمؤكد أنه يسمع كلمات، أحداثاً، وقائع، ولأنه مر في اللحظة المناسبة، ولأنه هو الشخص المنتظر، فقد ارتجفت السماء وتجلت حكاية الكلب ثابت، المعجزة، كما تجلى البرهان الحقيقي لفضول الأرانب الذي فسره أنطونيو المنحوس وتحقق منه من خلال كل أحلام سيجيسموندو كاناسترو، بالإضافة لأحلام من أراد أن يرويها لنا.

أولاً، علينا أن نجد حجراً مستوياً جيداً، طوله شبر وعرضه يتسع لنصف صفحة جريدة. يجب ألا يكون يوماً عاصفاً حتى لا تتناثر كومة الفلفل الأسود التي تشبه تشوش العناوين والحروف الطباعية المائلة والمستديرة، وستكون زناد هذا السلاح. كما نعرف جميعاً، فالأرنب البري فضولي «أكثر من القط؟» ليس ثمة وجه شبه، يكفي أن نقول إن القط لا يريد معرفة شيء عما يدور في الدنيا، بينما الأرنب البري يهتم كثيراً بمعرفة كل شيء، حتى إنه لا يستطيع أن يرى جريدة ملقاة في الطريق من دون أن يقترب منها في الحال ليرى ما يحدث، ولأنه كذلك فثمة صيادون قد اكتشفوا نظاماً يضعون به أجهزة ترقب خلف سياج، وعندما يقترب الأرنب البري ليطلع على الأخبار، بوووم، تنفجر القنبلة، أسوأ ما في الأمر أن الجريدة تتمزق إرباً من الرصاص ويجب المضي بحثاً عن جريدة أخرى. لقد رأينا أحد الصيادين بخزينة مليئة بالجرائد، قبيحة المنظر.
«والفلفل الأسود، ما فائدته؟»، يكمن سر المهنة في الفلفل الأسود، من الضروري ألا يتحرك الريح، وهذا الشرط أيضاً مفروض عندما تكون الجريدة في الطريق، فلو هبت الريح وطارت الجريدة سيهرب الأرنب البري لأنه يهوى قراءة الأخبار في هدوء مناسب. «يبدو لي غريباً»، ثمة أمور أغرب ستبدو لك عندما يأتي وقتها المناسب، وحينئذ، ومسلحاً بكل هذه الأسلحة: الحجر، الفلفل الأسود، الجريدة، على الصياد أن ينتظر وإن تحتم عليه انتظار طويل لندرة الأرانب البرية في المكان، وهذا يحدث أحياناً حتى لا يشكو بعد ذلك من أنه لم يجد صيداً، فالذنب ذنبه وحده، لكن عندما يعرف الأرض جيداً لا يقع في خطأ، وفي الحال يظهر أول أرنب بري، قافزا، يعض هنا، يضغط هنا، وفجأة يبقى بأذنين واقفتين، لقد رأى الجريدة. «وماذا يفعل حينئذ؟»، مسكين، ولا حتى ينتابه الشك، يسير بهذا الحنين لمعرفة الأخبار، يركض نحو الجريدة ويبدأ في القراءة، إنه أرنب بري سعيد ومسرور، لا يفوّت سطراً، لكن أنفه تدنو حينئذ من كومة الفلفل الأسود ويتنفسها.
«وماذا يحدث حينها؟ » مثلما يحدث لك لو كنت مكانه، يعطس، فيصطدم رأسه في الحجر ويموت. «وبعد ذلك؟»، وبعد ذلك، الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعله هو المضي بحثاً عنه، لكن، لو يفضل ذلك، يمكنه أن يمر بعد عدة ساعات وسيجد حلقة من الأرانب البرية، واحداً تلو الآخر، فهكذا هي، إنها في غاية الفضول، لا تستطيع أن تمسك نفسها أمام جريدة. «قل لي، هل حقيقة ما تقول؟»، اسأل من تريد، فحتى الطفل الرضيع يعرف هذه الأشياء.

لا يملك أنطونيو المنحوس بندقية حديثة، والحمد لله. فلو امتلكها لصار صياداً سوقياً مسلحاً بدلاً من كونه مخترع فلفل سان هومبيرتو الأسود، لكن هذا لا يعني أنه يستخف بفن الرماية، والدليل على ذلك نجده في بندقيته التي ترجع للقرن السابع عشر وكانت تعبأ من فوهتها، كان اشتراها ذات يوم بعشرين اسكودو من فلاح مسرف وصنع بها العجائب. من يعيش في المدينة تربى على عدم الثقة، ويطلب أدلة وقسماً على أي شيء، وهو أمر سيىء لأن علينا أن نصدق الأشياء كما قيلت لنا، فما حدث لأنطونيو المنحوس، بعد أن صار مالكاً للبندقية العتيقة، أن كان لديه بارود، لكن ينقصه رصاص. كان هذا موسم الأرانب، وينبغي أن نوضح ذلك حتى لا يظهر لنا هنا من يسأل لماذا لم يستخدم أنطونيو المنحوس نظام الحجر والفلفل الأسود والجريدة كما كان يفعل مع الأرانب البرية. وحدهم الذين يجهلون مبادئ فنون الصيد لا يعرفون أن الأرانب حيوانات مجردة من أقل فضول، فرؤية جريدة في الأرض أو سحابة في السماء، سيان عندها، فالفرق بينهما أن السحابة تمطر أما

الجريدة فلا، لهذا لا يمكن الاستغناء عن البندقية أو المصيدة أو الهراوة، لكننا الآن نتحدث عن البنادق العتيقة.

ما من مصيبة أكبر من أن يمتلك الصياد سلاحاً جيداً، حتى ولو كان من الصوّان، وباروداً بالكمية ولكن ينقصه الرصاص. «ولماذا لم تشتر رصاصاً؟»، «لم يكن معي نقود، وهذا هو العيب». «وماذا فعلت حينئذ؟». «في البداية لم أفعل شيئا، لكن بعد ذلك بدأت أفكر». «وهل اكتشفت شيئا؟». «اكتشفت، نعم يا سيدي، لأن من يفكر ينتهي مكتشفاً شيئاً». «وكيف حللت المشكلة؟». «كان عندي صندوق مسامير صغيرة عريضة الرأس كنت أستخدمها لنعالي فعبأت بها البندقية القديمة». «ماذا تقول لي! أعبأت البندقية بالمسامير الصغيرة!». «نعم يا سيدي، واضح أنك لا تصدقني». «بل أصدقك، لكني لم أسمع شيئاً مشابهاً». «ذات مرة سيتحتم عليك أن تصدق بما لم تسمع به من قبل». «احك لي البقية». «كنت أمضي في الحقل عندما خطرت لي فكرة جعلتني على وشك أن أتراجع». «ماذا تقول لي!». «إنها حقيقة، لقد انتبهت إلى أن الأرنب لو ضرب بمسامير سيتحول إلى مزيج من اللحم والدم، ولن أستطيع أكله». «وحينئذ؟». «بدأت أفكر من جديد». «وهل خطرت لك فكرة؟». «نعم خطرت لي، فعندما يفكر الواحد منا عادة ما تداهمه فكرة. وقفت أمام شجرة ذات جذع غليظ، كانت موجودة هناك، وانتظرت». «وهل انتظرت كثيراً؟». «انتظرت ما هو ضروري، فلا ننتظر أبداً لا أكثر ولا أقل». «حتى جاء الأرنب؟». «نعم يا سيدي، وما إن رآني ركض نحو الشجرة، وأنا كنت قد درست الملعب، وعندما مر ملتصقاً بالشجرة تحركت وصوبت». «حينئذ لم يتمزق». «يا رجل، لماذا تظن أني فكرت كثيراً، لقد لحقت به المسامير في أذنه، وغرزته في جذع شجرة البلوط، وكانت شجرة بلوط حتى أضيف لك تفصيلاً أكثر». «هذه حقاً فكرة نيرة». «نعم فكرة نيرة، فلم ينبغ علي إلا أن أسدد له ضربة في الرقبة وأخرج منها المسامير، تخيل كيف كان حالي وأنا آكل الأرنب ونعلي المسمّر شاهداً».

لقد خُلق الإنسان بطريقة ما بحيث حين يكذب يقول حقيقة أخرى، وفي المقابل، لو أراد أن يُخرِج حقيقة من بين أسنانه دوماً ما تأتي حقيقة ملوثة بأكذوبة، حتى ولو دون قصد. لهذا لن نصل أبداً لنهاية لو بدأنا نناقش ما في حكايات صيد أنطونيو المنحوس من حقائق وأكاذيب، ويكفي أن نعرف وأن تكون لدينا المروءة لنعترف بأن ما ورد في الحكايات يمكن لمسه بأيدينا، سواء كانت حكاية الأرنب أو الأرنب بعد صيده، البندقية القديمة التي ما زالت موجودة لزماننا أو البارود الرخيص، المسامير الصغيرة عريضة الرأس التي تمسك نعال الفقراء أو النعل الشاهد، الفلفل الأسود الذي يعد عجيبة قادمة من بلاد الهند أو الحجر الموجود دائماً، والجريدة التي تقرأها الأرانب البرية أفضل من الرجال، وأنطونيو المنحوس الموجود هنا، يحكي الحكايات، فما من حكايات من دون حكاء.

«لقد حكيتُ لك حكاية وحكايتين، والآن سنروي الثالثة، فثلاثة رقم مقدس اختاره الرب: الأب، الابن، والروح القدس لأذن الأرنب حين اشتبكت في السلك في الحكاية الظريفة التي سأرويها عليك». «تفقد الحكاية رونقها إن عرفنا نهايتها». «وما أهمية ذلك، فنهاية الإنسان الموت، إلا أن

أفضل ما في حياته ما يحكيه وما يحكى عنها». «هيا، احك لنا حكاية الأرنب». «كانت عندي البندقية العتيقة نفسها، ولقد تعودت عليها لدرجة أني كنت أسخر من هذه البنادق الحديثة ذات الماسورتين، أو ذات الأربع، وهي أسلحة حرب يجب أن تُحرّم». «لماذا؟». «ألا ترى أنه من الأفضل أن تعبأ البندقية من فوهتها بالبارود وبقياس الرصاص عندما يوجد، وبكل هدوء، وأن ترى مرور الصيدة وتقول لنفسك داخل قلبك: حسناً، لقد هربت هذه المرة، وتجلس ملياً بالصداقة نحو الحيوان ذي الريش أو الشعر الذي يبتعد، إنها مسألة إيمان بالقدر، فلم تأت ساعته بعد». «إنها طريقة خاصة لرؤية الأمور، وبعد ذلك؟». «بعد ذلك لا شيء، أما قبل ذلك فحدث أني كنت مفلساً أيضاً لأشتري طلقات رش». «يا رجل، هل أنت دائماً مفلس!». «ممَ أنت مندهش، ألم يحدث لك أبداً أن أفلست!». «جميل، فلنرجع لمرجوعنا، فأنا أعرف جيداً عن احتياجاتي، واصل حضرتك». «حينئذ لم يكن لديّ نقود لأشتري رصاصاً، لكن كان لدي بلية من الفولاذ، من هذه التي تأتي في المحامل وعثرت عليها في نفايات ورشة، وحينها طبقت الوصفة نفسها، لكن هذه المرة بلا شجرة، فالشجرة كانت فقط من أجل المسامير الصغيرة». «ماذا، اشرح لي بشكل أوضح». «فكرت أن بلية من الفولاذ مصوبة بشكل جيد ستكون مثل رصاصة، فلا تمزق لحم الحيوان ولا تهشم جلده، إنها فقط مسألة مهارة في الرماية، وفي هذا أنا محترف، ولا أقول ذلك مدحا في ذاتي». «وبعد ذلك». «بعد ذلك ذهبت إلى الحقل، لمكان كنت أعرفه، أرض رملية اعتاد أن يسير فيها أرنب بحجم جَدي، كان أبو الأرانب، بجد، أما ما لم أرها أبداً فكانت أمها، إذ لا تخرج أبداً من جحرها، هذا الجحر العميق جداً مثل هوة جسر كافا، تحفر الأرض لأعماقها ولا يعرف أحد نهايتها».
«جميل، لكن هذه حكاية أخرى». «أنت مخطئ، كلها الحكاية نفسها، لكن ليس أمامي متسع من الوقت لأحكيها الآن». «وبعد ذلك؟». «بعد ذلك، لعب الأرنب الدنيئة معي عدة مرات، فهو يتمتع بفن خاص في الاختفاء ما إن أرفع بندقيتي، هذا في الأحوال التي كنت أسير فيها بالرصاص».
«إذن لم يكن يهمك أن تهشم جلده». «مع أرنب بهذا الحجم لا يهمني». «لكنك قلتَ لي في التو...». «انظر، أنا لا أستطيع مواصلة حكايتي هكذا». «اتفقنا، واصل». «انتظرت وانتظرت، مرت ساعة، مرت ساعتان، وفي وقت متأخر ظهر الحيوان متقافزا، هو مجرد تشبيه له بالجدي، كما قلت من قبل، وفي لحظة ما عندما كان يتقافز في الهواء خُيّل إلى أنه حجل، وبوووم، نار».
«أقتلته؟». «لا سيدي، فقد نفض الأرنب أذنيه قبل أن يسقط على الأرض، وانتهت الوثبة، ووثب أخرى، وثالثة، وأنا أصبحت بلا سلاح، وشرع في الجري منطلقا نحو السياج، وعاد ليتقافز، هذه التقافزات الطويلة، وكان يبدو أنه سيطير فوق هذا السياج، وكان هذا بعيداً مثل من هنا لهناك، وماذا أرى». «ماذا؟». «الأرنب المسجون يحرك
ساقيه، كان يبدو كما لو أن أحداً يمسكه من إحدى أذنيه، وحينئذ اقتربت ورأيت كل شيء». «يا رجل، لقد ساد صمتك وقتاً طويلاً وأنا الفضول يأكلني». «أنت أيضاً مثل الأرانب البرية». «دعك من الهزل واحك لي البقية». «كانوا هناك يصلحون السياج ووضعوا سلكاً شائكاً برؤوس حديدية بحجم هذا الإصبع، وبما أن الطلقة خرقت أذن الأرنب، فقد شبكت الأذن المخروقة في السلك الشائك، تخيل». «وحينئذ قفزت عليه، أعطيته ضربة خلف أذنيه». «لا يا سيدي، سلكته من السلك وأطلقت سراحه». «هذا مستحيل!». «رأيت أن إصابته في أذنه لم تكن مهارة في الرماية، بل مصادفة وحظ، وأبو الأرانب لا يمكن أن يموت بالمصادفة». «يا لها من حكاية عظيمة!». «كلها حقائق، حقيقة أيضاً أن الأرانب في هذه الليلة سارت ترقص حتى الصباح، وكان القمر بدراً».

«ولماذا؟». «كانت سعيدة لأن أبا الأرانب قد نجا». «أرأيتها حضرتك ترقص؟». «لا، لم أرها، لكني حلمت بها».

هنا مربط الفرس. تموت السمكة من خياشيمها، الصغيرة في الشص والحزينة في المقلاة عندما لا يعيدها الصياد للماء، ولو أعادها فلا نعرف هل أنقذتها شفقة الصياد على البسارية أم تصوره مستقبلها بعد أن تنمو وتظهر، لكن أبا الأرانب الذي لم يكن لينمو أكثر من ذلك بالتأكيد، قد أنقذته نزاهة أنطونيو المنحوس، القادر على ابتكار حكايات مذهلة لم يبتكر أفضل من حكاية الأرنب، واضعين في الاعتبار أن التنشين في الأذن أصعب من بقية الجسد حتى لو كان الصياد ماهراً، وفي صمت الوسية اعترف سريعاً، بعد أن انطفأت أصداء الرصاصات في جذامات القمح، بأنه ما كان ليمتلك سلام الضمير بقية حياته لو تذكر عين الأرنب المرعوبة والمتسعة تنظر إليه وهو يقترب من السياج.

الوسية حقل محوّط بأسلاك شائكة، في كل سلك ثمة أرنب نفد صبره، بأذن مخروقة، ليس بسبب رصاصة وإنما بالميلاد، ويبقى هناك طيلة حياته يحفر الأرض بأظافره، يسم الأرض بفضلاته، ولو نبت ثمة عشب تأكل ما تطوله، ببوز متذلل ملتصق بالأرض، فيما تسير حوله خطوات الصيادين، أموت أم لا أموت. وذات يوم، فلت أنطونيو المنحوس من السلك الشائك واجتاز الحدود، وفعل ذلك خلال خمس سنوات، مرة كل عام، وعبر لأراضي فرنسا، شمال فرنسا، نورمانديا، سار مساقاً من أذنه، مختاطاً بثقب الحاجة، الحق أنه لم يتزوج ولا أنجب أولاداً يطلبون منه الخبز، لكن صحة أبيه لم تكن على ما يرام، إنها عواقب السجن، لم يقتلوه لكنهم طحنوه جيداً، وفي جبل لافري كانت البطالة تسود، ففي فرنسا على الأقل ثمة عمل مضمون، كما أن الأجرة أفضل مقارنةً بما يُدفع في الوسية، ففي شهر، أو أكثر قليلاً، يدفعون خمسة أو ستة عشرة ألف، ثروة، وحصل عليها، ولكن عند عودته لجبل لافري تطير أغلبية ما ادخر في دفع الديون والقليل يدخره للمستقبل.

وفرنسا، ما فرنسا. إنها حقل لا نهائي من البنجر، يعملون فيها في عزق الأرض ستة عشر ساعة يومياً، أو سبعة عشر، إنه كلام، لأنها ساعات طويلة، فهم يعملون كل ساعات النهار وعدداً من الليل. فرنسا هي عائلة من النورمانديين التي ترى أنه يدلف من بوابتها ثلاثة حيوانات ايبيرية، برتغاليان وإسباني من أندلسية، وهم: أنطونيو المنحوس وكارولينو دا أفو، من جبل لافري، وميجيل إرنانديث، من فوينتي بالميرا، وهذا الأخير يعرف بعض كلمات فرنسية، سلاح المهاجر، وبهذه الكلمات يقول إنهم يعملون هناك بالأجرة. فرنسا مرتبة من التبن قليلة الراحة لنوم قليل وطبق من البطاطس، إنها أرض خالية بشكل غامض من أيام الآحاد والأيام المقدسة. فرنسا أرض وجع الكليتين، وسكينان مغروزان هنا وهنا، وحزن ناتج عن عبور مميت، وصلب في جزء من الأرض. فرنسا أرض تشاهدها بعينيك كأربعة أشبار من جذع البنجر، فغاباتها وآفاقها من البنجر، ليس بها إلا ذلك. فرنسا هذا الازدراء، هذا النظر بتعالٍ، هذا الحديث بسخرية. فرنسا هذا الشرطي الذي يأتي ليتحقق من أوراقنا، سطراً سطراً، مقارناً ومستجوباً، واقفاً على بعد ثلاث خطوات منا لتجنب رائحتنا الكريهة. فرنسا هذا الارتياب الواقف دوماً مستعداً كنوبتجي، هذه الرقابة التي لا تكل ولا تمل، هذا النورماندي الذي يمضي مفتشاً على العمل المنتهي ويضع قدمه كأنه يدوس على

أياديناً بتعمد. فرنسا هذه المعاملة السيئة في الغذاء والمرحاض، وعلينا ألا نقارن أنفسنا بخيول المزرعة، الخيول البدينة، العزيزة، ثرية المؤخرة. فرنسا سياج من الأسلاك الشائكة بأرانب مثقوبة الأذن مثل الأسماك في الشص، حتى الهواء ينقصها، وكارولينو دا أفو أقلهم احتمالاً، وأبدنهم خصراً، وأكثرهم تراخياً، يشبه مطواة كسرت منها فجأة سوستها، وصار نصلها بارداً، وسنها ملتويا، وفي العام القادم لن يعود. فرنسا سفر طويل بالقطار، وحزن هائل، وكومة من التذاكر المربوطة بدوبارة، وحقد أحمق من جانب من لم يسافر ويغتاب من سافر «إنه ثري»، إنه حسد الفقير، وأسوأ شيء أن يحب بعضهم بعضا من أجل المصالح.

يعرف أنطونيو المنحوس وميجيل إرنانديث كثيراً عن كل ذلك، وفي فترة الراحة يتبادلان الرسائل، المنحوس من جبل لافري، وإرنانديث من فوينتي بالميرا، رسائل بسيطة، بها أخطاء إملائية ربما في كل كلمة، بحيث أن ما يقرأه إرنانديث ليس برتغالية صحيحة، ولا ما يقرأه المنحوس إسبانية صحيحة، إنها لغة مشتركة بينهما، لغة قلة المعرفة وكثرة القول، ويتفاهمان، إنها تشبه إيماءات يقوم بها كل منهما من جانبي الحدود، مثلاً، فتح وغلق الذراعين، إيماءة ليس لها معنى سوى العناق، ووضع اليد على القلب ليس إلا إشارة لحب الخير للآخر، أما النظر فقط، فعلامة على الكشف، وكلاهما يوقع الرسائل بالصعوبة نفسها، باليد ذاتها؛ غريبة الشكل التي تجعل من القلم مقبضاً للفأس، لهذا تخرج حروفهما شديدة الوضوح، هكذا: ميجيل إرنانديث أو أنطونيو المنحوس. ذات يوم، سيتوقف ميجيل إرنانديث عن الكتابة، وتظل رسالتان لأنطونيو المنحوس معلقتين بلا جواب، والرجل، حتى ولو لم يرغب، يجرحه الاستياء، لا يشعر بنكبة بالضبط، ولا يفقد شهيته عليه، هذه الكلمات تقال كنوع من الفضفضة، فالله وحده يعلم إن كان إرنانديث قد مات، أو سجنوه كما سجنوا أبا أنطونيو المنحوس، مَنْ يستطيع أن يذهب لفوينتي بالميرا ليطّلع على الأمر؟ وخلال سنوات طوال سيظل أنطونيو المنحوس يتذكر ميجيل إرنانديث، وعند حديثه عن أيام فرنسا سيقول «كان صديقي ميجيل»، وتسقط غمامة أمام عينيه ويضحك حتى لا تلاحظ دموعه، ويحكي حكاية الأرانب والأحجال، فقط ليسلي الآخرين، لا شيء من الخيال، حكايات حقيقية، حتى إن موجة الذاكرة تذوب وترتاح. في هذه الأوقات فقط يشعر بالحنين لفرنسا، لليالي الثرثرة في المرتبة التبنية، للحكايات الأندلسية والبرتغالية، حكايات عن جيان وايفورا، عن جوزيه القط وبابلو قاطع الطريق، وهذه الليالي الهائجة، في نهاية عقد العمل، عندما كانا يذهبان للماخور لسرقة المتعة المباعة، هيا هيا، ما زال الدم يعترض بلا شبع، وكلما زاد التعب، زادت الرغبة. كانا يخرجان للشارع، تطاردهما لغة غريبة لا يعرفانها، ale negres، هذا ما يحدث لهذه السلالة قمحية اللون، كلنا زنوج بالنسبة لمن ولد في نورماندیا ويتباهى بأنه من أصل نقي، حتى ولو كانت عاهرة.

حينئذ جاء عام قرر فيه أنطونيو المنحوس ألا يعود مرة أخرى لفرنسا، أيضاً لأن صحته قد تدهورت. وبداية من الآن سيكون مرة أخرى أرنب الوسية، يتعلق بالشوك، يحفر بأظافره، يعود الثور للساقية، والمياه لمجراها المعروف، بجانب مانويل السيف والآخرين، ليقلع الفلين، ليحصد، ليقلم الأشجار، ليقلب الأرض، لينظفها، كيف لا يكل الناس من هذه الرتابة، كل يوم يتساوى بعضهم مع بعض، على الأقل في الطعام القليل والتطلع لكسب شيء من المال من أجل الغد الذي

يعد أكبر تهديد لهذه الأماكن، الغد، الغد أيضاً يوم، مثل الأمس، بدلاً من أن يكون ومضة أمل، حتى ولو كانت نسمة خفيفة، إن كانت هذه هي الحياة.

فرنسا موجودة في كل مكان. وسية كاريكا تقع في فرنسا، الخريطة لا تقول ذلك، لكن هذه هي الحقيقة، ولو لم تكن حقيقة فـ نورمانديا هي بروفينزا، كلها سواء بسواء، لكن ميجيل إرنانديث لا يسير بجوار أنطونيو المنحوس، وإنما مانويل السيف، صهره وصديقه أيضاً، رغم أن طباع كل منهما مختلفة عن الآخر، كلاهما يحصد بالقطعة، وسنرى كيف. إلى هنا جاءت أيضاً جراثيندا المنحوس، صارت حبلى في النهاية بعد أن ظنت أنهما لن ينجبا، ويقطن ثلاثتهما خلال فترة الحصاد في كوخ هجره المزارعون، اقترب منه مانويل السيف أولاً لينظفه من أجل راحة زوجته، فمنذ خمس أو ست سنوات لم يسكنه أحد، كان مليئاً بالقمامة، بالحيات والسحالي وكل أنواع الهوام، وعندما كان على وشك الانتهاء ذهب مانويل السيف ليبحث عن حزمة من الأسل وفرشها في الكوخ ليستريح، وكان هذا مرطباً، فرطب الأرض، وكان على وشك أن يغوص في نومه، كان جداراً من الطوب اللبن مغطى بالجولق والتبن الذي كان يستخدم كسقف، وفجأة مرت عليه حية غليظة مثل دمية، ليست مثل الحيات النحيفات. لم تطلع جراثيندا المنحوس على الواقعة، فمن يدري ماذا كانت ستفعل لو علمت، ربما لم تكن لتهتم، فنساء هذه الأرض لا يغشى عليهن لأمر تافه كهذا، وعندما وصلت للكوخ رأت كل شيء مرتباً، بفراش حقير للزوجين وآخر أعده مانويل لصهره، يفصل بينهما جوال كجدار عازل، إنه اختلاط يحدث في أرض الوسية هذه. «لا تعترض يا أب أجاميدس حيث تسير، فهؤلاء الرجال لن يناموا هنا، وإن رقدوا ذات مرة في السرير فقد فعلوا حتى لا يموتوا، والآن نعم نستطيع أن نتحدث عن الشروط، إنهم يقبضون كذا إسكودو في اليوم خلال أسبوع، أي أكثر من خمسمائة إسكودو لبقية الحصاد، ويوم السبت يجب أن ينتهي العمل». يبدو الأمر غاية في التعقيد، لكنه أبسط الأمور الموجودة هنا. خلال أسبوع كامل سيحصد مانويل السيف وأنطونيو المنحوس ليلاً ونهاراً، من الجميل أن نفهم ما معنى ذلك، عندما يكونان قتيلين من يوم عمل كامل سيذهبان للكوخ ليأكلا ثم سيعودان للأرض وسيعملان فيها، في الحصاد، لا في جمع الخشخاش الأعمى، حاصدين طوال الليل، وعندما تطلع الشمس سيذهبان للكوخ ليأكلا أي شيء، ولو استراحا، سيكون لمدة عشر دقائق، كل منهما في فراشه الحقير، مشخراً مثل المنفاخ، ثم سينهضان ويعملان اليوم بأكمله، ويعودان ليأكلا، لا يهم ماذا يأكلان، ويعملان طوال الليل، نعرف أنكم لن تصدقوا، «هؤلاء ليسوا بشراً»، بل هم بشر يا سيدي، فلو كانوا حيوانات لسقطوا مستسلمين، ميتين، لقد مر فقط ثلاثة أيام وصارا مثل شبحين يمشيان تحت ضوء القمر في حقل القمح شبه المحصود. «أتعتقد أن بوسعنا أن نحصده كله»، «نعم بالطبع، يجب أن نحصده كله»، وأثناء ذلك كانت جراثيندا المنحوس تذهب لتقشير الأرز، تسير حبلى، وعندما لا تستطيع التقشير ستذهب للماء، وعندما لا تستطيع أن تذهب للماء ستصنع طعاماً لثلاثتهم، وعندما لا تستطيع أن تصنع طعاما لثلاثتهم ستعود للتقشير، وتذهب البطن لورد الماء، وبدلا من أن تنجب ولداً سيطلع لها عنكبوت.

أخيراً ينتهي الحصاد، وينتهي في الوقت المتفق عليه، أتى جيلبيرتو ودفع، وأمامه كان يقف شبحان، لكن جيلبيرتو اعتاد على رؤية أشباح كثيرة مشابهة، وذهب أنطونيو المنحوس ليعمل في جانب آخر من فرنسا هذه، في جانب آخر من هذه المذبحة. في كوخ الفلاحين ما زال يعيش مانويل

السيف وزوجته جراثيندا، حتى جاءها المخاض. ذهب مانويل السيف لجبل لافري ليترك زوجته وعاد إلى وسية كاريكا، ولحسن حظه وجد عملاً. من لا يجد في كل هذا جديداً يحتاج لأن ننزع الغشاوة من على عينيه أو أن نفتح له ثقباً في أذنيه، إن لم يكن لديه ثقب ويرى فقط الثقوب في آذان الآخرين.

وَلَدتْ جراثيندا المنحوس ولادة متعسرة. جاءت أمها فاوستينا والداية العجوز للوقوف معها في ساعات الطلق. الداية ولاّدة من الزمن القديم، هي المسؤولة عن بعض حالات الموت أثناء الولادة، سواء موت الأم أم الابن، وكنوع من التعويض، هي أيضاً صانعة أجمل سُرّات في جبل لافري، حكاية تبدو مضحكة لكنها ليست كذلك، إذ ينبغي أن تكون موضوع بحث في التوليد ليتحققوا كيف كانت هذه الداية تقص وتخيط الأحبال السرية بطريقة تجعلها تبدو بعد ذلك مثل كؤوس ألف ليلة وليلة، شيء لو توافرت الفرصة والجرأة، قد يمكن التحقق منه بمقارنة هذه البطون بالبطون المكشوفة لراقصات عربيات يأتين في الليالي الغامضة ليخلعن نقابهن عند ينبوع الأميرو. أما بالنسبة لآلام جراثيندا المنحوس فلم تكن لا أكثر ولا أقل من آلام بقية النساء منذ ذنب حواء السعيد، نقول ذنباً سعيداً للمتعة التي سبقته، وهي وجهة نظر يعارضها لأسباب مهنية وربما عقائدية، هذا الأب أجاميدس المدافع عن أقدم عقاب في تاريخ البشرية، إذ يقول إن ياهوه قد حدد «ستلدنّ بألم»، وهكذا يحدث الألم كل يوم ولكل النساء، بما فيهن تلك النسوة اللاتي لا يعرفن هذا القول ولا حتى يعرفن ياهوه. في النهاية، أحقاد الآلهة أكثر دواماً من أحقاد البشر. البشر في النهاية مجرد شياطين مساكين، قادرون نعم على ارتكاب انتقامات فظيعة، لكن ضد هؤلاء الذين لا يحرك قلوبهم شيء، وعندما تأتي ساعتهم الموعودة والضوء المناسب يقعون في ذراعي العدو باكين لأنهم رجال ونساء وبشر. الرب، سواء كان ياهوه أو غيره، هو هذا الذي لا ينسى شيئاً، فمن ارتكب خطيئة يعاقب عليها، ومن هنا يأتي هذا العرض للفروج المفتوحة، الواسعة، البركانية، التي يتدفق منها الدم القذر والصديد ليخرج رجالاً جدداً ونساءً جديدات، يتساوون جميعهم في البؤس ثم يختلفون بعد هذه الدقيقة، طبقا للأذرع التي ستتلقاهم والنفوس التي ستدعمهم والثياب التي ستسترهم، بينما الأم تلم لداخل جسدها دوخة المعاناة فيما يقطر من لحمها الممزق بعذوبة آخر زهرة في دمها ويتحرك بتروٍ الجلد المتراخي لبطنها الواسعة فيغدو تجاعيد، ثم يبدأ الشباب في قضاء نحبه.
أثناء ذلك، بدت شرفات ملكوت السماء خالية، والملائكة يغطون قيلولتهم. أما ياهوه وغضبه المتبقي، فما من أخبار تجلت بعد في العقل البشري، ولم يثبت أن صُنّاع الألعاب النارية السماويين قد استدعوهم ليتصوروا ويركبوا ويطلقوا أي نجم جديد ليضيء، خلال ثلاثة أيام وثلاث ليال فوق البيت المخروب حيث تعيش جراثيندا المنحوس وزوجها مانويل السيف وابنتهما الأولى، وسيكون اسمها ماريا اديلايدا. ومع كل، نحن في أرض لا ينقصها رعاة، بعضهم كان راعياً في فترة صباه، وبعضهم ما زال كذلك ولن يكون شيئاً آخر حتى تتوفاه المنية. ثمة قطيع عدده هائل، نرى أحدهم يمتلك ستمائة نعجة، وبعض قطيع أيضاً من الخنازير، لكن هذا الحيوان لا يناسب أعياد الميلاد، حيث ينقصه هذا المظهر الأنيق الذي تتمتع به الخرفان، فينقصه هذه الفروة، ملمس الصوف، يا حبي، أين وضعت الإلية، فبهذه الحيوانات يمكنهم أن يصنعوا البدع. لكن بالخنزير، بعد غياب الفرحة بمولده، بهذا المظهر الشبيه بالكرامل الوردي، يعود أخرق ونتن الرائحة، عاشقاً للزريبة، لا فائدة إلا من اللحم الذي يرميه. أما الثيران فتمضي في عملها، عددها ليس كبيراً في الوسية

ليفيض منها من يقوم بأعمال متأخرة، وبالنسبة للحمير، فلا توجد تحت البرادع سوى قرحات، وحولها تئز دبابير يثيرها الدم، بينما في بيت مانويل السيف يحوم الذباب محموماً فوق جراثيندا المنحوس برائحة المرأة حديثة الولادة، «هشوا هذا الذباب من هنا» تقول الداية العجوز، أو ربما لا تقول حتى هذا، فهي معتادة على هذا التاج من الملائكة المجنحين والطنانين الذين يأتون في كل صيف كلما وضع مولود.

وبرغم كل شيء هناك معجزات. المولودة الحديثة ترقد فوق الملاءة، ضربوها عندما جاءت للدنيا ولم يستلزم الأمر ضرباً مبرحاً لأن في حنجرتها تتكوّن، بإرادتها، أول صرخة في حياتها، ويتحتم عليها أن تصرخ صرخات أخرى لا يمكن أن يتخيلها أحد اليوم. تبكي، بلا دموع، كنوع من ضم الجفون، من التملق الذي قد يثير خوف أحد سكان كوكب المريخ، ومع ذلك قد تجبرنا أن نبكي بلا توقف، ولأنه يوم حار تنيره الشمس الجلية ولأن الباب مفتوح، يسقط في هذا الجانب من الملاءة نور منعكس لا نهتم من أين يأتي، وتكون فاوستينا المنحوس، الصماء لدرجة لا تسمع معها بكاء حفيدتها، أول ما ترى عيناها الزرقاوان، مثل عيني جوان المنحوس، الشبيهتين بقطرتي ماء سماويتين، ببتلتين مستديرتين من الأورتنسيا، لكن لا شيء من هذه التشبيهات السوقية يفيد، فهي تشبيهات من لا يعرف الوصف بشكل أفضل، إلا أننا لا يمكن أن نجد وصفاً آخر مجدياً، حتى لو بذل عشاق صاحبة
هاتين العينين ما في وسعهم: إنهما عينان زرقاوان، لا هما بالمائيتين ولا بالسماويتين، لا هما مائلتين للوّن النباتي ولا لون الماء السابح تحت الأرض، إنهما عينان زرقاوان بكثافة ولمعة مثل عيني جوان المنحوس. وعندما يصل هذا الأخير سنقوم بالمقارنة وحينها سنعرف أي زرقة هذه. في هذه اللحظة، تنتبه لهما فاوستينا وحدها، ولهذا تستطيع أن تعلن «لها عينا جدها تماماً»، والمرأتان الأخريان، الداية التي طعنت في أولى حقوقها كمولدة، وجراثيندا المنحوس الذئب الغيور على ولده، الأولى والثانية تريد أن تراهما، لكن الداية تسيء استخدام حقها فتقترب وتحجب الرؤية، لهذا تغدو جراثيندا آخر من تشاهدهما، ولا يهم، فلديها متسع من الوقت عندما يكون فم طفلتها الماص مربوطاً بحلمة ثديها، ولديها متسع من الوقت لتنسى أن تنظر إلى هاتين العينين الزرقاوين بينما يتدفق لبنها لفم صاحبتهما، نعم، متسع من الوقت تحت هذه القراميد المهترئة، وفي وسط الحقل، وتحت شجرة بلوط، وواقفة عندما لا تستطيع أن تظل جالسة، ومسرعة عندما لا يصح البطء، سيكون لديها متسع من الوقت لتعطي القليل والكثير من هذا الثدي، من هذه الحياة، من هذا الدم الأبيض الذي يتكون منه الدم الآخر، الأحمر.

حينئذ جاء ملوك المجوس الثلاثة. أولهم كان جوان المنحوس، جاء سيراً على قدميه، وكان ضوء النهار ما زال منتشراً، فلن تعين له نجمة، وإن لم يكن قد وصل قبل ذلك فهذا يرجع لمسائل متعلقة بالحياء الرجولي، كان بإمكانه حضور الولادة لو كانت هذه الأشياء مسموحاً بها في هذا الزمن وهذا المكان، ما أسوأ أن يرى ابنته نفسها تلد! لكن لا يصح ذلك، فالهمسات والغمزات ستنتشر، ولنبق هذه الأفكار للمستقبل. وصل مبكراً لأنه كان بلا عمل، كان يحرث قطعة أرض أعطوها له ليصلحها وانتهى، وعندما دخل البيت لم يجد زوجته، فأخبرته الجارة أنه أصبح جداً لطفلة، فشعر بفرحة، لكنها ليست الفرحة الكبيرة المتوقعة، كان يفضل أن تنجب رجلاً، عادة ما يفضلون إنجاب

الرجال، وحينئذ عاود الخروج من جديد وسار بخطوته المتأرجحة بين ألمَين، أولهما هنا، وثانيهما هنا، الوخزة القديمة للأحمال الثقيلة عندما كان يعمل في الفحم، والانهيار الأصم لتمثال. يبدو مثل بحار ذي رفعة هبط في الحال من سفينته ويتعجب من سكون الأرض التي يدوسها، أو كما لو كان يسافر على سنام جمل، سفينة الصحراء، وهذا التشبيه يرسم اللوحة بالضبط، لأن جوان المنحوس بما أنه أول ملك عظيم، فمن العدل أن يأتي في سفر بهذا الشكل وهذا التقليد، أما الآخران فيأتيان كما يستطيعان، وعن الهدايا لن نتحدث، إلا إذا كان قوس الألم المحفور في قلب جوان المنحوس يعد هدية، خمسون عاماً من المعاناة، بلا ذهب، أما البخور فهو دخان الكنيسة، الأب أجاميدس، ولو تحدثنا عن نبات المُر فسنجد موتى في الطريق. إنه قليل، ومضر، لنقدمه لمن ولد حديثاً، لكن هؤلاء الأُجراء يمكنهم أن يختاروا فحسب بين المسموح لهم به، عرقاً كلما تحتم ذلك، سروراً على ألا يكون أكثر من بسمة تظهر منها أسنان قليلة، وأرضاً، الضروري منها لترمم عظامهم، أما الأرض الأخرى فلآخرين.

ذهب إذن جوان المنحوس بيده فارغة، لكنه في الطريق تذكر أنه قد وُلد أول حفيد له، فاقتلع من سياج مزهر زهرة جرانيوم، ساقاً ممتلئاً بالعقد، تفوح منها رائحة قوية، رائحة بيت فقير، ومن الجميل أن نرى الملك العظيم فوق جمله بتجفافه الذهبي والكرمزي، يميل بتواضع ليأخذ زهرة من البستانية، من دون حتى أن يأمر أحد عبيده الكثيرين الذين يصحبونه ويخدمونه. انظروا لهذه الخيالات الرحبة. وعندما وصل جوان المنحوس إلى باب بيت ابنته، بدا أن الجمل يعرف واجباته، فثنى ركبتيه ليسهل نزول سيد الوسايا هذا، حينها قام كل عساكر كتيبة الحرس الجمهوري بتعظيم سلام، رغم أن الشاويش تباكو كانت لديه شكوك في أحقية أن تسير حيوانات بهذا الحجم وهذا المزاج في الطريق العام. إنها هلاوس ناتجة عن الشمس العنيفة، المفتوقة في السماء لكنها ما زالت تحرق كل أحجار الطريق، هذه الأحجار الساخنة كما لو أن الأرض قد ولدتها في الحال. «ابنتي الحبيبة»، حينها يرى جوان المنحوس أن عينيه خالدتان، إنهما هنا بعد رحلة طويلة، لم يكن يعرف المسافة التي تفصلهما عنه، من أين جاءتا، كيف حدث ذلك، يكفيه أن في جبل لافري لا توجد عينان شبيهتان، لا في عائلته ولا خارجها، أبناء ابنتي هم أحفادي، وأبناء ابني أيكونون أحفادي أم لا، لا أحد يتحرر من الوساوس العامة، أبناء ابنتي أحفادي ولا أحد يمكن أن يشك فيهم، انظروا، انظروا لهاتين العينين الزرقاوين، وانظروا الآن لعيني حفيدتي التي سنسميها ماريا أديلايدا، وهي الصورة الحية لجدتها التي عاشت منذ خمسمائة سنة، بالاضافة لهاتين العينين التي ورثتهما عن جدها، مغتصب الصبايا الأجنبي. كل هذه العائلات لها أساطيرها، بعضهم لا يعرفها، مثل أسطورة عائلة المنحوس الذين يمكنهم أن يشكروا الراوي.

وصل الملك العظيم الثاني مع هبوط الليل. كان قادماً من عمله ولم يكن ثمة نور في البيت، فالنار منطفئة، والقدر الممتلئ لم يبق له أثر، حينها ارتجف قلبه وارتجف مرة أخرى عندما قالت له الجارة نفسها «لقد وضعت أختك طفلة، وأبوك وأمك هناك»، الآن يعرفون أن المولود طفلة ولها عينان زرقاوان، ومعرفة ذلك تسلية لجبل لافري، لكن الجارة لا تقول شيئاً حول النقطة الأخيرة، إنها امرأة طيبة تعتقد أن للمفاجآت مكانها ولحظتها، فأي ظُرف في أن تقول لأنطونيو المنحوس «ابنة أختك لها عينان زرقاوان»، فبعينيه العسليتين سيرى وسيحتفل

بما يراه. لقد قبع الحرس في ثكنته، ولن يجد أنطونيو المنحوس من يعطيه تعظيم سلام، وهذا ما كان ينقص، مجنون من يصدق ذلك، لكنه بلحمه وشحمه ملك عظيم هذا الذي يهبط للشارع، قذراً كما ينبغي أن يكون القادم من عمله. لم يستحم، لم يكن لديه وقت، لكنه لا ينسى واجباته فيأخذ زهرة مارجريت من علبة مكلسة بجانب باب، وحتى لا تذبل بين أصابعه وضعها بين شفتيه، يغذيها من ريقه، وعندما يدخل أخيراً يقول «أختي»، ويعبر عن حبه، وهو أمر غاية في الطبيعية، ويقدم زهرة باسمها، كما رأينا مع الجرانيوم والبستانية وكما سنرى مع القرنفل.

الحمد لله أن أنطونيو لم يصر على رؤية هاتين العينين الزرقاوين. الصغيرة تنام في سلام تام، مغمضة العينين، وكان هذا قرارها، ستفتحهما فقط للملك العظيم الثالث، لكن هذا سيصل متأخرا، بعد منتصف الليل، لأنه يأتي من بعيد ويسير المسافة كلها على قدميه، ويكرر هذا السفر منذ ثلاثة أيام، أو ثلاث ليال، لمن يحلو له أن تكون لديه معلومات دقيقة. اعرف إذن أن مانويل السيف يدخل في الليلة الثالثة بلا نوم تقريباً، وهو معتاد على ذلك، وهو ما ينقذ هؤلاء الناس، ولتفهم بشكل أوضح، سأشرح بشكل أوضح، فلتسمع «بما أن مانويل السيف يعمل بعيداً جداً عن بيته، ينام حيث يعمل، في كوخ رعاة أو حظيرة في جبل، لا يهم هذا فيما نرويه، لكن لاقتراب ساعة الولادة، ماذا يجب أن يفعل مانويل السيف؟ إذن يترك عمله عند غروب الشمس، يصل إلى بيته بعد دخول منتصف الليل، لا يرى جنينه إلا داخل بطن أمه، يستريح ساعة بجانب جراثيندا المنحوس ثم ينهض ويعود للعمل، بين الليل والفجر، وهذه ليلته الثالثة، والثالثة ثابتة، وعند وصوله سيرى امرأته والدة وابنته مولودة، وسنرى كيف تسير الأمور.

تناولت فاوستينا وجوان وأنطونيو المنحوس عشاءهم من دجاجة مذبوحة للنفساء جراثيندا، التي شربت حساءً مفيداً للمرأة حديثة الولادة، وأثناء ذلك جاء أخوال وأقارب، دخلوا وخرجوا، وكانت جراثيندا في حاجة إلى الراحة، اليوم على الأقل. مع السلامة، إلى اللقاء غداً، إنها طفلة جميلة وصورة من جدها. ساعة الحائط أشارت لمنتصف الليل، وإن لم يعق الحظ مسيرة المسافر، وإن لم تنزلق قدمه في منحدر أو تصطدم بسياج، وإن لم يقابله قاطع طريق يكسر القاعدة ويهاجم فقيراً مثله، لن يتأخر الملك العظيم الثالث في الوصول. أي هدايا سيحضر معه، أي موكب، ربما يأتي فوق حصان عربي بحدوة من ذهب ولجام من فضة مرجانية، يا ليت ذلك يحدث، وبدلا من أن يطلع له قاطع طريق ملتح وشرير تطلع له حورية عرابة وتقول «لقد ولدت ابنتك، ولأن لها عينين زرقاوين أهديك هذا الجواد حتى تتمكن من رؤيتها في أسرع وقت ممكن»، لكن حتى لو حدث ذلك، إنه ضرب من الخيال، فهذه الطرق وعرة، وبالليل تزداد وعورتها، والجواد قد تعب بالفعل أو كسرت له ساق، وبالتالي سيقوم مانويل السيف بالسفر على قدميه، يا له من ليل هائل مليء بالنجوم، مليء بالمخاوف والهمسات الخفية. ألدى الملوك المجوس سلطات أور(13) وبابل، ، لا يوجد أي خطأ،(14)بطريقة أخرى قد لا يمكن تفسير أن يطير أمام مانويل السيف يراعان يكفي السير وراءهما كما لو أنهما حافتا الطريق، من يقول إن هذه الخرافات ممكنة، أن يكون الطائر قادراً على قيادة إنسان، وهكذا يصعدان تلالاً ويهبطان لأودية، تحيطهما حقول أرز ويجتازان أرضاً ممهدة، ها هي تظهر أولى بيوت جبل لافري، والآن استراح اليراعان فوق قوائم

الباب، بمحاذاة الرأس، مضيئين، مجداً للإنسان في الأرض، وبينهما يمر مانويل السيف، فعلى الأقل يضيئان في هذه الساعات لمن يأتي من عمل ثقيل ويتحتم عليه أن يعود قبل طلوع الشمس.

لا يُحضر مانويل السيف هدايا، لا من هنا ولا من بعيد. يمد يديه وكل واحدة منها كما الزهرة، يقول «يا جراثيندا»، فلا يعرف كلمة أخرى، ويقبلها في وجنتها قبلة واحدة، لكن هذه القبلة الوحيدة لا نعرف ما كان فيها ليثير في حلقنا غصة، حتى ولو كنا من العائلة، حتى ولو كان لدينا ما نقوله ما كنا نستطيع، وخلال هذه الإيماءات والهمسات الخاصة تفتح ماريا أديلايدا عينيها، كما لو أنها كانت منتظرة أباها، إنها أول شطارة لها كطفلة، وترى كتلة كبيرة ويدين ضخمتين مفتوحتين، إنه أبوها، ما زالت لا تعرف معنى ذلك، يعرفه مانويل السيف، لدرجة أن قلبه يخفق بداخل صدره، وترتجف يداه الفارغتان. كيف سيحمل تلك الطفلة التي هي ابنته؟ الرجال حمقى، وحينئذ تقول جراثيندا للسيف «إنها تشبهك»، ربما، ففي هذه السن، بعد ساعات قليلة من الميلاد، لا يتضح شيء، لكن جوان المنحوس محق تماماً عندما يعلن «هاتان العينان هما عيناي» بينما ينصت أنطونيو المنحوس صامتا لأنه فقط مجرد خال، وفاوستينا، الصماء، تخمن كل ما يقال وتقول «يا حبي»، ولا نعرف لماذا تقول ذلك، إنها كلمات غير مستخدمة في هذه الوسايا، مسألة حياء أو رصانة.

بعد ساعتين، رغم أن الوقت يبدو كأنه يطير، خرج مانويل السيف من بيته، ينبغي أن يشد خطوته ليصل للعمل قبل طلوع الشمس. يشرع اليراعان اللذان كانا في انتظاره في الطيران من جديد، بالقرب من الأرض، لدرجة أن حراس مساكن النمل صرخوا لداخلها معلنين، من كثرة الضوء، أن الشمس طلعت.

تتكرر قصة الحصاد بثبات واضح، لكن ثمة تغيرات تطرأ عليها. فالأمر لا يتعلق بحصد القمح سريعاً قبل موعده أو بعده، لأن هذا يتوقف على هطول المطر أو شحه، وعلى شمس تتعسف في قيظها أو تنسى، كما أنه لا يتعلق أيضاً بزرع القمح في التلال أو الوديان، في الأرض الترابية أو الرملية. لقد تعود رجال الوسية على نكبات الزمن وأخطائه، ولن يضيعوا الأخضر واليابس من أجل أشياء كهذه لا يمكن تفاديها. والحق أن التغيرات المشار إليها، كل واحدة على حدة وبجمع آثارها، قد تستحق حديثاً مسهباً، سرداً بطيئاً، عودة للوراء من أجل هذه الكتلة الترابية المنسية، من دون أن يتحتم علينا المعاناة من غضب ضيقي الصدور الذين ينصتون لنا، والحقيقة أيضاً أن هذه التأملات غير مقبولة، لسوء الحظ، في السرد القصصي، حتى لو كنا نحكي عن وسية كهذه. فلنبق إذن بحسرتنا أمام رؤية هذه الاختلافات والعجز عن حكيها، ولنضم للشوائب الصغيرة هذا التصنع الخطير بأن الحصاد في كل عام يشبه سابقه، ولنسأل فقط ما هذا التأخير، لماذا لا يدخل الحصادون والماكينة في الحقل، بينما يرى رجال المدينة الجهلاء بجلاء أن الأوان قد آن ويشاهدون ما يحدث، وأن همس السنابل الجافة عندما تمر الريح همس خشن مثل ملمس أجنحة اليعسوب. في النهاية، أي أذى يُعِدوه هنا وضد مَنْ.

تتكرر قصة الحصاد ويطرأ عليها تغيرات. لكن سير الرجال الآن في سرور عنيد لطلب أجرة أكبر لا يعد تغيراً. لنقول الحقيقة، إنها نفس سلسلة ابتهالات كل عام، في كل المواسم وطلبات العمل، «يبدو أنهم لم يتعلموا قول شيء آخر، يا أب أجاميدس، وبدلاً من أن يشغلوا بالهم بنجاة أرواحهم الخالدة، إن كان لديهم أرواح، ينشغلون فقط بمتعة الجسد. لم يتعلموا الدرس من الزهاد، يفكرون فقط في المال، ولا يسألون إن كان موجوداً ولا يسألون إن كنت أستطيع دفعه». الكنيسة هي السلوى الكبرى في هذه المواقف، تتجرع في الخفاء مشروب الطقوس الدينية المسكر، من فضلك، أعطني قطرة أخرى، لا تبعدوه عني، وآسفة ترفع عينيها للسماء حيث تنتظر الجوائز لأجل الوسية، عندما تأتي ساعتنا، وكلما تأخرت كان أفضل، «يا سيدي الأب أجاميدس، ما رأيك في هؤلاء الكسالى الذين يمشون هناك هاتفين بحياة الجنرال، لا يمكن الثقة في أحد، فالرجل العسكري كان أكثر ثقة في نفسه، كان محباً للنظام الذي صنعه، والآن كما ترى، يسير هناك مضللاً الحشود، كيف سمحت الحكومة بأن تصل الأمور لما وصلت إليه؟». إلا أن الأب أجاميدس لا يعرف جواباً لهذا السؤال، فمملكته ليست دوماً في هذه الدنيا، لكنه شاهد وضحية أساسية للرعب القومي الكبير، فليظهر رافعاً صيحاته، فليستقل، فليستقل، مَنْ، مَنْ، السيد الأستاذ سالازار، ولا كانت تبدو حتى طرقاً للانتخاب، فالمنتخب يجب أن يكون مؤدباً، لكن جاء الأمر بعكس المطلوب، ويقولون إنه يسير هارباً، كنا نعيش جميعاً في سكينة والآن يأتوننا بهذه الاحتدامات «لكن بيني وبينك، يا أب أجاميدس، الآن حيث لا يسمعنا أحد، كان من الممكن أن تنتهي الامور بشكل سيئ، لقد احتاجوا إلى مهارة كبرى حتى لا يفلت منهم زمام الأمور، والآن يجب أن يكونوا مراقبين، وأول ما يجب أن يفعلوه إعطاء عبرة لهؤلاء الصعاليك، ولن يحصد ساق قمح هذا العام». «حتى يتعلموا يا سيد نوربيرتو»، «حتى يتعلموا يا سيدي القس أجاميدس».

لا ندري أين ولد هذا الشعار التعليمي. أجاء من لشبونة أم من إيفورا، أم بيجا، أم يا ترى من بورتاليجري، أم أنه قيل على سبيل المرح في طائفة حرفية في مونتيمور أم جرأة الكونياك أخرجته، أم أن لياندرو لياندرس أحضره من بيت التنانين، أياً كان الوضع، المهم أنه في أيام قليلة انتشر في الوسية بأسرها، من نوربيرتو إلى جيلبيرتو، من بيرتو إلى لامبيرتو، من ألبيرتو إلى أنجيلبيرتو، ولأنه وجد قبولاً عاماً، استدعوا مشرفي العمل وأصدروا الأوامر المناسبة لهم، «أوقفوا ما تحصدونه، ولا تبدأوا في حصاد جديد». ربما يكون ذلك لوباء ما، ربما تكون الغلال مجذومة والوسية تشفق على أولادها الحصّادين ولا تريد أن تراهم مشوهين، بأصابع مقطوعة وسيقان مجتثة وأنوف غائبة، فتكفيْهم مصائبهم. هذا الخبز مسموم، بث الرعب فيهم بوضع جماجم بأسنان بارزة على المزروعات، لتصيب الخوف حتى النفوس الأكثر ثباتاً، ولو ظلوا على إصرارهم على الدخول، استدعوا الحرس حتى يردهم لصوابهم. يقول مشرف العمل «لن يكون ذلك مقنعاً، فلا أحد أحمق ليبدأ في الحصاد قبل أن يضمن الأجرة، ولا أحد سيضحي بنفسه لو كانت البندقية في ظهره، أسوأ شيء هو الأذى الواقع». يقول ألبيرتو «افقدوا الخواتم من أجل الأصابع، فلو تركنا القمح في الحقول هذا العام، لن تخرب بيوتنا». يقول مشرف العمل «يريدون زيادة الأجرة، يقولون إن الأسعار ترتفع مع مرور الوقت وإنهم يعانون شظف العيش». يقول سيجيسبيرتو «أنا لا علاقة لي بهذا، سندفع الأجرة التي نريد دفعها، فالأسعار أيضاً ترتفع علينا».

ويقول مشرف العمل «يقولون إنهم سيجتمعون ليتحدثوا مع صاحب الوسية». ويقول نوربيرتو «لا أريد أن تنبح خلفي الكلاب».

لا يُسمع في الوسية بأسرها إلا عواء الكلاب. نبحوا من «المينيو» إلى «الغرب»، من شاطئ البحر إلى الحد الشرقي، عندما انتفضت الناس باسم وفعل الجنرال، نبحوا نباحاً جديداً يعني في اللغة البشرية بوضوح «إذا أردتم أن يرفعوا أجوركم، فانتخبوا ديلجادو حبيبكم»، هذا العشق للقافية يأتي من بعيد، ماذا بأيدينا، فنحن بلد شعراء، ومن كثرة نباحهم معاً
جاؤوا لينبحوا على الأبواب «يا سيدي القس أجاميدس، سريعاً ما سيبدؤون في تدنيس الكنائس، هذا أول ما يفعلونه، تدنيس الكنيسة المقدسة الأم»، «لا تحدثيني عن ذلك، لا تحدثيني عن ذلك، يا سيدة كليمنثيا، فرغم أني لا أرفض نخيل الاستشهاد، إلا أن الرب لن يسمح بتكرار الاعتداءات في هذه الأرض، اعتداءات شبيهة باعتداء سانتياجو دو إسكورال، حيث تحولت الكنيسة إلى مدرسة، تخيلي، لم أر ذلك ولم أكن هناك، لم يحدث ذلك في زمني، لكنهم حكوا لي ذلك»، «وحقا ما حكوا لك، كان حقاً مثل وجودنا هنا الآن، يا أب أجاميدس، إنها اهتراءات الجمهورية التي لن تتكرر إن شاء الله، وخذ حذرك عند الخروج، كيلا تعضك الكلاب». عندما يطل الأب أجاميدس من باب بيته، يطلق رجفة صوته الحاد ويسأل «اربطوا الكلاب»، وثمة من يجيبه بلا مبالاة «هؤلاء نعم»، وبهذه الإجابة لا ندري أي كلاب سجنت وأيها ما زالت طليقة، لكن الأب أجاميدس يثق في أن المعلومة تدافع له عن سلامة سمانته، ويخرج للرواق. الحقيقة أن الكلاب مسجونة، لكن عندما يجتاز واجهة البيت ويخرج للشارع، يجد تجمع أفراد، لا ينبحون، فهذا ما كان ينقص، رجال يعوون، لكن إذا كان هذا الهمس لا يشبه دمدمة كلب، فليختف اسمي من الوجود. ولا يرى الأب أجاميدس النمل الذي يسير بطول البيت رافعاً رأسه كما الكلاب، ورغم أنه صامت، إلا أننا نفكر ماذا سيكون مصيرنا لو اتحد كل هذا السرب.

لقد تحدثنا عن العقاب على وقاحة المطالبة بتحسين الأجور وعن الجريمة الاستثنائية بمساندة ديلجادو ومن أجله القسم في كل مكان مسكون أو مجلس محلي: لا عمل في الحصاد هذا العام. يقول أدالبيرتو «بالنسبة لي، يهمني أن يضمنوا لي أن حكومة الأمة موافقة»، «الحكومة موافقة ونحن أيضاً، حيث تبدو لنا فكرة رائعة»، يقول لياندرو لياندرس. «والأضرار، يا سيدي الحاكم المدني، ستوجد أضرار، تستطيعون أن تعتمدوا على إرادتنا المخلصة، لكن عندما يدفع الجميع، وهذا إصلاح مبرر، يعمل في أي مكان في وسية غير محددة، قد تكون مدينة، ماذا سيفعل الحاكم المدني في قرية صغيرة إن لم يفتتح شيئاً، أياً كان المكان، فمن يدري فقد يكون شرفة مفتوحة على المنظر بأكمله». «لا تشغل بالك يا سيد بيرتو، إنهم يدرسون بالفعل وسائل مساندة الزراعة، فحكومة الأمة تعرف تطلعات الفلاحين ولن تنسى خدمات وطنية كالخدمة الحالية». لم يكن ينقص إلا القليل لترفرف الأعلام، لكن الأمر لا يستحق، فقد مر يوم الانتخابات والرئيس المنتخب هو توماس، الأمر سيان، إذا استخدم الآخرون القافية لمَ لا أستخدمها أنا الآخر، أنا لست أقل منهم وأستطيع أن أنشد أغاني مقفاة جميلة جداً، ما رأيكم في هذه على سبيل المثال: ها هو الجوع يأكلني، في الشتاء والربيع، والموت قاسياً يهجرني، فلا حبيب ولا شفيع. وبعد هذه الأغنية المغناة بصوت جماعي يسود صمت عميق في الوسية، ماذا سيحدث، وبينما نحن متطلعون بعيوننا في

الأرض، يمر ظل سريع، وعندما نرفع رؤوسنا نرى الحدأة الكبيرة، الآن تنحدر، وبصرختها أحدثت رجفة في صدري.

في تلك الليلة ذهب سيجيسموندو كاناسترو لبيت جوان المنحوس، تحدث معه ومع أنطونيو، ومن هناك خرج لبيت مانويل السيف، حيث قضى وقتاً أطول. زار ثلاثة بيوت أخرى، اثنان منهما كانا منعزلين في الحقل، وتحدث بهذه الطريقة وتلك، مستخدماً لغة مختلفة من مكان لآخر، فلا يصح الحديث مع جميع الناس باللغة نفسها، ولو حدث ذلك ستتفاوت درجات الفهم، والرسالة التي أراد توصيلها أن يذهبوا بعد يومين لمونتيمور ليتظاهروا أمام البلدية، وجمع أكبر عدد ممكن من الأشخاص المنتمين لهذه البلدية ليطالبوا بالعمل المتوافر لكنهم لا يمنعونه عنهم. في الطريق سيقولون ما يعتقده رجال الوسية في السخافة التي صعدّت المعتوه اللين المدعو «حاضر حاضر» لرئاسة الجمهورية البائسة، مرة واحدة كفاية، لكن كم مرة ستتكرر. هذه المرارة في الحلق ليست من الشرب الكثير ولا هي شبع من المضغ، فهذا إفراط لا يستخدم في الوسية، رغم أن ثمة من يسكر بشراهة، لكن حتى هذا معذور لأنه يجد نفسه طيلة حياته سجيناً مكرهاً على أمره، التدخين والشرب طريقتان مختلفتان للهروب، لكن بالشرب تهرب أكثر، حتى لو كان موتاً بطيئاً. مرارة فم هؤلاء ناتجة عن الكلام الكثير وانتظار الكلام بشكل أفضل، آه لو جاءت الحرية، وفي النهاية لم تأت الحرية، هل رأى أحد الحرية، يتحدثون عنها كثيراً، لكن الحرية ليست امرأة تسير في الطرقات، ولا تجلس على حَجر في انتظار أن ندعوها إلى العشاء أو النوم في سريرنا مدى الحياة. تنقل الرجال وبعض النساء في البلديات، قالوا فليعش، والآن نلاحظ أفواهنا المُرة كما لو كنا قد شربنا، العيون ترى رماد دخان وشيئاً آخر قليلاً، حقولاً للحصاد، «ماذا سنفعل يا سيجيسموندو، فأنت أكبرنا سناً وأكثرنا خبرة». «سنذهب يوم الإثنين لمونتيمور لنطالب بخبز أبنائنا وآبائهم الذين يعولوهم»، «لكن هذا ما فعلناه دائماً، والنتيجة»، «هذا ما فعلناه ونفعله وسنفعله، ما دام ليس أمامنا حل آخر»، «إنه تعب لا نهاية له»، «في يوم ما سينتهي»، «عندما نموت جميعنا وتظهر عظامنا إن وجدت كلاب لتنبش قبرنا»، «سيكون هناك عدد هائل من الأحياء عند مجيء هذا اليوم، ابنتك كل يوم يزداد جمالها»، «إنهما عينا أبي»، هذا ما تقوله جراثيندا المنحوس التي كانت محادثتها السابقة مع مانويل السيف، وهو من يقول «أدفع حياتي للشيطان مقابل هذا اليوم، على ألا يكون غداً، بل اليوم»، جراثيندا المنحوس

ترفع من الأرض ابنتها ذات الثلاثة ربيعاً، وتوبخه، «يا إلهي، يا مانويل، ما تقوله لا يقال»، ويبتسم سيجيسموندو كاناسترو، أكبرهم سناً وخبرة «الشيطان لا وجود له، وبالتالي لا يعقد صفقات، فالقسم به والوعد منه ما هو إلا كلام فارغ، فما لا تحصل عليه بالعمل لا تحصل عليه بشيء آخر، والعمل الآن هو الذهاب لمونتيمور يوم الإثنين، سيذهب أناس من كل بقعة».

ليالي يونيو ليال جميلة. إن كان القمر ساطعاً، ترى الدنيا من علو جبل لافري، كأنك تملكها، ولسنا جهلاء لدرجة أننا لا نعرف أن الدنيا أكبر من ذلك بكثير، «كنت في فرنسا، وهي بلد بعيد»، سيقول أنطونيو المنحوس. وفي هذا الصمت، قد يصدق الجميع، حتى أنا، لو قالوا له «ليست هناك دنيا أخرى إلا مونتيمور، حيث سنذهب يوم الإثنين لنطلب عملاً». أما إن كان القمر مختبئاً، فالمكان الذي أضع فيه قدمي هو دنيتي، والبقية نجوم، من يدري إن كان فيها أيضاً وسية ورئيس

أمير نهري يلعب بالأربع آسات وبالأربع جوكرات، لا شيء يضاهي أن تكون محتالاً وموقراً. قد يخطر هذا الخبث على بال سيجيسموندو كاناسترو، ونتراجع على ضفة الطريق بالقبعة في اليد، مذهولين من استثارة أهل الوسية، لكن ما يفكر فيه أنه تحدث مع كل من كان يجب عليه التحدث، قال لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، ولهذا لا نعرف ماذا نفعل في القبعة، ولا حتى نعرف إن كان ينبغي أن نضعها في يدنا. سيجيسموندو كاناسترو انتهي في الحال من تنفيذ واجبه، واجبه فقط ولا شيء آخر. ولآنه، رغم خطورة القرارات المتخذة، يكمن بداخله جزء من الخبث والسرور، كما بُرهِن في هذه القصة أكثر من مرة. مر أمام بوابة ثكنة الحرس، وجدها مغلقة ومنطفئة الأنوار فاقترب إلى السور وتبول بمتعة ولذة كأنه يتبول فوق الهيئة بأكملها. إنها أفعال عجوز متصابٍ، ولن ينفعه عضوه كثيراً، ولا حتى فيما يفعل، كم هو ري جميل يبحث عن طريقه بين الأحجار، كم أتمنى أن يكون عندي لترات من البول لأظل أتبول هنا طول الليل حتى أكوّن سداً مثل سد جسر كافا، واجبنا أن نتبول كلنا في الوقت نفسه، أن نغرق الوسية، وسنرى من سينجو. الليلة شديدة الجمال، بنجوم لا حصر لها مرشوقة في السماء. يزرر سيجيسموندو كاناسترو فتحة بنطلونه، انتهت الكوميديا، وأحياناً تسيل الدماء، من يدري.

في زمن التغرب، كانوا يقولون إن كل الطرق تؤدي إلى روما، وكان يكفي أن تذهب وتسأل. بهذه الطريقة كانوا يركّبون الأمثال الحية ويكررونها بشكل مسلٍ، مثل هذا المثل الآخر: «من له لسان يصل إلى روما»، وهو قول خاطئ، فهنا كل الطرق تؤدي إلى مونتيمور، وكل هؤلاء الرجال لا لسان لهم، لكن من لا يسمع الخطاب العالي الذي يدوي في الوسية ليس إلا أصم. يأتي بعضهم سيراً، بعضهم يسكن قريباً من هنا وبعض آخر بعيداً، لن يجدوا وسيلة نقل أفضل. وثمة من يبدّل دراجات قديمة تطن مثل العربات الكارو وتهتز، ومنهم من جاء في عربة أجرة، وهكذا يقتربون، قادمين من كل اتجاهات الريح، كم هي ريح عظيمة تلك التي أحضرتهم. يشاهد مراقبو الحصن الجيوش العربية قادمة، يحضرون معهم علم رسولهم مثنياً فوق قلوبهم، يا أم الإله القديسة، إنهم الكفار، خبئوا أيها السادة بناتكم ونساءكم، أغلقوا أبوابكم وارفعوا الجسر المتحرك، أقول لكم الحقيقة بجد: اليوم يوم القيامة. إنها مبالغات من الراوي ناتجة عن دراسته لتاريخ العصور الوسطى، تخيل جيوشاً أفرادها مسلحون ورايات كتائب الفروسية بينما الأمر لا يتعدى مجموعة متناثرة من الريفيين، ولو أحصينا عددهم قد لا يصلوا إلى ألف، ولو كانوا كذلك، في هذا الزمن، فهو عدد هائل. مع ذلك، فلنضع كل أمر في مكانه، فما زال لدينا ساعتان، ومونتيمور في هذه اللحظات أرض سكانها في الشارع أكثر من العادة، يمشون من هنا متناثرين في ميدان السوق، أكثر المرتاب فيهم يتجرع كأساً، ويتحدث بعضهم لبعض بصوت خافت «هل وصل أهل اسكورال؟»، «لا أدري، فنحن جئنا من جبل لافري»، الحقيقة أنهم ليسوا كثرة، لكنهم جاؤوا، ويُحضرون معهم امرأة، فجراثيندا المنحوس أرادت أيضاً أن تأتي، لم يعد ثمة أحد يحبس النساء، هذا ما يظنه العجائز والقدامى، لكنهم لا ينبسون بكلمة. ماذا كانوا سيفعلون لو سمعوا هذا الحوار «يا مانويل، سأذهب معك»، ومانويل السيف، رغم كونه من يكون، يعتقد أن زوجته تمزح فيجيبها، ويجيب من فمه عدد أصوات لا يعلمها إلا الله، «هذه ليست مسألة تشترك فيها النساء»، آه يا إلهي، ماذا تقول، على الرجل أن يكون رصيناً عندما يتكلم، فلا يرمي الكلام هكذا كالحجارة من فمه، ثم يصير منظره مضحكاً ويفقد السيطرة، الحمد لله أن كلاً منهما يعشق الآخر، جراثيندا ومانويل، لكن حتى لو كانا بينهما عشق. تحدثا في المسألة طول الظهيرة، «تبقى الطفلة مع أمي

ونذهب معاً، فما بيننا ليس فقط النوم في السرير نفسه»، في النهاية رضخ مانويل السيف وصار مسروراً لرضوخه، وضع ذراعه فوق كتف امرأته وأحضرها إلى هنا، إنها إيماءات الرجال ودلال النساء، والطفلة نائمة لا تسمع شيئا، ينام أيضاً سيجيسموندو كاناسترو في سريره، أراد ذلك واستطاعه، ربما في المرة المقبلة يكون في حال أفضل، فالرجل لا ينتهي هكذا، يا رجل.

إنها مسائل لا يتحدثون عنها في مونتيمور، ماذا فعلوا مع زوجاتهم أو أزواجهن هذه الليلة أو سابقتها، وما سيفعلونه الليلة المقبلة عندما ينتهي هذا اليوم. خرجت كتيبة الفروسية من ثكنة الحرس، كما العادة، وبالداخل يتحادث النقيب مسرور وليساندرو ليساندرس، لقد أعطوا أوامرهم بالتعبئة، الآن ساعة انتظار، لكن ثمة من قرر الانتظار في مكان آخر، إنهم أصحاب الوسايا الذين يعيشون في مونتيمور، وليسوا قلة، أخيراً يبدو أنها حقيقة، كنا نتكلم عن المراقبين بكذب روائي وهذا سياج في أسوار قلعة أصحاب الوسايا، حيث يجلس أكثر الأطفال شجاعة في أسنان السور المرممة، إنها صلوات الآباء والأمهات، ويرتدي الغلمان زي الفروسية وترتدي الصبايا الملابس الملونة. سيقول المؤرخون ذوو الألسنة الطويلة إن هؤلاء وأولئك قد هربوا خشية غزو الفلاحين، وهي فرضية لا تخلو من صواب، لكن علينا أيضاً ألا ننسى أن في هذه الأرض، بعيداً عن مصارعة الثيران والسينما، أماكن التسلية ليست كثيرة، هذه المرة كما لو أنها رحلة للحقل، فيها الظلال ومتعتها، ولو كان ضرورياً فيمكن طلب السلوى من دير سيدتنا المعلنة، صلوا لأجلنا. مع ذلك، بقي جلياً ومؤكداً أنهم تركوا بيوتهم بسبب خوف لم يشعروا به حتى تلك اللحظة، وبقي الخدم في البيوت يحرسونها، فبعد سنوات طوال في البيت صاروا مخلصين له، كما هو حال إميليا المنحوس، الخادمة أيضاً في مونتيمور. إنها لعبة التناقضات والاحتياجات، رغم أننا في زمن لا يصح فيه أن يثق أحد في أحد، فليس معنى أن يتجمع سائلو الوسية هناك أن يسيروا اليوم بيد ممدودة، نريد عملاً، وإنما ببساطة لأننا نرى كيف يستطيعون أن يقبضوا هذه الأيادي، هنا يسود رعب عظيم، ومؤامرة، يا خالتي، مؤامرة. هنا من أعلى نقطة نرى كيف تتدفق الجموع في الحارات لتصب في ميدان المجلس المحلي. «يبدون كما النمل»، يقول أحد الورثة المتخيلين، ويصحح له أبوه «يبدون كما النمل، لكنهم كلاب»، إنهم يعرفون كيف يقولون كل شيء في عبارة قصيرة وواضحة، ويسود حينئذ صمت، لا يمكن الآن أن نفقد شيئاً مما يحدث، انظر كيف تتشكل أمام المجلس المحلي فصيلة من الحرس، فليحيا الحرس، وهذا شاويش، ماذا يحمل في يده؟ إنه مدفع رشاش، فكرت أيضاً جراثيندا المنحوس، وعندما رفعت عينيها رأت القلعة مليئة بالناس، من هؤلاء؟

امتلأ الميدان. أهل جبل لافري يقفون معاً. جراثيندا هي المرأة الوحيدة، معها زوجها مانويل السيف وأخوها أنطونيو وأبوها جوان المنحوس، وسيجيسموندو كاناسترو الذي يقول «علينا ألا ننتظر». هناك كذلك اثنان يسميان جوزيه، أحدهما جوزيه بيكانسو، حفيد عائلة بيكانسو الطحانين بجسر كافا، والثاني جوزيه ميدرونيو، من عائلة لم نتحدث عنها تحديداً حتى الآن. إنهم بحر من البشر، تتسلل الشمس هذا البحر وتلهبهم كلاصقة حروق، وتُفتح في القلعة مظلات، إنها حفلة. البنادق معبأة، يلاحظ ذلك في وجوه الحرس، فالرجل حين يكون بسلاح معبأ تصير له تعبيرات وجه مختلفة، يصير قاسياً، يغدو بارداً، تقبض شفتاه، وينظر إلينا بحقد. ثمة أيضاً من يعشق الخيول،

وأحياناً يسمونها بأسماء إنسان، مثل هذا المهر الذي يسمى السعيد، ما لا أعرفه ألهذه الخيول الموجودة هنا اسم، هذه الخيول الواقفة في مدخل الشارع، ربما يرقّمونها، ففي الحرس كل له رقمه، يصيح سبعة وعشرون ويتقدم الجواد والرجل الذي يمتطيه، إنها بلبلة.

لقد بدأت الصيحات بالفعل «نريد عملاً، نريد عملاً، نريد عملاً»، لا يقولون أكثر من هذا، إلا سبة تقال هنا وهناك «لصوص»، وبصوت خافت كأن من يقولها يخجل ممن يفعلها، وثمة من يصيح «انتخابات حرة». ما فائدة ذلك الآن، لكن الصياح الكبير يتصاعد ويخنق الآخرين، «نريد عملاً، نريد عملاً»، ما هذه الدنيا التي نعيش فيها وفيها من يخلق من راحته وظيفة ومن لا عمل له لا يحق له طلبه. أحدهم أصدر إشارة، أو كانوا متفقين عليها بعد عدة دقائق من التجمع، أو ربما هاتف لياندرو لياندرس، أو النقيب مسرور، أو أمر العمدة من النافذة، «ها هم الكلاب»، وحدث ما حدث، أشهر الحرس سيوفهم من فوق خيولهم، آه يا أمي، يا للخوف، كلهم داهمهم الرعب أمام هذه البسالة، وأمام هذا الحشد من الأبطال انس لهيب الشمس، أنصال السيوف المزينة بوميض إلهي، يبقى الواحد منا مرتجفاً من العاطفة الوطنية، دلوني على من لا يرتجف.

شرع الخيل في الخبّ، والمكان غير صالح لفروسية متهورة، لذلك وقع وتمرمغ في الأرض من حاول الهروب بين ركلات وضربات الحسام. يستطيع رجل أن يقبل هذه النكاية، لكنه أحياناً ما يكون مجبراً، أو يغمض عينيه سريعاً، وحينئذ ينهض البحر، وترتفع الأذرع، تمسك الأيادي بالزمام أو ترجم بالحجارة المأخوذة من الأرض، أو الحجارة التي في جيوبهم، إنه حق الأعزل في سلاح آخر، ومن الخلف ستطير، والمؤكد أنها لم تصب أحداً، لا فرساً ولا فارساً، فالحجر كان يرمى هكذا، بلا هدف بعينه، هذا إن كانت هناك أحجار بجد. وحين تسقط الحجارة تموت. كان مشهداً لمعركة جديرة بالتصوير في صالة القيادة أو في جمهورية الضباط، الخيل الهرم، الحرس الإمبريالي بسيوفه المشهرة يضرب بنصلها أو ببطنها، بحسب، والأجراء البسطاء الثائرون يتقهقرون للخلف مثل مد وجزر يعود في الحال، ملاعين. كان هذا تمرد 23 يونيه، ركزوا جيداً في التاريخ، احفروه في الذاكرة يا أطفال، رغم وجود تواريخ أخرى تزين تاريخ الوسية، تواريخ مجيدة لأسباب مماثلة أو شبيهة. هنا أيضاً لمع سلاح المشاة، وخاصة الشاويش أرمامينتو، رجل ذو عقيدة عمياء وقانون مخطئ. هناك تطير أول دفعة من رشاشه، والثانية، لكنهما في الهواء، مجرد إنذار. وعندما يتطرق لسمعهم في القلعة دوي الرصاص، يطلقون سرورهم في شكل تصفيق وابتهال بالحياة، يصفقون جميعهم، حتى فتيات الوسية الرقيقات يتلونّ بالحماسة والشعور الدموي، وآباؤهن وأمهاتهن، وجناح العشاق المتلهف للقيام بهجمة، للخروج من بوابة المدينة برمح على مسنده، وأنهوا العملية التي بدأتموها «اقتلوهم جميعاً». وخرجت الدفعة الثالثة من رشاش قليل المهارة في الرماية، الآن يعرفون مزايا تدريبات الرماية على الهدف، يرتفع الدخان، ليست نتيجة سيئة رغم إمكانية وجود نتيجة أفضل، ثمة ثلاثة مسجين على الأرض، والآن واحد منهم ينهض ماسكاً ذراعه، كان محظوظاً، والآخر يزحف ويجر ساقه، والثالث لا يتحرك، «إنه جوزيه أديلينو دوس سانتوس، إنه جوزيه أديلينو»، يقول أحد أبناء مونتيمور الذي يعرفه. لقد مات جوزيه أديلينو دوس سانتوس، أصيب بطلقة في رأسه ولم يكن يصدق في البداية، فنفض رأسه كما لو قرصته حشرة، لكنه أدرك بعد ذلك، «آه يا أيها الملاعين، لقد قتلتموني»، وسقط على ظهره، مهجوراً، لم

تكن زوجته بجواره لتساعده، نزف الدم منه وكوّن وسادة تحت رأسه، وسادة حمراء، شكراً. يصفقون في القلعة من جديد، يخمّنون أن هذه المرة بجد، وتتعبأ كتيبة الفروسية لتبعثر الشعب المسكين، يجب أن يؤخذ الجسد، فلا يقترب أحد.

سمع أهل جبل لافري صفير العيارات النارية، فيما يشق نزيف الدم وجه جوزيه ميدرونيو، كان محظوظاً، مجرد جرح، لكن أثره سيبقى مدى الحياة. تبكي جراثيندا المنحوس وهي تمسك بزوجها، تجول الحواري المحيطة بصحبة أناس آخرين، يا للبؤس، تُسمَع صيحة الحرب الظافرة يطلقها الحرس الذي يمضي قابضاً على من يجده، وفجأة ظهر لياندرو لياندرس بصحبة تنانين آخرين من فصيلته، نصف دستة، رآهم جوان المنحوس وشحب وجهه، وحينئذ قام بفعلة جنونية، وضع نفسه في طريق العدو، مرتجفاً، لكن ليس من الرعب، يا سادة، يجب أن نعرف إدراك هذه التصرفات، ولم يره الآخر، أو لم يعرفه، رغم أن هاتين العينين لا يمكن نسيانهما، وعندما عبر التنانين لم يستطع المنحوس أن يتمالك دموعه، كانت دموع الغضب والحزن العميق أيضاً، متى سينتهي استشهادنا هذا. توقف جرح جوزيه ميدرونيو عن النزف، مَنْ يقول إنه كان بينه وبين تهشيم كامل وجهه سنتيمتر واحد، كيف كان سيصير حاله الآن. يلهث سيجيسموندو كاناسترو، والآخرون بخير، وجراثيندا المنحوس طفلة لا تستطيع أن تكف عن البكاء، «لقد رأيته، كان ممدداً على الأرض، كان ميتاً»، هذا ما تقوله هي، لكن ثمة من يقسم نافياً ذلك، يقول إنهم حملوه للمستشفى، ولا يعرف كيف، هل فوق نقالة أم بين الأذرع، فلا يمكن أن يتجرأوا على جره، رغم أن النية لا تنقصهم، «اقتلوهم جميعاً»، يسمعون هذه الصيحة تنطلق من القلعة، لكن عليهم أن يحترموا بعض الإجراءات، فالرجل لن يُعَد ميتاً قبل أن يقول الطبيب ذلك، حتى لو كان ميتاً. يأتي الدكتور كوردو، مرتديا البالطو الأبيض، يا رب يكون قلبه باللون نفسه، وعندما يكون في طريقه للجسد يطلع له في الطريق لياندرو لياندرس ويقول بصوت مليء بالسلطة «هذا الرجل مصاب، ويجب أن يذهب في الحال إلى لشبونة، ومن المناسب أن ترافقه أنت للحفاظ على حياته». فلنندهش جميعاً في هذه الحلقة من قصة الوسية التي نستمع إليها عندما نرى التنين لياندرو لياندرس يشعر بالشفقة على الضحية ويريد إنقاذه «رافقه يا دكتور، ها هي عربة الإسعاف مقبلة، بسرعة، ليس هناك وقت لنضيعه، كلما مشى من هنا مبكراً كان أفضل»، وعند سماعه يتحدث هكذا، متعجلا متسرعاً، كيف سنصدق ما فعله لجوان المنحوس، أو ما قال هو إنه حدث له عندما كان سجينا منذ ثماني سنوات، ربما لم يعاملوه بهذا السوء الذي يقوله، وكان ذلك مجرد تصفية حسابات، ربما حدث فقط انهيار التمثال، والدليل على ذلك أنه جاء من جبل لافري إلى المظاهرة ولم يتعظ، وكان محظوظا لأن تلك الرصاصة لم تصبه.

يقترب الدكتور كوردو من جوزيه أديلينو دوس سانتوس ويقول «هذا الرجل قضى نحبه»، هذه العبارة كان يجب أن تكون قاطعة بلا نقاش، فالطبيب في نهاية الأمر رجل قضى سنوات طوال ليدرس وقد تعلم على الأقل كيف يميز الميت من الحي. لكن لياندرو لياندرس لا يعتد بهذه الشهادة، فهو يعرف الميت من الحي بطريقة مختلفة، وعن طريق هذا العلم وهذه الخبرة يلح «يا دكتور، انظر له جيداً، فهذا الرجل مصاب، ينبغي أن ترافقه للشبونة». يعرف حتى الطفل أن هذه الكلمات المنطوقة تحمل نبرة تهديد، لكن الطبيب يرد عليه، فهو في النهاية رجل ذو روح بيضاء مثل

البالطو الذي يرتديه، ولو وجدنا في البالطو دماء، فلا نستغرب، فالروح أيضاً بها دماء «أنا أرافق جرحى لا موتى»، ويفقد لياندرو لياندرس هدوءه، ويسحبه ناحية مكتبه حيث لا يوجد أحد «انظر ما تفعل، إن لم ترافقه ستدفع الثمن غالياً»، ويجيبه الطبيب «افعل ما تشاء، فأنا لن أرافق رجلاً ميتاً»، وانصرف بعد قوله هذا، ذهب ليعالج جرحى حقيقيين وكانوا كثرة، ذهب بعضهم مباشرة من هناك إلى السجن، وكان عدد الجرحى وغيرهم يتخطى المائة، ولو حملوا جوزيه أديلينو دوس سانتوس إلى لشبونة، فهذه كوميديا البوليس السياسي، إنه نوع من الكذب ليتظاهروا أنهم فعلوا كل ما كان في وسعهم لإنقاذه، كلها طرق مختلفة للسخرية من الناس. لو حملوا جوزيه أديلينو للمستشفى فهذا يعني أنهم حملوا أيضاً غيره من المعتقلين، هؤلاء الذين تعذبوا كما تعذب جوان المنحوس، وقد روينا عذابه.

هرب أهل جبل لافري من الدوريات التي كانت تطوف وتجول المدينة، عادوا جميعاً باستثناء واحد، أنطونيو المنحوس الذي قال لأبيه «سأبقى في مونتيمور وغداً سأعود»، وأجاب كل من ترجاه ومن لم يترجَهُ «لقد زال الخطر، عودوا مطمئنين». لم يفهموه ولا هو كان يفهم ما يريد، كانت فقط رغبة لديه في عدم الابتعاد. وحينئذ شقوا طريقهم في السبل القديمة عبر الحقول، وسيصلون منهكين، ربما لو خرجوا للطريق الرئيس البعيد قد يجدون من يحملهم لجبل لافري، حيث اطلع ساكنوه على أخبار الطلقات النارية، وانظر لعجائب الطبيعة، فاوستينا المنحوس، هذه المرأة الصماء، سمعت عندما طرقوا الباب واطلعت على كل شيء كأنها تتمتع بأرهف سمع في الدنيا، وبعد ذلك سيقولون إنها تتصنع الصمم بإرادتها.

في تلك الليلة التي كانت أيضاً مرصعة بالنجوم لا القمر، بكت نساء كثيرات في مونتيمور، بينهن واحدة بكت أكثر من الجميع، بينما في ثكنة الحرس كان ثمة سعادة جمة. خرجت الدوريات من جديد لتبحث في ضواحي المدينة، دخلوا البيوت وأيقظوا الناس، ساروا يتحرون في لغز الأحجار التي كانت تتساقط فوق السقوف فتثقف القرميد وتهشم الزجاج، إنه ضرر على الأملاك القومية. كانت الأحجار زلطاً متوسط الحجم، من يدري إن كان انتقاماً من الملائكة أم شقاوة منهم بسبب مللهم من الجلوس في شرفات السماء، فالمعجزات ليست فقط رد البصر للأعمى أو منح ساق للأعرج، فالرجم بالحجارة قد يكون له مكانه بين أسرار الكون والدين، هذا على الأقل ما فكر فيه أنطونيو المنحوس الذي بقى من أجل ذلك، ليصنع المعجزة بإطلاق الحجارة بذراع قوية، مختبئا في أعلى نقطة في التل، في ظلام يصنعه الحصن، وعندما تتقدم دورية لهناك، يدخل في كهف وسريعاً ما يسترد حياته. لم يره أحد، كان محظوظاً على الأقل في هذه الحالة. في الواحدة صباحاً ألقى حجره الأخير، كانت ذراعه قد أنهكت، وكان يشعر بالحزن كأنه على وشك الموت. أحاط الحصن من جنوبه، هبط من الجبل، إنه رجل متعب وجائع، وطوال ما تبقى من الليل كان يسير بجانب الطريق الرئيس لكنه بعيداً عنه، مثل متشرد لا يثق حتى في نفسه. مشى أربعة فراسخ كانت تفصله عن جبل لافري، وكان يلف عندما يجد حقول قمح لم تلمس تقطع عليه طريقه. لم يكن يستطيع أن يدوسها، وكان عليه أن يظل مختبئاً من حرس الوسية الذين يخرجون للصيد، ومن الحرس الآخرين، ذوي البنادق والبزات.

حين وصل إلى جبل لافري، كانت السماء صافية صفاءً تميزه فقط العيون الخبيرة بحالها. عبر النهر بالمعدية حتى لا يراه أحد في الجسر، وسار بعد ذلك بمحاذاة الماء ملتصقاً بالصفاف الأبيض، حتى بدأ في الصعود، دائماً مختبئاً، فربما يمر الحرس من هنا ليعالجوا أرقهم. عند وصوله بالقرب من البيت، رأى ما كان ينتظره، ضوءاً، كان القنديل مشتعلاً مثل عمود إضاءة للصيد في المياه الإقليمية، وحوله كانت المرأة تسهر من أجل ابنها البالغ الآن واحداً وثلاثين عاماً وذهب ليلقي بالحجارة وعاد متأخراً للبيت. قفز أنطونيو المنحوس من فوق سياج الحديقة، سالماً، لكن فاوستينا لم تسمع هذه المرة، كانت مشغولة بدموعها وظنونها، لكنها سمعت جلبة مزلاج الباب أو ربما كان ارتجافاً حدث في روحها، «ابني»، ويتعانقان كأنه عائد من عمليات حربية عظيمة، ولأنه يعرف أنها ثقيلة السمع لم ينتظر منها أسئلة، وقالت، كسلسلة ابتهالات، «لقد وصل أبوك بالسلامة، وكذلك جراثيندا وزوجها، والآخرون أيضاً، أنت فقط من جعلتني أقضي ساعات سوداء». يعانقها أنطونيو المنحوس من جديد، العناق أفضل جواب يقال وأفضل رد يفهم. حينئذ، من الغرفة المجاورة ومن الظلام، يسأل جوان المنحوس بصوت ليس صوت من استيقظ في التو «هل وصلت بالسلامة»، ويجيبه أنطونيو «نعم يا أبي». ولأنه قد حان الوقت لأكل شيء، أشعلت فاوستينا النار ووضعت فوقها الكنكة.

---

(13) أور: مدينة سومرية تقع جنوب العراق، وكانت عاصمة للسومريين سنة 2100 ق.م (م)

(14) اليَراع: ذباب يطير بالليل يضيء ذنبه. (م)

الوسية بحر من الداخل؛ به أسراب أسماك رقيقة صالحة للأكل، وبه سمك بركودة وضاري ذو ذيل فظيع، وبه كذلك الأوقيانوسي والحيتان وسمك ذو طبقة جيلاتينية. حيوانات عمياء تجر بطنها في الوحل وتموت فيه. ثمة أيضاً حيوانات خانقة ذات دوائر لولبية. الوسية مثل البحر المتوسط، لكن يحدث فيها مد وجزر وتيارات سفلية، تيارات رقيقة تستغرق وقتاً طويلاً لتلف لفة كاملة، وأحياناً تسرع فيرتجف معها سطح الماء، إنها عصفات ريح تأتي من الخارج، أو مصارف من تدفقات فجائية، بينما تتموج الموجات ببطء في أعماق دامسة، ساحبة إعصار الطمي القوي. منذ متى يحدث ذلك. قلنا إن الوسية كالبحر، وهو تشبيه فيه أوجه شبه كثيرة وقليلة أيضاً، لكنه سيتوافر على أسباب تيسر فهمه، لكن لو حركنا هذه المياه، ستتحرك كل المياه المحيطة بها، وأحياناً تتحرك المياه الأشد بعداً لدرجة أن العين تنكره، لهذا قد يكون من الخطأ أن نسمي هذا البحر خزاناً، وحتى لو كان كذلك، فمخطئ من يعيش مؤمناً بالمظاهر، حتى لو كانت المظاهر مظاهر موت.

ينهض الرجال كل يوم من أسرّتهم، ويضطجع الرجال كل ليلة في الأسرّة نفسها، وعندما نتحدث عن السرير نقصد كل ما يقوم مقامه. كل يوم يجلسون أمام الطعام أو الإرادة الكافية لامتلاكه، كل يوم يشعلون ويطفئون النور، لا جديد تحت وردة الشمس. هذا بحر الوسية الكبير، بضباب من الأسماك القطيع والحيوانات الملتهمة، ولو كان هذا هو الوضع دائماً، فما من أسباب ليتغير، حتى لو تحتم عليهم احتمال أي تغيير، فيكفي أن الرقابة لا تشرد، فكل يوم تذهب المراكب المسلحة إلى الماء بشباك يجب أن تصطاد الصياد، «من أين سرقت جوال البلوط هذا؟» أو «أرني حزمة الحطب هذه»، أو «ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟ من أين أتيت وإلى أين تذهب؟»، إنه ليس سيداً ليضع قدمه خارج الإطار المحدد له إلا إذا كان مستأجراً، وحينها سيأتي مراقباً. مع ذلك، يأتي كل يوم بحزنه وأمله، أو ربما يكون ذلك ضعفاً من الراوي، الذي من المؤكد أنه قرأ هذه العبارة أو سمعها فراقت له، لأن اليوم الذي يأتي بحزنه وأمله يوم لا ينتهي فيه الحزن ولا يصير فيه الأمل إلا مجرد أمل، والقس أجاميدس لا يستخدم كلمات أخرى، فهو يتحدث فقط عن الحزن والأمل ومن هذا يرتزق، ومن يظن عكس ذلك فإما أنه أحمق أو ضال. قد نصيب لو قلنا إذن إن كل يوم يأتي بما فيه، كما أتى الأمس بما فيه، والأمس واليوم هما الغد، قد يعرف الطفل هذه الأشياء البسيطة، غير أن ثمة من يعتقد أنه يمكن تقطيع اليوم كما يقطع قشر البطيخ للخنازير، فكلما كانت القطع صغيرة كلما كان وهم الخلود أكبر، لهذا تقول الخنازير «آه يا رب الخنازير، متى سيأتي اليوم الذي نقتل فيه الجوع للأبد».

إلى بحر الوسية يصل تيار سفلي، جزاف، أمواج. تيار تصل حدته لدرجة تكفي لهدم سور، أو ببساطة تخطيه، كما عرفنا أنه حدث في «بينيتشي»، ما يمنح معنى لما قلناه عن البحر، فـ «بينيتشي» ميناء للصيادين وقلعة بها زنازين، مع ذلك هربوا، وعن هذا الهروب سيتحدثون كثيراً في الوسية. أي بحر! أي عدم! ما هذه، إنها أرض في أغلب الأحيان جافة، لهذا يقول الرجال «متى سنتمكن من قتل ظمئنا وظمأ آبائنا الآخر، وقتل هذا الظمأ الثالث الذي يستعد لأبنائنا القادمين إن أنجبنا». ثم جاء خبر لا يمكن مداراته، وعرف الراوي ما لم تذكره الصحف، فلنجلس تحت شجرة البلوط هذه، فهذه هي المعلومة التي عندي. إنها فرصة لترفع الحدأة أجنحتها لتحلق عالياً، لتصبح فوق هذه الأرض المتسعة. من يفهمها جيدا ينبغي عليه أن يروي، ولنكتف الآن بلغة الرجال. لهذا تستطيع السيدة كليمنتيا أن تقول للقس أجاميدس «لقد انتهى الهدوء الذي لم يوجد أبداً»، تبدو جملة

تناقض نفسها، مع ذلك لم تتحدث هذه السيدة أبداً بهذه الدقة، إنه الزمن الجديد الذي يأتي طائراً «هذا يبدو كحجر يدور هاوياً من منحدر جبل»، بهذا أجابها القس أجاميدس لأنه لا يروق له أن يستخدم عباراته الخاصة، إنها عادات المنبر، لكننا في النهاية لدينا الطيبة الانجيلية لنتفهم ذلك، فما يقصده بعبارته أنهم إن لم يبتعدوا عن طريق الحجر يعلم الرب ماذا سيحدث، ولنعذره على هذا الطُعم، فنحن نرى بوضوح أنه ليس من العدل أن ننتظر الرب لنعرف ماذا سيحدث لمن يقف في طريق الحجر الدوار، فلا تنجو منه لا دابة ولا طير.

لم نكد نقل ذلك حتى انضم تدنيس المقدسات إلى الفوضى، وعبارة «لم نكد» مجرد قول لأنه قد مرت عدة أشهر من الهواجس المضرة، والفوضى هنا كانت عدم توخي الحذر من الزنزانة، وتدنيس المقدسات يعني رؤية مركب كان يسمى قبل ذلك القديسة ماريا والآن يبحر باسم الحرية المقدسة، كيف لا ينبغي إذن أن تصلي السيدة كليمنثيا في محراب بيتها بلهفة وشوق من أجل إنقاذ الكنيسة والوطن، من دون أن تنسى طلب عقاب مثيري الاضطراب. ولأننا لم نعطهم عبرة في وقتها وصلنا لهذه النكبة، بحياة الآخرين وممتلكاتهم لا يصح التلاعب. لكن ما هذه إلا فضفضات ربة منزل بين أربعة حوائط، وحتى في وضعها هذا فمن العدل أن يستمع لها نوربيرتو بهدوء، على الأقل من أجل الأب أجاميدس الذي كان يستمع لهذه السيدة التي لا تخرج تقريباً إلا من حين لحين لزيارة لشبونة لتعرف أحوال الموضة، أو إلى فيجيرا لزيارة حمام كتقليد عائلي، لدرجة تبدو معها أنها تهذي، ربما بسبب السن. تقول «ممتلكاتي» عندما تقصد مركباً يبحر في البحر وليس داخل بحر الوسية، ربما فقدت السيدة رشدها، يضل كثيراً من يعتقد ذلك، فهي تملك أسهماً ورثتها من ألبيرتو، أبيها،
في شركة الملاحة الكولونيالية، يا للمجد، وهذا ما يؤلمها.

يسود برد قارس في الوسية ليس سببه أننا في يناير فحسب. كل نوافذ البيوت موصدة، ولو كان هذا قلعة لـ لامبيرتو وليس بيتاً كبيراً لـ نوربيرتو، لرأينا رجالا مسلحين يزينون الشرفات، كما رأينا منذ قليل أناساً خائفين وسفاكي دماء ساكنين في أطلال مونتيمور، إنه اختلاف الزمن، الآن تجول بالوسية جموع الحرس، بقدم تنتعل حذاءً برقبة وأخرى تنتعل الحرب، بينما يقرأ نوربيرتو الجرائد ويستمع للراديو ويصرخ في الخادمات، فهكذا الرجال عندما يصيبهم الغضب. غير أن أكثر الأمور استفزازاً جو سعادة ساخر يسود في القرية بالأسفل، يبدو كما لو جاءهم فصل الربيع قبل أوانه، لا يشعرون ببرد، فقد عززتهم الفرحة لحسن الحظ، وبعد يومين يتحتم عليهم الفزع، فالرب لا ينام، وسريعاً سيأتي العقاب بلا شك، لقد بعثت القديسة ماريا، فصلوا لأجلنا، ولا نرغب شراً كثيراً للأب اجاميدس الذي أصابته في النهاية خطيئة الحسد، وتأخر في هذه الخطيئة المقدسة فلم يستطع أن يقيم القداس شكراً للرب، ففي أرض جبل لافري البائسة، بأهلها الكفار، لا يكون إلا موظفاً سيئاً.

عام أسود على الوسية. تتنزه الصبية فوق فرسها، تموج تنورتها، يطلق الهواء حجابها كما العادة، ليست ثمة صورة أبهى من هذه، وفجأة يتعرقل الفرس، إنها طرق من العصور الوسطى يا سيدي، تهوى على يديها، آه يا يسوع، تسقط على الأرض وتتكشف بواطنها الحميمة، يبدو أنها لم تتعرض لأذى كبير، الأذى كان عند اندفاع الجواد عند نهوضه، حيث لفزعه فصلها عنه وركلها، كم أنت

مسكينة يا صغيرة. ومن هنا جاء المثل الذي يقول: فوق كبوته، رفسته. إنها طريقة فروسية لإعلان حزن أكبر، المصائب لا تأتي فرادى. هرب بالأمس سجناء بينيتشي، الشيوعيون الفظيعون، آكلو الأطفال، آه يا جارتي، ألم تري أولادي هنا، وارتجفت بالأمس النفوس والمحيطات بحكاية القراصنة الجديدة، من أطلق النار على الجميع، مركب غاية في الجمال يكتسي بالأبيض، مركب القديسة ماريا يسير فوق الماء كابن إلهي، والآن تأتي أخبار عن أفريقيا، إنهم الزنوج، «دوماً أقول يا أختي إننا نعاملهم معاملة حسنة أكثر من اللازم، لقد حذرتهم، فلم يريدوا أن يسمعوا لي، فمن عاش هناك يعرف كيف يعاملهم، إنهم لا يريدون العمل، فهم عبيد، إن لم يعملوا بالكرباج لا يعملون بالحسنى، وها هي العاقبة، نعاملهم بكل تقدير كما نعامل المسيحيين، وفي النهاية، انظري، لكن زمام الأمور لم يفلت من يدنا بعد، فلن نضيع أفريقيا، ولو أمرنا الجيش سيشن حرباً جادة، ولنتذكر ما حدث في جونجونيانا، عندما نطق السيد رئيس المجلس بكلام شهد، بسرعة وقوة، لو كان قد درس العسكرية لصار رئيس حرب بارع، مع ذلك قال ما يجب أن يقال». تبدد الحلم الإمبريالي في وقت قصير، هيا نركض الآن، فالترقيع رث الهيئة، والخياطة تفككت، الزنجي الآن هو المواطن البرتغالي، فليحيا الزنجي الذي لا يحمل السلاح في يده، لكن حذار منه، والآخر سريعاً ما يموت، وفي يوم من هذه الأيام، عندما نصحو مستعدين، سنقول إن المحافظات التي تقع خلف البحر تحولت من مستعمراتٍ لدول؛ في مسألة الأسماء كل سيان، فالصواب أن الخراء لا يتغير وما زال هؤلاء يؤكّلونه لمن تعودوا أن يتغذوا عليه، بيضاً كانوا أم سوداً، ومن يلاحظ الفارق له جائزة.

لكن يبدو، يا سيدي القس أجاميدس، أن الرب والعذراء قد حوّلا عينيهما الطيبتين عن الأرض البرتغالية، انظروا لهذه الأرواح التي تسير حزينة وقلقة، لا بد أن الخبث قد استحوذ على قلوب البرتغاليين الطيبة، ربما لم نصلِ صلاة التسابيح بشكل كاف، لقد حذرنا الرعاة الروحيون، ومن جانبي فعلت كل ما في وسعي ولست مقتصداً في إسداء نصائح نافعة، سواء في المنبر أو في الاعتراف. إنه حوار مختلط، الآن يتحدث أولهما، الآن يتحدث الآخر، لكن ما يفكر فيه الأب أجاميدس عندما يأوى إلى بيته شيء آخر، حيث يصير أميَل لرجل من هذا العصر أو لعصر آخر كانوا فيه يقتحمون الأرواح بالدم والنار، «إنهم لا يحتاجون إلا إلى الضرب بالعصى على رؤوسهم»، هكذا يحدث نفسه.

ولا أحد يعرف أين المصير. الآن تتحرر قلاع الهند، ابكوا يا رجال فاسكو دا جاما، يا ألبوركيركيه وألمييدا وآخرين من نورونيا، فهذا ما كان ينقص، أن تبكي قلوب الذكور، لقد صدر الأمر بالمقاومة حتى الرجل الأخير، وسنعطي للعالم مثالاً لقيمة البرتغالي، يخون وطنه من يتقهقر خطوة، في النهاية، تضيع الأصابع من أجل الحفاظ على الخواتم، والحكومة تثق وتتوعد الجميع بتأدية الواجب الذي يناسبهم. ويأتي كريسماس حزين على بيت ألبيرتو، لا لنقصان نعمة الرب وبركته، فالفلين كان جيداً هذا العام، الحمد لله، وإنما لسواد الغمامة التي تحلق فوق البلد والوسية بعواصف في أحشائها، ماذا سيحل بالبرتغال ويحل بنا، الحق أن لدينا من يحمينا، فها هم الحرس، لكل واحد منهم هدية، الرائد، النقيب، الصول، الشاويش، كم هم مساكين، ما نعطيه لهم عدلٌ، فهم يربحون قليلاً، ودوماً يدافعون عن ممتلكاتنا، تخيلوا لو تحتم علينا نحن أن نبحث عمن يحرسها لنا،

كنا سندفع الكثير والكثير. يرتجف قلبه عندما يتذكر أنه لم يعر أبداً انتباها لـ جوا وداماو وديو، والآن يسلبوننا آخر أعلام الوجود البرتغالي في الشرق، جنود وبحرية، أفندم، يا لها من فكرة، ليس هذا هو الحاضر، ليس الرائد والنقيب والصول والشاويش، لأننا تحدثنا عنهم بالفعل، كل منهم جاء بحثاً عما يهمه في تحفظ وحماس حتى لا تطوله الألسنة الطويلة، لكن الهدية التي أتحدث عنها مختلفة، إنها هدية للجنود والبحرية الذين على وشك الموت ينهضون على أكواعهم وفوق نزيفهم ليصيحوا، يلبون النداء فيكتبون غياباً، إنها ممارسة قديمة، عندما نعرف جميعاً أنه حتى الأموات يدلون بأصواتهم. حمداً لله أن هذه الأمور تحدث بعيداً، في الهند، وأفريقيا أيضاً ليست قريبة، حيث تشتعل الحرائق بعيداً عن مجاوراتي، فبيننا وبينهم بحر، بحر هائل، فإلى هنا لا تصل، والبرتغال لا ينقصها أبناء يدافعون عن الوسية هنا، لا تعض يد سيدك التي امتدت لك، فهو شال من فمه وأعطاك. لا تصدقوا هذه الأمثال واشتكوا بعد ذلك.

تقول السيدة كليمنثيا لأولادها وأولاد أختها «غداً عام جديد، هذا ما يقوله التقويم، فلتضعوا آمالكم في العام الذي يتجلى لنا ويقدم أفضل أصواته من أجل راحة كل البرتغاليين». هذه ليست كلمات السيدة كليمنثيا التي استخدمت دوماً لغة أخرى، لكنها الآن تتعلمها، فكل منا يختار مدرسيه، بل كانت العبارة ما زالت في الهواء حين جاء خبر من بيجا يقول إنهم اعتدوا على كتيبة المشاه العسكرية رقم 3، وبيجا ليست في الهند، ولا في أنجولا ولا كينيا، بيجا هنا بجوار بابنا، إنها وسية، وها هو سرب الكلاب يعوي، ورغم أن المحاولة الجريئة قد سيطروا عليها، إلا أنهم لن يتكلموا عن شيء آخر خلال الأسابيع المقبلة، والشهور المقبلة، والعبرة أنه من الممكن الهجوم على ثكنة عسكرية، فقط كان ينقصهم الحظ، فدائما ما ينقص شيء في الساعة الأخيرة، أو ربما ينقص في الساعة الأولى من دون أن ينتبه إليه أحد، إنه قدرنا، تسقط حدوة الحصان الذي يحمل الرسول، الذي يحمل أمر المعركة، الذي كان ينبغي أن يغير مجرى التاريخ، وهكذا تعزز عدونا، وبسبب حدوة سيخرجون منتصرين، دائماً يرافقنا سوء الحظ. وبهذا نحن لا نقل أدبنا على من خرج من سكينة بيته ليحاول هدم أعمدة الوسية، فليمت سونسون ومن يتبعوه، وعندما يذهب أحد ليرى ماذا جرى بعد نثر البارود، يجدون أن من مات هو سونسون وما زالت الأعمدة قائمة، ربما لو جلسنا تحت شجرة السنديان وحدّث بعضنا بعضاً عن الأفكار التي تدور في رأسه وفي قلبه، لكن المشكلة في عدم الثقة، فكل واحد في جانب، خيراً فعلوا عندما أخذوا مركب القديسة ماريا، وخيراً فعلوا باعتدائهم في بيجا، لكننا، نحن كلاب الوسية ونملها، لم يسألنا أحد إن كان هذا الإبحار إبحارنا وإن كانت هذه الاعتداءات اعتداءاتنا، «هل يمكنكم أن تتيقنوا أننا نقدّر ما تفعلونه من دون حتى أن نعرفكم، لكن لأننا كلاب ونمل، ماذا سنقول غداً عندما نعوي معاً وتسمعوننا بانزعاج كما يسمعنا أصحاب الوسية الذين تريدون حصارهم وإغراقهم وهدمهم». إنه وقت العواء معاً والعض بالتأكيد، يا قائدي العام، وأثناء ذلك انظروا إن كان ينقصكم حدوة حصان أو معكم ثلاث طلقات عندما ستحتاجون لأربع.

وُلِدَ هؤلاء الرجال وأولئك النسوة من أجل العمل، إنهم ماشية كاملة أو ماشية متصدعة، يخرجون أو يسحبونهم من بطون أمهاتهم، يكبرون بأي طريقة، فالأمر سيان، فما يحتاجون إليه أن يشتد عودهم ويمتلكوا قوة اليدين وبراعتها، حتى لو كان من أجل إيماءة فحسب، وليس مهماً أن يكونوا

بعد سنوات قلائل بطاء ومتخشبين، إنهم جذوع متنقلة، يصلون إلى العمل فينفضون أنفسهم ويخرجون من صلابة أجسادهم؛ ذراعان وساقان تتحركان ذهاباً وإياباً. هنا نرى إلى أي مدى وصلت طيبة الخالق ومقدرته، يحركون بكفاءة أدوات الحفر والحصد، يشذبون الأشجار وطريق العمال في الوسية، حيث لهم طريق غير طريق المالك.

ولأنهم ولدوا من أجل العمل، فركونهم للراحة مناقض لطبيعة ما خلقوا له. فأفضل ماكينة هي القادرة على العمل المستمر، بتشحيم قليل وكاف وبغذاء متواضع تستطيع المواصلة، إذا كان متاحاً الحد الأدنى للمعيشة. لكن أهم شروطها وجود بديل لها لو عطلت أو شاخت، ومستودعات هذه الخردة تسمى مقابر، وقبل مرحلة المقابر تجلس الماكينة أمام مدخل البيت، يعلوها الصدأ والتذبذب لتشاهد من يمر، ماذا، لا شيء، ناظرة ليديها الحزينتين، أين كنت وأين أصبحت. بشكل عام، الرجال والنساء في الوسية يشيخون قبل الأوان، ويدهشنا كيف يبلغون الشيخوخة، فبمجرد أن نتمشى، نجد رجلاً يبدو للبصر عجوزاً ونسمعه يقول إنه في الأربعين، وهذه السيدة الذابلة المتغضنة لم تبلغ الثلاثين بعد، في النهاية الحياة في الريف لا تطيل العمر، إنه قول مختلق يشاع في المدينة، مثل هذا المثل المتكرر «النوم مبكراً والاستيقاظ مبكراً يمنح الصحة ويساعد على النمو»، من المثير للضحك أن نراهم هنا ماسكين يد الفأس بعينين تسبحان في الأفق في انتظار الشمس، أو ماقتين يشتاقون للغروب الذي لم يصل بعد. الشمس كائن بائس، يتعجل ليسطع ويتباطأ في الانطفاء. مثل الرجال.

لكن زمن الخضوع أوشك على الانتهاء. يجوب صوت في طرقات الوسية، يدخل القرى والنجوع، يتحدث في الجبال وغابات السنديان. صوت يقول كلمتين أساسيتين وكلمات أخرى تشرحهما «ثمان ساعات» قول هذا يبدو قليلاً، لكن لو قلنا ثماني ساعات عمل، سيستوعبون بشكل أفضل ونجد من يعترض مصعوقا، ماذا يريد هؤلاء، أن يناموا ثماني ساعات وأن يعملوا ثمان أخرى، وماذا سيفعلون في الثماني المتبقة، أنا أعرف جيداً ما كل هذا، إنها دعوة إلى التكاسل، لا يريدون أن يعملوا، إنها الأفكار الحديثة، والذنب ذنب الحرب التي أفسدت العادات، من كان يظن ذلك، سرقوا منا الهند ويريدون الآن أن يطردونا من أفريقيا، ويزداد الطين بلة بهذا المركب الذي يجوب البحار مثيرا فضيحة دولية، جنرال

يقف ضد من وهبوه النجوم، فيمن نثق؟ قل لي، والآن يأتي من يطالب بثماني ساعات، يا للمصيبة، الشر هو مخالفة قانون الرب، ساعات النهار اثنتا عشرة وساعات الليل اثنتا عشرة، بما فيها ساعة الشروق والغروب، ولو لم يكن قانون الرب فليكن قانون الطبيعة وبالتالي يجب طاعته.

الصوت الذي يجوب الوسية ربما لم يسمع هذه الأقوال، ولو سمعها كأنه لم يسمعها، فهذه حوارات تاريخية أتت من زمن لامبيرتو، «حقيقة، العمل هو تسليته، فإن لم يعمل سيقضي وقته في الحانة، ثم يعود إلى البيت لينفض زوجته، نساء مسكينات». لكن لا تعتقدوا أن الطرق ممهدة. فمنذ عام يجوب هذا الصوت الشوارع والطرقات، ثمان ساعات، ثمان ساعات عمل، وثمة من لا يصدق، ومن يصدق أن هذا سيحدث في نهاية العالم ويريد صاحب الوسية أن ينقذ روحه، أن يقدم نفسه يوم القيامة قائلا للملائكة ورؤسائها «لقد كنت رحيما بعبيدي، كانوا يعملون ساعات طويلة، لكن لحبي لله طلبت منهم أن يعملوا فقط ثماني ساعات في اليوم، وأعطيتهم راحة يوم الأحد، وكما فعلت خيرا

بهم أنتظر مكاني في الجنة، على يمين الرب لا في مكان آخر». يفكر بعضهم، الشكاكون والجبناء، أن التغيير يكون للأسوأ. إلا أن أصحاب الأصوات لم يستريحوا طوال العام، تجولوا في الوسية من أقصاها لأقصاها معلنين الشعار، بينما الحرس والبصاصون يفردون آذانهم القلقة كالمراوح، مثل الحمير عندما يطاردها الذباب. عندئذ تتناثر الدوريات الحانقة والحربية، ولا ينقصها إلا أن تتقدمها طبول ومجموعة أبواق، وإن لم يفعلوا ذلك فليس لأنه لا يروق لهم، بل لأن خطة المعركة لم تسمح به، ولم يحن موعده، فقد يكون المتآمرون مجتمعين في جبل مهجور أو خلف شجيرات، ويسمعون من بعيد دق الطبول، تاتارا تاتا، وبذلك لن يمسكوا بأحد. تعزز الحرس، تعززت الشرطة، وأي قرية بلا طبيب غدا بها الآن الطب من عشرين لثلاثين حارساً بالأسلحة المناسبة، من دون أن ينسوا الوصل المستمر مع التنانين التي تدافع عن الدولة وتطاردني أنا، مسكينة هذه التنانين الحقيقية، فهي قبيحة مثل الضفادع الجبلية والهوام، لكنها لا تصنع شراً يثقل ميزانها، والدليل على ذلك أن الجنة مترعة بتنانين تقذف ناراً من أفواهها، وهي الأغلبية. وبما أن أي حارس يتمتع بالمكر والنفاق، فقد ابتكروا فناً ذكياً «الوضع تحت حجر»، بحيث يرى الأعمى، تحت الحجر، منشورات اتهام الشيوعيين الذين يجوبون الوسية بشعارات ثورية مثل شعار «ثماني ساعات عمل»، يريدون أن يسلموا الدولة لموسكو. وبعد إتمام العملية بمهارة، يختبئ الحرس خلف سياج أو أرض مرتفعة أو شجرة ساذجة أو حجر ضخم، وحين يمر البريء غير محتاط وقد يأخذ المنشورات ويضعها في جيبه أو تحت قبعته، أو بين جلده وقميصه، أوراق بيضاء بخط أسود صغير، ليس فقط لا يمكن قراءته بل إن النظر لا يستطيع تمييز الحروف، وبعد أن يسير عشر خطوات، يقطع عليه الحارس الطريق «ارفع يديك، أرني ما في جيبك». لو لم يكن هذا مكر حية، فلنقل إننا ظلمنا الحرس وهاجمناهم دون وجه حق هجوماً ظالماً، وأنهم لا يستحقون إلا الإطراء على تطبيقهم الرائع لمبادئ النفاق والتزييف الخسيس، متغذين في الوقت نفسه على فنون السلاح وتقنيات الهجوم.

الرجل المسكين محاط بدائرة من البنادق، وما من حل أمامه إلا تفريغ جيوبه: مطواة غجرية، تبغ سجائر، علبة ورق بفرة، طرف حبل، كسرة خبز مقضومة، مسكوكة قيمتها عشرة سنتات، لكن هذا لا يرضي الحارس الذي لديه طموحات أخرى «انظر أحسن، هذا من مصلحتك، فلو بحثنا نحن، سنصنع لك عاهة مستديمة»، وحينئذ يخرج من بين قميصه وجلده أوراقاً مبتلة بعرقه وليس من شدة القيظ، إنما لأنه انسان من لحم ودم لا من حديد، وفي وسط الحرس الذين يضحكون والآن يرتسمون الجدية، يدخل الأونباشي تباكو أو زعيم الحملة، يعرف جيداً ما هذه الأوراق لكنه يتصنع الجهل، يتفحصها ثم يقول بمكر «أنت متورط، لقد ضبطنا معك منشورات شيوعية، يجب أن تأتي معنا للنقطة وينتهي مصيرك في مونتيمور أو لشبونة، لم أكن أتمنى أن أكون أنا في رفقتك».
وعندما يريد الرجل المسكين أن يشرح أنه عثر على هذه الأوراق في الحال ولم يقرأها حتى، ولا حتى يعرف القراءة، وأنه كان ماراً من هنا ورآها وأخذها، إنها إيماءة طبيعية لم يستطع إلا أن يؤديها. ثم سيطلقون عصيهم في صدره أو ظهره، هذا إن لم يركلوه، هيا للأمام وإلا سأطلق عليك عياراً هنا. الأسلحة مشهرة والبارونات في وضع الاستعداد.

هذا الحكي يشبه الكريز، فما إن تقول عبارة حتى تخرج عبارات أخرى متعلقة بها، أو ربما مثل شجر الطّلح عندما يكون متشابكاً، فما أصعب أن تفك بعضه عن بعض، الشيء نفسه يحدث مع الكلمات، فالكلمة لا تأتي أبداً بمفردها، حتى إن العزلة لا تعرف الكلمة، والحمد لله. هؤلاء الحرس لديهم إيمان راسخ بأنهم يجب أن يذهبوا حين تستدعيهم الوسية، بلا سؤال ولا جدال، فما هم إلا مجموعة مأمورين، وانظر لما حدث في الأول من مايو، تغيّب الرجال والنساء في يوم عطلتهم كعمال، وفي اليوم التالي وفي عودتهم إلى شغلهم، وقف لهم الحرس بالمرصاد «يعمل هنا من عمل بالأمس، إنها أوامر»، وقول هذا كان فقط طريقة حتى لا يبقوا صامتين، لأن من ناحية الغياب قد غاب جميعهم. والآن ماذا سيحدث، تجمع العمال في جانب، ناظرين كيف ستحل هذه المعضلة، ولأن الحرس قد شغلوا الأرض كلها

ورئيس العمل يختبئ بينهم، من دون أن يظهر في الصورة كرجل خبير، قرر العمال العودة إلى بيوتهم. حدث هذا في الصباح الباكر، فكان يوماً أكثر من عطلة، وظل الحرس يحرسون النمل الذي يجري على رزقه ويثير الإعجاب عندما يرفع رأسه مثل الكلاب. لكن قبل رحيلهم قام الرتبة، بجانب الإداري أو المكلف أو المتحكم، وكلها أسماء مختلفة لها سلطتها، بعمل تطبيق لمناهجه الاستجوابية الذكية «انظروا، لماذا لم تأتوا للعمل بالأمس؟» أهذا هو السؤال الذكي، يا له من رجل. «لم نأت لأنه كان الأول من مايو، والأول من مايو عيد العمال، وبما أننا عمال لم نأت». «إجابة بريئة، ها هم أمامي يا أونباشي الحرس، ويظنون أنهم سيضحكون عليّ، كما لو كنت سأصدقهم، كلهم ينظرون إليّ بعيون حادة، هذا ما لدى هؤلاء التيوس، يتصنعون الجدية حين ينظرون إلينا، ومن يستطيع أن يتنبأ بما يفكرون فيه، لكني أقول لهم إني قادر عليهم، ومن الأفضل أن تعترفوا بالحقيقة، لم تأتوا أمس للعمل لأسباب سياسية، تعتقدون أنكم ستخدعوني»، وهم يلحون «لا يا سيد، ليس لأسباب سياسية، فالأول من مايو عيد العمال»، «وعندما يقولون هذا، أجيب بقهقهة ساخرة: ماذا تعرفون أنتم عن هذا»، وأحدهم من الخلف يرد، لم نر وجهه لسوء الحظ، «إنه عيد العمال في كل الدنيا، وأنا غاضب ومعي كل الحق»، «إذن فهنا لسنا في الدنيا، نحن في البرتغال، وبالأخص في ألينتيجو، ولنا قوانيننا الخاصة»، «ويقترب مني رئيس العمل حينئذ ليقول لي سراً ما، لكنه ليس سراً لأننا أجمعنا عليه، وأنا أقرر بالسلطة المخولة لي: هنا فقط يعمل من لم يتغيب بالأمس»، وبمجرد أن قال هذا ابتعدوا جميعا، معا، إنها عادتهم، يفعلون الشيء نفسه عندما يشدون، وبعد عدة دقائق رحلوا بالفؤوس على أكتافهم، حيث كان عملهم بالفأس، وعادوا لبيوتهم، معاً، وهو موقف جدير بالاحترام، ولا أعرف لماذا. الكلمات مثل شجر الطلح، تبدأ بالكريز، وتظهر في مايو، وإن كنت أحترمتهم فهذه ليست المرة الأخيرة لكنها على الأقل المرة الضرورية.

في أبريل تتضارب الأقوال. في الحقول تجري اجتماعات ليلية كبيرة تصعب معها رؤية وجوه بعضهم لبعض، لكن تسمع الأصوات وتكون مخنوقة إذا لم يكن المكان آمناً بما فيه الكفاية، وتكون مجلجلة وواضحة في الخلاء. على أي حال يقوم نوبتجية بحمايتهم كمن يدافعون عن معسكر. إنها حرب مسالمة. وإن اقترب الحرس في سواد الليل، وهم ليسوا حارسَين كما يحدث في الأيام العادية، وإنما يأتون دستات وأنصاف دستات، ويدخلون بعرباتهم وعربات الجيب حيث تسمح لهم الطرق، وإن جاؤوا هكذا يقتربون، يقفون صفوفاً كمن يستعد للصيد، حينها يتراجع النوبتجية لينبهوا المجتمعين، ويحدث حينئذ أمر من أمرين: إما أن يمر الحرس دون توقف، والصمت هو أفضل دفاع، فيتسمر الرجال في مكانهم جالسين أم واقفين، كاتمين أنفاسهم وأفكارهم مثل الأحجار

المنتصبة، كنصب تذكاري من أزمنة أخرى، وإما أن يأتي الحرس مباشرة صوب الاجتماع وحينئذ تكون كلمة السر هي الانتشار في كل الطرق الوعرة، والحمد لله أن الحرس حتى ذلك الوقت لم يكون مزوداً بكلاب.

سيستمر الحوار في الليلة التالية من النقطة التي توقفوا عندها، في المكان نفسه أو غيره، وهذا صبر لا نهاية له. وعندما يكون متاحاً، يتقابلون بالنهار في مجموعات أصغر أو يمرون على البيوت، يثرثرون بجانب القبس بينما تغسل النساء أطباق الصيني صامتات وينام الصبية في الأركان. وعندما يكونون في الصف رجلاً بجانب آخر، يصبح الشعار المنطوق والمسموع مثل ضربة شاكوش على وتد، يزداد عمقه مع الوقت، وعند ساعة الأكل، بالصينية أو القدر الموضوع على الأرض، بين السيقان، وبينما ترتفع الملعقة وتنخفض ويرطب النسيم الأبدان، يعود الكلام للنقطة نفسها، إنه حديث متقطع يقول «يجب أن ننال ثماني ساعات عمل، فكفانا عملاً من شروق الشمس لمغربها»، وحينئذ يخاف المحتاطون من المستقبل، «وماذا سيكون حالنا لو امتنع السادة عن منحنا عمل». لكن النسوة اللاتي يغسلن أطباق العشاء بينما النار تلتهب، يخجلن من أن يكون هذا المحتاط هو زوجها ويبدين موافقتهن مع الصديق الذي طرق بابهن ليقول «هيا نعمل ثماني ساعات، فكفانا عملا من الشروق للغروب» لأنهن أيضاً يعملن هكذا، بالإضافة لذلك يتألمن أكثر، فيعملن حائضات، حوامل، ببطون على وشك الانفجار، بل ويعملن وهن نُفَساء واللبن الذي يجب أن يرضعه الرضيع يهدر هباء، إنه حظهن، لم يخترنه، وثمة من يخطئ أنه يكفي رفع العلم وقول «هيا». الحق أن أبريل شهر الألف شعار، لأن حتى المتيقنون والمقتنعون تمر عليهم لحظات تردد، احتضار، قنوط، ها هو الحرس، ها هم تنانين البوليس السياسي، ها هو الظل الأسود الذي يتجول في الوسية، ولا يهجرها أبداً: لا يوجد عمل، ونذهب نحن بأنفسنا لإيقاظ الحيوان النائم، لننفضه ونقول له «غداً سأعمل فقط ثمان ساعات، وهذا ليس الأول من مايو، فالأول من مايو لا أعمل، لا أحد يستطيع أن يجبرني على العمل»، لكني لو قلت «ثماني ساعات»، هذا فقط ولا شيء آخر، فهو مثل إثارة كلب مسعور. ويقول الصديق الجالس هنا في الفلين، أو بجانبي في الصف، أو في وسط ليلة مظلمة لا أتمكن معها من رؤية وجهه «القضية ليست فقط قضية ثماني ساعات، فنحن سنطالب أيضاً برفع الأجرة لأربعين اسكودو، إن أردنا ألا نموت من التعب والجوع»، إنها أشياء جميلة لنطالب بها ونفعلها، الصعوبة تكمن في الحصول عليها. الحمد لله أن كثرة الآراء يصاحبها كثرة أصوات، وفي الاجتماع ينهض صوت، هذا ليس كلاماً، بل حقيقة، فهناك أصوات تنهض على قدميها «ما هذه الحياة التي نعيشها، في عامين مات لي ابنان من مرض الجوع، والابن المتبقي لا أريد أن أربيه ليعمل حيوان أحمال، أجيبوني، وأنا أيضاً لا أريد أن أظل حيوان أحمال»، إنها كلمات تجرح الآذان الرقيقة، لكن هنا ما من آذان رقيقة، فقط في هذا الاجتماع ثمة من لا يريد أن ينظر في هذه المرآة ليرى نفسه حاملاً عريش عربة كارو وبردعة وحامل أجراس، «نحن هكذا منذ ولدنا».

حينئذ جاء صوت آخر، جاء من هناك، فسقط فوق ظل الليل ظل آخر لا نعرف من أين أتى، يا لها من فكرة تلك التي خطرت بباله، لا يتحدث عن الثماني ساعات ولا عن الأربعين إسكودو يومية، هذه القضايا التي عقد من أجلها الاجتماع، مع ذلك لم يكن بوسع أحد أن يقاطعه، «إن ما أرادوه

دائماً أن يهينوا كرامتنا»، وعند سماعه كلهم يعرفون من المقصودين، إنهم الحرس، البصاصون، الوسية وصاحبها أدالبيرتو أو داجوبيرتو، التنين والرائد، الجوع والعظم المكسور، التصدع والحنين، «أرادوا أن يذلوا كرامتنا، لكن لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا، يجب أن تنتهي، اسمعوا جميعاً ما حدث لي ولأبي الميت، لقد كان سراً بيننا، لكني اليوم لا أستطيع أن ألتزم الصمت، ولو لم يقتنع الرفاق بهذه الواقعة، فليس بوسعي أن أفعل شيئاً، فنحن تائهون. ذات مرة، منذ سنوات طويلة وفي ليلة مظلمة كهذه الليلة، اصطحبني أبي، أو اصطحبته أنا، لنجمع بلوطاً لنأكله، لم يكن لدينا شيء في البيت، وكنت أنا رجلاً وأرغب في الزواج. أخذنا معنا كيساً ليس بكبير، كيساً طويلاً، وذهبنا معاً من أجل الصحبة لا من ثقل الحمل، وعندما كان الكيس على وشك الامتلاء، ظهر الحرس، فما خطر ببالنا خطر ببال آخرين موجودين هنا، وهذا ليس عاراً، فجمع البلوط المتساقط على الأرض ليس سرقة، وحتى لو كان سرقة فالجوع سبب كاف للسرقة، فمن سرق جوعاً غفر له مائة عام، أعرف جيداً أن المثل ليس كذلك، لكنه يجب أن يكون هكذا، فلو كنت أنا لصاً لأني سرقت بعض البلوط، فصاحب البلوط أيضاً لص لأنه لم يحرث الأرض ولم يزرع الشجر ولم يشذبه ولم ينظفه، وحينئذ جاء الحرس وقالوا، ولا داعي لأن أكرر ما قالوه لأني لا أتذكره بالضبط، لكنهم سبونا، وقد يبدو أكذوبة أننا احتملنا كل هذه الشتائم، وعندما طلب منهم أبي من أجل حب الله أن يتركونا نأخذ البلوط الذي جمعناه من الأرض وننصرف، أطلقوا قهقهاتهم وقالوا اتفقنا، يمكننا أخذ البلوط لكن بشرط، واسمعوا جميعاً الشرط، أن نتعارك أنا وأبي حتى يشاهدونا، لكن أبي قال إنه لن يتعارك مع ابنه، وأنا لن أتعارك مع أبي، حينها قالوا فلنذهب إذن للنقطة، لندفع الغرامة وربما يضربوننا بالعصي حتى نتعلم أن نعيش مثل الشرفاء، عندئذ وافق أبي على التعارك، فلنتعارك إذن، وأستحلفكم بأغلى ما عندكم يا رفاقي، ألا تسيئوا الظن بالعجوز المسكين الذي رحل عن دنيانا، وليغفر الله لي على ما ارتكبت من ذنب، لكن الجوع كان كافرا، تظاهر أبي حينها أنه يضربني، وتظاهرت أنا أني أسقط على الأرض في محاولة منا لخداعهم، هكذا كنا نعتقد، لكنهم قالوا إما أن نتعارك بجد حتى نسيل الدم وإما أن يسجنونا، لا أعرف كيف أحكي لكم البقية، كان أبي يائسا، وضع شيئاً على عينيه وضربني، تألمت كثيراً، لكن ليس من قوة اللكمة، ورددت له اللكمة بالطريقة نفسها، وبعد دقيقة واحدة كنا نحن الاثنين نتمرمغ في الأرض، والحرس يفطس من الضحك، وفي لحظة وضعت يدي على وجه أبي فلاحظت أنه مبتل، لكن ليس بالعرق، فجن جنوني، أمسكته من كتفيه ونفضته كما لو كان ألد أعدائي، وهو، من تحتى، كان يسدد لي اللكمات في صدري، إلى أين نريد أن نصل؟ والحرس لا يزالون يضحكون، كانت ليلة مظلمة مثل هذه وكان البرد يكسر العظم تحت اللحم، وكنا في وسط الحقل فلم نجد من يرفع أحجاراً، ربما خُلق الرجال من أجل ذلك، وعندما انتبهنا كنا بمفردنا، فقد رحل الحرس، أعتقد لاحتقارهم إيانا، وهذا ما كنا نستحقه، حينئذ شرع أبي في البكاء وأنا هدأته كما لو كان طفلاً، وأقسمت أني لن أروي ما حدث لأحد أبداً، لكني اليوم لا أستطيع أن أغلق فمي، أنا لم آت من أجل قضية الثماني ساعات والأربعين اسكودو، بل جئت لأننا يجب أن نفعل شيئاً حتى لا نستمر في هذه العيشة، مذلولين، جئت لأن الحياة بهذا الشكل ليست عادلة، رجلان يتعاركان، أب وابن، حتى ولو لم يكونا أباً وابناً، فيكفي أنهما يتعاركان لتسلية الحرس الذين لا يكفيهم امتلاك الأسلحة ونحن عزل، لن نكون رجالاً لو لم ننهض هذه المرة من الأرض، ولو لم يكن من أجلي فليكن من أجل أبي الذي رحل عن دنيانا ولن يحيا حياة أخرى، إنه عجوز مسكين، أتذكر أني ضربته، بينما كان الحرس يضحكون كأنهم سكارى، لو كان هناك إله لظهر في تلك اللحظة». عندما صمت هذا

الصوت نهض الرجال جميعهم، ولم يجر حوار آخر، سار كل منهم في طريقه بخطى ثابتة مثل خطى الأول من مايو، من أجل الثماني ساعات والأربعين اسكودو. ومع ذلك، وبعد مرور سنوات طوال، لم يعرف أحد مَنْ هذا الذي تعارك مع أبيه. كلما كان الألم عميقاً، لا تحتمل العين رؤيته.

كالنار في الهشيم، انتشرت هذه الكلمات وكلمات أخرى في الوسية، لكن ليست حكاية العراك، فهذه لا يصدقها أحد مع أنها حقيقة محققة، وفي جبل لافري أيضاً عقدوا اجتماعات توحدوا فيها واتفقوا، فلو كان هناك أفراد جبناء، هناك أيضاً شجعان، بحيث عندما جاء الأول من مايو كان كل شيء مقررا، وأكثرهم جبناً كانوا ينضمون لمن يبدي شجاعة، في الحروب أيضاً يحدث ذلك، كما يشرح من عاشها، سواء كان شجاعاً أم جباناً. كان يوما استهلكوا
فيه جازاً كثيراً وسولاراً، وكان هواء الربيع مشبعاً بالنسائم، كانت العربات الجيب والعربات البوكس التي تحمل بنادق وأقنعة الحرس تجول في الطرقات، وكان الحرس يرتدي الأقنعة من خجله مما يفعل، وعندما وصلوا لمكان مأهول، كانوا يتبادلون الأوامر ويسيطرون على الموقف، كيف تسير الأمور في منطقة سيتوبال، وجنوب ألينتيجو وشمالها، وفي ريباتيجو التي هي أيضاً وسية، فلنتذكر ذلك. دوريات مسلحة تجوب الشوارع والحواري متشممة مكان الثورة، ومن الأماكن العالية كانوا يلقون نظرات صقر صياد على البحر الداخلي، فربما يلمحون علم قراصنة أسود أو أحمر، مَنْ سيورط نفسه الآن في أمر كهذا؟ لكنها وساوس الحرس، فلا يعرفون التفكير في شيء آخر، وأقصى ما اكتشفوه كان شيئاً لا يختبئ، رجالا يسيرون الهوين أو يتحدثون في الميادين، يرتدون أفضل ما لديهم من ثوب بترقيعات مختاطة بشكل جيد، فنساء الوسية ماهرات في الرتق، في وضع الرقعة على مقعدة البنطلون أو الركبة، فيراهن الواحد يبحثن في سلة الخرق ويحاولن استخلاص قصاصة من قطن، ثم يضعنها على ساق البنطلون الممزق، وبعد استعمال المقص بحرص شديد يسمع الرقع بالخيط، إنه عمل غاية في الدقة، جالسة أنا على عتبة بيتي أرتق بناطيل زوجي هذه، فلا يصح أن يمشي عارياً في عمله، ويكفيني أن أشعر به هكذا بين الملاءات.

يبدو أن كل هذا لا علاقة له بالأول من مايو والثماني ساعات والأربعين اسكودو، ثمة من يعتقد ذلك، وهم أناس شاردون لا ينتبهون للعالم، يعتقدون أن العالم هو هذه الكرة التي تدور في هذا الفراغ، علوم فلك، كان أجدر بهم أن يكونوا عمياناً، فلا شيء له علاقة أوثق بالأول من مايو من هذه الإبرة وهذا الخيط في يد هذه المرأة التي تسمى جراثيندا المنحوس، حتى يذهب زوجها مانويل السيف مُرقّعاً إلى الأول من مايو، عيد العمال. يمر الحرس هناك أمام بابها، في سيارة جيب حربية، وجراثيندا المنحوس تنادي ابنتها الوحيدة، ماريا أديلايدا، والطفلة، ابنة السابعة وذات العينين الأكثر زرقة في الدنيا، تشاهد العرض العسكري، يبدو مستحيلا ألا ينشط هؤلاء الصبية أمام مقام الزي الرسمي، ها هي ماريا أديلايدا بنظرتها الصارمة لقد رأت في حياتها الكثير حتى تميز أي حرس هؤلاء وأي زي هذا.

يعود الرجال إلى بيوتهم بالليل. سينامون نوماً قلقاً يشبه نوم الجنود في ليلة المعركة، من يدري إن كنت سأعود حياً، الإضراب شيء والمظاهرات شيء آخر، إنها عادة قديمة، نحن نعرف بماذا يرد الملاك والحرس عادة، بينما يكون هذا تحدياً كبيراً، رفضاً لسلطة ورثها أصحاب الوسايا من أجداد

أجدادهم. «ستعمل عندي من شروق الشمس حتى غروبها كل يوم من أيام حياتك، بينما أنا أتلذذ وأتنعم، فيما عدا ذلك افعل ما شئت». الآن لا يضطر أن يصحو مبكراً لا سيجيسموندو كاناسترو ولا جوان المنحوس، لا أنطونيو المنحوس ولا مانويل السيف، ولا أحد من الرجال الآخرين ولا النساء، فما زالوا مستيقظين حتى هذه الساعة يفكرون في ما سيحدث غداً، إنها ثورة، ثمان ساعات عمل في الوسية، «إنه تحد، إما الفوز أو الهزيمة، في مونتاجريل تقدموا وفازوا ولن نكون أقل منهم، ونسمع في عز الليل سيارة الحرس الجيب تجوب شوارع جبل لافري، يريدون أن يرهبونا لكن ذلك لن يكون».

إنه كلام أفواه أخرى، قال جيلبيرتو وألبيرتو «سيرون»، وكانت لحظة عظيمة في تاريخ الوسية، حتى أصحاب الوسايا استيقظوا مبكرا ليشاهدوا ميلاد هذا اليوم، فمن لا يرى ما يخصه يأخذه الشيطان، لقد طلعت الشمس بالخارج ولا تُرى روح واحدة تقترب من العمل، المفتش والمشرف والمدير يقتلهم التوتر، والحقل سلوى للعيون، مايو، مايو المزدهر، ينظر نوربيرتو في ساعته، السابعة والنصف، ولا أحد جاء «أتشمم رائحة إضراب»، يقول خادم، لكن أدالبيرتو يجيبه غاضباً «اسكت»، إنه حانق، لديه هدف محدد، كلهم لديهم هدف محدد، يكفي الانتظار. وحينئذ يبدأ الأجراء في الوصول معاً، في الساعة التي اختاروها، يلقون عليهم التحية بكل طيبة، فلِمَ الكراهية، وعندما تصل الساعة الثامنة يبدؤون في العمل، هكذا قد قرروا العمل في هذه الحقول، لكن داجوبيرتو يطلق صرخة «توقفوا»، فيقفون جميعاً بنظرة بريئة. «ماذا حدث يا سيدي»، هذا الهدوء يستطيع أن يفقد الرجل صوابه، «من أمركم بالمجيء للعمل في هذه الساعة»، يريد نوربيرتو أن يعرف، وفي هذه المجموعة يتولى مانويل السيف مسؤولية الرد، «لقد قررنا ذلك بأنفسنا، فهناك أماكن يعملون فيها ثماني ساعات، ونحن لسنا أقل من رفاقنا في الأراضي الأخرى»، فيتجه صوبه بيرتو كأنه سيضربه، لكن لا، لا يتجرأ لهذا الحد «في أراضيّ موعد العمل كما كان دائماً، ومن أراد أن يعمل فليعلم: من شروق الشمس لغروبها، والآن قرروا، إما أن تبقوا وتعوضوا غداً الوقت الذي ضيعتموه اليوم، وإما أن ترحلوا، فأنا لا أريد أحداً هنا»، «هذا هو الكلام»، ستقول السيدة كليمنثيا عندما يتفاخر زوجها ببطولاته، ثم أجاب هذا المانويل السيف، زوج بنت جوان المنحوس والذي كان زعيم المجموعة «نعم يا سيد، سنرحل» ورحلوا جميعاً، وعندما عادوا لجبل لافري سأل أنطونيو المنحوس «والآن، ماذا سنفعل؟»، لا لأنه كان قلقاً أو خائفاً، بل لأنه كان يفتح حواراً مع صهره الذي أجاب «الآن نفعل ما اتفقنا عليه، نجتمع في الميدان، وإذا ظهر الحرس وأراد أن يطلق علينا النار، نتفرق ويذهب كل منا لبيته وغداً نعود للعمل، وفي الثامنة نبدأ في الحصاد، مثل اليوم»، كان هذا الكلام نفسه تقريباً الذي قاله جوان المنحوس في مجموعة أخرى، وقاله سيجيسموندو كاناسترو في مجموعة ثالثة، وهكذا تجمعوا كلهم في الميدان، ورأوا مرور الحرس، وجاء الأونباشي تباكو «هل معنى هذا أنكم لا تريدون العمل»، «كلا يا سيد، نريد، لكن نعمل فقط ثماني ساعات، وصاحب الوسية لا يقبل ذلك، لا توجد حقيقة أكثر حقيقة من هذه»، لكن الأونباشي يواصل استجوابه «إذن ليست هذا إضراباً»، «لا يا سيد، نحن نريد العمل، والمالك هو من أرسلنا للبيت، قال إنه لا يوافق على الساعات الثماني»، وأمام هذا الجواب الواضح سيقول الأونباشي تباكو بعد ذلك «لا أعرف ماذا أفعل يا سيدي داجوبيرتو، إنهم يقولون إنهم يريدون العمل، وإن حضرتك من...»، ولا يصل ليتمم جملته، حيث يقفز

داجوبيرتو «إنهم مجموعة كسالى، إما أن يعملوا من طلوع الشمس لغروبها وإما أن يموتوا جوعا، ففي أرضي لا عمل لهم، ولتعلم أن الحكومة لم تصدر أوامر بالعمل ثماني ساعات فقط، وأني أنا المالك»، وبهذه العبارة انتهى الحوار مع الأونباشي تباكو، وهكذا انتهى اليوم، كل واحد في بيته، والنساء يردن أن يعرفن ماذا حدث، كما رأينا في السيدة كليمنثيا، وهو أيضاً حق للنساء الأخريات.

يحسبون حساباتهم، اليوم لم يربحوا يومية، كم يوماً سيأتي مثل هذا؟ هذا يتوقف على المكان، فهناك مكان يستسلم فيه أصحاب الوسية بعد يومين، وأماكن أخرى بعد ثلاثة أيام، أربعة أيام، وهناك أماكن مرت فيها أسابيع في هذه اللعبة، لعبة التحقق ممن لديه قوة أكبر وصبر أشد. في النهاية لم يذهب الرجال للعمل ليروا إن كانوا سيوافقون بشروطهم هذه، بقوا في قراهم، هذا الآن يعد إضراباً، وعندما يزيد الأمر عن حده ينقلب ضده، فيعود الحرس إلى عادة الضرب، ومن أقصى الوسية لأقصاها سارت ماكينات الحرب، والأمر لا يستحق تكراره، فما من أحد إلا ويعرفه. قاوم في حصونهم داجوبيرتو وألبيرتو، هومبيرتو وبيرتو آخر، لكن رويداً رويداً ذاب الحلف المقدس ومن أماكن أخرى جاءت أخبار الخضوع، ماذ سنفعل، فلنتركهم يتجولوا فلن يتلف الحصاد بالتأخير «أعرف جيداً يا أب أجاميدس أن أفكار الانتقام ليست مسيحية، وبعد ذلك سأتوب»، «الأمر ليس كذلك بالضبط يا سيدي ألبيرتو، فقد ذكر في سفر التثنية: الانتقام لي، وأنا سأجعله يدفع الثمن»، الأب أجاميدس هذا شعلة من الحكمة، كيف يكون ممكناً أن يحفظ عن ظهر قلب من كتاب ضخم مثل الكتاب المقدس مقطعاً بهذه الدقة، لسنا في حاجة إلى تبرير.

هنا في جبل لافري، أنقذهم من الموت أصحاب المتاجر الذين يبيعون لهم بالآجل، ويحدث ذلك أيضاً في أماكن أخرى، لكننا قد روينا تفاصيل ذلك في هذه القصة. جوان المنحوس يتجول في الشوارع محتملاً الإحساس بالخزي من ديون لا يستطيع سدادها، تصحبه زوجته فاوستينا تبكي من البؤس والحزن الممزق، والآن هو من يذهب من محل إلى محل ليلقي رسالته، وعندما لا يجد ترحاباً، يتصنع كأنه لم ينتبه، لقد عوّدته المعاناة على الخشونة، والحاجة التي يحملها على كاهله ليست حاجته وحده، «يا سيدة جرانيزا، العمال يقاتلون من أجل ثماني ساعات عمل والمُلاّك لا يريدون أن يتنازلوا، لهذا نحن في إضراب، وجئت لأطلب منك أن تصبري ثلاثة أو أربعة أسابيع، وبمجرد أن نعود إلى العمل سنبدأ في السداد، فلن يبقى أحد عليه دين، وهذا معروف أطلبه منك»، وصاحبة هذا المحل، وهي امرأة طويلة ذات عينين عسليتين ونظرة غامقة، تضع يديها فوق البنك وتجيبه بأدب شابة «يا سيدي جوان المنحوس، من العدل كما أصبر أنا أن يتذكروني يوماً، بيتي مفتوح لك»، وهذه الكلمات المختصة بالعِرافة تروق كثيراً لهذه المرأة التي لها مناجاة صوفية وسياسية مع الأبرشيين وتروي حكايات وأحداث عن شفاءات إعجازية وكرامات، ففي الوسية تجد كل شيء، لا في المدن وحدها. مشى جوان المنحوس يعانق الخبر السعيد، وفتحت ماريا جرانيزا دفتراً جديداً للمديونين، ليتهم يسددون لها جميعاً كما يستدينون منها مرتين.

تصحو الطيور عند الفجر فلا ترى أحداً يعمل. «أرى الدنيا وقد تغير حالها»، يقول العلعل، لكن الحدأة التي تطير عالياً وبتأن تصيح بأن الدنيا قد تغيرت كثيراً أكثر مما يظن العلعل، وليس فقط كي يعمل الرجال ثماني ساعات بالضبط، وإنما لأنهم تعلموا من النمل الذي رأوه كثيراً ولهم ذاكرة

قوية، لا ينبغي أن يدهشنا هذا، فالنمل يسير دائماً متحداً. «ما رأيك في هذا سيدي القس أجاميدس؟»، «لا أعرف ماذا أقول لك يا سيدة كليمنثيا، سلاماً على الدنيا التي يسوء حالها يوماً بعد يوم».

يلزم جوان المنحوس فراشه. سيكون اليوم يوم وفاته. هذه الأمراض التي تصيب هؤلاء الفقراء المساكين غالباً ما يصعب تعريفها، فيصعب على الأطباء كتابة شهادة وفاة. يموتون بشكل عام من ألم ما، من ورم ما، وكيف يمكن ترجمة هذا في مفاهيم واضحة ذات تصنيف مرضي، لم ينفعهم في شيء قضاء سنوات طوال في الكلية. قضى جوان المنحوس شهرين في مستشفي مونتيمور، ولم ينفعه ذلك كثيراً، رغم أنه لم يفتقر إلى عناية، لكن هناك نجاة مستحيلة، لذلك أحضروه ليموت في بيته، وهي ليست ميتة مختلفة، لكن الموت في البيت تصحبه سكينة أخرى، فرائحة سريره، وأصوات العابرين في الشارع، وجلبة قفص الدجاج عندما تستريح الدجاجات على حافته ليلاً ويرجف الديك جناحيه بشدة، كلها أشياء ربما يشتاق إليها في العالم الآخر. عانى جوان المنحوس ما عاناه في المستشفى، قضى الليالي ساهداً، مستمعاً للتنهيدات والأنات وكل أحزان غرفة المرضى، وكان يصالحه النوم فقط مع دخول الفجر. هو الآن لا ينام أفضل من المستشفى، لكنه فقط يعاني ألمه وحده، إنها
مسألة ستحل بمناجاة الجسد والروح التي ما زالت تحتمل، من دون أي شهود إلا عائلته. وحتى هؤلاء لن يستطيعوا فهم شيء إلا في الساعة المحددة، ولن يستبقوا معرفة معنى أن يكون الرجل وحيداً لحظة موته، ومعرفة، دون أن يخبرهم أحد، أن اليوم يوم وفاته. إنها أفكار تعبر بالذهن عندما يصحو الواحد مبكراً جداً ويتطرق لسمعه صوت مطر يسيل على الحواف مثل خيوط نافورة. في صغرنا كنا نصعد على إطار الباب الداخلي، وبينما كنا نطل من فتحة الباب، نمد يدنا للماء المتساقط، هكذا فعل جوان المنحوس، وآخرون لم يفعلوا. تنام فاوستينا فوق كنبة، أصرت على ذلك حتى يأخذ زوجها راحته في السرير الكبير، ولا خطورة في أن تنسى هذه المرأة واجباتها، فكل ليلة، عندما تشعل ضوء البيت الخافت أو لمبة الزيت، يرى عينيها تلمعان، ربما لأنها صماء تلمع عيناها كثيراً، إنها تعويضات. لكن لو غلبها النوم ولم يستطع جوان المنحوس أن يحتمل ألمه وحده، هنا يأتي دور الدوبارة التي تربط ساعد الرجل الأيمن بساعد المرأة الأيسر، فلن يفترقا الآن بعد أن صارا عجوزين، وبأقل شدة تخرج فاوستينا من سباتها الخفيف، فتنهض بثوبها وتقترب من سريره، وتمسك يد زوجها في صمت صممها العميق، وتحدثه بحنان كأنه ليس بوسعها أن تفعل شيئاً آخر، حنان لا يستطيع كثيرون أن يتباهوا به.
اليوم ليس يوم أحد، لكن مع هذا المطر والحقول الغارقة، لن يستطيع أحد أن يذهب إلى العمل. ستحيط بجوان المنحوس عائلته بأكملها، وهي ليست عائلة كبيرة، فلا يصح أن نعد الذين يعيشون بعيداً ولن يستطيعوا الحضور، أخته ماريا دي لا كونثيبثيون التي ما زالت تخدم في لشبونة دائماً مع السادة نفسهم، أيوجد إخلاص مثل هذا، تسلم لهم الذهب فيجدونه كاملاً وربما يزيد؛ وأخوه أنسيلمو الذي منذ ذهب ليعيش في الشمال لم يعرفوا أخباراً عنه، ربما مات إن كان جوالاً، مثل دومينجو في سنة من تلك السنوات، مَنْ يتذكره، مَنْ اشتاق إليه. ثمة حيوات أكثر شحوباً من أخرى، ويرجع ذلك لانشغالنا بأمور كثيرة، وفي النهاية لا نركز فيها ويأتي يوم يداهمنا فيه الندم، «شراً ما فعلت، كان يجب أن تعيرها اهتماماً أكبر، حقاً، يا ليت ذلك قد خطر لي من قبل»، إنها

تأنيبات تأتي وتُنسى في الحال، حمداً لله. لن تأتي أيضاً ابنته إميليا، وكلنا نعرف أنها تخدم منذ صغرها في أحد بيوت مونتيمور، ويكفيها حظا أنها استطاعت أن تزوره في المستشفى وهكذا شعر معها بالصحبة، والحمد لله أنها استطاعت أن تدخر لتركب طقم أسنان صناعية، فهذا كان حلمها، لكن الابتسامة لم تتخطاها بعد. سيتغيب أيضاً أصدقاء له، الصديق توماس السيف الذي تألم كثيراً بعد موت زوجته فلور مارتينيا، ولم يره أحد أبداً بدوبارة تربط بساعدهما، فهناك أشياء لا تُرى لكنها توجد، وربما لا يعرف أصحابها شرحها. لكن سيأتي سيجيسموندو كاناسترو، أكبرهم سنا، وجوانا كاناسترو ستساعد فيما ينبغي المساعدة، فتعاون فاوستينا، يعرفان بعضهما منذ زمن طويل لا يمكن تحديده، تجلسان وتتبادلان النظر، بلا بكاء، فاوستينا لأنها لا تستطيع وجوانا لأنها لم تبك أبداً، إنها أسرار الحياة، مَنْ يستطيع أن يقول لنا السبب في عجز واحدة عن البكاء وعدم معرفة الأخرى للبكاء.

سيحضر أيضاً أنطونيو المنحوس، ابني، الذي ينهض الآن ويأتي حافياً. «كيف حالك يا أبي؟»، وأنا، من أعرف أن اليوم تأتي ساعتي، أجيبه «بخير»، من يدري إن كان سيصدقني، يجلس على قدميه سانداً كوعيه على عمود السرير، ينظر إليّ، لا لم يصدقني، لا أحد يقنع أحداً بشيء إن لم يكن مقتنعاً، كيف كان هذا الشاب وكيف أصبح، ما زال بعيداً عن الخمسين بكثير ورغم ذلك قضت عليه فرنسا، كل شيء يقضي علينا، هذا الألم، هذه الوخزة، أو ربما لا تكون الوخزة، بل الألم الكامن تحتها، لا أعرف كيف أشرح ذلك. سيأتي أيضاً مانويل السيف، زوج ابنتي، وستأتي جراثيندا ابنتي، سيقبع هنا كلاهما بجانب السرير، سريري هذا الذي سيأتي من يسحبني منه اليوم، ربما يكون رجلين أشد قوة مني، لكن سيغسلني النساء، فتغسيل الميت عملهن عادة، كم تفعل النساء من أشياء! وما يسليني أني لن أسمعهن يبكين. ستأتي أيضاً حفيدتي ماريا أديلايدا، ذات العينين الزرقاوين مثلي، لا، هذه ليست حقيقة، لماذا أتباهى، فعيناي مثل طفيتي سجائر مقارنة بعينيها، ربما عندما كنت شاباً، عندما كنت أتجول برقصاتي وأعشق فاوستينا، عندما خطفتها من بيت أبويها، حينئذ لا بد أنهما كانتا زرقاوين مثل هاتين العينين اللتين دخلت صاحبتهما في الحال، «فلتحل البركة عليك يا جدي، كيف حالك، هل تحسنت»، وأنا أقوم بإيماءة بيدي، فهذا ما تبقى من البركة، لم يعد أحد يؤمن بها، لكنها العادة، وأجيبها بأنني بخير، وأعيد النظر إليها لأراها بشكل أفضل، آي، يا ماريا أديلايدا، يا حفيدتي، كم يروق لي النظر إليك، لا أقول ذلك بل يعبر برأسي. تضع حجاباً على رأسها وترتدي معطفاً منقطاً، وتنورتها مبللة، فقليلاً ما نفعتها المظلة، وفجأة تنتابني رغبة عارمة في البكاء، فأخذت ماريا أديلايدا يدي، وبدا لي أننا قد بدلنا عيوننا، يا لها من فكرة مجنونة، لكن الرجل الذي يموت قد تخطر له كل أفكار الدنيا، وهو محق، فلن يكون لديه أيام أخرى ليصنع أفكاراً أخرى أو يعيد القديمة، ففي أي ساعة سأموت. والآن تقترب فاوستينا بكوب لبن، ستسقيني إياه بالملعقة، اليوم سيان بالنسبة لي أن أبقى جائعاً، لأرحل خفيفاً، شخص آخر سيشربه، أود لو تكون حفيدتي، لكني لا أستطيع أن أطلب منها ذلك، ستغضب فاوستينا وأنا لا أريد أن أسبب لها هذا الحزن في يومي الأخير، مَنْ سيواسيها من بعدي عندما تقول آه يا زوجي المسكين، حتى اللبن لم أسقه له يوم مات، لدرجة أن

الجدة قد تكره حفيدتها ما تبقى من حياتها، ربما تتمكن من إعطائي الدواء بعد قليل، كما قال الطبيب، بعد الأكل بنصف ساعة، وبرغبات مستحيلة ستخرج ماريا أديلايدا، جاءت فقط لتطمئن

على حالتي، وأنا بخير، وسيأتي أبوها وأمها، والآن تخرج، فما زالت صغيرة على هذه المشاهد، فلديها ستة عشر عاماً وعينان زرقاوان مثلي، أعتقد أني قلت ذلك من قبل.

يفيق جوان المنحوس من غفوة غاص فيها بعد تناول الدواء، وكان هذا من حظه، فقد عاش في راحة مطولة من الألم حيث للعلاج تأثير السحر، لكن الألم يعاوده من جديد، فيفيق بأنين، كما لو غرزوا في جانبه مسماراً، وعندما يسترد بصيرته كاملة يرى أنه محاط بناسه، فلا تسع الغرفة أكثر من ذلك، تميل ناحيته فاوستينا وجراثيندا، وإميليا أيضاً التي جاءت مؤخراً، كانت أنّاته هي التي استدعتهن، أما جوانا كاناسترو فكانت بعيدة، حيث أنها ليست من العائلة، بينما الرجال يقفون بعيداً فلم يأت وقتهم بعد، فيقفون بجانب الباب المطل على فناء البيت، مانعين دخول الضوء، وهم سيجيسموندو كاناسترو ومانويل السيف، وأنطونيو المنحوس.

لو كان لدى جوان المنحوس أي شك، فقد انتهى اليوم، والجميع يعرفون أن اليوم يوم وفاته، لا بد أن بعضهم خمن ذلك ثم صرح به، لكن إذا كان الأمر هكذا فلن يسمعوا أنيني، هذا ما ظنه جوان المنحوس، وجز على أسنانه، إنها مجرد مقولة، فأين هي الأسنان، قليل منها أعلى وقليل منها أسفل، هذا ما تبقى، كما أنها غير متناسقة فلا يمكن معها الجز، فيكون الضغط على اللثة، آه يا شيخوخة، ومع ذلك هذا الرجل لم يبلغ إلا سبعة وستين عاماً، ليس شاباً بالطبع، فزمن الشباب ولى، لكن يسير هناك آخرون أكبر منه عمراً وأفضل منه صحة، إنهم هؤلاء الذين يعيشون بعيداً عن الوسية. في النهاية، القضية ليست أن لديه أسناناً أم فقدها، ليس هذا هو الأمر المهم، الأمر المهم هو قطع الأنين عند مولده، إيقاف الألم عن النمو، لكن لا يمكن تجنب ذلك إلا بكتم صوته، بإخراسه، كما أخرسوه من عشرين عاماً عندما ساقوه للسجن وأجبروه على القيام بدور التمثال، عندما قتله ألم الكليتين، عندما ضربوه دون أن ينظروا أين، يتصبب العرق من جبهته، تنقبض كل أعضائه، ذراعاه نعم، لكن ساقيه لا يشعر بهما. في البداية يظن أنه لم يستيقظ كلية، لكنه بعد ذلك يعرف أنه مدرك، يريد أن يحرك قدميه، على الأقل قدميه، لكن قدميه لا تتحركان، يريد أن يثني ركبتيه، هباء، ولا أحد يتوقع ما يحدث تحت الملاءة والبطانية، إنه الموت، رقد بجانبي ولم يوجد من يراه، نعتقد أنه يدخل من الباب أو من الشباك وفي النهاية استقر بجانبي، منذ متى؟ «كم الساعة»، إنه سؤال مكرور وله دوماً إجابة، معرفة الساعة، تشرد الناس وهي تفكر في الوقت الذي ما زال يتبقى أو الوقت الذي مضى، وعندما يقال لهم كم الساعة لا أحد يفكر في أكثر من هذا، إنها ليست إلا كسر أي شيء أو تحريك أي شيء كان ساكناً، ليس ثمة وقت الآن لنعرفه، فقد جاءت الساعة المنتظرة. ينظر جوان المنحوس بشرود، حوله أقاربه الأقربون وأصدقاؤه، ثلاثة رجال وأربع نسوة، فاوستينا بالدوبارة المربوطة في ساعدها، جراثيندا التي شاهدت الموت في مونتيمور، إميليا الخاضعة دائماً، جوانا المرأة الصلبة، ثم سيجيسموندو الرفيق، ومانويل ذو الوجه الصارم، وأنطونيو ابنه، آه يا بني، وهؤلاء هم من أرحل عنهم، «أين حفيدتي»، فترد جراثيندا بصوت تغلفه الدموع «ذهبت للبيت لتحضر بعض الثياب»، لقد خطرت فكرة إبعادها على رأس أحد، فما زالت صغيرة على هذا المشهد، ويشعر جوان المنحوس براحة كبرى، فبذلك ما زال الخطر بعيدا، فأسوأ شيء أن يجتمعوا جميعاً هنا، فلن يموت في غياب الحفيدة، لن يموت حتى يجتمعوا جميعاً هنا، يا ليتهم يعرفون ذلك ليبقى أحدهم دائماً بالخارج، الأمر غاية في البساطة.

يغرز جوان المنحوس كوعيه في المرتبة التبنية، يسحب جسده لأعلى، يساعدونه، هو الوحيد الذي يعرف أنه من دون مساعدتهم لن يحرك ساقيه، لديه يقين أنه متكئاً سيشعر براحة، ستخف عنه ضيقة النفس التي واتته فجأة، هو لم يشعر بخوف، فهو يعرف أنه لن يقع له مكروه في غياب الحفيدة، وربما يخطر في بال أحد الموجودين الخروج، سنرى هل ستصفي السماء القيظ الخانق في هذه الغرفة، «افتحوا هذا الشباك»، إنه الشباك المطل على فناء البيت، ما زال المطر ينهمر، فقط في الروايات تصفى السماء في مناسبات كهذه، إنه نور أبيض هذا الذي يدخل، وفجأة يتوقف جوان المنحوس عن رؤيته، ولا هو نفسه يعرف كيف.

تعمل ماريا أديلايدا بعيداً، صوب بيجويس. بين بيتها وعملها مسافة كبيرة، أكثر من ثلاثين كيلو متراً، ويكفي النظر للخريطة، لذلك لا تستطيع الإياب منه، إنه عمل شاق، قولوا ذلك لمن لم يطأوا بأقدامهم مزرعة عنب ولا قبضوا بأيديهم على فأس، آن أوان الحفر. وهذا العمل لا ينتهي في ستة أيام، فماريا أديلايدا هنا منذ ثلاثة أشهر، وفي أحوال مثل هذه لا يتغير لون العين. تعود إلى البيت مرة كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، يوم أحد، وحينها تستريح في البيت كما تستريح النساء في الوسية، ثم تعود إلى مزرعة العنب والفأس، تحت أنظار بعض الجيران الذين يعملون في العمل نفسه، ما يسبب راحة دائمة لأبويها، فأمام اندفاع ابنته الوحيدة كيف لا يساوره الريب، وخاصة عندما يكون في جبل لافري، تلك الأرض التي تغطيها الشكوك في مسائل الخطبة، فلا يصح أن يروا شاباً يتحدث مع فتاة،
ولو لم تكن ماريا هذه أو أورورا تلك جافة مثل الحيوانات المتوحشة، ولو كانت تتحدث مع الأولاد بشكل طبيعي، فتضحك معهم حينما يتحتم الضحك، يا ويلها، فهذا عار وجنون. الشيء الوحيد الذي فعلاه، تحت ضوء النهار وفي وسط الشارع، هو حديثهما المتبادل لمدة دقيقتين. «من يدري ماذا يدبران»، هكذا تهمس السيدات العجائز والأقل عجزاً، وعندما يصل الكلام لآذان الآباء والأمهات يبدأ التوبيخ، من كان هذا، ماذا كنتما تقولان، لقد حذرتك، يقولون ذلك رغم أن قصص غرامهم الخاصة كانت جميلة، مثل قصة مانويل السيف وجراثيندا المنحوس، والتي لم نحكها كما تستحق. الآباء يتمتعون بهذه النقيصة، نقيصة النسيان السريع لكل شيء، والعادات تتغير بتأنٍ. ماريا أديلايدا تبلغ بالكاد التاسعة عشرة وحتى الآن لم تنعم بعمل، رغم أنها تعمل أعمالاً شاقة بالفأس في مزرعة عنب، ليس هناك طريق آخر، فالنساء لم يخلقن ليكنّ أميرات، كما برهنّا على ذلك في هذه القصة.
كل الأيام متساوية لكنها غير متشابهة. وفي منتصف الظهيرة، تصل للمزرعة أخبار تبث القلق بين العاملين، لا أحد متيقن مما حدث، «يقولون إن هناك شيئاً حدث مع العسكريين في لشبونة، سمعت ذلك في الراديو»، لو كان الأمر كذلك كان ينبغي معرفة الخبر بأكمله، قد يكون خطأ تصديق أن في مزرعة كروم بعيدة عن جهنم بسبعة أشبار من الممكن أن تجد الأحداث شرحاً كافياً، فالناس هناك لا يحفرون بالراديو في رقابهم كما لو كان جرساً صغيراً أو جُلجُلاً، أو يضعونه في جيوبهم فيصير جسداً متحدثاً ومغنياً، فكل هذا عبث غير مسموح به. الشخص الذي قال خبر الراديو كان عابراً وأخبر به مشرف العمل، ومن هنا جاءت البلبلة. وفي غمضة عين اختل إيقاع العمل، وصار إيقاع الفأس لهواً مخزياً، وماريا أديلايدا ليست أقل من الآخرين، فهي تلمع أذنيها وتستمع بفضول،

فتبدو مثل أرنب بري رأى جريدة، كما قد يقول خالها أنطونيو المنحوس، ماذا جرى، ماذا حدث، لكن مشرف العمل ليس موجوداً هنا ليمثل دور بشير الملك، ولا يتقاضى راتبه عن ذلك، بل عن مراقبة العمال وفرض النظام على الجموع. ماذا يا هؤلاء، هيا لتعملوا، وبما أننا ليس لدينا أخبار أخرى، عودوا للفأس واحفروا، ومن ينتبه لهذه الأحداث يتذكر داخل نفسه أنه منذ شهر خرجت قوات كالداس دا راينيا للشارع، وفي النهاية لم يحدث شيء. استمرت الظهيرة وانتهت، ولو وصلت أخبار جديدة ما قوبلت بتصديق. في هذا المكان من الوسية، البعيد جداً عن كارمو دي لشبونة، لم يسمع الناس رصاصة ولا يسير الناس صارخين في البوادي، لم يكن من اليسير فهم ما تعنيه كلمة ثورة ولا كيف تنشب، ولو بدأنا بشروحات الكلمة فأغلب الظن أن أحداً سيسأل، بانطباع من لا يصدق «آه، هذه ثورة».

ورغم كل شيء، سقطت الحكومة. وعندما تجتمع المجموعة في الثكنة، ثكنة المأوى والمسكن المدني لا ثكنة العسكريين، يكون الجميع مطلعا على الأحداث أكثر مما كانوا يتخيلون، فأصبح لديهم الآن على الأقل راديو صغير من هذا الذي يعمل ببطارية ويتحدث بصوت مشروخ ويصدر شوشرة، وعلى بعد شبرين لا يستطيع أحد أن يسمع شيئاً، لكن ما من مشكلة، فما يسمعونه يفهمون منه ما لا يسمعونه، وحينئذ انتشرت الحمى، وساروا جميعهم متوترين ويتحدثون كثيرا، «وماذا سنفعل الآن»، إنها اضطرابات كبرى وأشواق ومَنْ خلف الكواليس يعد نفسه ليدخل خشبة المسرح، وإن كان حقاً أن هناك مسرورين، فحقا أيضاً أن هناك حزانى لا يعرفون فيم يفكرون، ولو بدا ذلك غريباً لأحد، فليتخيل الوسية التي بقت بلا صوت ولا صواب وبعدها فليرو لي. دخل الليل، وفي النهاية شرحوا ما جرى، دوماً ما نجد شرحاً، إنه مجرد قول، فعادة نعرف ما وقع بعد وقوعه ولا نعرفه بمجرد الشروع فيه، هذه هي القضية. حينئذ قرر هؤلاء الجيران الذين كانوا برفقة ماريا أديلايدا، وهم زوج وزوجة وابنة، أصغر من ماريا، وكانوا يدعون عائلة جيرالدو، قرروا العودة في اليوم التالي لجبل لافري، وعلينا أن نقول إنها نزوة إن لم نقبل أسبابهم الوجيهة، كانوا يريدون البقاء في البيت، سيخسرون أجرة يومين أو ثلاثة، لكنهم سيطلعون على الأخبار بشكل أفضل، فمزرعة العنب كأنها صحراء، سألها عائلة جيرالدو إن كانت تريد العودة معهم، فقد كانت تحت مسؤوليتهم، «سيحب أبوك ذلك»، قالوا ذلك بلا أي قصد آخر، فالشيء الوحيد الذي يعرفونه يقيناً عن مانويل السيف أنه رجل طيب ويحب العمل، وبالنسبة للشكوك الأخرى، فهي شكوك طبيعية تحدث في القرى الصغيرة، حيث عادة ما يخمنون ما لا يعرفون. ثمة آخرون قرروا العودة لأراضيهم، ربما يذهبون ويرجعون، وآخرون كثيرون رحلوا وتحتم على المشرف التخلي عنهم، ما الحل! أسوأ ما في الأمر أنه في وسط الأخبار بحّ الراديو فجأة، سعال فظيع لم يسمح للمستمعين بفهم الكلام، اليوم بالذات كان يجب أن ينال منه الخراب. خلال هذه الليلة بطولها قامت الثكنة بتخيل الجزيرة المفقودة في بحر الوسية هذا، ببلد يحيط بها ولا يريد أن يذهب للسرير، مكدسا الأخبار والشائعات، الشائعات والأخبار، كما يحدث عادة في أحوال مشابهة، وليس أمامهم إلا انتظار ما يجود به الجهاز الخرب، ذهب كل إلى حصيرته، ونام منهم من استطاع.

في الصباح الباكر، خرج المسافرون إلى الطريق الواقع على بعد فرسخ من هناك، وكانوا يرجون القوى السماوية أن تقرر مرور حافلة خالية من الركاب، وعندما هلت الحافلة وجدوها خالية، لاحظ

ذلك المعتادون على ركوبها من غياب الرؤوس المتكدسة ومن بهجة السائق التي لا شرح لها. هذه الحافلة متجهة إلى فينداس نوفاس، تركبه فقط عائلة جيرالدو وبصحبتهم ماريا أديلايدا، ولم يرغب أن يصعد اثنان أو ثلاثة من جبل لافري أيضاً، ربما لأنهم لا يطلقون الصواريخ أو لأنهم لا يريدون الالتزام بشيء أو بسبب النقود، فقد يكونون في حاجة إليها أكثر من الآخرين. وبقي على الطريق من كان لهم قبلة مختلفة، ولم نعرف ماذا حدث لهم، ولا عن الخير الذي كانوا ينتظرونه وهل نالوه. كانت السيارات على الطريق معدودة، فصارت الرحلة سريعة، وتضاءل في الحافلة كل قلق وجزع، فهناك إجماع بين المحصل والسائق والركاب، لقد سقطت الحكومة، وانتهى توماس وانتهى مارسيلو، والآن، مَنْ يحكم؟ هنا بدأ الاختلاف العام، فلا أحد يعرف يقيناً، ثمة من يتحدث عن جمعية، لكن الآخرين يراودهم الشك، فجمعية ليست اسما لحكومة، جمعية قد تكون في الأبريشية أو من أجل منتجات المواشي، أو من أجل القمح، لا بد أن ثمة خطأً ما هنا. تدخل الحافلة فينداس نوفاس، ويبدو أنه يوم إجازة لازدحام الناس، فيضغط السائق الزمارة بأعلى صوتها لتفتح طريقاً للحافلة في الشارع الضيق، وعندما ندخل الميدان في النهاية، لا نعرف لماذا، نرى القوات بزيها العسكري، وتبث الخوف في الجميع، وماريا أديلايدا، لأنها شابة وتتصرف كمن في سنها ووضعها، كما لو قطعوا لها ساقيها، تنظر من نافذة الحافلة للجنود الواقفين أمام الثكنة وللمدافع المغطاة بغصون شجر الأوكاليبتوس، وآل جيرالدو يقولون «ماذا، ألا تأتين»، كانت كمن عاشت دائما بعينين مغمضتين والآن، أخيراً، تفتحهما، في البداية عليها أن تعرف ما الضوء، إنها أمور يسهل دائماً الشعور بها ويصعب شرحها، والدليل أنها عندما تصل لجبل لافري وتعانق أباها ستكتشف أنه كان يعرف كل شيء عن حياتها، رغم أنهم لا يتحدثون في البيت إلا بأنصاف كلمات ملثمة، «أين أبي»، «اضطر للسفر بعيداً لبعض المسائل، ولن يعود الليلة للبيت»، وعند عودته لا تتجرأ أن تسأله عن هذه المسائل، أولاً لأن البنات لا يسألن آباءهن، ثانياً لأن للحوائط آذاناً وعندما تكون الأسرار لا تخص البيت فمن الأفضل الاحتفاظ بها خارجه. يريد الراوي أن يروي أحداثاً أثناء حدوثها ولا يستطيع، فمثلاً، ماريا أديلايدا جالسة الآن في كرسيها بالحافلة، تبدو دائخة، وفجأة نجدها في الميدان، كانت أول من خرج، إنه الشباب. ورغم أنها تذهب مع آل جيرالدو إلا أنها لا تعيش تحت أجنحتهم، فهي مالكة لحريتها فتستطيع أن تعبر الشارع وتقترب لترى الجنود عن قرب، وتحييهم بإيماءة، وينتبه لها الجنود، ويحتوون على توتر من يرد بالسلاح وقد يضطر ليرد على التحية بالسلاح نفسه، وبانتهاء المعركة وتحقيق النصر واستتباب الأمن، يرد الجيش تحيتها، خاصة أنهم لا يرون كل يوم عيوناً بهذه الزرقة.

أثناء ذلك، ذهب جيرالدو الأب ليستأجر وسيلة مواصلات لجبل لافري، وهو مسعى شديد الصعوبة في الأيام الأخرى، لكن اليوم، من يستطيع أن يقول إنها كانت صعبة دوماً؟ فنحن في أرض أصدقاء حميمين، هنا يجدون عربة صغيرة ويسيرون ملتصقي الأجساد، لكن من يفكر في هذه المضايقات الطفيفة، فهذه قرية اعتاد أهلها على النوم فوق دكة ووسادتهم مقبض محراث، والأجرة ستكون ثمن السولار، أو حتى ولا هذا، «اقبلي بكوب»، «أقبل حتى لا تحتقرني»، ثم لو شرعت ماريا أديلايدا في البكاء لا تندهشوا، ستبكي هذه الليلة عندما تسمع في الراديو مقولة «فلتحيا البرتغال»، ربما تبكي في هذه اللحظة، وربما تكون قد بدأت بكاءها مع أخبار الأمس الأولى، أو عندما عبرت الشارع لترى الجنود عن قرب، أو عندما ردوا على تحيتها، أو عندما عانقت أباها، ولا حتى هي تعرف متى شرعت في البكاء تحديداً، ستنتبه إلى أن الحياة تغيرت وربما تكون هي

من قالت «كم كنت أتمنى أن يكون جدي...»، وتعجز عن إتمام عبارتها، إنه اليأس الذي لا علاج له.

لكن لا نظن أن كل الوسية تغني مديحاً للثورة. ولنتذكر ما قاله الراوي عن البحر المتوسط وأسماك البراكودة والأسماك الأخرى الخطيرة، ولنتذكر أيضاً السمك المرتدي زي الراهب وانكبابه المعتاد على العبادة. تجتمع كل عائلة لامبيرتو هوركيس في البلاط الملكي، أو تجلس حول موائدها المستديرة بجبين مقطب ونظرات مخيفة، وأقلهم عدوانية يطلق عبارات يعلوها الشك والحيطة، نعم، مع ذلك، لا يزال، مع كل، ربما، وهذا أعظم اجتماع في الوسية، «ما رأيك يا أب أجاميدس؟»، هذا سؤال عادة ما جاء مصحوباً بجواب، ودائماً الجواب يناسب الجميع، فحيطة الكنيسة لا نهاية لها، والأب أجاميدس، لكونه عبد الله الفقير المرسل للوسية لتنصير الأرواح، ولأنه يعرف كثيراً عن الحيطة والكنيسة، يقول «هذه الدنيا ليست مملكتنا، أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. لقد خرج المزارع للحقل»، فعندما يكون الأمر مشتبهاً فيه يخرج الأب أجاميدس كما الشعرة من العجين، يتحدث بالأمثال، فقط ليكسب الوقت حتى تأتي الأوامر من الأسقف، لكن يمكن أن نحكي عنه. من لا يمكن أن نحكي عنه، لسوء الحظ، هو لياندرو لياندرس، المتوفى منذ عام مضى، مات في سريره وقُدِس فيه كما يليق به، وعن خلفائه الكثيرين وشركائه وإخوانه أو رؤسائه نعرف أنهم هربوا، ومن لم يهرب اعتقلوه في البلد بأسره، وفي لشبونة حدثت مقاومة بالرصاص قبل استسلامهم، حصدت أرواحاً، وسنرى الآن ما سيفعلونه بهؤلاء. عن الحرس أيضاً نعرف القليل اليقيني، إن لم يُحتفظ به في طي الكتمان، وبطريقة لائقة وفي انتظار الأوامر، ذهب الأونباشي تباكو إلى بيت نوربيرتو ليقول بخجل الشيء نفسه، متقهقهراً كما لو كان عارياً، وعندما خرج، خرج بالطريقة نفسها التي دخل بها، بعينين مغروزتين في الأرض، باحثاً عن الوجه الذي سيرتديه عندما يعبر جبل لافري، أمام هؤلاء الرجال الذين ينظرون له ويتابعونه من بعيد، ليس لأنه خائف، فأونباشي الحرس الجمهوري لا يشعر أبداً بالخوف، بل لأن هواء الوسية صار فجأة لا يمكن تنفسه، يبدو أن عاصفة ستهب.

وحينئذ يبدأ الحديث عن الأول من مايو، إنه حوار يتكرر كل عام، لكنه الآن غبطة عامة، والناس تتذكر أنهم حتى العام الماضي كانوا يمشون مختبئين من هنا ليتفقوا وينظموا، وكانوا يعودون اضطرارياً إلى البداية باستمرار، فيتصلون بمن هم أهل ثقة ويحمسون المترددين، ويهدئون من فزع الخائفين، وحتى الآن ثمة من لا يصدق أن عيد الأول من مايو يمكن الاحتفال به علانية كما تقول الجرائد، كلما تكون الصدقة كبيرة يرتاب فيها حتى الفقير. «لكن هذه ليست صدقة»، يقول سيجيسموندو كاناسترو ومانويل السيف، وتُفرد جريدة من لشبونة «إنه هنا مكتوب، سيمكن الاحتفال بالأول من مايو بكل حرية، حيث أنه يوم عيد في البلد بأسره»، «وماذا عن الحرس؟» يلح أصحاب الذاكرة القوية «الحرس هذه المرة سيظل يتفرج علينا ونحن نمر»، من كان يصدق أن ذلك سيحدث ذات يوم، الحرس ساكن وصامت، بينما أنت تصيح فليحيا الأول من مايو.

ولأننا نضع فوق المسموح به ما نتخيله دائماً، وإلا ما كنا رجالاً نستحق أكل الخبز، بدؤوا في قول إن على الجميع أن يفرد مفارش الأسرّة في النافذة ويضع زهوراً، كما لو كان يوم خروج رب

الخطوات إلى الميدان، وبعد قليل كنسوا الشوارع ودهنوا الواجهات بالجير، ما أسهل الصعود على سلالم الفرحة. مع ذلك، كل الدراما الإنسانية هكذا، قد تكون مبالغة تسميتها دراما، لأنها بلا شك ارتباكات، والآن ماذا سأفعل أنا وليس عندي في البيت مفارش أسرّة ولا حدائق قرنفل وورود، ولا فكرة عن هذه الفكرة. لماريا أديلايدا نصيبها في هذا القلق، لكن لكونها شابة ويفيض منها الأمل، تقول لأمها إن عليهم أن يفعلوا شيئاً، فلو لم يكن لديهم مفارش أسرّة فليفردوا مفرش منضدة مكانه، قماشاً غاية في البياض يعلقونه على فتحة الباب، علم السلام في الوسية، قد يكتشفه باحترام رجل مدني عابر، ولكونه من الحرس أو العسكريين الراسخين سيؤدي تحية عسكرية فيما يقيمون حفل تكريم أمام باب مانويل السيف، العامل والرجل الطيب. ولا تشغلي بالك بالزهور، يا ست الحبايب، فأنا سأذهب لبئر أميرو لأبحث عن زهور برية تغطي في شهر مايو الوديان والتلال، ولأن أشجار البرتقال قد ازدهرت، سأحضر معي غصوناً وبهذا سيكون بيتنا نافذة مزينة كشرفة في قصر، فلن نكون أقل من الآخرين، لأننا نساوي الكثير.

هبطت حينئذ ماريا أديلايدا إلى منطقة البئر، دون حتى أن تعرف لماذا اختارت هذا المكان بالتحديد، فلو كان كما قالت لكونه مليئاً بالزهور التي تغطي الوديان والتلال، ستسير من الطريق بين الحواجز، ومن هناك يكفيها أن تمد يدها، لكنها لم تفعل ذلك. إنها قرارات قديمة تسري في دمها، في هذا المكان الرطب لا يمكن حصد إلا الزهور والسرخس الغزير، وبعيداً في أرض مستوية حيث تسطع الشمس كاملة، «لا أريد زهوراً برية»، ثمة زهور قد تغير اسمها منذ حمل أنطونيو المنحوس غصناً إلى بنت أخته ماريا أديلايدا في يوم ميلادها. للصبية حركة ذراع ناضرة، كوكبة من شموس ذات قلب أصفر، الآن ستعاود صعود الطريق، ستمضي قاطفة غصون البرتقال المزدهرة من فوق السور، لكنها تشعر فجأة بإنهاك، «لا أعرف ما أشعر به، أنا لست مريضة، ففي حياتي كلها لم أشعر أني أفضل من اليوم، ولا أسعد من اليوم، أيكون الألم ناتجاً عن هذا الغصن الذي أحتضنه في صدري، أحتضنه، بكل عنف عذب أحتضنه، أضمه إلى صدري». جلست ماريا أديلايدا على سور البئر، كما لو أنها في انتظار أحد. كان حجرها مليئاً بالزهور، لكن لم يظهر لها أحد.

إنها حكايات جميلة تلك المرتبطة بالينابيع المسحورة، بالنساء العربيات اللاتي يرقصن على ضوء القمر، والنساء المسيحيات المعتدى عليهن يتأوهن فوق السرخس، من لم يقدّر هذه الحكايات فقد ضاع منه مفتاح قلبه، وهذا أقل ما يوصف به. لكن، بعد مرور أبريل ومايو بقليل، تعود للوسية الصرامة المعروفة، ليست صرامة الحرس والبوليس السياسي، فالثاني قد انتهى والأول يسكن داخل ثكنته ويراقب الشارع من نافذة مغلقة، أو، عندما يضطر للخروج وهذا يحدث فقط لأشد الضرورات، يمشي بجانب الحائط، فلا من رأى ولا من درى. الصرامة التي أتحدث عنها هي صرامة الآخرين الذين اعتادوا عليها، يجب أن نراجع ما قرأناه ونعيد ما قلناه «كان القمح في الأرض ولم يحصدوه، لم يتركوهم يحصدوه»، الحصاد غزير، وعندما يذهب العمال ليطلبوا عملاً «لا يوجد عمل»، ما معنى هذا، أي تحرر هذا، ستنتهي الحرب في أفريقيا ولن تنتهي في الوسية. لقد تحدثوا كثيراً عن الرقصات الكثيرة والآمال الكبيرة، وخرجت القوات من كتائبها وتوجوا المدافع بغصون الأوكاليبتوس والقرنفل النفاذ، قولي القرنفل الأحمر، يا سيدتي، قولي الأحمر،

فالآن نستطيع أن نقولها، فالراديو والتلفزيون يدعوان للديمقراطية والمساواة، وأنا أريد أن أعمل ولا أعرف أين، مَنْ يشرح لي ما هذه الثورة. الحرس يتمطون في الشمس مثل القطط عندما تسن مخالبها، أخيراً، قانون الوسية ما زال كما هو حتى يطبقه الأفراد نفسهم، أنا مانويل السيف، أنا أنطونيو المنحوس، أنا سيجيسموندو كاناسترو، أنا جوزيه ميدرونيو صاحب العاهة المستديمة في وجهي، أنا جراثيندا المنحوس وابنتي ماريا أديلايدا التي بكت عند سماعهم يصيحون «تحيا البرتغال»، وأنا رجل أو امرأة من الوسية، وريث فقط لعدة العمل، إن لم يستهلكوها قبلي أو يقسموها كما استهلكوني أنا وقسموني، عاد الحزن إلى حقول إلينتيجو، وسيعود سفك الدم من جديد.

«سنرى في النهاية من الأقوى، فإن لم نمنحهم عملاً سيتكفل الزمن الذي يمر ببطء أن يعيدهم إلينا ليأكلوا ما في أيدينا»، هكذا يقول نوربيرتو لـ كلاربيرتو، وهي كلمات يغلفها الازدراء والحقد، يقولها ظِلٌ حبيس في قوقعته المنزلية من كثرة خوفه وهو محاط بالصمت لبرهة، ملحفاً زوجته وأقاربه بأخبار الثورة المخيفة التي كانت تأتي من لشبونة، كل الناس في الشوارع، مظاهرات ضد كل شيء ولا شيء، أعلام، والشرطة مضطرة لتسليم السلاح، يا لهم من مساكين، إنها إهانة كبرى لنشاطات هيئة قدمت خدمات كثيرة وربما ما زالت تقدم، لكن ما يحدث مثل أمواج البحر، لا يمكن أن تواجهها ببدن مشدود، فذلك يبدو شجاعة لكنه في الحقيقة حماقة، أعط للموجة ظهرك وستمر دون أن تؤذيك، انزلقت الموجة ولم تجد من تضربه، والآن نعم، تجاوزتَ نقطة الاندفاع، الرغوة والتيار، إنها مصطلحات صائد سمك، لكن كم مرة سنحتاج إلى أن نقول إن الوسية بحر داخلي، فيه البراكودة والضاري والأخطبوط الكبير، ولو كان لديك عمال اطردهم، ابق وحدك مع الرجل الذي يرعي الخنازير والنعاج، وحارس المزرعة، حتى لا يفقدوا احترامهم لك.

نحن نعرف بالطبع مصير الغلال: مفروشة في الأرض، ويقترب موسم الزرع، ماذا سيفعل جيلبيرتو، هيا نسأله في بيته، نحن نعيش في بلد حر ومن حقنا جميعاً أن نتحاسب «قل لسيدك إن هناك بعض الأفراد الذين يريدون معرفة ماذا سيحدث، فقد تساقطت الأمطار الأولى وحان موسم الزرع»، وبينما ذهبت الخادمة لتعرف الرد، بقينا نحن على الباب، فلم يدعونا للدخول، وتعود الخادمة بوجه مكفهر، أتمنى ألا تكون هذه إميليا المنحوس التي تحدثنا عنها في هذه القصة، وتقول «السيد أمرني أن أقول إن الأمر لا يعنيكم، فالأرض أرضه، ولو عاودتم المجيء سيطلب لكم الحرس»، وبمجرد أن أنهت كلامها أوصدت الباب في وجوهنا، معاملة سيئة لا تليق حتى بصعلوك، فالصعاليك يخبئون مطواة يموت منها هؤلاء خوفاً. الأمر لا يستحق أسئلة أخرى، جيلبيرتو لن يزرع، نوربيرتو لن يزرع، وإن زرع أحد باسم آخر سيزرع خوفاً من القوات أن تأتي وتسأله «قل لنا ماذا يجري هنا»، لكن ثمة طرق أخرى لقتل هذا الذباب، مثل قول اتفقنا، رسم ابتسامة على الشفايف وإظهار النية الطيبة. يا رجل، لم لا، هذا يسرنا، وفي النهاية فِعل عكس ما يقولون، وتدبير المكيدة، يسحبون النقود من البنك ويهرّبونها للخارج، وهناك من يتكفل بفعل هذا مقابل عمولة معقولة، وهم كثيرون، أو يصنعون بعض المخابئ في سياراتهم، ويغمض حرس الحدود عيونهم، إنهم مساكين، لن يضيعوا الوقت في الرقود تحت السيارة، فهم ليسوا صبية ليفعلوا ذلك، أو يدسونها تحت معاطفهم، إنهم موظفون يستحقون التقدير، يجب أن يحتفظوا بالزي الرسمي نظيفاً، وهكذا يهربون خمسة ملايين، أو عشرة، أو عشرين، أو مجوهرات العائلة، الفضة والذهب،

أو ما يرغبون، دون أي جلبة. إنهم جهال ولا حل لهم هؤلاء الأجراء الذين ما إن رأوا شجر الزيتون طارحاً، أسود وناضجاً ولامعاً كأن سائله يرشح، حتى مضوا يحصدونه بعد أن فكروا كثيراً وقرروا، كيف يكون، ماذا سنفعل، وبعد حصده أخذوا منه اليومية التي تناسبهم طبقا لأجرة الفترة وسلموا الباقي لصاحب الوسية، «من سمح لهم بهذا»، الحمد لله أن لم يعبر من هناك أحد الحرس، وإلا كان سيطلق عليهم رصاصة حتى يتعلموا ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم. «يا صاحب الوسية، لقد نضج شجر الزيتون وكان يجب حصده، لو انتظرنا أكثر من ذلك لفقدناه، وها هو الزيتون الذي تبقى بعد أن أخذنا نصيبنا، وها هو نصيبنا من الزيتون مقابل العمل، ومن السهل تصفية الحسابات». «لكني لم أسمح بذلك، ولن أسمح حتى لو طلبوه مني». «لكننا قررنا الحصاد». وكانت هذه الواقعة دليلا على أن الزمن تغير، لكن كيف كانوا سينقذون ثمار الأرض لو أمر أدالبيرتو بمرور الماكينات فوق الغلال، لو أدخل أنجيليبرتو المواشي في الزرع، لو أشعل أنسبيرتو النار في القمح. البعض يضيع القمح والبعض الآخر يعاني من الجوع المميت.

ومن أعلى نقطة في برج التكريم، وبيدي محارب وغازٍ متكئتين على الشرفة، يدان صلّبهما مقبض السيف، تأمل نوربيرتو عمله ووجده على ما يرام، وكما تاه في حساب الأيام، لم يسترح. «يستطيع شياطين لشبونة أن يدمروا الإرث الذي تركه لنا أجدادنا»، هنا في الوسية نحترم الوطن المقدس لأقصى حد وكذلك العقيدة بشكل مختلف، يأمر الشاويش أرمامينتو بالدخول «الأمور تسير على ما يرام»، يأمر الأب أجاميدس بالدخول «يا أب أجاميدس، منظرك في غاية الجمال، يبدو أنك استعدت شبابك»، «ربما من كثرة صلواتي من أجل صحة سعادتك والحفاظ على أرضنا»، «أرضي، يا أب أجاميدس»، «معك حق يا سيدي، أرض سعادتك»، هذا ما يقوله أيضاً السيد شاويش الحرس «بالضبط، كانت هذه هي الأوامر التي تلقيتها من السيد جوان الأول ونقلتها دون تغيير لكل أجيال الشاويشية». وبينما كانوا يتحدثون هكذا في البيت، جاء الشتاء وقرص الأجراء، وليس لأنهم قد اعتادوه يتحتم ألا يشعروا به «ماذا سنفعل، إنه البؤس نفسه الذي عانيناه من قبل»، «السادة هم أصحاب
الأرض وأصحاب من يعمل فيها»، «نحن أقل من كلاب البيت الكبير والبيوت الكبيرة، فالكلاب تأكل كل يوم، يضعون أمامها القدر ممتلئاً، لا أحد يترك الحيوان يموت جوعاً»، «من لا يعرف أن يعامل الحيوان، فأجدر به ألا يملكه»، «لكن مع الرجال الأمر مختلف، فأنا لست كلباً وبالتالي لم آكل منذ يومين، وهذه المجموعة من الرجال القادمين ليتحدثوا يشبهون سرب كلاب الصيد، منذ فترة لم ننبح، وفي يوم من هذه الأيام سنصمت ونعض، كما يفعل النمل الأحمر، فلنتعلم منه، إنه هذا النمل الذي يرفع رأسه مثل الكلاب، انتبه لقرصته، لو لم تكن يدي خشنة ومتصلبة من مقبض المنجل، لنزفت».

قول تردده الألسنة بلا اقتناع: الدواء الذي يسكّن لا يداوي. وبالتالي، سيان بالنسبة لي أن أستعد أم لا، فعلى سبيل المثال، هؤلاء يعملون وماذا يستفيدون من عملهم، يأتي المشرف بوجه وقح ولا يهمه أن يداري وقاحته ويقول «هذا الأسبوع لن تتقاضوا أجركم، الصبر، الصبر، الأسبوع المقبل قد تتقاضونه»، ويؤدي السيد جوان الثاني والسيدة ماريا الأولى دويتو غنائي بحركة في الجيب، وبعد أسبوع يقول الشيء نفسه، ومن يقول بعد أسبوع يقول بعد اثنين وثلاثة وأربعة وستة، أما عن

النقود فلا يرون ظل رائحتها. «المالك ليس معه سيولة، والحكومة لا تسمح بسحب نقود من البنك»، لا أحد يستطيع أن يصدق ما يقوله هذا المشرف، إنها قرون من الكذب لا يمكن لأحد حتى أن يتخيلها، لكن على الحكومة أن تأتي هنا لتشرح هذا، فلا فائدة من كتابته في الجرائد التي لا تفهمها الناس، وفي التلفزيون تمر الأخبار سريعة كالبرق، وقبل أن نستوعب كلمة تأتي مائة، ماذا كانوا يقولون، وفي الراديو لا نرى وجوه من يتحدث، لا أستطيع أن أصدق شيئاً مما يقال إن لم أر الوجه.

وحينئذ في مكان ما في الوسية، وستذكر الحكاية ما اسمه، احتل العمال مزرعة. لا لشيء إلا العمل، وليصبني الجذام في يدي اليمنى إن كنت أكذب. ثم في مزرعة أخرى دخل الأجراء وقالوا «جئنا لنعمل». وما حدث هنا، حدث هناك، كما يحدث في الربيع، تتفتح معاً زهرات المارجريت في الحقل، وإن لم تتفتح تذهب ماريا أديلايدا في الحال لتقطفها، آلاف من المارجريت يولد في يوم واحد، أيهما تفتحت أولاً، كلها زهرات بيضاء وتنظر للشمس، مثل عرائس هذه الأرض. لكن بياض العرائس ما صار بياضاً، صار منطفئاً، وتتناثر مساكن النمل في الوسية، الأرض مليئة بالسكر، أبداً لم نر من قبل هذا العدد الهائل من النمل برأس مرفوع، «جاءتني أخبار سيئة من أبناء أعمامي وأقارب آخرين، يا أب أجاميدس، يبدو أن صلواتك لم يستجب لها الرب، وبعد أن وصلت إلى هذا العمر أرى هذه النكبة الكبرى، إنه اختبار كان مدخراً من أجلي، أن أرى أرض أجدادي في يد هؤلاء اللصوص، تأتي نهاية العالم عندما يُعتدى على الملكيات الخاصة، إنه مبدأ إلهي ودنيوي لحضارتنا المادية والروحية»، «تقصد أن تقول مبدأ علمانياً، فعلماني أشد دقة من دنيوي، معذرة على تصحيحي لك»، «لا، فلتكن دنيوياً، فهم يقدسون ما هو دنيوي، وسترى أن الشيء نفسه يحدث في سانتياجو دو اسكورال، إنها جريمة يجب أن يدفعوا ثمنها ذات يوم»، «كنا نتكلم عن هذا بالأمس، ماذا سيكون حالنا»، «يجب أن نكون صبورين، يا سيدة كليمنتيا صبراً لا حدود له، فمن نحن حتى نتدخل في حكمة الرب وفي طرقه الوعرة، إنه الوحيد الذي يعرف الكتابة المستقيمة فوق سطور معوجة، فمن يدري ربما ينقص من مقدارنا اليوم حتى يرفع غداً شأننا أضعافاً مضاعفة، ومن يدري فربما بعد هذا العقاب لا يأتي جزاء الأرض والسماء، كل يأتي في موعده وفي مكانه، أمين».

بكلمات مختلفة لكنها تحمل المعنى نفسه، شرح لامبيرتو للأونباشي تباكو ظل الصورة العسكرية المعروفة «يبدو مستحيلاً، كيف يشهد الحرس هذه الأحداث الفظيعة، كيف يتركهم يغزون الوسايا التي واجبهم الدفاع عنها من أجلي، دون أن يتحركوا قيد أنملة، دون أن يطلقوا رصاصة، ولا حتى يركلونهم ولا يسددون لهم لكمة، ولا حتى ركلة، ولا يحرضون كلبا على بناطيل هؤلاء الصعاليك، إذن فما فائدة الكلاب الغالية، المستوردة، ألا ندفع من أجل هذا ضرائبنا التي بدوري توقفت عن دفعها لأنها ستذهب للخراب، أنا سأسافر للخارج، للبرازيل، لإسبانيا، لسويسرا التي تتمتع بحيادية هائلة، أو إلى أي مكان، لكن بعيداً عن هذا البلد الذي يخزيني». «مع حضرتك كل الحق، يا سيدي لامبيرتو، لكن الحرس الذي أنا أونباشي فيه صارت أياديه مقيدة، فماذا سنفعل نحن دون أوامر، لقد تعودنا على الأوامر والآن لا تأتي كما تعودنا عليها، وأستطيع أن أقول لحضرتك بصراحة، فحضرتك محل ثقة، إن القائد العام للحرس يتفق مع الأعداء، أعلم عن يقين أني أكسر الانضباط

عندما أتحدث هكذا، لكن ربما ذات يوم يرقوني شاويشاً، وحيئذ سيدفعون الثمن مجتمعاً وبالفوائد، أقسم لك على ذلك، يا سيد لامبيرتو». إنها تهديدات بلا اقتناع، ليست علاجاً لكنها تريح الصدر، وأثناء ذلك علينا أن ننسى الرياضة الصباحية، تعليمات السلاح، «كيف حال قلبي، يا دكتور»، «مختل»، «الحمد لله».

لا تتوقف الأمواج ذهاباً وإياباً في بحر الوسية الداخلي. ذهب مانويل السيف ذات يوم ليتحدث مع سيجيسموندو كاناسترو، والاثنان بحثا عن أنطونيو المنحوس، والثلاثة بحثوا عن جوستو كانيلاس، «علينا أن نتحدث»، ثم جاء الدور على جوزيه ميدرونيو، واكتملوا ستة بحضور بيدرو كالساو، وكان الأخير هو أول من بادر بالحديث. في الاجتماع الثاني
زادوا أربعة أصوات، رجلان: جواكيم كاروسو ومانويل مارتيلو، وامرأتان: إميليا بروفيتا وماريا أديلايدا السيف، وهو الاسم الذي تفضله، وكلهم في الخفاء تكلموا، ولأنهم كانوا يحتاجون إلى من يرد عن المجموعة، فقد اختاروا مانويل السيف. في الأسبوعين التاليين تجول الرجال في الوسايا كمن لا يريد شيئاً، وباتباع منهج قد اتفقوا عليه كانوا يتركون شعارات، شعاراً هنا، شعاراً هناك، ويتناقشون ويستقرون على خطة، فلكل واحد منهم معاركه، ولا نأخذ هذه الكلمة على محمل السوء. وقرروا بعد ذلك الدخول في المرحلة الثانية، وهي دعوة مشرفي الوسايا التي كانت تعمل، ويقولون، في ليل هذا الصيف القائظ «غداً، في الثامنة، كل الأجراء، أيا كان مكانهم، يركبون العربات ويتجهون لوسية مانتاس، سنحتلها، وبالاتفاق مع المشرفين، لقد تحدثنا معهم واحداً واحداً، ونبهنا الكثيرين ممن ذهبوا كجنود أساسيين في هذه المعركة، وقد ذهب كل واحد منهم لينام نومته الأخيرة في السجن».
هذه شمس كما يقول الكتاب؛ تحرق وتلهب جدامات القمح الجافة، بعظمها البني المغسول أو الخشن، المتبقي من زرعة قديمة ومضطرمة من الحر القائظ والمياه غير المعتدلة. تحتشد الماكينات من كل أماكن العمل، إنها مدرعات تتقدم، آه من هذه اللغة الحربية، من يستطيع أن ينساها، إنها جرارات تتقدم، تسير ببطء، يجب أن تكون على اتصال بالجرارات المنحدرة من أماكن أخرى، قد وصلت بالفعل، تصرخ من جانب وآخر، والطابور يصير أكبر وأكبر وتشتد قوته، تسير الجرارات محملة، بينما هناك من يمشي على قدميه، إنهم الأجراء الأصغر سناً، وهذا بالنسبة لهم نزهة، ويصلون إلى وسية مونتاس، هنا نجد مائة وخمسين رجلاً ينتزعون الفلين، ينضمون للآخرين، وفي كل وسية يحتلونها تبقى مجموعة قائدة، الصف الآن يتكوّن من أكثر من خمسمائة رجل وامرأة، ستمائة، وسريعاً ما يصلون إلى ألف، إنه عيد مقدس، حج يقام في طرق الاستشهاد، خطوات في طريق آلام المسيح.

بعد مانتاس يتوجهون إلى وادي دا كانسيرا، إلى ريلفاس، إلى جبل دا أربيا، إلى فونتي بووكا، إلى سيراليا وبيدرا جراندي، يأخذون مفاتيح جميع الوسايا ويقومون بجردها، «نحن عمال، لم نأت لنسرق، لا أحد هنا يقول عكس ذلك، فكل الأماكن التي تجولنا فيها واحتللناها، من جبال وبيوت ومطامير وزرائب واصطبلات ومتابن وحظائر وأكواخ وأحواش وزرائب خنازير وعشش دجاج، لم نجد فيها لا نوربيرتات ولا جيلبيرتات، أين ذهبوا، الله أعلم». الحرس لا يخرج من نقطته، والملائكة تكنس السماء، إنه يوم الثورة، كم عددهم؟

تتنزه الحدأة وتشدو، عددهم ألف من دون عد غير المرئيين، فالعمى قدر الأحياء الذين لا يدركون كم فرداً قام بالثورة، ألف حي ومائة ألف من الموتى، أو مليونان من التنهيدات التي تنهض من الأرض، أي عدد سيكون صحيحاً، وكله سيكون صغيراً لو جمعناهم من بعيد، الموتى يطلون من الدرابزين، ينظرون للداخل باحثين عن أحد يعرفونه، عن أكثر الأقربين قلبا وقالبا، وإن لم يجدوا من يبحثون عنه، ينضمون إلى من يسيرون على أقدامهم، إنه أخي، أمي، زوجتي، زوجي، لهذا فمن الطبيعي أن نتعرف على سارة، ها هي تسير، تحمل زجاجة نبيذ وقماشة، ودومينجو المنحوس، بطرف حبله حول رقبته، والآن يعبر جواكيم كارانكا الذي مات جالسا على باب بيته، وتوماس السيف الذي أمسك أخيراً بيد زوجته فلور مارتينيا، كم تأخرتِ، كيف لا ينتبه هؤلاء الأحياء، أيعتقدون أنهم وحدهم، يسيرون في مشاغلهم كأناس أحياء، عندما يموت الواحد منا يدفنونه، هذا هو ما يعتقدونه، لكن الموتى يأتون مرات كثيرة، الآن بعضهم وفي وقت آخر بعض آخر، لكن هناك أيام، وهي أيام قليلة بالطبع، يخرجون فيها جميعهم، ومن يستطيع أن يحبسهم في قبورهم الخاصة عندما تتحرك الجرارات في الوسية والشعارات لا تتوقف، مانتاس، بيدرا جراندي، وادي دا كانسييرا، جبل دا أرييا، فونتي بووكا، وجوع كثير، سيراليا، لا يرحل أحد للجبل الفقير والوادي الفقير، وهنا في ثورة الطريق هذه يمكث جوان المنحوس باسماً، ربما ينتظر أحداً، أو ربما لا يستطيع الحركة، فقد مات بقدمين مشلولتين، ربما لهذا نتقدم للموت بكل عيوبنا وآخرها، لكن من الخطأ أن نفكر هكذا، لقد عادت لجوان المنحوس قدما صبي والآن يتقافز، إنه راقص يطير، وسيجلس بجانب عجوز صماء في غاية العجز، فاوستينا زوجتي يا من أكلتِ معي خبزاً ولحماً ذات ليلية شتوية وبللتِ تنورتك، أشواق لا نهائية.

يريح جوان المنحوس ذراعاً لها دخان غير مرئي على كتف فاوستينا، التي لا تسمع شيئاً ولا تشعر به، لكنها تشرع بمرح في غناء لحن لرقصة قديمة، إنه الجزء الخاص بها في الكورال، تتذكر الزمن الذي كانت فيه تراقص زوجها جوان المتوفى منذ ثلاث سنوات، «فليسترح في جنة الخلد»، هذا حكم فاوستينا الخاطئ الذي لن تستطيع معرفته. وناظرين من أعلى نقطة، بمحاذاة الحدأة، نستطيع أن نرى أوجوستو بينتيو الذي مات مع بغلتيه ذات ليلة في موسم الزرع، وخلفه، ربما ممسكة به، زوجته ثيبريانا، وأيضاً الحارس جوزيه كالميدو القادم من أراض أخرى ومرتدياً ملابس مدنية، وآخرون لا نعرف لهم اسماً، لكننا نعرف حياتهم. يسيرون جميعاً، الأحياء والأموات. وأمامهم، متقافزاً والطريق ممهد له، يسير الكلب ثابت، فكيف يغيب في يوم أساسي كيوم الثورة.